السلاسل والنظائر

الجزء الأول

د. محمد أحمد المبيض

تقديم :

الحمد لله رب العالمين ، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، ثم أما بعد :

هذه مجموعة من السلاسل والنظائر كنت قد أنزلتها في مدوناتي ، وهي عبارة عن جزئين ، وهي سلاسل مليئة بالأسرار ، وتعيننا كثيراً على فهم القرآن الكريم ، والاستبصار من خلاله ، وقراءة واقعنا قراءة جديدة ، وكل سلسلة تصلح كنواة لكتاب مطول ، لكن هذه بداية الجهد ، وفي هذه السلسلة مدرسة متكاملة تؤسسك على فهم السنن الربانية من جهة ، وعلى فهم بعض الإشارات القرآنية التي لم يسبق إليها أحد قبلي بحدود علمي كمسالة سر المنسك الأعظم ، وفيها لطائف تفسيرية متنوعة ، وقد جمع هذه السلسلة أحد طلبة العلم من مدوناتي في ملف واحد، ووضع لها فهرساً في آخرها ، فآثرت مشاركتها هنا على شكل كتاب مكتمل ... وأهم ما في هذه السلسلة هو أنها تتضمن مفاتيح كثيرة للعلم ، خاصة لطلبة العلم النجباء ، أسأل الله القبول وأنصح طلبة العلم بطباعة الملف بملف ورقي فهو أدعى للحفظ والانتفاع به بشكل أفضل .

المؤلف

د. محمد أحمد المبيض

بصائر من القرآن

القرآن... والأبعاد اللامتناهية

"إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ" [الواقعة٧٧].

الكرم يتضمن معنيين: الأول ذاتي، بمعنى أن القرآن الكريم نفيس في ذاته، عظيم في صفاته. نقول: كرم الجوهر أي كان نفيسًا ثمينًا. والقرآن أنفس شيء، وأعظمه في الوجود الإنساني؛ لما فيه من دلائل الخير وكوابح الشر، ولما يرشد نحو المعالي، ويجنب صاحبه الهلاك والتردي في الدنيا والآخرة.

والحقيقة لا يدرك هذا النوع من الكرم في القرآن الكريم إلا من كان صاحب دراسة لعلوم أهل الكتاب وكتبهم المقدسة، وكانت لي تجربة واسعة مع هذه الكتب، سواء ما يعرف بالعهد القديم أو الجديد عند اليهود والنصارى، ووجدت عظمة

التحريف عندهم، لدرجة زاد فيها يقيني بعظمة النعمة التي بين أيدينا (القرآن)، بل بعظمة ونفاسة كل حرف فيه. وكيف لا يكون نفيسًا عظيمًا وهو كلام العظيم.

أما المعنى الثاني للكرم: فهو العطاء والجود، والكريم هو الذي يجود بما عنده للآخرين. وهكذا القرآن الذي لا تنتهي عجائبه، كلما طلبت منه يعطيك. وإذا تدبرته يعطيك، بل يعطيك أكثر مما تتصور: من أراد الدنيا فعليه بالقرآن، ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أرادهما جميعًا فعليه بالقرآن. في كل الأحوال يعطيك عطاءً لا ينفد أبدًا.

لذا من أوصافه أنه لا تشبع منه العلماء، وكيف يشبعون وهم في كل لحظة يجدون فيها القرآن غضًا طريًا، كأنه نزل لتوه من السماء. القرآن الكريم يحكي الماضي والحاضر والمستقبل، ويخاطب كل روح إنسانية في الكون على حدة، ويعطي الجميع في ذات اللحظة من خلال معاني وأبعاد لا متناهية من الدلالات، التي تفوق أفهام البشرية إلى يوم القيامة...

بل العجيب أن القرآن يخاطبك حتى وفق أحوالك وظروفك، فتستمع لآيات أو تقرأها في لحظات تكون أحوج ما تكون إليها، وكأنها أنزلت لتوها؛ لتعالج حالتك أو ظرفك الخاص. لماذا؟ لأن القرآن مطلق، والمطلق لا يمكن حصر دلالاته...

إنه كلام من قال: "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا في صعيدٍ واحد، ثم طلب كل واحد منكم مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا..."، وهكذا القرآن يعطي الجميع ولا ينقص شيئًا، إنه كريم من الكريم، فسبح باسم ربك العظيم.

*****

مهمة ملائكية خاصة

في حدود علمي أن القرآن الكريم لم يتكلم عن مهمة ملائكية خاصة، تضمنت في ذات الوقت بشارة ونذارة إلا في قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، بل المعهود في القرآن أن العقاب للأمم كان ينسب لله مباشرة، كما في قصة نوح وصالح وهود وغيرهم عليهم السلام، لكن في قصة لوط عليه السلام اختلف الأمر.

وقد فصل القرآن الكريم القصة في أكثر من موضع أهمها في سورتي هود والذاريات، أقتصر على موضع واحد هنا للاستشهاد، وأبرز بعد ذلك ملاحظاتي، يقول الله سبحانه وتعالى: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٢٨ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٢٩ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٣٠ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ٣٣ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٣٧" [الذاريات].

هذه الآيات تتحدث عن هذه المهمة العجيبة في عناصرها وأحداثها، ملائكة تحمل مهمة من شقين: الأول الذهاب إلى إبراهيم عليه السلام على شكل ضيوف غرباء، ثم بعد ذلك يتضح أمرهم لإبراهيم عليه السلام، فيبشروه بأمر غير معهود وهو الولد بعدما أصبح هو وزوجه في سن لا يصلح معها الإنجاب، بل زوجته عقيم.

هنا تجلت الحكمة الإلهية الذي يقول للشيء كن فيكون، سواء توافقت الأسباب أو امتنعت، لذا لا عجب من أمر الله لأن الأمر كله مرده إلى الله، وفي سياق بعض الآيات تمت الإشارة إلى عملية إصلاح للزوجة سارة لكي تقوم بالمهمة، إذًا هناك عملية إصلاح بأمر إلهي: "وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ" هذه هي المهمة الأولى.

أما المهمة الثانية وهي أعجب من الأولى؛ فكانت حين سأل إبراهيم الرسل الملائكي عن خطبهم؛ حيث دلائل الحال تشير إلى أنه انتبه إلى تعجلهم في أمرهم أو ما أشبه، فكانت الإجابة أنهم مكلفون بمهمة أخرى وهي إهلاك قوم لوط برجم سماوي، وهنا التكليف أسند للملائكة، وبالفعل ذهبوا إلى لوط كضيوف، وبشكل غير معهود ساء به لوط نفسه عليه السلام، ثم كان العقاب الرباني لقوم لوط بالرجم من السماء.

هذه المهمة المزدوجة للملائكة إصلاح من جهة وبشارة، وعقوبة من جهة أخرى تكون الملائكة عنصر حيوي فيها، هذه المهمة أظن أنها ستتكرر لكن مع اختلاف الشخوص والأمكنة...

ولعلها المهمة التي أشارت إليها سورة النحل التي بدأت بقوله سبحانه وتعالى: "أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ"، ثم بينت عظمة النعمة الإلهية وغرور الماكرين وجهودهم وعظمة مكرهم، وركزت السورة على بين أنواع من العقوبات لأهل الكيد والمكر، وختمت بطلب الصبر لأن المعية الإلهية مع أهله المتقين المحسنين.

وفي ثنايا السورة جاءت الآية التالية: "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" [النحل٣٣]، هذه كلمات كتبتها سيمر عليها البعض مرور الكرام، لكنها تحمل مدلولات واسعة والأيام كفيلة ببيانها.

*****

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ

هذه الكلمات هي الخلاصة التي توقعها إبليس من جهوده الإغوائية لبني آدم، وبالفعل وقع ما ظنه إبليس، وكان القليل فقط هم من ثبتوا على منزلة الشكر لله، يقول الله ﷻ: "وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ". لكن السؤال الذي يتبادر إلى ذهني هنا هو: لماذا إبليس ركز على موضوع الشكر؟

في ظني أنه السبب ذاته الذي جعل أم القرآن تبدأ بالحمد دون غيره، فالشكر معناه الاعتراف بالمنعم، والشعور بعظيم إنعامه، وتوجه القلب نحو الامتنان للمنعم؛ بالحديث عن نعمه، وتصريفها في مرضاته، وما يرافق ذلك من تجليات المحبة للمنعم، والخوف من سخطه، والاستقامة السلوكية في مرضاته.

وهذه المعاني التي يتضمنها الشكر هي ذاتها التي اشتغل الشيطان على تغييبها، فبدلًا من الاعتراف بالمنعم؛ جحوده، وبدلًا من الشعور بعظيم إنعامه وفضله ومننه؛ يكون النكران والغفلة، وبدلًا من توجه القلب وتوحده نحو الله؛ تشتت القلب بين الشهوات والشبهات، وبدلًا من تجليات المحبة والخوف من الله؛ اتجه القلب لغير الله يرجوه ويخشاه.

لذا جاءت الآيات القرآنية بأسلوب التخصيص، منكرة على الإنسان ما وصل إليه: "فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ"، "وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ"، "فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا"، فهذه الآيات وغيرها كثير، تشير إلى توجه القلب نحو خشية غير الله، ورجاء غيره، وهذا هو عين الكفر المقابل للشكر.

نفهم من قول إبليس أن غايته الأولى والعظمى هي إخراج الناس من دائرة الشكر لله، والأصل فينا حتى نواجه الشيطان أن نعلم أن أعظم الأعمال المرغمة له، والمفسدة لغواياته هو البقاء في دائرة الشكر في نهارنا وليلنا، وفي سفرنا وإقامتنا وفي كل أحوالنا.

قرأت في بعض كتب التفسير أن نوحًا عليه السلام سمي عبدًا شكورًا؛ لأنه كان يداوم على هذا الدعاء، الذي أصبح آية من آيات سورة الروم، والدعاء هو: "فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ" إنه تسبيح وحمد لله، استوعب الزمان والمكان، إنه شكر استوعب كل الجهات؛ لذا يستحق المداوم عليه صفة العبد الشكور...

الشيطان قال مخاطبًا رب العزة: "وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ"، والله عز وجل يتودد لنا قائلًا: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ"، والشيطان جعل غايته العليا: "وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ"، والله جعل البداية في دين الله وفي فاتحه "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

*****

من أسرار سورة الفاتحة

(إياك نعبد والرحمة الربانية)

سورة الفاتحة من أكثر السور التي نقرأها يوميًا، وقد فرضها الله علينا ١٧ مرة كل يوم، بحسب عدد ركعات الفريضة التي نصليها يوميًا، وبالرغم من قراءتها أو تلاوتها يوميًا إلا أننا لا نتفكر في دلالاتها..

سأعيش مع أحد الدلالات هنا، وهي موجودة في قوله ﷻ: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، فما الحكمة من أننا نقول هذه الصيغة بلفظ الجمع وليس المفرد؟ بمعنى أننا لا نقول في صلاتنا إياك أعبد بصيغة المفرد، حتى بالرغم من صلاتنا منفردين.

إحدى حكم هذه الصيغة أنها سيقت من باب الرحمة الربانية، فلو كانت العبارة بصيغة المفرد، فينظر لعبادتك مفردة، إن كان فيها تقصير أو قصور ردت عليك، وإن كانت تامة قبلت، ومن منا ليس فيه تقصير أو قصور.

لذا جاءت العبارة بصيغة الجمع، وكأنك تقول: يا رب أعبدك مع جملة العابدين لك، واستعين بك مع جملة المستعينين بك.. هكذا عبادتك تدخل كصفقة مع جملة العابدين، والمعلوم في الشريعة أن من باع أجناسًا متعددة في صفقة واحدة، وكان في بعضها عيوب؛ فالمشتري بالخيار إما يرد الجميع أو يقبل الجميع، باعتبار أن البيع كان في صفقة واحدة.

وهنا لما رأى العابد أن عبادته ناقصة معيبة، لم يعرضها على الله مفردة، بل جنح إلى ضمّ عبادة جميع العابدين إليه، وعرض الجميع صفقة كاملة، راجيًا قبول عبادته في ضمنها، لأنّ الجميع لا يردّ البتّة؛ إذ بعضه مقبول، وردّ المعيب وإبقاء السليم تبعيض للصفقة، وقد نهى ﷻ عباده عنه، وهو لا يليق بكرمه العظيم، وفضله العميم فبقي قبول الجميع.

هذه هي رحمة الله بك، جعلك في عبادتك مع جملة العابدين؛ لكي يرحمك ضمنهم، وأرشدك لكي تعبده بصيغة الجمع؛ لكي ييسر قبول عبادتك مع جملة العابدين المقبولين عنده، فما أرحم الله بعباده.

*****

موسى عليه السلام (ثلاث كلمات)

بعد الصلاة على حبيبي سيد الأولين والآخرين، وإمام الثقلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل صلاة وأتم تسليم؛ بداية قبل أن أتكلم عن حبيبي النبي موسى عليه السلام وعن كلماتي الثلاثة عنه، أحب أن أذكر بشيء هنا، وهو أنني كلما قرأت عن موسى عليه السلام في القرآن الكريم كنت أشعر بحالة تعلق مع هذه الشخصية النبوية العظيمة، فأجد نفسي أعيش معه بكل وجداني وهذا الأمر عايشته قرابة العشرين عامًا.

صحيح بضاعتي قليلة وعلمي محدود جدًا، لكنها مشاعر أحببت هنا أن أشارككم بها، وسأبدأ حديثي هنا عن موسى عليه السلام من خلال ثلاث كلمات:

الكلمة الأولى: حديث موسى عليه السلام.

الكلمة الثانية: كتاب موسى عليه السلام.

الكلمة الثالثة: دعوة موسى عليه السلام.

الكلمة الأولى: حديث موسى عليه السلام

يقول الله سبحانه وتعالى: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٠ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢"، هذه الآيات تحكي قصة موسى وكلامه مع ربه، والخطاب للنبي محمد عليه السلام أوثق الناس بموسى عليه السلام.

البداية: موسى عليه السلام كان يعيش في كنف فرعون وتحت رعايته، وكان متواصلًا مع قومه الضعفاء (بنو إسرائيل)، وكان يجتهد أن يكون من المصلحين، لكنه إصلاحه كان فيه مسحة عنف (الإصلاح العنيف)؛ فكانت التجربة والدرس لموسى عليه السلام وقصة الرجلين اللذين يقتتلان، رجل من قوم فرعون ورجل من بني إسرائيل (قوم موسى)، تدخل موسى عليه السلام لكنه تدخل بطريقته، وهو الإصلاح من خلال العنف والمراغمة وهذه طبيعة شخصيته.

فماذا فعل!؟ قام بوكز الرجل من قوم فرعون، وكزه موسى.. لكمة واحدة ماذا كانت النتيجة!؟ قضى عليه، إنه القدر المخبأ لموسى في حركة الغيب، قدر الابتلاء والفتون والتمحيص والتربية والتزكية.

لكمة واحدة حولت حياة موسى عليه السلام من رجل مكين في موطنه إلى رجل نادم خائف يترقب، إلى هارب من وجه فرعون خوف أن يقتل، فجأة تحول موسى عليه السلام إلى مطارد (الإصلاح العنيف دائمًا فيه الخوف والندم والترقب والحذر والهرب والإقصاء).

فر هاربًا وفي قدر الله نحو مدين، لكمة واحدة غيرت حياة موسى ﷺ، وقد يكون فكر طويلًا في هذا الحدث الذي كان كريهًا لموسى ﷺ، وندم عليه ونسبه للشيطان: "فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٥"، موسى ﷺ ندم وتضايق من فعلته، وظنها في حقه سوءًا وشرًا من عمل الشيطان.

لكن حركة الغيب تعلمنا درسًا مهمًا جدًا؛ وهو أنه قد يكون الخير كل الخير فيما نظنه شرًا، والشر كل الشر فيما نظنه خيرًا، فموسى ﷺ في قدر الله رسول من الرسل أولو العزم، والبيئة التي كان فيها لا تصلح لتربية موسى للقيام بمهمته؛ فهو كان يعيش في بيئة متناقضة موبوءة، فهو عند فرعون وملئه لا يجد إلا صفات الغرور والاستعلاء والكبر، وعند قومه لا يجد إلا النفاق والتملق والتقلب والصغار والتذلل، وهذه بيئة لا تصلح لتربية نبي من أولي العزم.

فكانت اللكمة ليتوجه نحو مدين، وليلتقي بالرجل الصالح الذي يستأجره عشر سنوات في الرعي، فينتقل موسى ﷺ من صخب المدينة إلى الانطلاق مع الأغنام العجماوات، عشر سنوات بين الجبال حتى لا يعيش خلالها إلا مع ملكوت الله، لا يرى إلا عظمة الله؛ ليتربى من حالة الإصلاح العنيف نحو القول اللين.

واسمحوا الآن لي أن أنقل لكم: أثر مهنة الأنبياء في توجيههم السلوكي من كتاب (نبي الرحمة):

١-(رعي الغنم فيه تربية على السكينة والوقار والصبر والتواضع: وهذا المعنى أشار إليه النبي ﷺ بقوله: "الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ"، والغنم حيوانات أليفة ضعيفة وبطيئة في الأكل، وهي قياسًا لغيرها من النعم تعتبر أقلها اعتبارًا وأهونها مالًا وأهدأها وأخفها تربية،

وكل هذه العوامل مدعاة لحصول السكينة التي تكفلها طبيعة الغنم، أما الصبر فيتعاطاه الراعي من خلال طبيعة المهنة وبيئتها؛ حيث يكون بعيدًا عن أسباب الراحة ومظاهر الترف، ولا يجد إلا حر الصحراء وخشونة الطعام وشظف العيش، وهذه الظروف تتطلب من الراعي تحمل هذه الظروف القاسية ويألفها ويصبر نفسه عليها، والتواضع خلق تقتضيه طبيعة تربية الغنم؛ فالراعي يعود نفسه على خدمة الغنم ويشرف على ولادتها وينام بجوارها، وقد يصيبه من روثها أو بولها شيء ومع هذا لا يتضجر من ذلك بحكم المداومة والاستمرار، وهذه التصرفات خليقة بطرد الكبر من النفوس.

٢-رعي الغنم على وجه الخصوص يعطي مجالًا للراعي للتأمل في ملكوت الكون، لأنها إذا انشغلت بموطن الرعي لا تتحرك منه إلا بعد ساعات، وهي بالنسبة للراعي ساعات يقتصر عمله فيها على المراقبة الصامتة من بعيد، وهي فرصة واسعة لتقليب البصر والبصيرة من خلال التأمل في ملكوت السموات والأرض، والتأمل مبدأ الفكر والمعرفة وعنوانهما، بل هو من أعظم وسائل تحصيلهما، كذلك ليل الراعي بجوار غنمه يتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات السحر.

٣-طبيعة المهنة تقتضي من الراعي الاجتهاد والبحث عن مواطن الخصب ليسوق إليها غنمه، إضافة للحرص على رد الشاردة منها إلى القطيع، ومن تأمل هذه المهنة يجد أن الراعي يتحرك قلبه وبصره نحو الغنم الشاردة قبل أن تتحرك عصاه، وتجده يراقب تخلفها عن القطيع ويتوجه بقلبه وبصره نحوها لعلها تعود له دون أن يستخدم عصاه، ثم بعد ذلك يستخدم لسانه ليستحثها على العودة، وينتهي به الأمر إلى استخدام عصاه إن تطلب الأمر، وإن كان في الغالب لا يستخدم العصا إلا للهش على الغنم فقط، لا الإيذاء، وهذا درس هام في التربية، ويبرز لنا سر اختيار هذه المهنة للأنبياء أو الحكمة منها،

وهو إعدادهم لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين، إضافة إلى الحرص الشديد على إرشادهم إلى مواطن الخير وتجنيبهم مواطن الشر مع الهش عليهم لرد الشارد منهم؛ فرعي الغنم مهيئة لصاحبها سياسة الأمم).

لهذه الأسباب وغيرها كانت تجربة موسى عليه السلام، وقتله للرجل من قوم فرعون ورب ضارة نافعة، خرج موسى عليه السلام وهو مصلح، لكن في إصلاحه جانب من الشدة والعنف، ورجع إليها بشعار (فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى).

طبعًا سيقول البعض: كيف كان موسى عليه السلام مصلحًا قبل البعثة!؟ أقول له: كان مصلحًا بنص القرآن الكريم، فبعد قتل الرجل والاستغاثة مرة أخرى في اليوم التالي، فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال الإسرائيلي كما بين القرآن: "فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يَا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ"، ونلحظ من موسى عليه السلام كاد أن يستخدم نفس الأسلوب في الإصلاح في اليوم التالي؛ لذا كانت هذه التجربة.

نرجع للآيات مع الكلمة الأولى: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ"، قضى موسى عليه السلام الأجل وسار بأهله، وحسب فهمي لمجموع الآيات كانت وجهة موسى عليه السلام من جهة الشمال إلى الجنوب، وحسب فهمي كان في جهة مغايرة لجهة دولة فرعون، وليس كما يذكر البعض أن قصة الطور حصلت وهو في طريقه لمصر، طبعًا ملاحقة الموضوع هنا تحرف الموضوع عن مساره.

سار باتجاه الجنوب، رجل كان مطاردًا ثم تحول لأجير عشر حجج، وضَعْ تحت كلمة حجج عشرة خطوط، بدأ ينطلق بأهله نحو بداية جديدة لحياته، يقال أنه كان في جمع من الناس، ولغيرته تركهم وسار مع أهله بطريق غير معهودة، فتاه

عن الطريق، والوقت في ظني إما في الليل وإما بعد غروب الشمس بقليل، فالآيات بمجموعها توحي بذلك، وبعض الآيات تشير إلى أن تلك الليلة كانت باردة.

المهم أنه رأى نارًا، وهذا هو حديث موسى، فتتبع مصدر النار بهدفين: "لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى"، إما نجد ما نتدفأ به، وإما نجد من يرشدنا الطريق، هادي يهدينا الطريق!

نترك موسى عليه السلام قليلًا ونذهب هناك إلى فرعون، في نفس توقيت الحدث ماذا كان حال بني إسرائيل وفرعون!؟ كانوا في أسوأ حال، كانوا لا يرون إلا فرعون وبطشه، كانوا يعيشون المكر والكيد والتقتيل والاستضعاف، كانوا يرون هذا الواقع ولم يروا حركة الغيب التي كانت تهيء لهم العزة والانتصار في نفس الوقت وفي ذات اللحظات.

كان المصطفى (أقصد موسى الذي اصطفاه الله) في حركة الغيب عبارة عن إنسان ضعيف تائه، يسير مع أسرته في ليلة شديدة البرد، يبحث عن الدفء أو على الأقل من يرشده الطريق، وكانت حركة الغيب تعد هذا التائه ليكون المخلص لهؤلاء المستضعفين، لتتحقق إرادة الله: "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ".

هناك إرادة إلهية لترغيم أكبر قوة في ذلك الزمان، هذه الإرادة كانت متعلقة بأضعف إنسان، برجل مطارد ضعيف لا يملك حولًا ولا قوة، وهو مع أسرة ضعيفة تائهة بين الجبال في كبد الليل.

"قَالَ لِأَهْلِهِ: امْكُثُوا..." استوقفتني هذه الآية، التي تبرز مدى شجاعة موسى عليه السلام وجسارته، فهو تائه بين الجبال، وقد تكون النار لبعض قاطعي الطريق وهو معه أهله، موقف ليس سهلًا ولكن الله يسره لموسى عليه السلام ليكون القدر، هناك في

الوادي المقدس طوى كلمه الله في أعظم خطاب إلهي للبشر، أعظم ساعة نورانية في الكون عاشها موسى عليه السلام، وهو يناجي ربه مباشرة "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيمًا"، ذهب تائه الطريق يبحث عن هدى؛ فوجد الهداية العظمى، ليس له فقط بل لأمة بأكملها، ما أكرم الله وما أعظمه وما أرحمه بعباده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أحيانًا يقول البعض أين النصر؟ أين المعية؟ أين التأييد؟ أين حركة الغيب التي تنصر الضعفاء؟ ... إنها نفس كلمات بني إسرائيل، هذه حركة الغيب وإرادة الحق تعمل لإرغام الظالمين ونصرة المستضعفين، ولكن أحيانًا لا نستبصر آثارها بشكل مباشر: "وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ"، "فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ".

بدأ الخطاب الإلهي بالتعريف بالربوبية والألوهية والمعاد، ثم: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ"!!

الإخوة الكرام: لنعلم يقينًا أن صاحب القوة الحقيقية في الكون هو الله، أما غير الله فيملك فقط قوة وهمية، أو هو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، هو في الحقيقة لا يملك. فرعون لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يملك أن يدفع عن نفسه الضر، ومن لا يملك لنفسه لا يملك للآخرين، أما صاحب القوة الحقيقية المهيمنة في الكون فهو الله.

وفي الآية: "أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا"، ومعنى الآية أن غير الله لا يملك من القوة شيئًا مهما قل، أما ما نراه هو فقط من باب سنن الابتلاء. لذلك صاحب القوة الحقيقية عندما أراد إذلال أدعياء القوة الوهمية (فرعون)؛ أرسل له أضعف الخلق موسى عليه السلام، أرسله بدون سلاح ليواجه أقوى ترسانة في زمانه.

لذلك: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ"؟ "هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ"، عصا منافعها معلومة طبعًا، الله ﷻ سأل عن الماهية، ويكفي في المقام أن يقول هي عصاي، ولكن موسى عليه السلام بدأ يعدد منافعها ثم مآرب أخرى.

إذا صاحب القوة الحقيقية، ومن بيده ناصية كل شيء، وصاحب المملكة والملكوت لا يريد أن يكلف موسى عليه السلام، يكفيك يا موسى هذه التي بيمينك، يكفيك لمواجهة أعظم قوة في ذلك الزمان بعصاك.. بعصا الراعي، هنا بدأ درس النفع والضر، والموت والحياة يتجلى ويتجسد واقعًا أمام موسى.

العصا الميتة الجامدة تتحول إلى حية تسعى، العصا النافعة تتحول إلى حية ضارة، ثم ترجع الحية الضارة إلى عصى نافعة، النفع والضر والموت والحياة كلها بيد الله، الأشياء في ذاتها لا تملك النفع والضر، إنما أمر الله لهذه الأشياء هو الذي ينفع ويضر.

إنسان ضعيف تائه يصطفيه الله ليواجه أكبر قوة في زمانه، ولا يطالبه أن يتسلح بالمواجهة بأكثر من عصاه التي يحملها بيمينه، وبالفعل كانت العصا أو أمر الله في العصا سببًا في المواجهة الكبرى مع فرعون (قصة السحرة)، وسببًا في إنهاء أعظم قوة في ذلك الزمان (قصة فلق البحر)، العصا أوصلت المتجبر الذي كان يقول: "مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي" يقول وهو يصارع لجج البحر: "آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ".

الكلمة الثانية: كتاب موسى عليه السلام

إخوتي وأخواتي: التوراة تقريبًا يعتبر الكتاب الأول الذي يمثل ناموسًا لأمة، والتوراة ذكره الله في القرآن الكريم وأكثر من مدحه، فهو الكتاب وهو الفرقان وهو الهدى والرحمة، إلى غير ذلك من أوصاف، طبعًا ما تبقى من التوراة حاليًا هو محرف.

لكن القرآن الكريم بين لنا روح التوراة والقضية المفصلية فيها، أو بعبارة أخرى العنوان المحوري للتوراة، أين بين الله ذلك!؟ أو ما هو العنوان المحوري في كتاب موسى عليه السلام!؟ هذا العنوان المحوري في سورة الإسراء وبعد قصة الإسراء مباشرة، وهذا فيه أسرار كثيرة ليس محلها هنا، لكن لنركز على الكتاب، ماذا قال الله سبحانه وتعالى؟ قال: "وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا".

ماذا نفهم من الآية السابقة؟ نفهم منها أن الله أنزل وآتى موسى الكتاب، الكتاب جعله الله هداية لبني إسرائيل، وجه الهداية في التوراة أو في كتاب موسى وعنوانها الأساسي هو في قضية مفصلية جوهرية: "أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا"، هذه هي القضية الأساسية التي يدور حولها كتاب التوراة، وكل أحكامها ونصوصها تدور في فلك هذه القضية، وكل معانيها ودلالاتها تختزل في هذه الكلمات: "أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا".

طبعًا لا يمكن تصور مدى عمق الدلالة السابقة إلا الدارس لكتابات العهد القديم، وقد رزقت دراسة جيدة لها، ماذا وجدت؟ خاصة في أسفار الأنبياء (أرميا – حزقيال – أشعياء – دانيال – وباقي الأنبياء الذين يسمونهم بمصطلح الأنبياء الصغار)؛ وجدت أن مسألة الهزيمة والنصر والذلة والعزة كلها تدور حول هذه القضية المركزية، في حالة الذل والهزيمة خاصة بعد السبي كانت تأتي النصوص الموبخة بالمعاني التالية: لأنكم توكلتم على غير ضاربكم.. لأنكم توكلتم على

منحوتاتكم وأصنامكم.. لأنكم توكلتم على وسائل ملتوية.. لأنكم نسيتم ربكم ولجأتم أو جريتم نحو أوثان الآخرين.

هكذا نجد القضية الجوهرية في كتاب موسى عليه السلام هي ذاتها، المهيمنة على كتابات الأنبياء، فكتاب موسى عليه السلام يتمحور حول: "أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا"، أما القرآن الكريم فهو كتاب مصدق الذي بين يديه مصدق للتوراة؛ لذا جاءت الآية في سورة الإسراء، تلك السورة التي تتحدث عن إفسادي بني إسرائيل، وفي ظل الإفساد الثاني، وبعد آية الإسراء تُذكر أمة محمد عليه السلام بما ذُكرت به أمة موسى عليه السلام: "أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا".

وهذا معناه أن النصر الأخير للأمة: عندما يتجلى فيها هذا المعنى بكل دلالاته؛ لذا نلحظ في علامات الساعة التي تتحدث عن قتال اليهود ألغت للقائم به كل التسميات والمسميات، وأبقت له اسمين فقط أو وصفين يحملان معنى (ألا تتخذوا)، ألا وهما: "يا مسلم يا عبد الله"، أي صفة الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد والطاعة، وعبد الله هو أعظم اسم يشير إلى مدلول: "أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا".

الكلمة الثالثة: دعوة موسى عليه السلام

ذهب موسى عليه السلام لفرعون، وطلب منه إرسال بني إسرائيل معه، ولكن فرعون أبى وحصلت عدة مناورات، بدأت بالتحدي الأكبر قصة السحرة وبعض الآيات، لكن فرعون لعنه الله استمر في جبروته، وفي عزمه على تقتيل بني إسرائيل واستذلالهم: "وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ".

إنه القتل والطغيان والجبروت، وهذا الجبروت استقاه فرعون من قوته العسكرية؛ في ظل هذه الأجواء جاءت دعوة موسى النبي عليه السلام، الدعوة العصماء المستجابة، وللنبي دعوة في قومه مستجابة، فماذا كانت دعوة موسى عليه السلام؟

الوضع الطبيعي حسب فهمنا أن موسى وقومه المستضعفين يواجهون قوة عسكرية طاغية وجبروت استضعفهم، والأصل في الدعوة أن تصيب الجبروت العسكري وجند فرعون في الصميم، فماذا كانت دعوة موسى عليه السلام؟ إنها كانت في الصميم لكن بشكل مغاير لما نتصوره، إنها دعوة حكيمة تضرب القواعد لكي يخر السقف.

إنها لا تتعلق أبدًا بجبروت فرعون وقوته العسكرية –وهذا هو الشيء العجيب–، لكنها دعوة تضرب تجمد الدماء التي تضخ في الجبروت والقوة فتتركها هامدة، الدعوة في سورة يونس، نقرأها ونفكر في مدلولاتها، أنها دعوة عجيبة: "وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨٩".

هذه دعوة موسى عليه السلام، أو دعوته المدخرة لفرعون؛ جوهرها في قضيتين:

الأولى: اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ.

الثانية: اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

سأناقش هنا القسم الأول منها: اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، أي غير هيئة أموالهم فلا يمتلكوا الانتفاع بها، وهنا السر؛ الدعوة لم تكن لضرب قوة فرعون العسكرية، إنما موسى يدعو على المال، إنها دعوة لضربة اقتصادية، وهذا أمر عجيب لكنه الحكمة

بعينها؛ فلا قيمة للقوة العسكرية ولا الإعلامية بدون اقتصاد، فالاقتصاد والمال هما الشريان الحيوية لقوة السلطان. وطمسه معناه الانهيار أو الانهيار الذليل.

ولنا في الاتحاد السوفياتي درس حيوي، فهي دولة كانت عملاقًا عسكريًا، ولكنها كنت اقتصاديًا في حالة تآكل تدريجي مفضي للانهيار، لو تم مواجهته عسكريًا لكان الأمر صعبًا؛ فكانت الضربات الاقتصادية المتتالية، وفجأة هذه الدولة العظمى وفي أوج قوتها العسكرية بدأت تتهاوى داخليًا وتتفتت، ثم تدخل في صراعات داخلية بين جمهورياتها، وأصبحت جل طاقتها العسكرية لا تملك أن تحمي تخومها في ظل وضعها الاقتصادي.

موسى عليه السلام أرادها ضربة اقتصادية، أو بعبارة أخرى أرادها ضربة في القواعد، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل: "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ"، وأهم قاعدة وشريان هو الشريان الاقتصادي، وإذا ضربت قواعد البناء كان الانهيار داخليًا، وهو أشد حالات الانهزام، إنها هزيمة غير مكلفة لفريق المؤمنين، خاصة إذا كان المؤمنون في حالة من الضعف ولم يهيئوا للمواجهة.

ضربة القواعد أو الاقتصاد جاء القرآن ليبرزها في نفس سورة النحل: "أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"، هذه الآية تتحدث عن أشكال متعددة من العذاب، آخرها هو الأخذ على تخوف، والمقصود به الإنقاص من قدراتهم تدريجيًا، أو بعبارة أخرى: الآية تشير إلى سنة الانتقاص، ويقصد بها أن الله ينقص من القوة الطاغية أو القوة العظمى تدريجيًا حتى تنهار أو تتوب.

وهذا ما حصل مع فرعون قبل ضربته الأخير، إنها سنة الانتقاص المكلفة اقتصاديًا (طوفان – جراد – دم – ضفادع – قمل – إلخ)، ضربات تنغيصية اقتصاديًا ونفسيًا، لكن ما طلبه موسى ﷺ أوسع من ذلك؛ إنه الطمس على المال وهيئته فلا ينتفعون به.

وهذا يذكرني بالضربة الاقتصادية للسندات قبل سنوات، وقد يلحقها ضربة أعظم للنقد نفسه، على سبيل المثال يطمس على الألف دولار، فتصبح قيمتها الشرائية لا شيء، وسبحان الله! دعوة الطمس وسنة الانتقاص أصابت أكبر قوة في العالم، يحار البشر في كيفية هزيمتها العسكرية، فأمريكيا تعيش حاليًا عجزًا اقتصاديًّا يقدر بـ١٧ تريليون دولار، إنها دعوة الطمس التي لم تكتمل، وسنة الانتقاص التدريجي المفضي للانهيار.

المهم أنّ دعوة موسى ﷺ كانت في الصميم، ولا تصدر إلا من حكيم بعوامل الصعود والانهيار.

*****

بصائر في قصة موسى ﷺ (بصائر الدخول للقصة)

بصيرة [١] طبيعة القرآن الكريم

القرآن الكريم هو الكتاب العجب على لسان الجن، ومن أوصافه أنه قرآن كريم، وكريم في أصالة معدنه، فهو من لدن حكيم خبير، كذلك في عظيم عطائه،

فكلما تعاطيت مع القرآن فهو يعطيك، وكيفما تسأله فهو يعطيك، فهو عنوان الكرم لذا جاء في الأثر: "من أراد الدنيا فعليه بالقرآن، ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أرادهما جميعًا فعليه بالقرآن".

فعطاؤه يستوعب الدنيا والآخرة وأي كرم أعظم من ذلك، كذلك من أوصاف القرآن الكريم أنه قرآن مجيد، ومجيد هنا تعني ديمومة العطاء، فالقرآن الكريم استوعب الزمان والمكان والشخوص، ويتميز بديمومة العطاء في زمان ومكان، لذا من أوصافه أنه تبيان لكل شيء. فالقرآن لا تنتهي عجائبه.

بصيرة [٢] القرآن والإحاطة بالزمان والمكان والشخوص

فالقرآن الكريم هو الكتاب الذي به انتهت الرسل والكتب، فلا رسل بعد محمد عليه السلام، ولا كتب بعد القرآن، فهو الكتاب الذي جاء ليعم الزمان والمكان، ويستوعب الواقع البشري بكل حيثياته وتفاصيله، ودرجة وعيه إلى قيام الساعة؛ لأجل هذه الغاية جاء القرآن ككتاب شمولي مطلق يربط بين الغيب والشهادة.

يقول الله سبحانه وتعالى: "الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" [هود١]، وهذه الآية سنقف عندها قليلًا؛ لأنها ستكشف لنا المنهجية الأقوم في تعاطينا مع القرآن وفهم واقعنا من خلاله، فالقرآن من لدن حكيم خبير، والحكمة هي الإحاطة بالمعاني في تجريدها الكلي، وهي هنا تقابل عالم الغيب، والخبرة هي المعرفة بالتفاصيل الباطنة والظاهرة وهي هنا تقابل عالم الشهادة.

ما معنى الإحاطة؟ معناها أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، إحاطة تستوعب الزمان والمكان والشخوص، إحاطة بكل آية من كتابه، ومن يقرأها ومن يعرض

عنها، من يتدبرها ومن يتنكب عنها، إحاطة بتقلبات الزمان والمكان والدول، إحاطة بالسنن التي تنظم عجلة حياة الإنسان عبر التاريخ. أما الخبرة فهي المعرفة التامة بكل التفاصيل الظاهرة والباطنة في عالم المشاهدة عبر التاريخ إلى نهاية البشرية.

فالله هو الحكيم الخبير؛ لذا جاء القرآن ليستوعب كل عجلة الحياة ليس في الماضي؛ بل في الماضي والحاضر والمستقبل، متضمنا الحلول والعلاجات المتنوعة التي تتوافق مع الأشخاص والزمان والمكان، من هذا الوجه جاءت القصص القرآنية والأمثال والسنن الربانية المبثوثة بينهما، لتحكي الماضي وتعالج الحاضر وتتنبأ بالمستقبل، وهذا معنى قوله ﷻ: "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ" [الأعراف٧].

لذا قصة موسى عليه السلام، هي في حقيقتها تحكي تجربة حصلت في الماضي، لكنها تضمنت سننًا وطريقة عرض لتعالج قصصًا تحاكيها في المستقبل، وتبرز جوانب هذه المستقبلية من كل الوجوه، وهذا سر القرآن العجب الذي لا تنتهي عجائبه.

بصيرة [٣] بصائر الدخول لقصة موسى عليه السلام

يقول الله ﷻ: "فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ"، القرآن أرشدنا للمقايسة في القصص القرآني.

هذه الآية تحكي قصة جلاء بني النضير عن المدينة المنورة، وبعد الحدث وحيثياته جاء الأمر بالاعتبار، والمراد به هنا هو العبور من الحادثة إلى غيرها من الحوادث المشابهة لها التي تعرض لكم في مستقبلكم، أي قيسوا يا أصحاب العقول من خلال دراسة عوامل هذه القصة ونتائجها على كل قصة مشابهة تعرض عليكم.

العجيب أن علماء الأصول يعتبرون هذه الآية هي من أهم أدلتهم في بيان مشروعية القياس في الأحكام، واعتباره المصدر الرابع في التشريع، والأمر بالقياس هنا جاء في سياق القصص القرآني وليس الأحكام، فإذا كانت الآية ترشد إلى الأمر بالقياس حتى في الأحكام، فمن باب أولى القياس في القصص القرآني رعاية لسياق الآية التي طالبت بالقياس من خلال قصة قرآنية.

ووفق هذا الفهم يمكن اعتبار النماذج القصصية المطروحة في القرآن إنما جاءت كعناوين عامة؛ لكي تستوعب كل صراع الحق والباطل إلى قيام الساعة.

لكن ما علاقة الآية بقصة موسى عليه السلام؟ أقول قصة موسى سيقت في القرآن بطريقة تستوعب نوعية صراع مستقبلي، ولكن ينقصنا هو فهم الآية السابقة: "فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ"، ومن الاعتبار من أهل الأبصار الدخول في هذه البصائر.

بصيرة [٤] بصائر الدخول لقصة موسى عليه السلام

بينت في البصيرة السابقة أن القرآن الكريم أمرنا بالاعتبار بعد قصة بني النضير، والاعتبار معناه المقايسة بمعنى أن القصة وحيثياتها ستتكرر مع الأمة في مستقبلها، والسنن التي حكمت النتائج في قصة بني النضير إذا تكررت؛ فسيترتب عليها نفس النتائج وهذا معنى القياس.

وهنا أعزز المعنى من خلال دليل يتعلق بقصة موسى عليه السلام يرشد إلى ذات المعنى، فعندما أهلك الله فرعون قال: "فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ" [الزخرف٥٦]،

أي أن قصة فرعون متكررة، أو عاقبة أمره متكررة في مستقبل الأمة، حتى أصبحت قصته كمثل جاري متكرر عبر التاريخ.

فمعنى الآية واضح أن قصة فرعون بسننها وحيثياتها لا بشخوصها وأحداثها، هي قصة متكررة مع أمة محمد عليه السلام بشكل قد يكون متطابق تمامًا، وهذا معنى فجعلناهم سلفًا؛ مما يشير إلى أنه لهم خلف، ومثلًا هنا تعني جاءت للدلالة على التسوية والتوافق، فعندما نقول هذا مثل هذا أي مطابق له، فهم مثل ستتكرر عقوبته لمن يوافقهم في صفاتهم وحيثياتهم من الآخرين، لكن من هم الآخرون!؟

بصيرة [٥] القصص

بداية قصة موسى عليه السلام كانت في سورة القصص، وسبب تسميتها بهذا الاسم هو ورود هذه الكلمة في سياق السورة، في قوله سبحانه وتعالى عن إخبار موسى عليه السلام لأب الفتاتين عن قصته، يقول الله سبحانه وتعالى: "فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" [القصص٢٥].

لكن قد يقال أن الكلمة ذكرت في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، فلماذا خصت هذه السورة بهذا الاسم!؟ لعل السبب وراء ذلك أنها انفردت بقصة موسى عليه السلام في حياته الخاصة قبل صراعه مع فرعون، فهي قصص موسى عليه السلام المبينة لحياته الخاصة قبل البعثة.

أما معنى كلمة القصص، فهي في أصل اللغة من قص الأثر وتتبعه، ثم استعيرت للدلالة على تتبع الأخبار، فكما أن قاص الأثر يتتبع الأثر ويلاحقه حتى يصل لمصدره الحقيقي، فكذلك القصص، هي كشف آثار وتتبع وتنقيب عن أحداث

نسيها الناس وغفلوا عن دلائلها، وغاية ما يراد من هذه القصص أو التتبع هو إعادة عرضها وكشف الحقيقة الخافية خلفها، وعرضها من جديد لتذكير الناس بها ليكون بها عبرة لهم.

لكن القرآن استخدم كلمة قصص وليس كلمة قصة، لتشمل الكلمة أيضًا معنى آخر يضاف لمعنى تتبع الآثار والأخبار، وهو ذات المعنى الذي حملته كلمة قصاص التي تنبئ بتتبع آثار الجاني، والأخذ منه بقدر جرمه، وكأن القصص القرآني هو تتبع للأمم المنحرفة وأخذها بقدر جرمها، وهكذا كلمة قصص استوعبت هذه المعاني التي يرشد إليها قوله ﷻ: "إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ" [الفجر ١٤].

بصيرة [٦] إن فرعون علا في الأرض

قد يتبادر للذهن، لماذا ذكر الله قصة فرعون قبل قصة موسى عليه السلام في سورة القصص!؟ السبب في ذلك الإشارة إلى سنة ربانية، وهي أنه حيثما يتواجد الباطل وينتفش في الأرض؛ فإن العناية الإلهية تتدارك الأرض، فترسل لهذا الباطل ما يديله ويخزيه وهو في قمة تعاظمه وانتفاشه، لذا درج القول: لكل فرعون موسى.

فهذه سنة ماضية يحكمها قوله ﷻ: "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ" [الأنبياء١٨]، وسنة الله أيضًا أن يرسل الحق وهو في أضعف صوره ليديل الباطل بأعلى صوره، فهذا موسى عليه السلام طريدًا ضعيفًا لا يملك من عناصر القوة شيئًا، بل آخر أمره تائهًا بين الجبال يبحث لأسرته عن سبيل هداية أو حتى عن جذوة نار، هذا الرجل الطريد التائه كان في ميزان الله هو عنوان للحق الذي سيقذفه على فرعون الطاغية.

وبالفعل قذف الله موسى عليه السلام على فرعون، فدمغه بضربة قاتلة على الدماغ، وانتهى أمر من قال أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيري. انتهى به الأمر أن يصارع الأمواج ولا ينتهي أمره إلا بإقرار عظيم وهو: "آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [يونس٩٠]، إنه استسلام الباطل المنتفش للحق حتى نعلم أن القوة لله جميعًا.

بصيرة [٧] ولا تخافي ولا تحزني

إذا احتوتك المخاوف من كل مكان؛ فاقذف بنفسك نحو وعد الله وتحت كنف أمره.

في قصة أم موسى تتجلى لنا صور الأمن مع الوعد في موطن الهلاك، فالمعلوم أن أم موسى عليه السلام كانت خائفة على ولدها الذي كان على موعد مع الذبح في كل لحظة، وصرخة واحدة منه مشعرة بوجوده كفيلة بإنهاء حياته، وأهل الله لا يتركون للمخاوف؛ لذا جاء الإلهام لها بأوامر عجيبة: الأول أن ترضع الولد. وهو أمر قريب للقلب بالنسبة للأم؛ فهي لا تشعر بالأمان إلا وطفلها على صدرها، فهو أمر يتوافق مع عاطفتها.

لكن إن خفت عليه وهو في أكثر الأماكن أمانًا بالنسبة لك، هنا يأتي الأمر مع الوعد؛ فألقيه في اليم، واليم موطن الهلاك، لكنه أكثر الأماكن أمانًا إذا اقترن بالوعد، فالأمر الأول موافق للعاطفة، أما الثاني فينتقل من العاطفة إلى اليقين بموعود الله، ارتبط الموعود مرة أخرى بالعواطف من خلال نهيين يضبطان عاطفتها مع الوعد: لا تخافي.

والخوف يكون من شيء مستقبلي، أي لا يتسلل إلى قلبك الخوف بعد إلقائك له في اليم، ولا تسمحي للمخاوف أن تخلع قلبك، وأنت أم تنظرين لطفل رضيع يجري مع المياه نحو المجهول، فالخوف سيد الموقف بعد إلقائه؛ لذا لا تخافي. وبعد الخوف يتسلل الحزن، لِئَنَّ الحزن يكون على أمر قد حصل، فبعد المخاوف يبدأ الحزن والندم على القرار.

حزن عنوانه: كيف سمحت لنفسي أن أترك ولدي تجري به المياه للمجهول!؟ هنا وعد الله احتواها في كل وقتها: في اللحظة الآنية عالجها بعدم الخوف، وباللحظة المستقبلية عالجها بعدم الحزن؛ لأن موسى في كنف الله، ومن كان في كنف الله فمن ذا الذي يجرؤ على انتهاكه، الأصل أن نشعر بالأمان مع وعد الله وأمره حتى فيما ظاهره الخوف.

بصيرة [٨] لا تخافي

من سنن الله أن اللحظات العصيبة هي نفسها اللحظات التي تتخللها البشارة من السماء، فهذه سنة ماضية لا تستوعبها الوقفة السريعة هنا، لكن يرشد إليها قولها ﷻ: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" [البقرة١٥٥]، فالآية بدايتها ابتلاء وآخرها بشارة من السماء، فهذه سنة الله.

وفي قصة موسى عليه السلام كانت البشارة مرادفة لمخاوف أم موسى على ولدها، وأهم قضية تبحث عنها الأم هو أن يرجع لها ولدها بعد ضياعه؛ لذا: إنا رادوه إليك. لكن البشرى الأعظم: وجاعلوه من المرسلين. فمع الخوف والابتلاء كانت البشارة من السماء.

بصيرة [٩] إنا رادوه

هنا استخدم الله ﷻ مع قصة أم موسى صيغة الجمع؛ للإشارة أن أسماء الله وصفاته كانت تكتنف موسى عليه السلام من كل جانب، لكي يكون رده لأمه بأعظم مما تتصور، وهذا ما حصل ترضع ولدها وتأخذ من صاحب الأمر بالذبح الأجر عليه، فأي رد أعظم من هذا!؟

بصيرة [١٠] وأوحينا إلى أم موسى

دائمًا اليقين بموعود الله سبب للنجاة، حتى لو كان الموعود بعكس الأسباب ومخالف للتوقعات، فهنا خالفت أم موسى بصرها وعاطفتها، وألقت بنفسها في كنف البصيرة واثقة بوعد الله؛ فكانت النجاة. لو قرأنا الواقع الحالي فإنه يوحي لنا باليأس، لكن لو قرأنا موعود الله وتيقنا بوعده للأمة، فنحن على موعد قريب جدًا مع العزة والتمكين.

بصيرة [١١] قدر الله

"فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ" [القصص٨]، الإنسان مسكين وضعيف، مهما بلغ من إمكاناته واحتياطاته فهو لن يتعد قدر الله ﷻ.

ومما يحزن هؤلاء أن الذي التقطوه وربوه؛ هو نفسه الرجل الموعود من حيث لا يعلمون. هنا قال خاطئين ولم يقل مخطئين، فهنا الخطيئة لم تكن في التقاط

موسى، إنما الخطيئة هو في افتعال كل هذه المذبحة للأطفال ليعاندوا إرادة الله؛ فكانت إرادة الله على أيديهم.

*****

خواطر إيمانية بين ثنايا آيات الله

(١)

"وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ٧٧ وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ٧٨ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ٨٠ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ٨١" [سورة هود].

قدر الله أن يبتلى لوط ﷺ بأقوام ألفوا أقبح الفواحش، وتعلقت قلوبهم بها، بالرغم من منافاة تلك الفواحش للفطرة الحيوانية فضلًا للإنسانية؛ حيث لم يعهد من حيوان ذكري ولو كان من أرذل الحيوانات أن يميل بشهوته لذكر مثله.

وهذا الوضع يبرز مدى الانتكاسة التي وصل إليها هؤلاء الأقوام، لكن بالرغم من كفرهم وعظمة فحشهم إلا أن النبي لوط ﷺ كان يأمل في هدايتهم؛ لذا لم يدخر جهدًا في ذلك، وكان هذا الأمل سببًا في تأخر العقوبة لقومه أو دفعها عنهم.

لذا كان هذا الاختبار الأخير للنبي لوط عليه السلام ليقر بنفسه على استحقاق قومه للعذاب، وجاءته الرسل على شكل شبان جميلي الشكل، ويقال أنه التقى بهم خارج قريته، جاءوه ضيوفًا والنبي لا يطرد ضيفه، ولا يثني عطفه عمن يطلب القرى منه، وملامح الشباب توحي بأنهم بغية قومه وطلبهم المناسب لشهواتهم وفحشهم.

وأصبح النبي لوط عليه السلام بين أمرين أهونهما مر: إما طرد أضيافه، وإما الاستعداد لمواجهة مع قومه للدفاع عن ضيفه، وإما أن يبدأ بإبراز قبح قومه لهؤلاء الضيوف لعلهم ينفرون من القدوم إلى القرية، ويتجهون إلى غيرها، وبذلك يسلم من هذا الابتلاء...

وبالفعل بدأ النبي لوط يعدد لضيفه وهو يسير معهم قبائح قومه وجرائمهم، واستحقاقهم لسخط الله سبحانه وتعالى وعقوبته، وهكذا استطاعت الملائكة أن تنزع من النبي لوط إقرارًا باستحقاق قومه العقوبة والعذاب.

فعندما رأى لوط هؤلاء الشبان وطلبهم للقرى والضيافة منه؛ ساءه الأمر ووقع في الحرج الشديد، وعلم أنه أمام يوم من أشد أيامه، إنه الآن أمام مواجهة لم يكن يتوقعها، إنه أمام صراع شديد مع قومه وهو ضعيف لا قوة له ولا منعة؛ حيث لم يكن من عشيرة قوية تدفع عنه أو عن ضيفه.

ولئن ضعف في المواجهة فستكون الكارثة، وسترتكب الفاحشة مع ضيف النبي لوط عليه السلام، فما أشده من ابتلاء، وما أصعبها من لحظات لا يملك نبي أن يرى نتائجها بعينيه، أو يرى تلك الجريمة البشعة ترتكب في حق ضيفه؛ وأي ضيافة هذه التي قدمها لوط لهم ما دامت ستنتهي بهذا الشكل المخيف.. هذا يوم عصيب.

قال النبي لوط هذه الكلمات، وظن أنه أمام أصعب ابتلاء في حياته، ولم يكن يعلم أن هذا اليوم العصيب هو نفسه يوم الفرج له ولمن آمن معه، وهذه سنة

من سنن الله ﷻ أن يكون الفرج في أحرج المواقف وأشدها، في لحظة ضعف واستضعاف لأهل الله ﷻ ليعلموا أن القوة لله جميعًا.

لذا عندما جاءه قومه يهرعون إليه وطلبوا ضيفه ليرتكبوا معهم الفاحشة، وحصلت المدافعة أمام باب لوط، في تلك اللحظات التي استشعر فيها النبي لوط بضعفه، وقال مقولته: "لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ"، عندها كشفت الملائكة سرها له: إنا رسل ربك.. لن يصلوا إليك.. إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب.

وجاءت هذه الكلمات للوط عليه السلام ليعلم أنه كان يؤوي إلى ركن شديد، بل يؤوي إلى صاحب القوة والشدة والعظمة في الكون.

لماذا لم تكشف الملائكة سرها قبل ذلك!؟ إنه الابتلاء والاختبار والعبرة لكل الدعاة لله في الأرض، إنه تنبيه لكل داعي لكي يعلم أنه بلجوئه لله ﷻ قد أوى إلى ركن شديد، وأن الله كافيه، وأن صراعه لأجل الحق وما يترتب عليه من مواجهة مع الباطل، إنما تقع أمام مرأى الله وسمعه، وأن أصعب اللحظات وأشدها على الداعي قد تكون هي لحظة الحسم والفرج له.

(٢)

يقول الله ﷻ: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ" [الملك:٣٠]، هذه الآية هي آخر آية في سورة الملك، ولها تعلق مباشر بالملك؛ لأن

الاستخلاف في الأرض يحتاج إلى علاقة مباشرة واتصال برب السماء، فإذا حصل انقطاع في العلاقة كان الحرمان والخذلان.

ووجه العلاقة بين الآية وما ذكرت هو أن الآية تبرز أن كل خير في الأرض لا يمكن تحصيله إلا بسبب من السماء، وكذلك الماء الذي يحفظه الله في الأرض، ولو أراد الله أن يجعل الماء يغور في الأرض فمن في الكون يملك أن يأتي لنا بالماء!؟

هذا الماء الذي نروي به أجسادنا وهو سر حياتها، والوحي هو ماء الروح وهو سر حياتها، وهو محفوظ بين أيدينا من خلال القرآن، وهو حبل السماء وسببه، ولكن إن قدر الله لنا ألا ننتفع به وأصبح غورًا في حقنا، بحيث لا نستطيع أن نفهم مراد الله منه، ولا نستطيع أن نتصل بالسماء من خلاله لحرماننا من تأويله وفق مراد الله.

عندها نكون قد فقدنا ماء الروح، وفقدنا سببًا لعزتنا ولكياننا ولوجودنا كمسلمين أصحاب رسالة، ونكون بذلك قد فقدنا سبب التمكين الرئيس؛ لأن من يريد الملك والتمكين فلا يمكن أن يناله إلا من الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير؛ لذا احترام القرآن وعدم جعله مطية لمصالح الدنيا هو من الأسباب العظيمة التي تحفظ بركة القرآن في حياتنا.

(٣)

قال الله في حق موسى: "وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا" أي استخلصناك استخلاصًا لتقوم بمهمة الإصلاح، ولتنجد المستضعفين في الأرض، وهكذا أي تغيير صاعد في المجتمع يحتاج إلى استخلاص وارتقاء في الفكر والسلوك والقيم.

فالمصلح كالماء الطهور طاهر في نفسه مطهر لغيره، والطهارة الحقيقية التي يحتاجها كل مصلح هي طهارة التوحيد ووضوحه دون لبس أو شبهة، لتستقيم علاقته بربه، وطهارة في القيم والأخلاق؛ لكي تميل إليه الأفئدة الطاهرة.

* * * * *

المذهب السبتي وأصحاب السبت

(ما أشبه اليوم بالأمس)

قال الله ﷻ: «واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ١٦٣ وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ١٦٦» [الأعراف ١٦٣-١٦٦].

ملخص القصة:

هذه الآية بدأت بخطاب للنبي ﷺ ليسأل يهود زمانه عن تلك القرية التي يكتمون خبرها؛ لما تتضمنه قصتها من بيان لمعاصيهم، وما ترتب عليها من عقوبة الله لهم.

هذه القرية التي كانت قريبة من البحر (*) وكانت تعتمد في معيشتها على الصيد، وكان في شرع أهلها من اليهود أنهم يحرم عليهم العمل في يوم السبت، ووقع الابتلاء لهم من الله ﷻ أن السمك كان شحيحًا جدًا في كل أيام الأسبوع، أما يوم السبت فتأتي الحيتان والأسماك شرعًا؛ أي ظاهرة على الماء كثيرة جدًا، وحيتان شرع؛ أي رافعة رأسها فوق الماء، وهذا الابتلاء الرباني لهم إنما كان لهم لما فيهم من فسق، واستعداد للمعصية، فاختبروا من هذا الوجه.

وأصبحت المعصية السافرة لأمر الله ﷻ أمرًا لا يسهل الوقوع فيه، أمام أمة تدعي أنها القائمة على أمر الله ﷻ؛ لذا ولجوا للأمر من خلال التحايل على أمر الله، بأن يحفروا الحفر ويضعوا الشباك يوم الجمعة، فإذا كان يوم السبت يسبتون مع غيرهم، فإذا دخل يوم الأحد، كانوا يخرجون للبرك والشباك فيأخذون ما فيها من أسماك، وبدأت المعصية مع بعض الأفراد ثم انتشرت في طائفة كبيرة من أهل القرية.

بعد الوقوع في هذه المعصية بتلك الحيلة المبيحة للحرام؛ انقسمت القرية إلى ثلاثة فرق: فرقة وقعت في المعصية. وفرقة نهتهم وبينت لهم أن ما يقعون فيه لا يحل لهم، وفرقة ثالثة لم تقع في المعصية ولم تنه الواقعة فيها، وخاطبت الفرقة القائمة على الوعظ بقولها: لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا، جزاءً لهم لتقحمهم المعصية ومخالفتهم لأمر الله ﷻ، فأجاب الناهون عن المنكر: إنما

* اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية، قيل أيلة، وقيل مدين بين أيلة والطور، وقيل طبرية، وقيل قرية تسمى مقناة بين مدين وعينون.

نعظهم من باب الإعذار لنا بين يدي الله ﷻ، حتى لا نكون من الساكتين على المنكر عند رؤيته، ولعل موعظتنا تؤتي أكلها فيهم فيرجعون عن معصيتهم وغيهم.

وبالرغم من هذا الوعظ والتذكير بعظم جرم الفرقة الواقعة في المعصية والمعتدية في يوم السبت، إلا أن تلك الفرقة استمرت في غيها وتناست عمدًا هذا الوعظ والتذكير، وأنساها لذة معصيتهم العاجلة مرارة العقوبة الربانية المتوقعة، عندها نزلت العقوبة بهم بأن مسخهم الله إلى أرذل الحيوانات وأخسها وهي القردة والخنازير، أما الذين كانوا يعظون قومهم وينهونهم عن المعصية فقد نجاهم الله ﷻ، أما الفرقة الثالثة التي سكتت عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقد سكتت الآيات عن ذكرهم، أو بيان مصيرهم.

بصيرة: المذهب السبتي:

هذه الآيات تشير إلى نوعية جديدة من المعاصي، وقع فيها من يعتبرون أهل الله في الأرض، وبدايتها كانت اختبارًا ربانيًا لهم بتضييق دائرة الحلال عليهم وصعوبة تحصيله، والتوسعة في مجالات الحرام وسهولة تعاطيه، وهذا التضييق أو هذا الاختبار إنما كان لهم بسبب استعداد بعضهم النفسي لمواقعة الحرام إن تيسر لهم، وهو ما عبرت عنه الآيات بقوله ﷻ: «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

لذا هذه الآيات تشير إلى سنة ربانية من مقتضيات الابتلاء، وهي أن أهل الرسالة والقائمون على دين الله ﷻ في الأرض يأتيهم رزقهم مباركًا رغدًا؛ ما دام استعدادهم للقيام على أمر الله قويًا، فإذا حصل عندهم توجه للدنيا واستعداد نفسي لاقتحام الحرام إذا وجد؛ اقتضى الأمر ابتلاءً بتيسير الحرام وتعسير الحلال عليهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

عمومًا وقع الابتلاء وحصل التضييق، وبدأت فكرة التحايل على أمر الله ﷻ، ولعل منشؤها هو ذلك السخط النفسي الذي تحصل عند بعضهم بسبب شح السمك طول الأسبوع إلا يوم السبت.

ومنشأ الحيلة كان على مبدأ أن الله ﷻ وشريعته إنما قامت على رعاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهذا مبدأ حق، لكنهم استغلوه لينفذوا منه إلى دائرة الحرام التي تشوفت نفوسهم إليها، وكانت تلك الحيلة التي تتضح عناصرها في التالي:

١- المراد من الراحة يوم السبت إنما هو للتفرغ لعبادة الله ﷻ، ولا يراد به التشديد على العباد.
٢- وضع الشباك وحفر الحفر يوم الجمعة وجمع ما فيها يوم الأحد إنما يقع في دائرة الحلال؛ لأن العمل مشروع في تلك الأوقات.
٣- الله ﷻ يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، والأمر كلما ضاق اتسع.
٤- تحصيل مصالح الدنيا مع القيام بأمر الله ﷻ يوم السبت هو ما تقتضيه الأصول السابقة.

هذه أهم عناصر الحيلة أو الفتوى التي استباح فيها أهل السبت الحرام، والملاحظ عليهم أنها فتوى مركبة من عدة عناصر بعضها يأخذ شكل الفعل المشروع، وفي ظنهم ووفق حيلتهم أنهم لم يستحلوا السبت؛ لأنهم فيه كانوا يسبتون مع غيرهم.

فإذا جاءهم المنكر عليهم، كانوا يقولون له: حاشا لله أن نستبيح يوم السبت لأنه حرام، وها نحن مثلكم مسبتون، ونقوم بحرمة اليوم مثلكم من صباحه إلى مسائه، بل نحن أكثر ذكرًا لله وتعظيمًا للسبت منكم، وهذا يظهر من كثرة عبادتنا

فيه، وما نفعله إنما هو مسايرة لروح النص والمقاصد العامة للتشريع، ولا نقف مع حرفيته القاضية بوقوعنا في الحرج... ويسروا ولا تعسروا.

ويأتي المنكِر عليهم فيقول لهم: صحيح أنكم مسبتون معنا، وصحيح أنكم إنما وضعتم شباككم يوم الجمعة وترفعونها يوم الأحد في وقت مشروع لكم، لكن حقيقة الصيد وقعت يوم السبت، والنهي الرباني كان مطلقًا لنا في عدم الصيد يوم السبت؛ وإنما مثلكم كمن يجلس في بيته يوم السبت ويمد شبكته في البحر ويصيد فيها في الوقت الحرام، والعبرة في محصلة الأمر التي وقع فيها الوقوع في الحرام.

وما تفعلونه إنما هو تحايل على أمر الله ﷻ المطلع عليكم، والخبير بسرائركم، وما ضيق الله ﷻ عليكم إلا اختبارًا لكم، والله ﷻ لا يعجزه أن يجري لكم السمك في باقي أيام الأسبوع.

إذا هذه الحيلة، وهذا الرد عليها، وقد تبين من بقية القصة أن الله ﷻ قد بين أنهم بفعلتهم وحيلتهم قد اعتدوا على أمره وتجاوزا نهيه، واستخدموا عقولهم للتحايل على حكمه، وهم بذلك يخادعون الله ﷻ وما يخدعون إلا أنفسهم؛ لذا كانت العقوبة الربانية مناسبة جدًا لطبيعة جرمهم، وهي مسخهم من طور الإنسانية المكرم إلى طور الحيوانية، بل إلى أرذل الحيوانات، وكما أنهم ارتكبوا الحرام بما هو في ظاهره الحلال من باب المخادعة، فناسب الأمر أن يمسخوا على قردة قريبة من صورة الإنسان لكنها في الحقيقة مخالفة له.

هذه خلاصة المذهب السبتي القائم على أصول تحليل الحرام من خلال فتوى مركبة تتضمن بعض الأشكال المشروعة، وما ذكرت هذه القصة في القرآن إلا للاعتبار منها؛ لأن أمة محمد ﷺ ستقع فيما وقعت به بنو إسرائيل وبنفس الوجه، يرشد إلى ذلك قول النبي الأعظم: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا

بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. قَالَ فَمَنْ» ([1]).

إذا سنتبع اليهود والنصارى في كل شيء حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلنا وراءهم، وسيوجد في أمة محمد ﷺ من يتخذ المذهب السبتي منهجًا له في تحليل الحرام، وبنفس الصورة ووفق نفس الأصول السابقة، وقد يأخذ المفتي وفق المذهب السبتي شكل الميسر على الأمة والموسع عليها، وسيتعاطى مع حيل تتضمن بعض الأشكال المشروعة لينفذ من خلالها إلى الحرام، وستستحل محرمات كثيرة واضحة الدلالة كالربا والزنا والخمر.

وقد بينت السنة النبوية أن في الأمة من سيقع في ذلك الاستحلال، وسيمسخ أقوام منهم إلى قردة وخنازير، يقول النبي ﷺ: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ –أي الزنا– وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ يَعْنِي الْفَقِيرَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا، فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ([2])، «لَا تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ حَتَّى تَشْرَبَ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا» ([3]).

وفي رواية: «لَيَسْتَحِلَّنَّ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ بِاسْمٍ يُسَمُّونَهَا إِيَّاهُ» ([4])، «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُكْفَأُ –يَعْنِي الْإِسْلَامَ– كَمَا يُكْفَأُ لِلْإِنَاءُ –يعني– الْخَمْر، فَقِيلَ: فَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِيهَا مَا بَيَّنَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا

---

[1] متفق عليه: أخرجه البخاري في الاعتصام، حديث رقم ٧٣٢٠ [انظر البخاري مع الفتح (٣١٢/١٣)]؛ ومسلم في العلم برقم ٢٦٦٩ [انظر مسلم بشرح النووي (٤٣٧/٨)].

[2] أخرجه البخاري تعليقًا في الأشربة برقم ٥٥٩٠، وقال عنه ابن حجر: «والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح»، وفي موطن آخر قال: «صححه ابن حبان، وله شواهد كثيرة» [انظر فتح الباري (٥٣/١٠)،(٥٥/١٠)]، والحديث ذكره الألباني في الصحيحة، المجلد الأول برقم ٩١.

[3] أخرجه أبو داود في الأشربة برقم ٣٦٧١ [عون المعبود (١٥٢/١٠)]؛ وابن ماجة في الأشربة برقم ٣٣٨٤ [السنن (١٢٢٣/٢)]، وأحمد في مسند باقي الأنصار برقم ٢٢٩٦٦ [المسند (٤٠١/٥)]، والحديث أخرجه النسائي والدارمي من طرق أخرى، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.

[4] أخرجه ابن ماجة في الأشربة برقم ٣٣٨٥ [السنن (١٢٢٣/٢)]؛ وأحمد في مسند باقي الأنصار برقم ٢٢٧٧٥، واللفظ له [المسند (٣٧٣/٥)] والحديث قال عن ابن حجر: سنده جيد [فتح الباري (٥٤/١٠)]، والحديث صححه الألباني [السلسلة الصحيحة، المجلد الأول برقم ٩٠، وفي سنن ابن ماجة برقم ٣٣٨٤].

فَيَسْتَحِلُّونَهَا» ([5])، «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ» ([6]).

فالآثار السابقة لا تشير إلى الوقوع في تلك المحرمات، بل تشير إلى استحلالها، أي اعتماد حيل مركبة تتضمن بعض عناصر مبيحة لها، وفي بعض الآثار السابق إشارة إلى نفس العقوبة التي حصلت لبني إسرائيل، بمعنى آخر سيوجد في أمة محمد ﷺ من يتعاطى مع المذهب السبتي ومنهجيته في استباحة الحرام، ووقعت الأمة فيما وقع فيه بنو إسرائيل وقد نهانا النبيﷺ عن ذلك بقوله: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» ([7]).

*****

تأملات في قصة يوسف الصديق عليه السلام

(١)

[5] أخرجه الدارمي برقم ٢٠٠٨؛ وصححه الألباني [السلسلة الصحيحة، المجلد الأول برقم ٨٩].

[6] أخرجه ابن ماجة في الفتن برقم ٤٠٢٠ [السنن (١٣٣٣/٢)]؛ والحديث صححه الألباني [صحيح الجامع الصغير المجلد الثاني، حديث رقم ٥٤٥٤].

[7] ذكره ابن كثير في تفسيره وقال: هذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله مشهورون ثقات ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا [تفسير ابن كثير (١٠٨/١)] وقال ابن القيم: رواه ابن بطة وغيره بإسناد حسن.. وإسناده مما يصحح الترمذي [حاشية ابن القيم على أبي داود (٢٤٤/٩)].

"إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" [يوسف٤].

هذه بداية قصة يوسف عليه السلام، قصة بدأت بحلم وانتهت بتأويله في أرض الواقع، وما بينهما كانت رحلة طويلة من الابتلاءات والفتون، يدنو فيها الأمل حينًا ويغيب أحيانًا، ويشتد خلالها صراع النفس وصراع الشيطان وصراع الأحبة، بطريقة عجيبة جدًا تقتضي منا الوقوف مع هذه القصة نستكشف بعض أسرارها.

الآية السابقة تحكي قصة غلام في مقتبل العمر، يفاجئ أباه برؤية عجيبة جدًا لا تخطر على بال أحد: الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا رأيتهم لي ساجدين، كيف رأى يوسف هذه الرؤية!؟ لا نعلم. وبأي هيئة رأى الشمس ساجدة له!؟ أيضًا لا نعلم...

هذه الرؤية في ظني استدعت تساؤلات كثيرة من الأب، يستفهم فيها عن حقيقة هذه الرؤية وكيفيتها من غلامه الصغير، وفي ظني أنها أخذت أيضًا وقتًا طويلًا من التأمل من يعقوب عليه السلام، في هذه الجلسة المباركة من نبي الحاضر ونبي المستقبل.. دلالات الرؤية واضحة لكن كيفيتها غامضة، وقد حملت إشارة في داخلها توحي بتأويلها، وهو رقم ١١ المرتبط بعدد إخوة يعقوب عليه السلام.

لكن لماذا جاءت الرمزية من خلال الأفلاك والعالم العلوي!؟ إذ يمكن أن تأتي نفس الدلالات من خلال رمزيات أخرى قريبة من واقع يعقوب، فلماذا الشمس والقمر والكواكب بالذات!؟ في ظني أن هذه الرمزية للإشارة إلى أننا أمام أسرة سامية بكل عناصرها، لا يليق لرمزيتها إلا الأفلاك العلوية، مصدر النور والرشد والهداية في ظلمات الليل؛ فهذه الأسرة النبوية (يعقوب والأسباط) ناسب معها رؤية علوية سماوية لا أرضية.

(٢)

"قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" [يوسف٥].

يظهر من السياق أن الرؤية العظيمة قد نالت وقتًا طويلًا من التأمل من النبي يعقوب ﷷ، ويوسف الصغير جالس عنده ينتظر أن يستمع لأي إشارة من أبيه على رؤيته، والوضع الطبيعي أن يبشر يعقوب ﷷ ولده على هذه الرؤية الطيبة؛ لكن حكمة النبي اقتضت التحذير قبل التبشير، فالناس حرب على كل ناجح.

وهذه الرؤية تحمل معنى الرياسة في الدين لولده الصغير، الذي سبقه في الأسرة عشرة من الولد، بل تحمل معنى الرياسة على والديه؛ فهو شمس الأسرة وشمس النبوة في زمانه سيسجد لهذا الغلام، إضافة إلى أن هذه الرياسة ستحمل من الابتلاءات والتمحيص ليوسف ﷷ، فهذه ضريبة الاستخلاص والاصطفاء كما عهدها يعقوب ﷷ.

لذا جاءت اللوعة وتسللت المخاوف إلى قلبه حتى غلبت على لسانه، فوجد أن التحذير أولى من التبشير في هذا المقام، وهذا هو قلب الأب؛ لكن من أين يأتي الابتلاء!؟ في مثل هذا الشأن سيتحرك الابتلاء من الداخل ومن الأقران، ومن التجربة الأولى لولدي آدم.. إنه الغيرة والحسد.

وقد شاءت الظروف أن تفتح لها بابًا من الشبهات في هذه الأسرة، فهناك عشرة من الإخوة من أم، ويوسف وأخوه من أم، وهم في مجتمع قبلي يهتم بعدد

الأولاد، والأولى في الرياسة العصبة والعشرة؛ فهناك مدخل للشيطان، لذا يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك...

وهذا الكلام صعب جدًا على غلام صغير، فإخوته هم عزوته وهم أقرب شيء له، والتحذير كان من جهتهم، هنا بين يعقوب عليه السلام أن وضعك ووضع إخوتك له وليجة عند الشيطان، وإن الشيطان للإنسان عدو مبين.

أما عبارة: "فيكيدوا لك كيدًا"؛ فهي تحمل دلالات كثيرة، فيعقوب تصور كيدًا وتصور كيدًا عظيمًا، لكنه يجعل طبيعته...، وهذه الرؤية قد تفجر كل أشكال الكيد ليوسف عليه السلام؛ لذا وجب الاحتياط وعدم طرحها بأي شكل من الأشكال.

هذه الآية تبرز لنا أن كل منحة لها تعلق بالابتلاء والمحن والتمحيص؛ وعاطفة الأب غلبت هنا جانب التحذير على جانب التبشير، لتخفيف آلام المحن المرافقة للمنح الإلهية من باب الابتلاء.

(٣)

"وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [يوسف٦].

يظهر من السياق أن يعقوب عليه السلام بعدما حذر ابنه، وفتح عليه مخاوف كثيرة لم تكن في حسبانه؛ شعر بأن ولده تخوف من الرؤية، ومخاوف يعقوب فرضتها طبيعة وعظمة الرؤية التي رآها ولده، فهي تتكلم عن أعظم النعم، فإذا كان كل ذي نعمة محسود، فكيف بمن سينال أعظم النعم الربانية!؟

فهو لا محالة دخل على بابين عظيمين من المخاطر، الأول: مخاطر الأقران وبني البشر. والثاني: مخاطر الشيطان مع بذرة ستكون العدو الأول له في إغوائه. لذا كان التحذير، والتحذير هنا أشعر الصغير بتوجس من الرؤية ونتائجها وثمراتها، لذا عاجله الأب الحكيم ببيان عظمة البشرى في تلك الرؤيا التي اختصه بها.

وكذلك يجتبيك؛ والاجتباء معناه الاستخلاص والاصطفاء بأرقى معانيه، فأنت يا يوسف في حوض الله وحفظه ورعايته، ومن أهل الخصوص الذين تنالهم عناية الله في كل خطوة لهم، وهذا الاجتباء هو قرة عين يعقوب عليه السلام والبشارة العظمى له، فالنبي دائمًا يبحث عن بقاء هذه الفضيلة في نسله، وها قد جاءت البشارة بها من خلال ولده الصغير يوسف عليه السلام.

ويظهر من السياق أن يعقوب تدارس مع ولده دلالات الرؤيا، ووجد منه نباهة وقدرة خاصة في الفهم، هنا قال: "ويعلمك من تأويل الأحاديث"، وهذا من إعجاز الإيجاز، فهو لم يقل له تأويل الأحلام، بل استخدم كلمة الأحاديث لتحمل عدة دلالات؛ منها: القدرة على قراءة الأحداث والوصول لدلالتها وعواقبها، ويسترشد من خلالها على حكمة الله في تدبيره.

والمعنى الثاني: معرفة الكتب ودلالات الوحي، والفهم الصحيح للأحاديث المروية فيها عن الأنبياء المتقدمين. والثالث: الرؤى والأحلام؛ لأنها الرائي يحدث بها الناس فتصبح أحاديث بينهم، كما لاحظنا في رؤيا الملك. فتأويل الأحاديث هنا فيها معنى بلوغ درجة الحكمة الكاشفة لعواقب الأمور والمستبصرة بالوحي، والمعبرة للرؤى كنوع من أنواع الوحي.

"ويتم نعمته عليك": تمام النعمة هي النبوة، فيكون المعنى أن الاجتباء هو الاستخلاص والاصطفاء العام، وتمام النعمة هو بالنبوة أو بتحقيق مجدي الدنيا

والآخرة؛ فمعنى تمام النعمة هو كمالها من جميع الجهات، بحيث لا يعتريها نقص من أي جانب، وهذا غير متصور إلا بالنبوة؛ لذا بين المراد بتمام النعمة بقوله: "كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق"، والنعمة التامة على إبراهيم وإسحق كانت النبوة.

"وعلى آل يعقوب": الآل معناها الأهل، لكن كيف فهم يعقوب عليه السلام ذلك!؟ هذا واضح من الرؤية؛ لأن أولاده الأحد عشر كانت رمزيتهم الكواكب، والكواكب هي أضوأ شيء وأنوره في السماء بعد الشمس والقمر، وهذا تأويله أن أولاده الأحد عشر سيكونون معالم للهداية ويستضاء بهم، مما يرشد إلى صلاحهم المستقبلي.

"إن ربك عليم حكيم": هنا العلم لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وحكيم أي مقدس عن السفة، فلا يضع رسالته إلا في نفس قدسية وجوهرة علوية. كذلك ختم الآية بهذه الخاتمة يوحي بالدعاء، أي إن ربك عليم يهبك العلم، حكيم يؤتيك الحكمة؛ فكونك مجتبى يستلزم أهم خصلتين لهذا الاجتباء، وهما الحكمة والعلم.

وهذا التأويل من النبي يعقوب عليه السلام هو التأويل الرمزي للرؤيا، وقد تحقق كاملًا مع يوسف عليه السلام، كما يتضح من السياق لكن تحققه كان في مرحلة تمكين العلم، هذا التأويل اصطلح عليه باسم التأويل اليعقوبي.

لكن التأويل الحقيقي للرؤيا هو ما حصل في تمكين السلطان في آخر القصة، وهو الذي قال عنه يوسف عليه السلام: "هذا تأويل رؤياي"، فالتأويل اليوسفي هنا يرشد إلى تحقيق دقيق، مطابق للرؤيا في الدلالة، وهو عين ما حصل مع يوسف عليه السلام.

"إن ربك عليم حكيم": هذه الكلمات هي التي ختم الله فيها ليعقوب عليه السلام بشارته لولده، وبينت أنها تحمل معنى الدعاء لولده، وهي تشبه أن تقول لإنسان ربك

رزاق، بمعنى أنه يرزقك من حيث لا تحتسب، فربك عليم يهبك العلم حكيم يؤتيك الحكمة، وهذا الترتيب الطبعي لدرجات العلم، فالعلم بداية والحكمة منتهى أو نهاية؛ لأن الحكمة هي تلك التجربة والممارسة المبنية على العلم والخبرة، لذا دائمًا تأتي الحكمة بعد العلم.

لكن في حق يوسف عليه السلام كان العكس، وهذه الحالة خاصة بالأنبياء، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" [يوسف٢٢]، فالحكمة هنا جاءت قبل العلم في حق يوسف عليه السلام، لماذا؟ لأنه كان أحوج للحكمة منه للعلم، فالحكمة هي الإصابة في القول والعمل، وهي حسن تقدير الموقف والمعالجة المناسبة له.

والوضع الطبيعي للبشر أن يتحصل لهم ذلك بعد العلم والتجربة القويمة، لكن في حق الأنبياء يعجل الله لهم الحكمة قبل العلم؛ هبة لهم ورعاية لأحوالهم الخاصة، حتى لا يصدر منهم موقف إلا يكون صائبًا وموافقًا للحق، ويوسف في غربته صغيرًا أحوج للحكمة منه للعلم، فيعقوب دعا بحسب العادة المعهودة، ورحمة الله كانت سابقة ليوسف؛ فأعطته الأعظم والأوفق والأرفق لحاله وهو الحكمة قبل العلم. إنه تدبير الحكيم.

(٤)

المفارقة بين العلم والحكمة

نلحظ من قصة يوسف عليه السلام أن يعقوب دعا لولده بالحكمة والعلم، وبينت الآيات حصولهما ليوسف عليه السلام، وآيات أخرى أرشدت لحصولهما للأنبياء الآخرين، فالحكمة والعلم هما الشعلة والمنار التي بهما يستضيء النبي في دعوته، بل هي الوقود الحيوي للنبوة بحيث لا نتصور أي نبوة عارية عن هذين الأمرين بالذات.

وكذلك لا نتصور إصلاح في الأرض دون توفر هذين الأمرين؛ لذا الأصل في المصلحين أن يبذلوا جهودًا عظيمة لتحصيلهما، وإلا لتحول إصلاحهم إلى إفساد من حيث لا يعلمون، لكن هنا يتبادر سؤال مهم وهو: ما الفرق بين العلم والحكمة؟ وكلاهما فضيلة للعقل.

أولًا: أصل الحكمة من حكمة الفرس أو الحصان ولجامه، والتي من خلالها يتم ضبط سير هذا الحصان بعيدًا عن العشوائية، ومن هذا الوجه يمكن القول أن الحكمة هي لجام العقل الإنساني، الذي يحكم سيره بانضباط نحو أهدافه الأصيلة.

ثانيًا: الحكمة تعني الإصابة في القول والعمل، وهي أكثر تعلقًا بالجانب العملي من الجانب النظري، بخلاف العلم الذي يرتبط بالجانبين. فالحكمة هي المعرفة المجربة، من هذا الوجه يمكن اعتبار العلم أحد مكونات الحكمة؛ لأن الحكمة هي توظيف للمعرفة المتنوعة في أرض الواقع، بوضع الشيء المناسب في المكان المناسب.

ثالثًا: العلم بطبعه منهج منظم، لكن الحكمة تأبى التنظيم كالعلم؛ لأنها عبارة عن مزيج للمعرفة الواسعة في أمور شتى لاستخراج أشياء جديدة.

رابعًا: العلم يعتني بالتفكيك والانتقال من الكليات إلى الجزيئات إلى التفاصيل، من هذا الوجه يميل العلم إلى مسألة التخصصات وملاحقة الجزئيات الصغيرة، أما

الحكمة فهي تعتني بالتركيب، بمعنى أنها تجمع بين المعرفة الواسعة في علوم شتى وبين التجربة العملية، فتمزج بينهما لإبراز مفاهيم عامة ورؤية كلية للأشياء.

خامسًا: العلم قد يصنع الأشياء لكن الحكمة تتحدث عن الغايات والكيفيات المناسبة، التي من خلالها نتعاطى بطريقة مناسبة فيما نصنعه، ومصيبة العصر الحاضر كثرة العلماء وندرة الحكماء؛ لذا أكثر مصنوعات الإنسان بدأت تستخدم في هلاكه وذوبان شخصيته.

سادسًا: الحكمة لها تعلق بالبصيرة، والبصيرة هي القدرة على النفاذ للأشياء ورؤية الحقائق المتسترة خلف غبار عالم المشاهدة، إضافة إلى حسن التقدير للأمور بحسب حجمها ومعالجتها بما يناسبها.

سابعًا: العلم هو القوة النظرية للعقل، أما الحكمة فهي العقل العملي الذي يميز بين الخير والشر في واقع الحياة. فالعالم قد يحفظ متون ونظريات وجوانب علمية متعددة، لكن الحكيم هو الذي يمتلك القدرة على تقييم الموقف والواقع بدقة، ويختار من أصناف المعارف والعلوم ما يتناسب مع الواقع، وفي الغالب الحكيم دائمًا يسبق أهل زمانه؛ لأنه يمتلك القدرة الواعية الشمولية في إدراك الواقع من جميع جوانبه بحسب القدرة البشرية، ومن ثم يستطيع من خلال ما يدرك أن يتنبأ إلى أي اتجاه تؤول الأمور.

هذه نقاط سريعة طرحتها للمفارقة بين الحكمة والعلم، فالعلم انتقال من الكليات للجزئيات، والحكمة انتقال من الجزئيات للكليات، العالم صيدلي يعرف خصائص الأدوية المتنوعة وطرق استخدامها، لكن الحكيم كالطبيب يمتلك القدرة على التشخيص، إضافة للقدرة على معرفة الدواء المناسب لما شخصه.

(٥)

"لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ" [يوسف٧].

هذه الآية نقلتنا مباشرة من الرؤية إلى بداية الصراع وبداية الابتلاء وإرهاصاته، إنه ابتلاء سببه القريب وليس الغريب، ومن مأمنه يؤتى الحذر، ويظهر من سياق الآية أن هناك تساؤلات كثيرة كانت تتعلق بقصة يوسف وإخوته، ولعله استعظام أن يخرج من بيت النبوة مثل هذه التصرفات المشينة التي تصل إلى درجة قتل الإخوة لأخيهم.

لكن لم ينتبه السائلون إلى أن الأنبياء ليسوا إلا بشرًا، لكنهم يتميزون عن غيرهم من البشر أنهم حازوا أعلى درجات الكمال البشري في علاقتهم بربهم من جهة، وفي فهمهم للحياة وصبرهم على لآواها، إنهم بشر وكل البشر ليسوا بمنأى عن الشيطان ووسواسه.

فالشيطان قد تسلل لأبيهم الذي نفخ الله فيه من روحه وأسجد له الملائكة، تسلل إليه الشيطان في عمق الجنة، ووسوس له وأخرجه وزوجه من الجنة...، فآدم مع عظمة ما رأى من الآيات وإسجاد الملائكة له؛ لم يكن بمنأى عن الشيطان. وأبناء نبي يقطنون في جنة النبوة تحت كنف أبيهم، أيضًا ليسوا بمنأى عن إغواء الشيطان.

لكن في هذا المقام؛ كيف يسمح الله ﷻ لتسلل الشيطان في ذلك المقام عند عباده المخلصين!؟ الشيطان هنا لم يتحرك خارج الإرادة الإلهية، بل ضمن سنن الابتلاء، وفي المساحة المحدودة التي قدرها الله في ذلك المقام؛ فالشيطان في كل إغوائه لا يتحرك إلا ضمن المسموح له في عجلة القدر الإلهي.

وهذا أمر سنلاحظه بقوة خلال القصة، كذلك الكيد البشري لعبد من عباد الله أيضًا، إنما يكون في دائرة محدودة أرادتها المشيئة الإلهية في رحلة الاصطناع لهذا العبد...، هذه هي فلسفة القدر، فكيد الشيطان ومن ورائه الإنسان إنما يكون حيث أراد الله لك، ضمن رحلة الابتلاء والاصطناع.

وفي السياق أود أن أوضح قضية مطروحة في كتاب التوراة، وأحيانًا نتناقلها دون أن نعرف سرها، حيث مكتوب في نصوص العهد القديم أن يعقوب عليه السلام صارع الله (حاشاه)، وعندما انتصر عليه تحول اسمه إلى إسرائيل أي آسر الله، هذا الكلام أحيانًا ينقله المسلمون من باب بيان مدى افتراء اليهود وتحريفهم للكتاب.

وقطعًا القصة محرفة؛ لكنها لم تفهم على حقيقتها، فنصوص العهد القديم والتي كتبت في الأسر البابلي وفي مرحلة الهوان، تسللت لها الثنوية والتي ترمز إلى إلهين؛ إله النور وإله الظلمات (الشيطان)، وتثبت للإلهين القدرة والتأثير، وعندما تسللت هذه العقيدة تحول الفكر الثنوي إلى عمق النصوص تحريفًا للمدلولات، وجعل نصيب من هذه النصوص لإبليس نفسه.

فيعقوب في حقيقته صارع الشيطان وانتصر عليه؛ فاستحق لقب إسرائيل التي تعني أسير الله وعبده، وهذا معنى: "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ" [الحجر ٤٢] فإسرائيل أي عبد الله، ونال يعقوب عليه السلام هذا اللقب عندما تعرض له الشيطان وانتصر عليه.

لكن إقحام الكتبة للتوراة وأحبارهم الذين أسرهم الشيطان تحت عنوان إله الظلام؛ هو الذي جعلهم يضعون اسم الله بدل الشيطان في هذه المقالة، وموضوع ثنوية التوراة والنفس الثنوي الفارسي موجود في كل ثنايا نصوص العهد القديم، وهذا موضوع لاحقته بكل عناصره، ولا يتسع المقام هنا لكشف كل مدلولاته...

وهو المعنى الذي أرشد له القرآن الكريم عندما بين نبذ بني إسرائيل لكتاب الله واتباعهم ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، فمن هنا وفي عمق بابل بدأت مأساة تحريف الكتاب، وجملة في السياق: كل ما نعانيه حاليًا على مستوى مكر عالمي؛ كان إفرازًا لذلك الخطأ الثنوي الفادح، الذي تعج به نصوص العهد القديم والتلمود والكبالاة.

لكن ما يعنيني هنا أن يعقوب (عبد الله أو إسرائيل) كان له جولة حاسمة مع الشيطان، وهذا يعمق العداوة الشيطانية له ولأولاده؛ لذا كان هذا هدفًا أصيلًا عند الشيطان عند أبناء إسرائيل المنتصر.

لكن من أين يدخل لأبناء يعقوب (عبد الله)!؟ إنه من ذات الداء الذي أوقعه في اللعنة، وهو الحسد لآدم والاستكبار على أمر الله، وهو ذات الداء الذي دخل منه على ابني آدم فقتل أحدهما...، إنه الداء العضال وسرطان الروح الحسد الذي يحول الظالم إلى مظلوم.

(٦)

"إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ" [يوسف٨].

هذه الآية تطرح مسوغات الكيد ليوسف بحسب الإخوة، وهي تنبئ بتسلل شيطاني، وصراع داخلي بين الخير والشر في نوازع الإخوة. ولكي يتضح السياق أكثر كان يوسف عليه السلام وبنيامين من أم، وقد توفاها الله، أي هما محرومان من الأم،

وبالمقابل باقي الإخوة من أم أخرى ما زالت على قيد الحياة، وهم أكبر سنًا من يوسف وأخيه.

وهذا الظرف يجعل يعقوب يكون أكثر احتياطًا وشفقة لولديه المحرومين من الأم، وذلك ليكفل عدم ظلمهم وتغول الآخرين عليهم هذا جانب، وجانب آخر هو أن يوسف عليه السلام كان فيه تميز خاص عن باقي ولد يعقوب، ثم جاءت الرؤية لتنبئ بشأن عظيم له، وهذا الأمر يعزز المحبة أكثر لهذا الولد.

والمحبة أمر خارج عن الإرادة البشرية، فأن يقذف الله في قلبك حب إنسان من بين الناس؛ فهذا أمر فوق إرادتك، وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يقسم بيننا فيعدل، ثم يقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك".

فالعدل شيء خارجي يستطيع الإنسان التحكم به، لكن المحبة أمر خارج عن الإرادة وملك الإنسان؛ لذا حب النبي لعائشة رضي الله عنها أكثر من غيرها لا يعتبر بأي وجه نوع من الظلم لزوجاته الأخريات. وحب يعقوب ليوسف عليه السلام من هذا القبيل.

لكن هذه المحبة فهمت بطريقة خطأ من الإخوة الآخرين، بل كانت الوليجة التي تسلل منها الشيطان لقلوبهم؛ فبدأ حالة من المرض النفسي والروحي المتفاقم، بدايته الغيرة، والغيرة تفرض دائمًا التخلص ممن يغارون منه والفصل بين المحبوبين، أو الإيقاع بينهم بأي شكل من الأشكال.

ويظهر أن الغيرة تعمقت حتى أخذت شكلًا من أشكال الحسد، والحسد نار تشتعل في القلب فتحول صاحبها الظالم إلى مظلوم، لا يهدأ له بال حتى يرد

مظلمته، يقول أحد الأعراب: «ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه».

فالحسد يقلب صاحبه إلى متظلم أو مظلوم، يرى نعمة الله على الغير نقمة عليه، وهو يريد دفع الأذى عن نفسه، ولا يندفع الأذى عنه إلا بزوال النعمة عن المحسود، وهذا المعنى الذي يصل إليه الحاسد أشار إليه معاوية بقوله: «كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة؛ فإنه لا يرضيه إلا زوالها»، وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله:

كل العداوات قد ترجى إماتتها * إلا عداوة من عاداك من حسد

وهذه المعاني حصلت مع الإخوة، حتى وصلوا لدرجة لا يستطيعون معها البقاء على صلاحهم وتقواهم إلا بعد التخلص من تلك الغمة التي هي يوسف ﷺ، وهذه الحالة المرضية صرحت بها الآيات: "اقتلوا يوسف... وتكونوا من بعده قومًا صالحين".

الحياة دائمًا تحكي نفس القصة، لكن تعبر عنها في كل زمان ومكان بألوان شتى، إن ذرائع إبليس ودعواه في الاستكبار عن السجود لآدم طاعة لله، هي ذات الذرائع التي ساقها إخوة يوسف ﷺ، ونفس القياس الإبليسي الفاسد.

بداية البحث عن ذريعة تكون مدخلًا للأمر، وبالرغم من أن صراعهم الحيوي كان مع يوسف ﷺ فقط، إلا أنهم أرادوا تحويله إلى صراع ضرائر (ليوسف وأخوه)، لتكون المسألة بالفعل هي مسألة ظلم للأب بميله لأولاد امرأة دون أخرى، لكن عند التنفيذ ألغوا بنيامين من حساباتهم (اقتلوا يوسف).

ثم بدأوا بالقياس الإبليسي الأول المبرز للأفضلية، ففي المجتمع القبلي دائمًا هناك تقديس للعدد من الذكور، والمرأة التي لها ذكور أكثر تكون محظية، وأولادها ينالون عناية وامتيازات أكثر، هنا انطلقوا من الفكر القبلي ذاته بمقايسة فاسدة: يوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة...

أي حال كوننا عصبة أولى بالمحبة منهم، وهذه ذاتها مقايسة إبليس عندما قال: "أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ"، هنا أفضلية النوع الأولى في الامتيازات، وفي قصة يوسف أفضلية العدد الأولى في الامتيازات، والقياس الفاسد لا محالة يفضي إلى نتيجة فاسدة "إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ".

هذه النتيجة الفاسدة التي توصلوا إليها؛ فرضت عليهم تصحيحها أو تصحيح ضلال الأب، ونلحظ من السياق أنهم استخدموا أسلوب يوحي بعظمة الأسى في قلوبهم من جهة، ويوحي بعقلانيتهم في تصحيح خطأ فادح ارتكبه أبوهم، وهذا واضح من السياق (إن أبانا): أسلوب توكيد للفكرة، وأضافوا الأب إلى أنفسهم، ليوحي بالألم والأسى من ضلال أبيهم.

(لفي ضلال مبين): وهنا استخدموا لام التوكيد ثم حرف الفاء وبعده اسم، وهي أعمق في بيان شدة ضلال، وهي أقوى من قولهم أبونا ضال، بل هو في عمق الضلال، ثم أضافوا صفة مبين؛ لتشير إلى أن ضلال أبيهم واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، وما دام أبوهم في ضلال مبين؛ إذًا لا بد هنا من إجراء صحيح ليعيد الأمور لنصابها.

وهكذا استزلهم الشيطان تدريجيًا بقياسات فاسدة جدًا، غيبت عنهم الحقيقة الكبرى، وهي أن أباهم هو نبي عظيم؛ فكيف بنبي عظيم يكون في ضلال مبين!؟ ونسوا أن يوسف محروم الأم وهو صغير قياسًا لهم، والصغير هو الذي يحتاج عناية

أكثر من الأب، إنه عمى القلب في لحظة استزلال شيطاني، إنه طائف شيطاني أصاب بيت النبوة.

وهنا نلحظ ثلاثة أمور نعيشها يوميًا في صراعنا: وهي الكيد الشيطاني والمكر البشري والتدبير الإلهي، فالكيد الشيطاني استزلهم، والمكر البشري أوقع بيوسف وأحاط به، والتدبير الإلهي كان يعد ليوسف الأمر المقدر له في ذات اللحظة؛ لذا كان كل من الكيد الشيطاني والمكر البشري في حوض التدبير الإلهي، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

(٧)

يقول الله ﷻ: "اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ١٠".

هذه الآيات جاءت مباشرة بعد ذلك الشحن العاطفي والتبريرات والمسوغات الفاسدة التي طرحها إخوة يوسف، والتي أوصلتهم لنتيجة فاسدة وهي أن أباهم في ضلال مبين.

وما دام الأب في ضلال مبين؛ إذًا لا بد من تصويب ضلاله لتستقيم حياتهم، وهذا لا يكون إلا بالتخلص من سبب معاناتهم وهو يوسف عليه السلام، وهذا استلزم الانتقال من المسوغات والدواعي إلى التدبير ثم التنفيذ.

هنا جاءت الآية مباشرة بقوله: (اقتلوا يوسف) دون بيان القائل لها، للإشارة إلى أن فكرة التخلص من يوسف هي موطن اتفاق بين جميع الإخوة؛ لذا التصور

الطبيعي لهذا التخلص هو إخراجه من دائرة الحياة، وهذه الآية تبرز عظمة ما استزلهم به الشيطان وسولت به أنفسهم، فالخيار الأول قتل يوسف، والثاني هو (اطرحوه أرضًا)، وجاءت هنا كلمة أرضًا نكرة لبيان مقصودهم، وهو تركه في البرية المجهولة لديه؛ ليهلك فيها أو تأكله السباع، وكلا الخيارين كان مرًا.

وهذا الاقتراح الذي بلغ مداه في التفكير بقتل يوسف؛ احتاج التذكير بحسناته لهم، وهو: (يخل لكم وجه أبيكم)، فأساس المشكلة لديهم هو انشغال يعقوب بولده يوسف عليه السلام على حسابهم، ولو تم التخلص من يوسف، عندها تخلص لهم مشاعر أبيهم التي كانت مركزة ومتجهة نحو يوسف عليه السلام، فهم هنا لبسوا ثوب المظلوم الذي يريد أن يدفع عن نفسه المظلمة، وهذا شأن الحسد وآثاره على النفس.

(وتكونوا من بعده قومًا صالحين): هنا كلمة صالحون لها عدة دلالات، هل هو صلاح أنفسهم التي تبلبلت بسبب ظلم أبيهم في تركيز عواطفه نحو يوسف من دونهم!؟ والسياق يرشد إلى ذلك كأنه النتيجة لخلو وجه أبيهم نحوهم، فخلو وجه أبيهم نحوهم بالتخلص من المنغص الأساسي، به يترتب عليه هدوء أنفسهم وعودتها إلى طبيعتها، بعيدًا عن الشحن العاطفي وما يترتب عليه ضغوطات نفسية.

كذلك يحتمل المعنى أنهم يقصدون بالصلاح هنا، صلاح دنياهم والسياق يحتمل ذلك بقوة، فالتنغيص الذي أحدثه يوسف في نفوسهم جعلهم لا يفكرون في تدبير مصالحهم، بما ترتب على ذلك تعطيل دنياهم من حال الاستقامة، وبالتخلص من أساس المشكلة يترتب عليه تفرغهم لدنياهم، ومن ثم صلاحها في حقهم.

كذلك يحتمل السياق أنهم أرادوا صلاح دينهم، فمحبة أبيهم ليوسف عليه السلام نغص عليهم دينهم وهم أبناء نبي؛ حيث انشغلوا بالتآمر والغيبة والنميمة والكيد، وهي كلها صفات مفسدة للدين هذا من جهة، ومن جهة أخرى لئن كان قتل يوسف

خطيئة؛ فهم سيحدثون توبة من بعدها ويعودوا لصلاحهم، وذلك في حال استعظام الجرم من البعض، وكأن قائل منهم قال لهم: نرتكب فعلتنا ثم نتوب. فإذا أرادوا هذا المعنى فهم قوم يجهلون.

إذًا جريمة قتل يوسف بدأت بمبررات تسوغها، وانتهت بمسوغات تبررها وتحض عليها وتزينها في قلوب الإخوة، وهذا يبرز لنا حجم استزلال الشيطان لأبناء نبي، تربوا على احترام الإنسان والإنسانية، وتربوا على تعاليم تبرز فظاعة القتل بغير الحق؛ لكن نزغة الشيطان وتسويل النفس أخفت كل تلك التعاليم، وزينت اقتحام هذه الجريمة النكراء.

لكن بعد هذا السقف العالي والذي انفجر في وسط الإخوة كبركان هائج، أوصلهم لفكرة التخلص من أخيهم بقتله أو بإسلامه للقتل، نجد أن بعض الإخوة شعر بخطورة ما سيقدم عليه إخوته، بالرغم من اتفاقه معهم بضرورة التخلص من يوسف، لذا: (قال قائل منهم)؛ من هذا القائل من الإخوة؟

الآيات لم تفصح عن اسمه ليبقى قلبنا سليمًا في اتجاه إخوة يوسف، حيث أمكن تصور هذا القول من أي واحد منهم، وهذا من باب ستر الله عليهم، خاصة وأن نهايتهم مشرقة، ورمزهم السماوي أنهم كواكب في الخير والنور؛ لكنها نزعة شيطان، وطائفه الذي ألم بهم، وتسويل نفس لاحقوه في بداية حياتهم.

"لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ": هذا نهي للإرشاد، وذكر اسم يوسف صراحة، ولم يقل لا تقتلوه؛ لكي يلين قلوبهم ويعزز فيهم عاطفة الأخوة، ثم بين لهم بما أننا نتفق على ضرورة التخلص من يوسف، فليكن تخلصنا منه دون إقحام أنفسنا بجريمة القتل، وذلك بأن نضعه في بئر

في طريق القوافل، فتأتي قافلة فتأخذه معها كبضاعة ومال، فيبيعوه في بلاد بعيدة عنا، وبذلك نكون تخلصنا من يوسف عليه السلام.

وقد أنهى عبارته بقوله: (إن كنتم فاعلين)؛ للتأكيد على ضرورة الأخذ بهذا الرأي، بعيدًا عن فكرة قتل يوسف عليه السلام، ويظهر من السياق الذي يليه أنهم تواثقوا على هذه الفكرة واستبعدوا فكرة القتل...، وبهذه العبارة نزل سقف الجريمة من القتل إلى النفي.

وفي ذلك لطيفة مهمة: وهي أن من فيه صلاح إن هيجته الظروف أو طيف الشيطان أو الغضب، لإقحام نفسه في موبقة أو جريمة أو ذنب عظيم؛ فإنه لا يحرم من داعي الحق في داخله، يجعله يحجم عن فكرته أو يخفف آثارها، وهذا من فضل الله على إخوة يوسف عليه السلام رعاية لما فيهم من صلاح، وسد مداخل الشيطان الموبقة على قلوبهم.

(٨)

يقول الله سبحانه وتعالى: "قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ١١
أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ
وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا
إِذًا لَّخَاسِرُونَ ١٤".

انتهى دور التفكير والتخطيط وبدأ دور التدبير والتنفيذ، ويظهر من السياق أن الأب كان يبدي ريبة من الأبناء تجاه يوسف وأخوه، وكان يتخوف عليهم من باقي إخوتهم، وهذا واضح من بداية القصة؛ حيث أبدى مع الرؤية تخوفه الكبير من إخوة يوسف عليه السلام، ويظهر أن هذه الريبة لها مسوغاتها، حيث يتصور أشكال من الكيد

من هؤلاء الإخوة ليوسف وأخيه، كانت بادية للعيان وتطفو على السطح من حين لآخر.

فالسياق هنا يوحي بذلك بقوة شديدة؛ لذا بدأت المراودة بهذا الاستفهام الإنكاري، الذي يوحي بأن هناك مواقف مراودة كثيرة قد حصلت من الأبناء لأبيهم لأجل إخراج يوسف معهم، وفي كل مرة كان يعقوب عليه السلام يأبى متعللًا بتخوفه على يوسف عليه السلام...

ويظهر أن القرآن الكريم قد سجل المراودة الأخيرة، التي بدأت بهذا الاستفهام الإنكاري، ومبرزين أنهم إخوة يوسف، وهم عزوته وهم له ناصحون، ولا يتصور بحال من الأحوال أن يتخلوا عن أخيهم الصغير.

هنا الآيات توحي بأن مكر الإخوة دام مدة من الزمن، ويتصور في تلك المرحلة تلطفهم بيوسف عليه السلام، ببيان جمال مسرحهم في الغنم وما يجدونه من متعة، حتى حصلت الرغبة عند الصغير لذلك.

وفي قولهم: (أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب)، إنما هو تشويق وإغراء لأبيهم لكي يتشجع لهذا الأمر؛ لأن الصبيان أحب شيء إليهم هو أن يرتعوا ويلعبوا، ويعقوب عليه السلام يسعده أن يرى يوسف عليه السلام قد أخذ بأوفر حظ مما يحبه الصغار.

(٩)

البلاء موكل بالمنطق.

الدنيا هي دار تمحيص وابتلاء، والابتلاء في حق الأنبياء أشد كما صرحت الأحاديث، لكن عندما نختار نوعية الابتلاء بألسنتنا فهذا أمر عجيب، وبالرغم من غرابته إلا أن بعض الإشارات القرآنية ترشد إليه...

يعقوب عليه السلام كان متخوفًا من جهة الأبناء على ولده يوسف عليه السلام، فعندما راودوه على إرساله معهم ليرتع ويلعب، طفت مخاوفه على السطح من جديد فقال: "قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ"، لكن هذه الكلمات لوحدها تعزز العداوة بين الأبناء، فلماذا يحزننك أن يذهب معنا ألسنا إخوته وعزوته!؟

هنا قال يعقوب عليه السلام أن مخاوفه على ولده ليس منهم بل: "وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ"، هذه الكلمات التي نطق بها يعقوب عليه السلام؛ تلقفها الأبناء الذين هيمن عليهم فكرة التخلص من يوسف، دون التفكير حتى بالذريعة التي سيسوقونها لأبيهم، فلقنهم والدهم حجتهم وأرشدهم لخطتهم المناسبة التي يسوقونها على أبيهم.

ما دام الأب متخوفًا من هذه الجهة، إذًا فليكن... وكان بلاء يعقوب من ذات الكلمات التي نطق بها؛ لذا بعدما تخلصوا من يوسف عليه السلام جاءوا لأبيهم عشاء بنفس ما تخوف منه يعقوب عليه السلام: يا أبانا ابنك أكله الذئب.

من فم يعقوب خرجت ولقن أولاده حجتهم، وجاءوا إليه مما تخوف منه ونطقه بلسانه، وذات الأمر يتكرر مرة أخرى مع يعقوب عليه السلام، حيث يكون بلاؤه من جهة منطقه؛ فعندما أراد إرسال بنيامين مع إخوته قال لهم: "قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ" [يوسف٦٦].

هنا استثنى يعقوب عليه السلام، فمخاوفه من أولاده هنا ظاهرة ولم يخفها، وعندما أظهرها وطلب موثقه؛ استثنى لأجل قدر الله فقال: (إلا أن يحاط بكم). فكان بلاؤه من منطقه، وبالفعل أحيط بالإخوة في قصة السرقة، وتم أخذ بنيامين بعد اتهامه بالسرقة...، فيعقوب كان البلاء يأتي له بحسب ما ينطقه.

هذه الإشارات التي دلت عليها الآيات، واقع التجربة أيضًا يرشد إليها بقوة، وقد وقعت أنا بحدث مشابه كان فيه بلاء بسبب منطقي، ففكرة أن البلاء موكل بالمنطق تدل عليه إشارات القرآن ودلالات الواقع.

لكن كما أن البلاء موكل بالمنطق؛ فكذلك الرجاء أيضًا موكل بالمنطق، ويرشد إلى ذلك قول الله في الحديث القدسي: "أنا عند حسن ظن عبدي بي"، فحسب رجائك وحسن ظنك تأتيك الإجابة بإذن الله، لذا كان عمر رضي الله عنه يقول: "إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه".

(١٠)

قصة يوسف عليه السلام تسير بهدوء كبير، وانتقال من حدث لحدث بطريقة رتيبة، لكنها في آخر حلقاتها كانت صاخبة وتغلب فيها العواطف والانفعالات، إنها قصة تحكي الإنسان بكل ما يعتلجه من نوازع وعواطف وانفعالات...، لعلي هنا أطرح موقفًا من المواقف الصاخبة، نستشفها من وراء سطور القرآن الكريم.

يوسف عليه السلام عندما رأى إخوته فعرفهم وهم له منكرون، سيطرت عليه عاطفة قوية جدًا ردته للوراء عشرات السنين، وتمحورت حول أخيه الشقيق بنيامين وهو

أصغر منه، فقد كان آخر عهده مع إخوته من أبيه أنهم أروه الويل وعظيم الكيد، حيث ألقوه في الجب حسيرًا مظلومًا...

ماذا حصل مع أخيه الشقيق الصغير، وقد استفردوا به كل هذه السنوات!؟ هذه العاطفة التي هيمنت عليه؛ جعلت فكرة استقدام أخيه الشقيق في أعلى سلم أولوياته، فأعد خطته لذلك.. والتي نجحت، نعم رؤيته لإخوته هيجت الماضي في داخله؛ لكنها لم تهيج عنده الشوق الكبير لهم.

لكن صغيره الشقيق كان الأمر مغايرًا تمامًا، فهي سنوات من الفراق التي تشوبها المخاوف الكبيرة عليه؛ لذا رؤية الأخ الشقيق بعد هذا الفراق الأليم لها آثارها على نفس يوسف عليه السلام، تحكي الآيات الموقف: "وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" [يوسف٦٩].

الإيواء هنا جمعه معه على الطعام، وبنيامين يرى نفسه مكرمًا عند الملك أو الوزير في مقام خاص، الأمر بالنسبة لشاب نشأ في بيئة رعوية عجيب، والأعجب منه هذا الكرم والإيواء، وكانت خطة يوسف عليه السلام ألا يخبره أنه أخوه حتى تكتمل فصول الخطة التي أرادها...، واستمر بالتعامل معه كشاب في ضيافة الملك، لكن الموقف أعظم من ذلك؛ فشوقه لأخيه بعد آلام الغربة يأكله من الداخل.

ويظهر من السياق السابق أنه عرف من الإخوة قصتهم جميعًا، فهم أحد عشر أخ، ولهم أخ هلك في الزمن الغابر، في هذا المقام يطرح البروسوي في تفسيره أن يوسف عندما أوى إليه أخاه بنيامين في منزله قال له: "أتحب أن أكون أخاك بدلًا من أخيك الهالك (بقصد يوسف)؟ فقال بنيامين: ومن يجد أخًا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب وراحيل"!!.

هنا هاجت العواطف في قلب يوسف ﷺ، ولم يتمالك نفسه في التخفي وإظهار الجلد، ولم يبق مجال للتصنع بأنه ملك يلتقي شابًا ويحنو عليه، فبكى بشدة وقال لأخيه: إني أنا أخوك، أنا يوسف الذي ظننتموه هالكًا. كانت الخطة أن يبقى متسترًا عليه وعلى إخوته، لكن الموقف بجلالته لا يبقي للتستر حيلة.

(١١)

سألني البعض: لماذا قصة يوسف!؟ الحقيقة أنني أحيانًا أميل إلى الصمت فترة أو التسلية؛ لذا وجدت تسليتي من خلال طرح قصة من قصص الأنبياء بعيدًا عن المواضيع الأخرى...

لكنني اخترت قصة الحياة، إنها قصة نعيش في عمقها وسننها لكن بمسميات أخرى، فكشف أسرار هذه القصة هو كشف لأكثر قصة ملابسة لحياتنا اليومية، إنها أحسن القصص؛ لذا أتصور والله أعلم أن هذه المقالات بطريقة مباشرة وغير مباشرة ستخترق حجب التساؤلات الكثيرة بإذن الله، وستمتلئ بالكثير من البصائر والدلالات والإشارات المهمة جدًا في حياتنا...

والحقيقة أنني أكتب بوجداني وعقلي، وليس من خلال الكتب، أكتب تجربة حياة من خلال قصص القرآن الكريم؛ لذا هذه المقالات بعد نهايتي من تجربتي الشعورية معها، سأحاول أن أعيد ترتيبها بشكل منهجي علمي؛ لكنها في صورتها الحالية عبارة عن تأملات سريعة مما يجود به الوجدان والشعور...، تحياتي لكم.

*****

فأنساه الشيطان

نحن بحاجة دائمًا لتدبر آيات الله في كتابه العزيز، الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، وهذا باب عظيم قد يرشدنا في مرحلة التيه أين نضع أقدامنا؟ كيف نفهم عن الله؟ كيف نستبصر طبيعة المرحلة التي نعيشها؟

هذه أول خطوة وتجربة لي في هذا الشأن أدمجها ضمن مدونتي علامات الساعة، وقد يسأل سائل ما وجه الربط بين ما تقول وبين علامات الساعة!؟ أقول لهذا السائل: اصبر معي حتى تتضح لك الأمور.

الدرس الأول:

يوسف الصديق سجن ظلمًا، وقدر الله أن يسجن معه رجلان، وكل واحد منهما رأى رؤية، أولها يوسف الصديق لهما: أحدهما يصلب والآخر يخرج من السجن ويكون ساقيًا للملك.

قال يوسف "لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ"، كل إنسان منا إذا كان في مأزق؛ فإنه يبحث له عن مخرج، يأخذ بالسبب إذا توافر بين يديه، وهنا سبب قوي أمام يوسف الصديق مع رجل له عليه سابق فضل، وبشره بالنجاة والرفعة (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ).

هنا تدخل الشيطان: "فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ"، هنا يتبادر سؤال مهم: كيف نسي الرجل يوسف عليه السلام الذي بشره بالفرج!؟ هو لم ينس يوسف لكنه نسي وصية يوسف له. كيف ذلك!؟ عبرت الآية: (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ)؛ هنا تدخل الشيطان ليفسد

بارقة الأمل عند يوسف ﷷ، فهو ينتظر الفرج، لكن الفرج لم يأت بل نسي الساقي؛ فلبث يوسف في السجن بضع سنين.

هل للشيطان تلك القدرات التي تحول دون الفرج!؟ طبعًا الشيطان لا يمتلك أي قدرة، بل جهوده الإغوائية والإفسادية إنما تدور في عجلة القدرة والإرادة والقدر الإلهي؛ لا يتجاوزه، فهو تدخل في المساحة التي أرادها الله، والتي قدر لها توقيتًا مناسبًا، توقيتًا قد لا يدرك حكمته يوسف الصديق القابع في سجنه.

وهذا يفتح المجال لنا لكي نفهم: لو حصل أن الساقي ذكر أمر يوسف الصديق هذا السجين المظلوم للملك، ولو فرضنا أن الملك أخرجه من السجن؛ فسيكون للملك عليه منةً عظيمة، ويخرج من سجنه كما هو مملوك ليس له من الأمر شيء، في ظل منظومة وشبكة من الحاشية ستكيد له لأجل امرأة العزيز، سيخرج من السجن ليعيش وضعًا صعبًا من المكائد والمؤامرات والضعف.

"فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ" هنا كان تدخل الشيطان الإغوائي نفسه والمحكوم بقدر لله، هو ذاته لصالح يوسف الصديق نحو الوقت المعلوم والتوقيت المحكوم.

بضع سنين من التربية والتزكية ليوسف، بعيدًا عن المؤامرات والمكائد في خلوة بينه وبين ربه، سنوات ينهل فيها يوسف الصديق من الحكمة والعلم، الذي يؤهله للقيام بأعباء الحكم بعد ذلك؛ (وهو لا يعلم وإن كان يشعر ما يُعد له).

هذه السنوات التي خضع لها يوسف ﷷ، يقابلها نفس السنوات التي أهلت إخوة يوسف لمرحلة الالتقاء تربية لهم، وهي ذاتها السنوات التي سجلت على يعقوب النبي ﷷ من باب الصبر والاحتمال والارتقاء الإيماني.

إنه كله يسير نحو توقيت مناسب للحدث بكل عناصره، حتى الملك وامرأة العزيز وغيرهم عايشوا أحداثًا كانت تؤهلهم للوقت المعلوم. وعندما جاء الوقت المعلوم كانت الرؤية للملك، وكانت الطلب من ساقي الملك...، وكانت المنعة والعزة من يوسف: "ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ"، هكذا الحدث كله نضج.

يوسف عليه السلام قال للساقي اذكرني عند ربك؛ لكي يخرج من السجن، وكان سيخرج مملوكًا تحفه المخاطر في كل ما حوله، خاصة أنه في بلاد غريبة، ويأبى الله على يوسف الصديق أن يخرج مملوكًا، بل أخره قليلًا ليخرج عزيزًا وزيرًا. هذا القدر وهذا التوقيت هو ما نخضع له الآن، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

*****

"إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ" (ريح أم رائحة)

لاحظنا أن العير عندما فصلت وخرجت من مصر، محملة بقميص يوسف قال يعقوب عليه السلام: "إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ". السؤال الذي يطرح هنا، لماذا قال يعقوب عليه السلام ريح ولم يقل رائحة؟ ولماذا استخدم الفعل أجد، ولم يستخدم الفعل أشم؟

أولًا: نعيش مع دلالات كلمة أجد، فكلمة وجد تستخدم للدلالة على حصول شيء بعد عدم، أو الحصول على الضالة، يقال وجد فلان ضالته، ووجد أوسع من كلمة شم؛ لأن الشم بحاسة واحدة لكن الوجد يكون بالحواس وبالذهن أي الفكر، فاستخدم يعقوب كلمة أجد لتحقيق دلالة أوسع.

فها هي ضالته التي قيل له في غابر الدهر أنها أصبحت في بطن الذئب، إذا بها أصبحت موجودة بعد عدم، وهي موجودة في عالم الواقع لها رائحة تشم من بعيد، فكأن يعقوب عليه السلام قد قال قبل أن يرى ولده: ها قد وجدت ضالتي، وقد وصلتني رسالة منه عبر الأثير، إنها ليست رائحة عابرة، إنها شيء يقيني موجود، تفاعلت معه حواسي وفكري في آن واحد.

ثانيًا: لماذا استخدم كلمة ريح؟ الريح هنا تقابل الروح، فهو قال لإخوته: "وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ"، وهنا قال: "إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ"، إنها ليست رائحة فقط إنها ريح أو روح يوسف، فهذا الشيخ الطاعن في العمر، والذي طوى حياته على أمل اللقاء، وابيضت عيناه من الحزن ألمًا، وقد قارب على الذبول لطول الأمد، إذا به يشتم رائحة هي بالنسبة له كالروح قد سرت في جسده، إنها ريح كالروح تغلغلت في كل وجدانه فجعلت الحياة تسري به من جديد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كلمة ريح في القرآن استخدمت للدلالة على الشيء القوي الموجه أو القوة، وهي بخلاف رياح التي تحمل معنى عام وتتجه اتجاهات مختلفة، في حق عاد كانت ريح قوية موجهة قاتلة، في حق السفن تحتاج لريح موجهة تسير بها نحو الهدف "إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ".

في حق يعقوب عليه السلام تحولت رائحة القميص كريح موجهة نحو صاحبه، وسبقت العير في إرسال البشارة لصاحبها، وهذا من عظيم رحمة الرحيم بعبده يعقوب الذي بلغ به الحزن مبلغه، إنها الرحمة الإلهية التي لا نفهمها أحيانًا.

أما لماذا لم تصل ريح يوسف قبل هذا الحدث خلال السنوات الطوال من الفراق ووصلت في هذا الوقت بالذات!؟ لعله درس لنا بأن كل سهل فهو في زمان

المحنة صعب المنال، وكل صعب فهو في زمان الإقبال وانقضاء المحنة يكون سهلًا...، والكل يدور في عجلة القدر ولكل أجل كتاب.

*****

المصلوب في سورة يوسف ﵇

هذه المقالات هي ثمرة لتساؤل سألته في صفحتي في الفيس مفاده: هل الذي كان تأويل رؤياه بأنه يصلب أسلم أم لم يسلم؟ أو هل المصلوب في سورة يوسف دخل في الاسلام أم لا!؟

والحقيقة قبل الخوض في حالة المصلوب ومآل أمره، أود أن أبرز قضية مهمة جدًا تتعلق في القرآن الكريم، وهي أن القرآن الكريم في كل حرف منه هو محل للاعتبار، وليس فيه حشو (وحاشاه وهو كلام الله المحكم)، وليس فيه قصص جانبية من باب الترف القصصي ([٨])، بل كل ما فيه من قصص محورية أو في السياق هي محل للاعتبار.

والقرآن الكريم بطبيعته قد أعرض عن كثير من التفاصيل في كل قصصه وركز على جانب الاعتبار وموطنه، وهذا ملاحظ، ففي قصة زكريا، ركز على كفالة

[٨] هذا الباب قد لا يتصوره إلا من كان له باع طويل مع القرآن الكريم وغيره من الكتب، وقد امتن الله علي بدراسة علمية جيدة لكتاب الله الخالد، إضافة لدراسة واسعة جدًا لكتب العهد القديم والجديد التي بين أيدينا والتي يعبر عنها بالتوراة وكتابات الأنبياء والانجيل، ولاحظت خلال دراستي كيف أن الحشو والخروج من سياق القصة إلى غيرها بلا هدف هو منهج غالب على كثير من القصص المطروحة في العهد القديم، بما يدلل صراحة أنها كانت غير محكمة، وجهد بشري واضح وعبث مكشوف من كتبة تلك الأسفار...، فهذا الأمر اتضح لي جليًا بحكم التمرس وطول التأمل والدراسة لتلك الكتب، حتى وصلت إلى معرفة جيدة في استكشاف الأصيل من الدخيل فيها...، وهذا الأمر غير موجود بالقرآن الكريم الذي احكمت آياته، وكان إعجازها في ذلك الإحكام، بل الإضمار الواسع في القرآن الكريم يجعلك تفهم نهجه وسره حيث ترى كل لفظة مركزة في محل الاعتبار بعيدًا عن الحشو أو التوسع القصصي في غير محله.

مريم ودعاء زكريا، وأعرض عن باقي حياة هذا النبي ﷺ، وقصة أيوب لم تركز إلا على ساعة الفرج المتعلقة به دون التفصيل بجوانب الابتلاء التي تعرض لها.

فالقرآن الكريم يطرح سياقًا، ويضمر بابًا واسعًا من القصة، لكن يكون في السياق ما يرشد للمقصود ولما خفي من دلالات، وهذا سر القرآن وعظمته وإعجازه، وباب الإضمار في القرآن الكريم هو باب واسع جدًا، ولسورة يوسف نصيب واسع منه.

من هذا الوجه نجد أن قصة المصلوب قد أقحمت في السياق، بحيث كان صاحب رؤية، ثم تحول إلى محل دعوة للنبي يوسف، ثم تم إرشاده إلى تأويل رياه.

وهذه المعاني كلها التي تعلقت بها قصة المصلوب هي محل اعتبار واسع، خاصة أن الله ﷻ يقول في ختام قصة يوسف ﷺ: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [يوسف١١١].

إذا قصصهم كلها عبرة، أي قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام، وما رافقها من قصص الإخوة وعزيز مصر والفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف ﷺ، هذه القصص كلها هي محل للعبرة ومحل للهداية والرحمة في ذات الوقت كما بينت الآية، وقصة المصلوب هي جزء من القصة التي نحصل منها العبرة ونستكشف منها محل الهداية والرحمة، فطرح قصته هي مقصودة لذاتها، وليست شيئًا عارضًا فرضه السياق، بل لو كانت قصته عارضة لأغفلها القرآن الكريم من أساسها واقتصر على رؤية الساقي فقط.

لكن ما وجه الاعتبار في قصة المصلوب هنا، وكيف نستخرج منها الثمرة المتوخاة منها وهي الهداية والرحمة كما بينت الآية؟ هذا ما نحاول الإجابة عليه في

هذه السلسلة التي فرضت نفسها علي من خلال الاستبصار والتدبر لآيات الكتاب العظيم.

هنا قد يطرح البعض إجابة ويقول الاعتبار في قصة المصلوب نجدها في ذلك الدرس الحيوي الذي يبرز جانبًا من جوانب التأويل وبعض أسراره.

نعم هناك عبرة في رؤيا المصلوب، لكن القرآن الكريم في كل طروحاته لم يأت ليعلمنا منهج تأويل الأحلام وأصوله، وإن كنا نستنبطها من ثناياه بطريقة غير مباشرة، لذا نلحظ أن الرؤى المطروحة في القرآن الكريم كلها خلا رؤى سورة يوسف كانت رؤى إخبارية ظاهرة لا تحتاج تأمل في تأويلها، منها رؤية إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه، فهي رؤية صريحة، ورؤية النبي محمد عليه السلام أنه والصحابة سيدخلون المسجد الحرام آمنين ومحلقي رؤوسهم أو مقصريها أيضًا كانت صريحة.

أما الرؤى في سورة يوسف فهي التي كانت تحمل معاني رمزية في ثناياها بما يحوجها إلى تأويل خاص، لكنها كانت قليلة ولا تبرز منهجًا كاملًا لتفسير الرؤى لنعتبر إقحام رؤية المصلوب جاءت لتخدم هذا السياق.

لكن ما دمنا تحدثنا عن وجه اعتبار في رؤية المصلوب؛ فلنحاول أن نلقي عليه بعض الضوء قبل دخولنا في عمق الموضوع محل الاعتبار.

فالملاحظ على رؤية المصلوب أنها كانت عجيبة في ذاتها وظاهرها مبشر وليس منذر، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" [يوسف٣٦].

نحن عندما نقرأ الآية مباشرة ينتقل فكرنا إلى تأويل يوسف له بأنه يصلب فتأكل الطير من رأسه، لكن لو لحظة ابتعدنا عن التأويل المعهود ونظرنا للرؤية

فقط، وأنا هنا أتحدث كإنسان مارس التأويل وله باع في كشف رموزه، فأقول: هذه الرؤية ظاهرها مبشر جدًا لصاحبها، ولا يمكن بسهولة أن يتصور أن لها معنى منذر لصاحبها، ولعل ذلك هو الذي شجع الفتى في طرحها ليوسف عليه السلام، بل أقول: إن ظاهر هذه الرؤية مبشر أكثر بكثير من ظاهر رؤية الساقي أو الفتى الآخر.

ما معنى أن يرى الإنسان فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه؟ معناه الظاهري مبشر جدًا وتشير على حصول الخير لصاحبها وعموم الخير لما حوله، وآخر ما يمكن تصوره أنها تشير إلى الصلب، فهذه الرمزية خفية جدًا في هذه الرؤية، وهذا يجعلنا نقف مع علم تأويل الأحلام، هل هبة من الله وإلهام، أم هو علم له أصوله؟

هذه الرؤية تؤكد أنه إلهام وليس علم ([٩])، بمعنى أنه معنى يقذفه الله في قلب المعبر عندما يستمع الرؤية فيفهم المراد بها، وإلا ما العلاقة بين صورة الرؤية وبين مسألة الصلب وأكل الطير من الرأس، كذلك الرأس بالذات ليست محلًا للحم بشكل حيوي لكي تقصدها الطير وتأكل منها. من هذا الوجه أقول: الرؤية ظاهرها مبشر جدًا، لكنها أولت على أنها منذرة جدًا لصاحبها.

لكن ما الذي جعل يوسف عليها السلام يراها منذرة بالرغم من أن ظاهرها مبشر، طبعًا الإجابة ستكون الإلهام، لكن الآيات أرشدت إلى أنه علم أيضًا: "وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ"، فما هو جانب العلم هنا والذي قلب ظاهر الرؤية نحو الإنذار بدل البشارة!؟

هذا يجعلنا ننتبه إلى قضية مهمة جدًا في التعبير أو التأويل وهي حال الرائي، فحال الرائي الذي علمه يوسف عليه السلام رجح جانب النذارة على البشارة في حقه، وهذا يذكرنا كيف تعامل ابن سيرين مع ذات الرمزية على أنها مرة توحي

---

[٩] الأصح لدي بعد الدراسة أن تأويل الرؤى إلهام لكنه لا يستغني عن العلم، أو هو علم لا يمكن تفعيله إلا بالبصيرة والإلهام، وهذا يجعل هذا العلم بالذات هو عبارة عن علوم يتحصلها الرائي لكن يضعها في إناء الإلهام لكي ينتفع بها، ومن حرم العلم، لم يجد ما يضعه في الإناء، ومن حرم الإلهام لم يستفد من أصول هذا العلم الذي لديه ولن يضعه في موضعه الصحيح.

بالنذارة ومرة ترشد للبشارة، وهي رؤية الآذان حيث أولها لرجل بأنها ترشد للخير في حقه والدعوة لدين الله وإصابة علم، وأولها لغيره بأنه سارق. ففي كلا الرؤيتين نفس الرمزية، لكن الذي حدد المراد بها النذارة أم البشارة كان حال الرائي نفسه.

فحال الرائي هو الذي يحدد اتجاه الرؤية، وهنا أنبه لقضية مهمة جدًا وهي أن من تتبع رموز الرؤى في كتب تأويل الأحلام يجد أن الرمزية الواحدة تحمل كثير من المدلولات، بل تحمل الدلالة ونقيضها في ذات الوقت، وهذا ليس تناقضًا؛ لأن الذي يحدد المراد من تلك الرموز الملابسات التي تحف بالرؤية وحال الرائي نفسه.

تذكر بعض كتب التفسير أن الفتيان أحدهما كان خبازًا للملك والآخر كان ساقيًا عنده، وكان قد اتهما بتسميم الملك، إذًا سجنا في مؤامرة اغتيال، لكن هذه الإشارة لا أعلم مدى دقتها أو صحتها، وهي محتملة، وهذا يرشد أيضًا إلى أن الرؤى تأخذ رمزيتها من ثقافة الرائي وطبيعته.

لكن ما نستطيع أن نقوله هنا أن دلائل الحال لرائي رؤية الخبز لا تبشر بخير، وبالمقابل دلائل الحال للساقي كانت ترشد إلى نجاته، فهذا حدد اتجاه التأويل.

هنا تحول الطير الذي يأكل من الخبز فوق رأس الخباز، إلى طير تأكل من رأس الخباز نفسه، وهذا المعنى لا يمكن تصوره إلا إذا صلب صاحبها حتى مات، هنا الطيور الجارحة أول ما تأتي، تأتي للأعلى لأنها تمتلك الوقوف فوق الرأس محافظة على نسبة من الحذر لما حولها، هذه الصورة لا يمكن تصورها إلا في حالة الصلب، لذا كانت رؤيته بهذا الاتجاه منذرة بصلبه.

طبعًا هذا الاسترسال في بيان الرؤية هنا وهو ليس موضوعنا، لبيان أن قصة المصلوب تحمل معاني للاعتبار تتعلق بالرؤية والتأويل، لكنها ليست محل الاعتبار الوحيد والجوهري الذي سيقت القصة لأجله، وهو ما سنناقشه في مقالة أخرى.

لكن ما أريد الوصول إليه هنا: أن قصة المصلوب هي قصة ساقها القرآن الكريم للاعتبار المفضي للهداية والرحمة، وهذا الاعتبار يجعلنا نبحث عن إشاراته المتعددة، ولئن رأى البعض أن الاعتبار في الرؤية ذاتها، نقول الرؤية تحمل معاني للتعلم أكثر من كونها تحمل معاني للاعتبار، مما يحملنا للبحث عن معنى العبرة في هذه القصة، والتي عنوانها الأساسي هو: هل المصلوب أسلم أم لم يسلم قبل صلبه؟

طبعًا ليس لدينا دليل صريح يكشف لنا حاله، وهذا من عظمة القرآن ومنهج الإضمار والتركيز الذي يتميز به، فموضوع إيمان المصلوب والساقي ليس من صلب الموضوع، والإسهاب عنهم يخرج القصة من سياقها، لذا تركت القصة قرائن في ثناياها وركزت على الموضوع المحوري المتعلق بيوسف عليه السلام في رحلة التمكين.

نعم ليس لدينا دليل صريح يكشف لنا أمره، لكن هناك قرائن كثيرة نحاول أن ننطلق من خلالها لكي نفهم عن الله جيدًا، هذه القرائن نسوقها وقد أحطناها بحسن ظننا بربنا، ونستخدمها كترجيح لنا في فهم الجوانب المخفية بين النصوص من خلال فهم السنن العامة الحاكمة لتجربة الإنسان في الحياة على مستوى الهدى والضلالة.

قبل أن أشرع بالقرائن، أود أن أشير إلى قصة مذكورة في السنة النبوية، وهي قصة الرجل الذي قتل مائة نفس، وقبل أن يقوم بأي عمل صالح توفته الملائكة، هذه القصة العجيبة لو أنها وقفت عند قبض روحه دون بيان اختصام ملائكة الرحمة والعباد فيه، واحتكامهم أنه يقبضه ملائكة الرحمة إذا كان أقرب للأرض الصالحة أو ملائكة العذاب إذا كان أقرب للأرض السوء، ثم التدخل الرباني بالإيحاء إلى الأرض السوء بأن تتباعد والأرض الصالحة بأن تتقارب، فكان أقرب للأرض الصالحة وقبضته ملائكة الرحمة.

هذه القصة لو لم تكتمل لدينا ووقفنا عند وقوع أجله قبل أي عمل صالح، ودون معرفة بقية القصة، عندها ماذا سيكون حكمنا وفهمنا لعاقبته؟ الوضع الطبيعي أن نقول ارتكب جرائم موبقة عددها مائة كل واحدة منها كفيلة بأن يكتب بسببها على جبينه أنه آيس من رحمة الله، فأعظم الجرائم هي القتل. ولو كان صادقًا في توبته لما قتل العبد الصالح في آخر أمره، هذا الرجل الذي رأى انه ليس له توبة.

كذلك شرط دخول الجنة هو الإيمان والعمل الصالح، وهذا الرجل لم يقم بأي عمل صالح حتى نحسن الظن به، بل قبض روحه قبل أي عمل صالح هو لحرمانه من أي شيء يرجح ميزانه، فقد نتصور أن قبض روحه قبل العمل الصالح هو قرينة قوية على سوء خاتمته.

هذا سيكون تصورنا وسنجد القرائن الكثيرة المرشدة له، لكن اكتمال القصة كان بعكس كل تصوراتنا، وفيها كيف تتجلى رحمة الله بأعظم من كل ما يتصوره العبد، هذه الرحمة التي وسعت كل شيء، والتي كتب شعارها تحت العرش: (رحمتي سبقت غضبي).

فللرحمة سنن فوق تصوراتنا، وبالتالي أحكامنا الظاهرية القاصرة قد تغيب عنها أحيانًا تلك السنن، وقد لا نفقه مدلولها. وما قلته في حق الرجل السفاح الذي قتل مائة نفسه أمكنك أن تقوله أيضًا في حق المرأة البغي التي أسقت كلبًا شربة ماء، وغيرها من القصص الكثير والتي كلها تصدمنا ببيان مدى سعة رحمة الله.

بل بعض القصص صدمت صاحبها نفسه كقصة الرجل الذي يمد له تسع وتسعون سجلًا من أعمال السوء، ويقابلها فقط بطاقة صغير من أعمال الخير، فالرجل كان يائسًا وعندما رجحت البطاقة كان مصدومًا من النتيجة التي لم تخطر له

على بال ولم يتوقعها، فهذه القصص جاءت لنعلم أننا مهما تصورنا من عظيم رحمة الله، فرحمة الله أعظم من كل تصوراتنا.

من خلال المقدمة السابقة أنتقل لقصة المصلوب، طبعًا بعض كتب التفسير تشير إلى أنه كان خبازًا للملك والثاني ساقيًا له، وأنه كانت هناك مؤامرة لقتل الملك بالسم، هذه القصة لا نعلم مدى صحتها، وليس لدينا دليل عليها، لكن أي كان جرم الفتيين إلا أن السجن بشكل عام هو عقوبة للخارجين عن القانون والمجرمين، وهذا في غالب أمره، ولا يمنع ذلك من وجود مظاليم داخله كحال يوسف عليه السلام.

إذا نحن لا نعلم ما هي تجربة حياة هذا الخباز أو المصلوب، وما هو جرمه الحقيقي الذي أقحمه السجن وأوصله للصلب، وهذا الرجل عندما أمروا بإدخاله يعلم أنه ذاهب إلى حيث مأوى المجرمين، وهنا تبدأ معنى القرينة الكبرى.

القرينة الأولى: إذا أراد الله بعبد خيرًا إما ساقه إلى موعظة، وإما ساق الموعظة له.

هناك جريمة أو تهمة، وهناك حكم بالسجن إلى حين صدور الحكم النهائي، والسجن هو مأوى للخارجين عن القانون أو المجرمين بحسب عرف المجتمع، وهنا يساق الفتى إلى السجن، لكن أن يجد أمامه في السجن نبي ينتظره!! أن يختار الله لصحبة هذا الفتى في اللحظة الأخيرة من حياته نبي ذلك الزمان، فهذه من الله من أعظم الهدايا والهبات، هدية عبر تاريخ البشرية لا تتكرر، تنساق لسجن حيث تنقطع عن الدنيا وزخرفها وزينتها وغرورها ومتخوفًا من القريب العاجل، ثم تجد نفسك في اللحظات الأخيرة في كنف نبي.

هذا سر القدر وتوقيته الذي لا يفهمه أكثر أهل الأرض، ملايين السجناء عبر التاريخ، هذا الفتى من بينهم كان حظه مع نبي زمانه، وكان القدر يسوقه في التوقيت المناسب، يقول ﷻ: "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ" [يوسف٣٦]، إنه التوقيت وسننه الواضحة في كل أحداث قصة يوسف عليه السلام، ومن ضمنها تزامن دخول يوسف مع رجلين: أحدهما سيكون سببًا في نجاة يوسف في المستقبل القريب (الساقي)، والآخر بحسب حسن ظننا سيكون نجاته على يد يوسف عليه السلام.

فهذا القدر وهذا التوقيت العجيب الذي ألقى بالفتى الخباز بين يدي النبي في اللحظات الأخيرة، هو قرينة قوية أن الله قد أراد به خيرًا من حيث لا يعلم. وهذه القرينة قد أكون قصرت في إبراز كل دلالاتها لكنها للمتأمل تحمل كثيرًا من المعاني لا تتجلى إلا لمن رزق البصيرة من جهة، وكان له نصيب من فهم السنن الإلهية من جهة أخرى.

فهذا التوقيت قد ساق الخباز لموعظة حيوية عملية ونظرية تلقاها من أكمل البشر في ذلك الزمان، ومع انقطاع من الدنيا وزخارفها ويحف اللحظة تخوف من الزمن القريب العاجل. فهذه العوامل كلها ترشد أن الله قد أراد بهذا الرجل حسن العاقبة في خاتمة أمره.

لكن هل هذه القرينة الوحيدة التي نستأنس بها فيما نراه من نجاة المصلوب أخرويًا، وإن نالته يد العدالة أو العقوبة دنيويًا!؟ الحقيقة هذه أول القرائن والتي ستجر إلى قرائن كثيرة جدًا نستكشف من خلالها أسرارًا كثيرة للقدر والسنن الإلهية، في محاولة للفهم عن الله من خلال ما بين السطور من كتابه.

بينت سابقًا أن هذا الخباز في لحظاته الأخيرة كان محظوظًا؛ حيث التقى بنبي زمانه ليسوق له موعظة مكتملة الجوانب، قد تكون قرينة مرجحة لإسلامه قبل

صلبه، فالتوقيت وارتباطه بنبي هنا إشارة قوية على ذلك، لكنها كما ذكرت ليست القرينة الوحيدة التي تجعلنا نرجح إسلامه، بل القرائن كثيرة منها:

القرينة الثانية: موعظة مكتملة الأركان.

أعظم وسائل الدعوة هي الدعوة العملية أو من خلال القدوة، والإحسان هو الوسيلة الأنجع والأنجح في نقل الدعوة من الداعي إلى المدعو، وسياق الآيات يشير إلى أن الفتيان انتظرا مدة حتى تعرفا جيدًا على صاحبهم الغريب عليهم في السجن، فما وجدوا منه إلا الأخلاق الفضيلة والمحاسنة لهم، وهو ما نعبر عنه بالدعوة العملية، وهذه المحاسنة هي التي شجعتهم على عرض رؤاهم عليه.

والنبي يوسف عليه السلام كان في أوج تألقه الإيماني في تلك الساعات، فقد خرج من فتنة مراودة زوجة العزيز منتصرًا، وطلب السجن بنفسه هروبًا من الفتنة، فهذه الساعات الأولى في السجن كان التألق الإيماني النبوي في أسمى درجاته، وهذا التألق له نورانيته المؤثرة جدًا فيما حوله، فإذا رافقها محاسنة عندها تكون الدعوة العملية قد آتت ثمارها في قلوب من حوله.

وقد كان هذا جليًا في خطاب صاحبي السجن، عندما قالوا له عند عرض رؤاهم: "إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"، والخباز هو من القائلين ذلك مما يشير إلى نوع تأثر قلبي وشعور بمصداقية يوسف عليه السلام، ومغايرته لمن حوله مما عهدوه من البشر، وهذه قرينة مهمة ترشد إلى حال الرجل حتى قبل تأويل الرؤية له.

ودعوة يوسف لم تقتصر على الدعوة العملية، بل أكملها بالحجج والبراهين الدالة على أنه حالة خاصة متعلقة بالله، وتجني ثمار هذا التعلق، وكانت الحجة

الأولى هي عبارة عن أمر خارق للعادة أو معجزة، وهو قوله: "قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ" [يوسف٣٧].

هنا كان البرهان على صدقه من خلال تلك القدرة العجيبة التي حباها الله به، حيث يستطيع أن يخبرهم عن الطعام الذي سيأتيهم قبل قدومه إليهم، ووقوع مثل هذا الحدث يجعل المدعو أكثر استجابة للدعوة واقتناعًا بها، نعم قد يقول البعض: لعلهم ظنوا أنه كاهن أو ساحر.

هنا أقول: حتى لو كانوا يرون كهانًا أو سحرة في زمانهم، فحال الساحر أو الكاهن لا يخفى على الناس؛ حيث تظهر أحواله الشيطانية. لكن ما لاحظوه على يوسف عليه السلام حتى قبل هذه المعجزة؛ كانت كلها أحوال صدق ورحمانية، مما يرشد بالفعل إلى علاقة صادقة بالله، وهذه الحجة أو البرهان كان العنصر الثاني في دعوة يوسف عليه السلام.

بعد ذلك كانت الدعوة اللسانية لصاحبي السجن، وقد حصلت منه بعدما سمع رؤاهم وعرف مدلولها، وعلم أن أحد الرجلين محكوم عليه بالموت، وقد كانت دعوته مركزة في بيان عظمة الله وضرورة توحيده ونفي الأوثان والأصنام من القلوب.

إنها دعوة تركزت على جانب النجاء للرجلين، وبهذه الدعوة اكتملت أركان الدعوة بأسمى صورها، والتي أيضًا لا يسهل تكرارها بهذا التركيز في مقام واحد، وهذه قرينة أخرى على أن المدعو قد انتفع من هذه الدعوة وأعلن توبته لله.

لكن قد يقال هنا: لماذا لا ترى العكس وأن اختيار هذا الرجل في آخر لحظاته ليكون بين يدي نبي ودعوته هو من باب إقامة الحجة عليه، ولو آمن لأخبرنا الله عنه.

هنا أقول: الأصل في الدعوة الحق أن ينتفع بها الإنسان أو المدعو، وعدم انتفاعه هو خلاف الأصل، ولو أن المصلوب لم ينتفع بالدعوة لبين الله ﷻ حاله ولو بإشارة واحدة، لكن سكوت القرآن عنه إشارة إلى أنه انتفع من الدعوة باعتبار الوضع الطبيعي، ولا يوجد في القرآن الكريم أي موضع كان فيه إقامة الحجة ولم ينتفع منها صاحبها إلا بينه الله، أما المسكوت عنه فهو يرشد إلى عفو من الله.

كذلك من خلال تتبعي لمنهج القرآن لاحظت أنه دائمًا يكون بين إقامة الحجة وبين حصول العقوبة تكون هناك مساحة من الوقت يكتمل فيها الطغيان، أما هذا الرجل فقد حصلت موعظته بين يدي عقوبته، مما يشير إلى أن لم يفلت من عقوبة الدنيا ونجا من عذاب الآخرة بإسلامه قبل صلبه.

كذلك طبيعة الإنسان أنه إذا علم قرب أجله فإن داعي الفطرة في داخله يكون متألقًا وواضحًا لا تشوبه شائبة، حتى الكفار في عمق البحار عندما يظنون أنهم أحيط بهم فإنهم يدعون الله مخلصين له الدين، أي موحدين وتاركين كل شركهم وراء ظهورهم.

فهذه طبيعة داعي الفطرة، وهذا الرجل قارن دعوته لله تألق داعي الفطرة وانحسار الغيمة التي تهيمن عليه حال انغماس الإنسان في الدنيا وزخرفها، أما لماذا تألق داعي الفطرة!؟ فلعلمه بدنو أجله.

فإذن أضفنا لذلك أن هذه الدعوة لم يكن هناك أي مانع من بلوغها الأثر الحميد لها وتأثر السامع بها واستجابته له، هو أنها كانت في أبعد الأماكن عن الدنيا وزيفها وبهرجتها ووعودها، كانت في السجن الذي فيه انقطاع عن الدنيا.

فهذه القرائن كلها لو نظرنا لها مليًا؛ لشعرنا بقوة أن دعوة يوسف عليه السلام قد آتت أكلها عند الرجلين، ومن الدرجة الأقوى مع الرجل المصلوب للظروف التي

أحاطت به وجعلته أدعى للقبول، وهذه القصة قد تشرح لنا قول النبي ﷺ: "فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" ([10]).

كذلك هناك قرينتان مهمتان جدًا يتعلقان بيوسف ﷺ، حيث وجد نفسه في السجن، صحيح هو طلب السجن هربًا من الفتنة، لكن السجن بلاء عظيم وكل بلية معها عطية، والأنبياء هم رحماء الأرض، وأعظم هدية لهم هداية البشر على أيديهم، فالنبي الأعظم كان إذا رأى جنازة كافر يقول: "فلتت مني إلى النار". وكان إذا هدى على يديه أحد يقول: "الحمد الله الذي أنقذ بي نفسًا من النار". وكلام النبي ﷺ للإمام علي: "لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم".

فهذه هي سعادة الأنبياء، ويوسف المظلوم يحتاج تسلية لقلبه بالذات عند دخوله السجن، وأعظم تسلية له أن يأتيه رجل سيحكم عليه بالموت فيكون سببًا لنجاته قبل موته، كذلك هنا درس عظيم في القدر، حيث يرى يوسف ﷺ أن بالسجن قد يضيع عمره؛ فتأتيه مفاجأة التوقيت ليرى تدبير الله ويعاينه، فدخولك السجن في هذا التوقيت له حكمته، ولو تأخر قليلًا لما حظيت بهذا الرجل تدعوه لله قبل موته، فأنت دخلت السجن بهذا التوقيت لتكون سبب نجاة لرجل، ويكون رجل سببًا لنجاتك؛ إنه التدبير.

هذه قرينة قوية.. والأقوى منها هو طبيعة الرؤية، فهي منذرة جدًا، والمعلوم أن الرؤى إذا كان فيها ما يسوء فلا يفضل تعبيرها، لكن يوسف عبرها له، وقال له: إنك ستصلب وتأكل الطير من رأسك، تأويل مفزع جدًا.. وذكره هنا له حكمته، وهو أدعى للنبي لكي يواسي صاحب الرؤية، وأعظم مواساة هو الدعاء له والحرص

[10] أخرجه البخاري.

الشديد على هدايته ليكون رحمة له، وليس فألًا سيئًا له فقط ببشارته بالموت قبل حصوله.

هذه قرائن قد لا يفهم أسرارها الكثيرون، فهي تحتاج لأولي الألباب لكي يتدبروها ويقرؤوا أسرارها، فالحدث وتوقيته وتفاصيله ومعطياته ولوازمه وسننه، كلها بمجموعها ترشد إلى أن المصلوب قد نالته عقوبة الأرض ونجا من عقوبة السماء في اللحظة الأخيرة.

ولعل هذا من أسرار قول الله ﷻ في آخر قصة يوسف عليه السلام: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [يوسف١١١]، فهي عبرة وتفصيل بما تتضمنه من إشارات تتعلق بسنن الهداية والرحمة الإلهية، أو هدى ورحمة لقوم يؤمنون.

أما القرينة الأخيرة عندي ولن أشرحها فهي طبيعة الرؤية نفسها، فلو رأى طيرًا ينقر رأسه لأشارت إلى الموت، فإن كانت طيورًا أشارت إلى الصلب، لكن خبزًا فوق الرأس تأكل الطير منه؛ فهذه لها دلالاتها العميقة جدًا، وما يعقلها إلا العالمون. والرجل بإذن الله نجا وهذا ظني بربي.

* * * * *

دعاء زكريا عليه السلام

عندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن بعض الأنبياء تتمحور قصتهم نحو قضية مركزية هي موطن العبرة المتعلقة بهم، من هؤلاء زكريا ، حيث لم يُذكر في القرآن إلا في مسألة كفالته لمريم، ودعاءه لله الدعوة الخاصة بالولد، وقصة دعاء زكريا هي التي نالت المجال الأوسع من قصته، بل قصة كفالة مريم سيقت كتمهيد لموضوع الدعاء.

والقرآن الكريم جاء ليضرب للإنسان من كل شيء مثلًا، ودعاء زكريا هو يدخل ضمن الأمثال التي ضربها الله لكي نفهم عنه سننه مع عباده.

والمعلوم أن كل الأنبياء هم من أهل الدعاء بين يدي الله ، فلماذا كان ذكر دعاء زكريا على وجه الخصوص!؟ ولماذا الإسهاب والتوسع في جزيئاته كما في سورة مريم!؟ هذا ما نحاول البحث عن دلالاته في هذه المقالة.

أولًا: دعاء زكريا والفئة الدعائية المنتمية إليه.

جاء ذكر دعاء زكريا في سورة الأنبياء، بعد ذكر استجابة الله لأيوب الصابر وليونس المسجون في بطن الحوت، فهذه الحالات الثلاثة انتهت في السورة بقوله : "فاستجبنا له..."، لكن مع اختلاف نوع الإجابة في كل حالة، ففي أيوب كشف بلاء وفي يونس نجاة وإذهاب غمة، وفي زكريا إكرامه بيحيى.

والرابط بين هذه الدعوات الثلاثة هو أن الإجابة كانت بعكس الأسباب، وعلى غير المعهود في كشف بلاء أو ذهاب غم وكرب، أو هبة للولد، فهذا الجامع بين تلك الدعوات؛ حيث كان فرج أيوب الماء المتفجر تحت قدميه، وكان فيه الشفاء التام

بعكس الأسباب، وفي يونس كان في قذف الحوت له على الشاطئ، أما في زكريا فكان إعطاؤه الولد مع انقطاع السبب.

وقد جاءت الآيات المبينة للطبيعة المهيئة لمثل تلك الإجابة بعكس الأسباب بقوله ﷻ: "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ٩٠" [الأنبياء]، المسارعة في الخيرات، والدعاء رغبًا ورهبًا، والخشوع والقنوت لله؛ هي من أعظم الأسباب المهيئة لاستجابة الدعاء، حتى لو كان الطلب بعكس الأسباب.

فسورة الأنبياء جاءت لتبرز لنا الأسباب المسبقة التي هيأت للإجابة، لكن قصة زكريا لم تقتصر على ذلك، بل جاء تفصيل للدعاء نفسه بكل حيثياته ويظهر أنها دعوات متكررة.

ثانيًا: العوامل المهيئة لدعاء زكريا عليه السلام.

تجربة الحياة تجربة عجيبة جدًا، وقدر الله لا يمانعه شيء، وإذا أراد الله شيئًا هيأ له ظروفه الخاصة، المتوقع أن زكريا في شبابه قد طلب الولد كثيرًا، ويتصور أنه استسلم للأمر بعدما طعن بالسن خاصة أن زوجه عاقر، ولو كان الولد لكان في مقتبل العمر، وعلم أن لله حكمة في عدم رزقه الولد...، وهذه المعاني متصور حصولها عند زكريا عليه السلام، فعدم طلبه الولد ليس ليأسه بل لاستسلامه لأمر الله وحكمته، وقناعته الخاصة بأن أسباب الولد قد انقطعت.

هنا لا بد من موقف عملي خاص يتجلى فيه العطاء بعكس الأسباب، وهذا الموقف يتكرر يوميًا في مرحلة مخاوف خاصة عند زكريا عليه السلام تتعلق بالنبوة

ووراثتها، هذا الموقف قدره الله على يد صبية في كفالته، إنها مريم عليها السلام، يقول الله ﷻ: "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء" [آل عمران].

زكريا الذي يسارع بالخيرات، الخاشع لله المستسلم لأمره، يأتيه التدبير من حيث لا يعلم، وتأتي له الإشارات المهيئة له لكي يدعو بعكس الأسباب، فقصة مريم جاءت لكي تشجعه على ذلك، وتحضه بقوة في هذا الاتجاه، فهو كلما دخل على مريم في محرابها وجد رزقًا.

(كلما) هنا تشير إلى تكرر الحدث عدة مرات، بل كانت حالة دائمة مستقرة؛ لذا استخدم لها لفظة (كل) المرتبطة بـ(ما) الموحية بالظرفية هنا، و(رزقًا) هنا جاءت نكرة للإشارة إلى عظمة هذا الرزق، يقول بعض المفسرين: أنه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء بالصيف. إذًا هو رزق بعكس الأسباب، وفي المحراب الذي هو المكان المنقطع للعبادة...

هذا الرزق كان محل تعجب من زكريا النبي عليه السلام: (أنى لك هذا)!؟ إنه تعجب من أمر غير معهود ومقطوعة أسبابه، وتكرر الحدث يشعر بأن زكريا النبي عليه السلام كان يتأمل المسألة من كل جوانبها، وكان العجب سيد الموقف عنده، فكان منه هذا السؤال، وكانت الإجابة ببساطة: "هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ".

الله يعطي بالسبب وبدون السبب، ويرزق من يشاء بغير حساب، وقدرته مطلقة فالأسباب هو الذي قدرها، وهي ليست مطلقة من ذاتها، بل تنفعل لأمر الله

الذي شاءها ويشاء غيرها، فلا يمنعه مانع من أمره...، يا زكريا! هو من عند الله، الله الذي لا يعجزه شيء.

درس يومي أمام زكريا يفتح أمامه الآفاق، وهنا قد يتم طرح تساؤل وهو: هل زكريا لم يكن من أهل اليقين ليعيش هذا الدرس؟ طبعًا الإجابة أن زكريا النبي هو من أهل اليقين، لكن منهج الله في الحياة أن يكون التوكل مرتبط بالأخذ بالأسباب والسير وفق السنن الجارية لا الخارقة.

فإذا أراد الله شيئًا بعكس الأسباب هيأ له ظروفه هذا من جهة، أما من الناحية الثانية هو أن زكريا من أهل علم اليقين، لكن هذا الموقف نقله من علم اليقين إلى حال اليقين، وهي نفس الحالة التي طلبها جده إبراهيم ﷷ عندما طلب من ربه أن يريه إحياء الموتى.

ودائمًا حال اليقين هو الذي يجرئ المؤمن على الدعاء بعكس الأسباب، فالدعاء بعكس الأسباب هو حالة خاصة يستدعي ظرفًا خاصًا، لذا: هنالك دعا زكريا ربه؛ لكن ما هو دعاؤه؟ ما دامت الفاكهة تأتي لمريم بعكس الأسباب أو مع انقطاع أسبابها، إذًا يأتي الولد مع انقطاع أسبابه، فالفاكهة من عند الله مع انقطاع أسبابها، والولد من عند الله مع انقطاع أسبابه.

لكن في سورة آل عمران لم يتم التركيز على طبيعة الدعاء بل على جوهره، فهي حالة يقين خاصة وفي عمقها دعا دعوته: "هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ"، فهذه دعوة من عمق حال اليقين التي عاشها زكريا، وهي تقودنا إلى دعوة أخرى كانت في الخفاء، وفيها قدم زكريا خلالها كل موجبات الإجابة بين يدي دعوته العجيبة.

ثالثا: الدعاء الخفي لزكريا عليه السلام.

جاءت سورة مريم لكي تبرز طبيعة الدعاء الخفي الذي دعاه زكريا، وكان هذا الدعاء مقدمًا على ذكر مريم نفسها صاحبة السورة، هنا بدأت السورة ببيان رحمة الله بزكريا، يقول الله سبحانه وتعالى: "ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا" [مريم]، هنا المقام مقام رحمة، ورحمة تحتاج منا إلى ذكر وتذكر وتأمل، رحمة بزكريا بإقحامه في تجربة من حال اليقين، ثم في تهييجه للدعاء، ثم في نوعية الاستجابة التي كانت من باب الرحمة لا النعمة، فالولد هو نعمة لوالديه، لكن أن يكون الولد نبيًا؛ فهذا هو الرحمة بوالديه وبمن حوله، فأن يرزقك الله ولدًا هذا نعمة، لكن أن يرزقك مصلحًا في زمانه فهذا هو عين الرحمة.

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا): والدعاء الخفي هو الذي بين العبد وربه، وزكريا كان نبي أمة، وفي أمره الخاص لم يدع به بين العامة، بل جعله بينه وبين ربه، والدعاء الخفي أدعى للإجابة؛ لأنه حالة خاصة بين العبد وربه، وكلمة نادى هنا إشارة إلى أنه لم تكن مناجاة قلبية، إنما كان دعاءً مسموعًا.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا): الطلب العجيب يحتاج دعاء عجيبًا، هنا كان دعاء زكريا عليه السلام عجبًا، بدأ ببيان ما أصابه من وهن وضعف في عظامه، التي هي عماد جسم الإنسان فهي التي تحمله وتظهر هيكله، ثم بدأ ببيان حالة الضعف التي بدأت على شكله، حيث أصبح شعره أبيضًا مؤذنًا بقرب نهاية رحلته في الدنيا...

ثم قال: (وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)، أي يا رب وأنا في شبابي وفي قوتي كنت أدعوك فتستجيب رجائي فهذا ما عهدته منكم، والمنعم لا يبطل إنعامه بتخييب راجيه، فأنا أدعوك وأتوسل إليك بما عهدته منك، بألا تخيب رجائي حال ضعفي كما

لم تخيب رجائي حال قوتي، وهذا التقديم العجيب بين يدي الدعاء إنما كان لأنه سيطلب شيئًا بعكس الأسباب، وهو الولد مع انقطاع أسبابه.

"وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦" [مريم]، أعظم الأدعية وأدعاها للاستجابة هي تلك الأدعية المشفوعة بهدف سامي، فهو هنا لم يطلب لنفسه، بل طلبه خوفًا على الدين وعلى ميراث النبوة من ضياعه.

إنما طلبه من باب الرحمة لا النعمة، فجاءته الرحمة نبي لم يجعل الله له من قبل سميًا، هنا أبرز زكريا خوفه من الموالي من بعده على دين الله، وامرأته عاقر لا تنجب، لكنك يا رب تعطي بعكس الأسباب، فيا رازق مريم فاكهة الشتاء بالصيف ارزقني الولد واجعله رب رضيًا.

إذًا هنا بين زكريا عليه السلام مغزاه من طلب الولد، إنه ليس لحظ نفسه، بل رعاية للدين، وهو عين الهدف الذي أبرزه موسى عليه السلام عندما دعا الله بأن يشرح صدره، ويجعل هارون وزيرًا حيث شفع دعاءه بقوله: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا".

وهنا قال زكريا: "وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا"، فهذا هو المحور الأساسي الذي يدور حوله كل طلب زكريا ودعائه، إنه إقامة الدين في الأرض.

نفهم من ذلك أن دعاء زكريا كان أهم محور من محاور قصته، وجاء الدعاء ليرشد إلى حالة خاصة تبرز قدرة الله ورحمته في تهيئة الظروف لعباده المخلصين، وقد بين الدعاء أهم الأسباب الموجبة لقبول الدعاء خاصة بعكس الأسباب، والتي من أهمها: أن يكون صاحبها من أهل الحق السابقين في الخيرات المسارعين لها، وأن يكون الدعاء باليقين التام بالله سبحانه وتعالى، وأن يكون الدعاء بطبيعته في تودد من

خلال التقديم له بمسوغات موجبة للاستجابة، ومشفوعًا بهدف ديني سامي كمغزى للدعاء وباعثٍ له.

*****

سورة النحل وأمر الله

سورة النحل من السور العجيبة، من يقرأها يستشعر أمرين بكل وضوح:

الأول: عظيم نعمة الله وعظيم جحود الإنسان.

عظم المنة الإلهية على البشر في كل شيء حولهم، وبالمقابل تقابل عظم المنة بعظم الجحود الإنساني، فالسورة بمجملها يشير إلى مدلولها هذا الحديث القدسي، يقول الله ﷻ: "أنا والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بالنعم وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أحوج الأشياء إلي".

السورة بدأت بقوله ﷻ: "أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"، ثم بعد ذلك مباشرة بدأت تعدد نعم إنزال الوحي، وخلق السموات والأرض والإنسان، ونعمة الأنعام التي فيها دفء ومنافع ومآكل وزينة، ثم نعمة إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من إنبات، ونعمة تسخير الأفلاك العلوية (الشمس والقمر والنجوم) لخدمة الإنسان، ثم نعمة تسخير البحر وكائناته وكنوزه للإنسان.

وبعد ذلك جاء الآيات للإشارة لأمر عظيم: "أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ"، هنا الخالق هو الله ويقابل بالشرك وعبادة غيره، ثم بينت الآيات أن نعم الله فوق أن تحصى، ثم بعد تقرير التوحيد وخطورة الشرك تأتي الآيات لتذكر مرة أخرى بالنعمة: "وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ".

ثم ترجع الآيات مرة أخرى للتذكير بنعم الله من الآية ٦٤-٨١، وأكثر الآيات تبدأ بكلمة (والله) ثم تعدد النعم وتعالج ظاهرة الشرك، ثم بعد ذكر كثير من النعم تأتي الآية: "يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ٨٣" إنها نفس الفكرة التي تدور حولها السورة: (أخلق ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي)، ثم يتم معالجة موضوع الشرك ويرجع التأكيد على موضوع النعمة من جديد: "فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١١٤"، ثم تذكر السورة بإبراهيم بوصفه (شاكرًا لأنعمه).

إذا الموضوع الحيوي الذي تدور عليه السورة من أولها إلى آخرها؛ هو تعداد نعم الله والتذكير بها في ظل جحود إنساني، بل إضافة للجحود الإنساني كان هناك أمر آخر هو الأمر الثاني المحوري.

الأمر الثاني: رافق الجحود حالة مكر قوية تقابل بالأمر الإلهي.

وهذا الأمر استدعى التذكير بقرب أمر الله في بداية السورة، بمعنى أن قوى الظلام في الأرض ومكرهم محاط بأمر عظيم منهم قد أتى، وهو في طور المباغتة في كل لحظة...؛ فبداية السورة لها علاقة مباشرة بكل الجهود الظلامية في الأرض، وبما تظنه أنها تمكنت وهيمنت على كل شيء.

ولتقرير الأمر جاءت الإشارة في وسط السورة إلى جانبين من جوانب التعامل مع المكر، يقول الله ﷻ: "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ٢٦"، إذًا أهل المكر دائمًا يتعرضون لضربة في القواعد؛ تنهي كل بنائهم من صاحب القوة العظمى، وهذه سنة الله الماضية إلى قيام الساعة، هذه الآية تذكر بسنة ماضية وقعت في الماضي في حق الماكرين.

ثم تأتي الآيات للإشارة إلى سنة مستقبلية تفصيلية لضربة في القواعد؛ أمن منها أهل المكر، يقول الله ﷻ: "أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ٤٧".

هذه الآية تحكي عن أشكال كثيرة من العذاب، قد تصيب أهل المكر في كل لحظة، فهم يشعرون أنهم بمأمن من صاحب القوة العظمى؛ وجاءت هذه الآيات لتذكرهم بأنهم ليس في مأمن، وكل الخيارات السابقة واردة في حقهم في كل لحظة من حياتهم.

ثم تختم السورة مع صاحب الرسالة لتطالبه في الصبر؛ لأن المعية العليا هي معه ومع كل محسن متق...، وفي ثنايا الآيات يأتي التذكير بالمكر: "وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨"، وبعد المكر والصبر عليه جاء الإسراء لصاحب الرسالة الأول، وبعد المكر العالمي في عصرنا جاءت بشارة النصر، في سورة الإسراء في وعد الآخرة: "وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا".

سورة النحل تحمل سرًا عظيمًا، لم تستوعبه هذه الكلمات القاصرة، خاصة أنه في وسطها كانت هذه الآية العظيمة: "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ

رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٣٣"، إنه نفس الأمر الذي بدأت به السورة، وهو نفس الأمر الذي أشار إليه النبي عليه السلام بقوله: "حتى يأتي أمر الله" في بعض علامات الساعة، ويقولون متى هو.. فقل انتظروا إنا منتظرون.

*****

تساؤل: الترتيب في سورة الشعراء

هذه مقالة سريعة كتبتها على عجالة، ردًا على استفسار أحد متابعي المدونة على مسألة ترتيب القصص في سورة الشعراء وعلاقته بالترتيب التاريخي.

سورة الشعراء: كيف نفهم القرآن الكريم؟

القرآن الكريم كتاب شمولي مطلق يجمع بين الغيب والشهادة، هذا الكتاب بدأه الله بعبارة اقرأ باسم ربك...، وهذه العبارة لي معها وقفة طويلة، قد تكون سلسلة متصلة نستكشف من خلالها أحد مفاتيح القرآن الكريم.

لكن ما يعنيني هنا أن القراءة باسم الله معناها أن القرآن يأتي من خلال كشف غيوب الماضي والمستقبل ومكنونات النفس، بطريقة تسير مع الدعوة وفق الأحداث التي يمر بها، فيكون القرآن بذلك هو المعين له، ليقرأ الواقع قراءة مستوفية يعبر من خلالها للمستقبل، ويعالج بها الواقع.

لذا نجد لكل سورة وحدتها الموضوعية المرتبطة بمرحلة خاصة في الدعوة التي يمر بها صاحب الدعوة من جهة، وهي بإحاطتها تشير إلى المستقبل بكل حيثياته، وهذا سر القرآن وإعجازه.

سورة الشعراء بدأت بـ"طسم"، والكلمات المقطعة ما زالت سرًا مغلقًا لم يكتشف، وقد قرأت في مقاطع السور أكثر من عشرين رأي، ولم يشف غليلي أي واحد منها، لكن أقرب التصورات عندي أن هذه البداية في كثير من السور تشير إلى بدايات أصول اللغة عند الإنسان، والتي بدأت بالحرف ثم باثنين ثم بثلاثة.

حيث أن الحرف في بدايات اللغة يرمز لمعنى كامل كما أن حرف الألف، يرمز للثور في اللغات القديمة السابقة للعربية المعهودة لدينا.

ووفق ذلك يحتمل أن طسم أشارت إلى مراكز الطهارة والنور، التي ارتبطت بثلاثة من أولي العزم، والذين سيذكر اثنان منهم على الترتيب، (ط، س): يرمزان لموسى عليه السلام وجبل طور سيناء، وهو جبل النور والتكليم، وجبل الطهارة والتقديس (الوادي المقدس طوى).

أما ميم فترمز إلى مكة التي تمثل البداية العظمى لإمام الحنيفية إبراهيم عليه السلام، وهي التي حوت في داخلها أول بيت وضع للناس، وكانت مركز إبراهيم الأول للدعوة العالمية لله لفريضة الحج (وأذن في الناس بالحج)، وأضحت أيضًا مركزًا للعالمية الأولى التي تمثلت بمحمد عليه السلام، وفيها أيضًا جبل النور جبل حراء الذي بدأت فيه الرسالة الخاتمة، فمن الطور إلى جبل النور كانت أعظم رسالات يظللها أبو الأنبياء.

لذا كانت هذه البداية والله أعلم: (ط) طور (س) سيناء (ميم) مكة. وهي مواطن الطهارة والقدسية والنور، وسنلحظ أن السورة بدأت في القصص بصاحب الطور موسى عليه السلام (طس)، وثنت بإبراهيم عليه السلام صاحب مكة (م).

هذه لمحة سريعة بخصوص طسم، وترتيب قصة موسى عليه السلام قبل قصة إبراهيم الخليل، لكن ترتيب القصص بسورة الشعراء بالذات له لطيفة أخرى، لها تعلق بصاحب الدعوة الأول (محمد عليه السلام) ومرحلته الدعوية، والقراءة المطلوبة منه في المرحلة ليتخطاها وفق المنهج المعد لها؛ لذا جاءت القصص لتراعي هذا السياق لا السياق التاريخي.

فالسورة نزلت في مرحلة كان التكذيب لصاحب الدعوة والتعذيب للأصحاب على أشده، وهذا الواقع المؤلم في ظل قراءة النبي عليه السلام التي بدأت في العلق للإنسان والكون والحياة، وما ينتظر هؤلاء المكذبين من عذاب.

أقول هذا الواقع كان له أثره النفسي على صاحب الدعوة، وهو لا يجد أفقًا واضحًا لهؤلاء المكذبين، قد يتصور من خلاله أنهم يمكنهم أن يؤمنوا بالله، أو يخففوا من هجمتهم على الضعفاء والمساكين من أتباع النبي عليه السلام، فالواقع مركب.

لذا جاءت سورة الشعراء كوحدة عضوية واحدة لترسم المسار للنبي عليه السلام وتربط على قلبه، فبدأت هذه البداية القوية التي تعتبر إكمالًا للأمر بالقراءة في سورة العلق، يا محمد عليه السلام: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...".

"تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" [سورة الشعراء].

فجاءت بعد التنبيه لآيات الكتاب الواضحة البينة ذات الحجة الدامغة، ببيان حال النبي ﷺ: "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"، أي لا تهلك نفسك بسبب عدم إيمانهم؛ لأن الأمر بيد الله.

بعدها جاء التهديد الأعظم الذي يستوعب حال كفار قريش من جهة، وينتقل بالزمان عبر العصور عند حدث متوقع في كل لحظة: "إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ"، فهذا التوصيف يصدق بقوة على الآية التي تكون مع الشمس قبل العالمية الثانية، والأمر معلق بالمشيئة؛ لكن ذكره إشارة إلى حتمية حصوله عبر الزمان.

وهذه الآية تحتاج صفحات للتفصيل بها، لكن ختم الأمر بقول الله: "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"، فهو عزيز لا يمنعه مانع من الانتقام من المجرمين، ورحيم يمهل عباده ويكثر من إعذارهم. وما تراه يا محمد (ﷺ) لا يخرج عن مقام العزة والرحمة.

وهي تجربة من سبقوك؛ لكن هنا لماذا البداية كانت بموسى ﷺ؟ ولماذا كانت البداية بعيدًا عن الحوار الطويل في الطور!؟ بل مباشرة تم ذكر التكليف فقط: "وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ".

هنا سر القرآن الكريم كما بينت في بداية المقال من أن كل سورة جاءت لتعالج مرحلة، فالنبي محمد ﷺ تحصل لديه أتباع، وهؤلاء الأتباع مستضعفون، وفي ذات الوقت هناك طغيان وعلو وكفر، وعدم تغير الحال مع طواغيت مكة وأكبرهم فرعون قريش (أبو جهل)، فالنبي ﷺ لا يستطيع أن يغير حالهم، ولا أن يستنقذ الضعفاء منهم؛ مما أثر على نفسيته وأصبح باخعًا ألا يكونوا مؤمنين.

هذا الظرف النفسي وطبيعة المرحلة الدعوية تطلبت هذه المقدمة، التي ختمت: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). وأقرب قصة لرجل له أتباع مستضعفون تحت قبضة طاغية متجبر هي قصة موسى ؛ لذا طبيعة المرحلة والسياق تطلب الدخول بالقصة هنا مباشرة.

وبعدها جاءت تجربة إبراهيم التي اختلفت في تفاصيلها عن قصة محمد ، لكنها أيضًا تسلية للنبي بجده الذي عاش تجربة صراع مريرة انتهت بانتصاره، خاصة أن النبي جاء لإحياء ملة جده.

فالترتيب هنا ناسب حال النبي ، وكان يسير مع وضعه النفسي، أكثر من سرد قصصي له ارتباط تاريخي. بعد قصة موسى وإبراهيم ، واللتان جاءتا وفق ترتيب معين يتناسب مع المرحلة والوضع النفسي الذي يمر به النبي ؛ بعدها جاءت خمس قصص، هذه القصص ليس فيها نفس الدواعي، بل الأهم فيها هو الإشارة إلى التكذيب ثم انتصار النبي بعد الابتلاء والعناء.

فالقصص الخمسة لا حاجة فيها لمخالفة ترتيبها التاريخي؛ لكنها سيقت للنبي بعد تسليته بقصة موسى وإبراهيم، لإكمال مسار المعالجة للحدث الذي يمر به النبي ، لذا إن كذبت قريش فهو امتداد لتكذيب على مدار البشرية من لدن نوح إلى شعيب، لذا بدأت كل قصة بكلمة (كذبت): "كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ"، "كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ"، "كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ"، "كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ"، "كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ".

هنا القصص الخمسة جاءت وفق الترتيب التاريخي. هذه مقالة كتبتها على عجالة؛ لبيان فقط جانب من جوانب الترتيب في القرآن الكريم، وإلا فسورة الشعراء مليئة بالأسرار.

سورة الشعراء وحجب الغيب

بينت في المقالة السابقة أن القرآن الكريم كتاب شمولي مطلق يجمع بين الغيب والشهادة في آن واحد، وجاء ليعايش المرحلة، وفي ذات الوقت يكشف الماضي والمستقبل ومكنونات النفس، فحجب الغيب الثلاثة تعامل معها القرآن الكريم في ذات اللحظة التي كان يعايش المرحلة.

والمرحلة التي كان يمر بها النبي عليه السلام وصحابته، جاءت السورة بمعالجات له مكتملة تحت بند: اقرأ باسم ربك. أما مسألة حجب الغيب وكيف أبرزت جوانب منها خلال السورة؛ فهذا بيانه في هذه المقالة من خلال مثال واحد، وليس ملاحقة واستيعاب فهذا يحتاج لكتاب كبير.

هذه السورة تحكي مرحلة تكذيب قريش لرسالة محمد عليه السلام، وأبرزت جانبًا من الحكمة الإلهية في التعامل مع المكذبين مبنية على مقام العزة والرحمة، فالله لا يمنعه مانع من الانتقام من أعدائه (مقام العزة)، وهو يمهل ويلقي المعاذير لعباده من جهة، ومن جهة أخرى يغيث عباده الصالحين في التوقيت المناسب، بعد خروجهم من فرن الابتلاء المقدر لهم (مقام الرحمة).

وجاء التعبير عن مقام العزة والرحمة هنا بعبارة أصبحت لاحقة متكررة مع كل قصص الأنبياء المذكورة في سورة الشعراء: "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ".

وهذه الصيغة تحمل من الدلالات الكثير، وفيها تثبيت للنبي عليه السلام ولأتباعه إلى قيام الساعة، حيث بدأت بحرف توكيد، ثم استخدام مقام الربوبية الذي يعني

التربية والعناية، وإضافته للنبي ﷺ (ربك) وهو رب العالمين، فهذا من باب الخصوصية وإمعان العناية.

ويقابله ذات الأسلوب الذي خاطب فيه النبي الكريم بلفظ العبد، بالرغم من أن كل البشر هم عبيد لله كما في بداية سورة الإسراء، فهنا كلمة ربك بهذه الخصوصية هي تأكيد على مطلق العناية الخاصة بالنبي ﷺ، وكل عبد صادق على مدار التاريخ. ثم بعد ذلك جاء المؤكد الثاني والثالث وهو اللام المرتبطة بالضمير هو (لهو).

فهذه اللاحقة المتكررة في نهاية قصة كل نبي تشير إلى ميزان ومنهج، لا بد من اعتباره في صراع الحق والباطل، وجاء بيانها بالأمثلة في الماضي من خلال قصص سبعة من الأنبياء.

لكن المهم أنها جاءت بعد ذكر التهديد الرباني الأعظم: "إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ"، بما يوحي أن هذا التهديد قائم، وستعايشه أمة محمد ﷺ في التوقيت المناسب، والمتابع الآثار التي تشير إلى حدوث عمود أحمر في السماء، أو نجم ذو ذنب يستمر في السماء، أو الرواية التي تشير إلى أن المهدي لا يخرج حتى تكون مع الشمس آية، وهذا باب استوعبته في المدونة قبل ذلك.

فالأوصاف لهذه الآية هي ذات الأوصاف التي تشير إليها الآثار بما يتعلق بمسألة الهدة (الراجفة) أو الكسف، أو النجم المتبدي له نور كالقمر، أو غير ذلك من الآثار، فسورة الشعراء في معرض الحديث عن مصارع الأقوام عبر التاريخ،

كشفت حدثًا أو جانبًا من حدث عظيم سيكون في المستقبل، يترتب عليه مصارع الأقوام في المستقبل. ([11]).

(فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ): تحمل توصيفًا لحال الناس مع الآية، وهو التسمر في المكان من عظم المفاجأة، والخضوع بذهول لهذه الآية التي هي غير معهودة عليهم، وما يترتب على ذلك من فزع قبل حدوث الارتطام (الراجفة)، والتي تشير إلى الآزفة.

هذه الراجفة التي تمثل جزءًا من قدر الله المستقبلي، الذي تسخر له جنود السماء، وهو اليوم الذي تأتي فيه الملائكة كما صرحت كثيرًا من الآيات، منها الآية في سورة الأنعام: "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ" [الأنعام١٥٨].

أما عن هؤلاء الملائكة فقد جاءوا لمهمة عظيمة أشارت إليها سورة النازعات، يقول الله ﷻ: "وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) [النازعات].

فالنازعات هي الملائكة وهي المدبرات أمرًا، في إطار الصراع بين الحق والباطل (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)، والراجفة هي الآزفة وهي الهدة في الآثار وهي (القيامة الصغرى)، وهي يوم تأتي السماء بدخان مبين، أما الرادفة فهي التي تأتي بعدها وهي يوم القيامة الكبرى، وهي البطشة الكبرى التي تأتي بعد آية الدخان كما بينت سورة الدخان.

---

[11] انظر الرابط التالي لتكتمل الصورة بخصوص الآية:
http://mausoaa.blogspot.com/2016/02/blog-post_18.html

والغريب أنه في آخر قصة من قصص الأنبياء في سورة الشعراء، جاءت الإشارة للكسف من باب التهكم من قوم شعيب: "فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" [الشعراء١٨٧]، وهو ذاته الطلب من النبي محمد ﷺ في سورة الإسراء: "أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلًا" [الإسراء٩٢]، لكن في سورة الإسراء كانت التهديد حاصل لهم من النبي ﷺ؛ لذا قالوا: (كما زعمت).

مما يشير إلى أن الآية المذكورة في سورة الشعراء، والتي تظل الأعناق لها خاضعة هي من الأمر المستقبلي الذي يتوقع حصوله.

إذًا القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه عالج المرحلة الآنية التي كان يعايشها النبي ﷺ وصحابته في مرحلة دعوية صعبة، وفي ذات الوقت كشف حجب الغيب المستقبلي ليعالج مرحلة أخرى قبل العالمية الثانية للإسلام، (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)؛ جاءت لتؤكد أن هذا الأمر سنة ماضية، وجارية في الماضي والمستقبل، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

* * * * *

المرآة الصقيلة ورؤية الله

سئل الإمام علي: هل رأيت ربك؟ فقال: كيف أعبد إلهًا لا يرى؟ إن لم تراه الأبصار بالعيان، رأته القلوب بالإيمان.

إنها الرؤية التي ما فتئ القرآن ينبهنا لها بين الأموات، فالذين يمشون على الأرض صنفان أموات وأحياء، أما عن الأموات فقد قال الله ﷻ: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" [الحج٤٦].

إنها حالة موت البصيرة التي تحرم فيها الروح من الرؤية والسمع والتعقل، إنه عمى القلوب، أما الأجساد فهي قبور لتلك الأرواح؛ لذا جاءت الآيات لترشد إلى تلك القبور بقوله ﷻ: "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ" [فاطر٢٢].

إنها تلك القبور التي تمشي على الأرض، فالروح ميتة ويبقى الجسد يأكل ويتغذى بطريقة حيوانية بعيدة عن إنسانيته، بعد أن تم القضاء على الروح الكامنة فيه، فهو فقط جسد حيواني يتمتع، يقول الله ﷻ: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ" [محمد١٢].

إنهم كما وصفتهم الآية يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، إنها الحياة الحيوانية والموت الإنساني بكل معانيه، إنهم شر الدواب عند الله يقول الله ﷻ: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ" [الأنفال٢٢].

أما حياة الروح التي ترزق الإنسان رؤية الحقائق، فقد أشار الله ﷻ لها بقوله ﷻ: "أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" [الأنعام١٢٢].

إنه كان ميتًا يمشي على الأرض فأحياه الله بنور الإيمان، فأصبح بنوره يمشي بين الناس، يرى ما لا يرون ويسمع ما لا يسمعون ويدرك ما لا يدركون، إنها تلك الروح الشفافة ذات الأنوار النافذة الكاشفة لحقائق الأشياء، يرى من خلالها أن الكون كله له مدبر واحد، يسجد به كل شيء ويسبح له كل شيء.

يرى الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، يرى عواقب الأشياء ماثلة بين عينيه، ويرى تدبير الله لمملكته...، إنها رؤية تستجلب في كل لحظة المزيد من إله عظيم قال: "لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ" [ق:٣٥].

فكما أنه في الجنة بعد النعيم الحسي العظيم هناك المزيد من النعيم الروحي بالتنعم برؤية الله حقيقة؛ فكذلك جنة المؤمن الحي في الدنيا، فالمزيد فيها هو رؤية الله بالبصيرة الإيمانية، أما رؤيته في الأبصار ففي الدنيا محال، إنها رؤية عجيبة أرشدت لها كثير من الآيات لتدلل عليها.

رؤية الكون الساجد لله:

يقول الله ﷻ: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ" [الحج١٨].

هكذا بدأت الآية لتلك الأرواح المستبصرة بطلب الرؤية: ألم تر؟ فتجيب تلك الأرواح ربها: يا رب رأينا سجود الكون العلوي والسفلي لعظمتك، فها هو ماثل أمامنا ويستجيب لأمرك العظيم، فنظامه الدقيق الموحد يدل صراحة على سجوده وانصياعه لمنظمه الواحد. فكل حركة وكل سكون في الكون يدل عليك وعلى الانصياع لأمرك:

وفِي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ * تَدُلّ على أنّهُ الواحِدُ

أما الأموات فإنهم لا ينتفعون بهذه الآية؛ لأنهم ليسوا أهلًا بتلك الرؤية.

رؤية الكون المسبح:

وهذه الرؤية أرشدت لها آيات كثيرة منها: قوله ﷻ: "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" [الإسراء٤٤]، فكل شيء في الكون هو مسبح لله، فالطير سبحه والوحي مجده، والموج كبره والحوت ناجاه، والنمل تحت الصخور الصم قدسه، والنحل يهتف حمدًا بخلاياه، والناس يعصونه جهرًا والعبد ينسى والرب ليس ينساه.

وأذكر أن أحد طلبتي يومًا سألني بعد حديثي عن الكون المسبح قائلًا: يا أستاذ هل القلم الذي في يدي يسبح لله!؟ فأرشدني الله لهذه الإجابة حيث قلت: هذا القلم مكون من ذرات، والذرة عبارة عن نواة وبروتون وإلكترون، وهناك حالة طواف حول النواة...، حالة الطواف هذه بعكس عقارب الساعة، وهي تشبه طواف الأجرام السماوية وتشبه طواف الناس حول الكعبة، والطواف حول الكعبة دون أي عمل آخر لوحده كفيل بإسقاط الفريضة.

فهو أرقى أنواع التسبيح؛ لذا انسجام الكون وطاعته للسنن الربانية وطوافه وأداؤه وظيفته المنوطة به هو نوع تسبيح؛ لأنه بهذه الطاعة يرشد إلى الله ﷻ، وقد يكون ما ذكرت هو جزء من تسبيح الأشياء حولنا، لكن مطلق التسبيح فهو مما لم نفقه.

رؤية الكون المتألم:

وهنا تكتمل رؤية المؤمن؛ حيث يرى تألم الكون الساجد المسبح لكل تجديف وكفر في الأرض، وقد أشارت لهذا المعنى كثير من النصوص، أكتفي هنا بمثل واحد من القرآن الكريم، يقول الله ﷻ: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا" [سورة مريم].

فالإنسان أحيانًا لا يعلم عظمة جرمه وتجديفه في حق الله، لكن الكون يدرك ذلك؛ لذا جاءت الآيات هنا لتنبه القلب المؤمن والمرآة الصقيلة ليرى ما لا يراه غيره، وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا؛ إنها فرية عظمى ارتكبها الإنسان في حق الله. لقد جئتم شيئًا إدًا...، ثم بدأت الآيات تبين كيف تعامل الكون مع هذه الفرية، فالسموات على عظمتها تكاد أن تتفطر، والأرض على صلابتها تكاد أن تنشق، أما الجبال الشماء العظيمة فهالها الأمر، وتكاد تتحول إلى كثيبًا مهيلًا لعظم الفرية في حق الله.

هذه الرؤية ترشدنا إلى أن الكون حولنا ينفعل مع الطاعة والمعصية، لكن بكيفية لا نراها بأبصارنا ولكن شفافية البصيرة تدركها، بل الكون يتأثر فسادًا وصلاحًا بفساد الإنسان وصلاحه، يقول الله ﷻ: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" [الروم٤١].

إنها سنن مترابطة فيما بينها، وأي حالة فساد بشري لا محالة يترتب عليها فساد كوني، وأي حالة صلاح بشري يترتب عليه استجابة كونية: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" [الأعراف٩٦]، ولا يرى هذه المعادلة إلا أولو العلم وأصحاب الأرواح الشفافة، التي بها يدركون حركة الغيب من خلال ستار رقيق.

الرؤية الشفافة وانسجام الكون معها:

عندما تكون مرآة القلب صقيلة جدًا؛ تتكشف من خلالها الحقيقة التي أخفتها حجب النفس، عندها ينتقل صاحبها من الرؤية إلى الانسجام والاستجابة، وأصدق مثال على ذلك سيدنا داود عليه السلام؛ فقد ارتقى برؤيته فتفاعلت الموجودات معه يقول الله سبحانه وتعالى: "وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ" [الأنبياء٧٩]، "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ" [سبأ١٠].

إنه الانسجام والتفاعل بين الكون وبين عبد من عباد الله، وانكشفت الحجب وتلاقت التسابيح بين السماء والأرض، وذكر الأمر بالقرآن الكريم يشير إلى أنه سنة ماضية لكل من ارتقى بنفسه الشفافة ليرى الله بقلبه.

إنها ذات الرؤية التي رآها يشوع بن نون عندما خاطب الشمس، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلاَ أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلاَ أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلاَدَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاَةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ" ([١٢]).

رؤية العبد للرب:

[١٢] أخرجه البخاري.

عندما ترتقي النفوس العابدة، وتطير الأرواح في الملكوت وتغيب في عالم الجبروت، فإنها ترى إلهًا عظيمًا مكينًا، على العرش استوى يدبر الأمر يصرف الآيات، يخفض القسط ويرفعه، يرفع أقوامًا ويضع آخرين، يغفر ذنبًا، ويفرج همًا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا ويفك أسيرًا، وينصر مظلومًا ويقهر جبارًا...، إنها رؤية لا متناهية لصفات الله وأسمائه التي تتجلى في كل لحظة علينا، ولكن أكثر الناس غافلون.

هل رأيت ربك؟ وكيف أعبد إلهًا لا يرى؟ إن لم تراه الأبصار بالعيان رأته القلوب بالإيمان...، إنها تجليات المشكاة التي استنارت بنور الفطرة ونور العلم؛ فتراكمت الأنوار وانكشفت حقيقة الديار.

هذه مقدمة لمقالة مطولة جدًا عن الرؤية يعيش من خلالها قلب المؤمن متقلبًا بين أسماء الله وصفاته، مراقبًا آثارها وتجلياتها العظمى خلال المسيرة الإنسانية.

*****

أيوب عليه السلام والفرج (سر من أسرار آية)

استوقفتني قصة أيوب عليه السلام، أو اللحظات الحاسمة فيها، وهي قوله سبحانه وتعالى: "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ"، فهذه الآية تمثل الاستجابة الربانية لأيوب عليه السلام، وتمثل بداية الفرج.

لكن استوقفني قول بعض المفسرين في المراد بها، حيث أشاروا أن الله قد طلب من أيوب عليه السلام أن يجري نحو جدول ماء، فيغتسل ويشرب منه، ويكون به شفاؤه. هل هذا مدلول الآية؟ من ينظر للآية يجد أنها تحتمل معنى آخر، هو الأرجح دلالة من الناحية اللغوية، ومن الناحية السننية والإعجازية.

للتوضيح:

لو كان مقصود الآية الجري؛ لقال الله اركض بدون رجلك، لأن الركض لا يكون إلا بالرجلين، والقرآن يتميز بالإعجاز والإيجاز، مع الإفاضة بالمعاني. واستخدام الرجل مع الركض هنا إطناب، لا دلالة إلا إذا كان الركض له معنى آخر غير الجري والسعي.

وأضيف هنا لو كان المقصود به الجري أو السعي؛ لقال اركض برجليك، ولا يقال هنا أن الركض في حقيقته يحصل برجل واحدة، فهي التي تضرب الأرض بينما الأخرى تكون معلقة في الهواء مع هبوط الأخرى على الأرض، لا يقال ذلك لأن حقيقة الجري والسعي لا يكون إلا بالاستعانة بالرجلين معًا.

ما معنى "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ" في الآية؟

الركض في حقيقته الضرب بالأرض؛ لذا نسمي ماء زمزم (ركضة جبريل)، بمعنى أن جبريل ضرب الأرض برجله فنفرت منها ماء زمزم.

اركض برجلك هنا معناها: اضرب يا أيوب الأرض مستعينًا برجلك، اضرب تحت قدميك الأرض مستعينًا برجلك، يكون الفرج، وينفر من الأرض ماء به شفاؤك داخليًا وخارجيًا "مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ".

والقرينة هنا في الآية استخدام اسم الإشارة للقريب: "هَٰذَا مُغْتَسَلٌ"، ولو كان المقصود جدول يسعى إليه؛ لاستخدمت الآية اسم الإشارة للبعيد: (ذلك مغتسل بارد وشراب).

وهذا المعنى هو الأنسب لغويًا وسننيًا لقصة أيوب، فالكون كله لله. الأسباب في الأرض تخضع لمسبب واحد، يقلبها كيف يشاء، وأيوب عاش تجربة ابتلاء عصيبة جدًا، فناسب الأمر أن تكون نصرته بحجم الابتلاء، لذا كان فرج أيوب تحت قدميه ضرب الأرض، وبقدر من الله خرج ماء له خصوصية الشفاء لجسد أيوب داخليًا وخارجيًا "مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ".

لذا أقول كما أن لزمزم بركتها الخاصة ليومنا، وهي جائزة ربانية لتضحية نبيين وصديقة (إبراهيم، إسماعيل، هاجر)، كذلك نبع الماء الذي تفجر لأيوب أيضًا له بركته إذا عرف مكانه. فكما أن اللعنة إذا أصابت مكان تدوم لسنين، كما في ديار ثمود والمياه الجارية في أرضهم، كذلك البركة تدوم لسنين.

ماذا نتعلم من الآية؟ أي مبتلى لا يحار كيف يمكن أن يأتي فرجه، لأن الله لا يعجزه شيء، والفرج يخضع لسنة التوقيت. وسنة التوقيت تخضع للحكمة الربانية، وقد يكون فرجك تحت قدميك، ولكن لكل كتاب أجل.

*****

مشروع أسماء الله الحسنى

تشوق قلبي للخوض في أسماء الله الحسنى، وهذا الباب بالنسبة لي هو من أعظم الأبواب وأشرفها، بل من أعظم العلوم وأعمقها غورًا، عندما قرأت في بعض كتب الصفات وجدت أن هذا الباب لم يأخذ حقه من التجليات التي تبرز سمو الأسماء وعظمتها، يا الله يسر لي هذا الباب؛ لأنه علم الكتاب.. علم الكتاب

البعض لعدم إدراكه سمو هذا الباب وبركاته وتجلياته، قد يتعاطى معه بدون جدية، بالرغم من أن هذا الباب به ينتظم كل خير، ويدفع به كل شر، وهنا أنبه إلى أن القرآن العظيم ما هو إلا تجليات لأسماء الله. وباب الأسماء هو من البحر الذي يمده من بعده سبعة أبحر، وما يعقلها إلا العالمون، بل أهل الحق لا يمكن أن ينتصروا في معركتهم إلا إذا تقلبوا في كل أحوالهم (ليلهم ونهارهم) مع تجليات الأسماء..

عندما ترى الهيمنة الوهمية لأهل الباطل، وتستعظمها في حالة ضعف، ويتجلى لك اسم المهيمن: المراقب والمطلع والمتحكم في كل صغير وكبير في كونه، بل متحكم في نواصي أهل الهيمنة، ومراكز القرار في أدمغتهم، فتراهم يتحركون في غربال قدر المهيمن، فهيمنتهم وهمية في غربال قدر المهيمن الحق.

عندها تتجلى لك تلك القوة التي رآها إبراهيم ﷺ، عندما حاول الكفار الهيمنة على القلوب بإشعال النار العظيمة؛ فهددهم في تلك اللحظة إبراهيم ﷺ بسطوة المهيمن الحقيقي: "وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ" [الأنعام]. إنها تجليات المهيمن الحقيقي في قلب إبراهيم ﷺ، فقال بقوة المهيمن: أي الفريقين أحق بالأمن؟ فماذا كانت النتيجة: "وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ" [الأنبياء].

وهذا فرعون استخدم هيلمانه، وحاول الهيمنة على الضعفاء، ويسترهب قلوبهم: "قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ"، فهذا الاسترهاب هو محاولة هيمنة وهمية، قابلها المهيمن الحقيقي: "قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى". والآن يستعظم في قلوبنا الهيمنة الظاهرة والخفية لأهل الباطل في الأرض، لكنها ليست ببعيدة عن المهيمن: "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ" [الأنبياء].

باب الأسماء باب عظيم. أسأل الله أن ييسر لي بعض أسراره.

*****

صراع البصر والبصيرة

هذه المقالة لعل فيها إشارة مهمة خاصة في هذه المرحلة، فالمعلوم أن الواقع الذي نعيشه يعزز عند البعض اليأس، خاصة أنه يملي علينا دائمًا بسطوته ورتابته وعدم تغير أحواله إلا للأسوأ؛ أننا بعيدون جدًا من نقلة مفاجئة للأمة، فدائرة الحس والعقل تملي علينا الإحباط بقوة.

وبالمقابل لو دخلنا على دائرة الوحي وما تضمنته من بشارات؛ نجد إملاءات أخرى تعزز فينا التفاؤل وتبرق لنا ببريق أمل من رحم المعاناة والألم، وفي ظل ليل بهيم مظلم نجد هذه البارقة تلمع كل فترة في سماء ليلنا، هذا الواقع جعلنا في صراع

بين البصر والبصيرة، وبين إملاءات الواقع وهي الأكثر وبين إشارات وبشارات الوحي، وهي بوارق هنا أو هناك بحسب ما أوتينا من علم.

إذًا هذا الواقع بإملاءاته وهذا الوحي ببشاراته، وبينهما يعيش المؤمن في حيرة اللحظة، وأحيانًا تتغلب على القلوب سطوة الواقع (دائرة الحس)، وحينًا تهيمن علينا البشارات التي تلامس عقولنا حتى بعكس واقعنا وإملاءاته، وهذه الحالة التي توحي بصراع البصر والبصيرة هي ذاتها أحد الدلالات التي تبشر بقرب الفرج بإذن الله ﷻ، والأصل فيها أن تتغلب البصيرة ودواعي الإيمان بصدق وعد الله على إملاءات المشاهد والواقع لكي يكتمل الفرج.

هذا كلام إنشائي يحتاج إلى دليل، ودليلي من القرآن الكريم على تجربة صراع بين البصر والبصيرة. ففي قصة يعقوب عليه السلام أعظم دليل على ما طرحت، هذه القصة التي بدأت برؤية من صبي أعقبه اختفاء الصبي وادعاء أولاده أجمعين أنه مات أو أكله الذئب.

فالواقع يملي على يعقوب عليه السلام أن ولده قد أكله الذئب، وجاءت شهادات متنوعة مع أدلة كاذبة، لكن البصيرة تقول: يوسف لم يمت...! وأين ذهبت الرؤيا التي رآها!؟ فما كان إلا الصبر الجميل.

هنا أود أن أوضح قضية قد لا يفهمها الكثيرون، وهو ليس معنى أن فلان نبي أي أن الوحي يرافقه في كل لحظة من حياته، بل هو يعيش البلاء والابتلاء بأكمل صوره التي لا يمكن تصورها في غيره، وفي ثنايا الأمر يكون الوحي والإشارات. وإلا ما معنى أن الأنبياء هم أشد الناس ابتلاء!؟ معناه أنهم يعيشون ذات التجربة الإنسانية بكل آلامها، مع ميزة القدرة على تغلب البصيرة لديهم على البصر.

لذا كانت أمام يعقوب بارقة أمل واحدة وهي رؤيا ابنه يوسف عليه السلام، فهي التي ربطت على قلبه؛ لذا كان الأمل قويًا...، لكن إملاءات الواقع كانت عصيبة جدًا وعامل الوقت له أثره، فهو دائمًا يذكر يوسف ويأمل بعودته، لكن تمر السنوات وتطوي من الأمل تدريجيًا، ثم ندخل على العقود (عشرات السنين) ولا توجد أي إشارة مطمئنة ليعقوب عليه السلام، سوى تلك البارقة التي جاءته قبيل اختفاء ابنه.

ويطعن يعقوب عليه السلام في السن، ثم تدخل السنوات العجاف الذي ينتهي أمرها بضياع بنيامين تحت يد الملك...، هنا بدأ صراع البصر والبصيرة في أشد أحواله، هو ذاته الصراع الذي وقع فيه جده عندما نظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم.

لنتابع الآيات فنرى مدلول صراع البصر والبصير حتى اللحظة الأخيرة: "ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ٨١ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤ قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ٨٦" [سورة يوسف].

ابنك بنيامين سرق، وها هي الأدلة الكثيرة الدامغة على صدقنا، هنا مع المصيبة رجعت عبارة صبر جميل، ثم بارقة الأمل تحيا من جديد بعد عشرات السنين: فـ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ، بنيامين سرق والمصيبة كما نقول ما زالت طازجة، لكن يعقوب هناك في صراعه مع بصيرته: "يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ".

الأمر عجيب جدًا، تجدد الأمل بعودة يوسف عليه السلام من خلال بارقة بسيطة أكل عليها الدهر وشرب، وصمتت في حقها عشرات السنين، ومع قوة الصراع بين البصر والبصيرة؛ فقد يعقوب البصر ولم يفقد البصيرة: "وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ".

هذا الموقف لا يفهمه أكثر الناس ولا يدخل في غوره المفسرون، لماذا كل هذا الألم على فقدان ولد!؟ الألم الذي كان يلامس يعقوب (عليه السلام) ليس فقدانه لولده، بل عظمة الألم مردها صراعه بين ما يفهمه ولا يجد أي إشارة ترشد إليه، وبين ما يمليه عليه الواقع، إنه صراع المؤمن مع بصيرتها في مواجهتها لإملاءات الواقع المغايرة.

وهذا الأمر وصل مداه، فبصيرته تقول سيعود يوسف، وأقرب الناس إليه ومن تربوا على تعاليمه يقولون: "قَالُواْ تَاالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ" [يوسف]، خلاص يا أبانا انسى يوسف، يوسف انتهى منذ عشرات السنين.

فهذا الصراع بين البصر والبصيرة تحول همومًا كبيرة كالبركان في صدر يعقوب (عليه السلام)؛ لأن تسليمه بموت ولده معناه تسليمه بخداع بصيرته له...، وهذه هي المصيبة العظمى التي لا تحتمل، والتي تكاد تخنق يعقوب من الداخل لذا قال: "قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ٨٦" [سورة يوسف].

هنا بعدما فقد بصره تأتي هذه الكلمات، ما معنى البث؟ البث معناه التفريق، فالهم تجمع بقوة في داخل يعقوب، وبقاؤه بهذا الشكل مفضي للهلاك، فهو يبثه أي يفرقه، لكن في أي جهة!؟ إلى الله.. هنا الاستسلام الكامل للبصيرة في أضيق الظروف وأشدها إحباطًا، إنها البصيرة التي ألقاها بقوة في وجه أبنائه: "وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ".

فليذهب البصر، ومع ذهابه أيضًا قويت البصيرة ووصلت إلى أعلى درجاتها. هنا يخاطبهم بما لا يعقلون من خلال دائرة البصيرة وليس البصر: "يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" [يوسف٨٧].

اذهبوا وتحسسوا يوسف وأخاه، كلام عجيب غريب في هذا المقام، المفقود بنيامين، لكن المطلوب يوسف، لقد رأى بعين البصيرة ما لم يرَ أبناؤه بعين البصر، وقد سبق أن جلسوا مع يوسف في مصر.

بالبصيرة وصل يعقوب، وبالبصر لم يصل أبناؤه، وما دام الصراع كان صراع بصر وبصيرة، وانتصرت البصيرة عند يعقوب عليه السلام؛ هنا جاءته الرسائل عبر البصيرة قبل البصر: "وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ" [يوسف٩٤].

هنا وعلى بعد مئات الأميال جاءت ريح يوسف، كيف وصلت ليعقوب!؟ وكيف اشتمها!؟ ولماذا هي ريح وليست رائحة!؟ السبب لأن الذي وصل يعقوب كان رسالة عبر البصيرة؛ لذا كانت ريح لأن الريح تتميز أنها لها اتجاه واحد بعكس الرياح، لذا هي تحمل في طياتها القوة والسرعة في آن واحد.

والآية بينت أن المسألة ليست من دائرة الحس بل من دائرة الغيب عبر البصيرة؛ لذا لم تقل الآية إني لأشم بل إني لأجد، وقد فصلت هذه الدلالات الأخيرة في مقالة منفصلة، لكن ما أود بيانه هنا أن البصيرة عندما تنتصر على البصر يكون الفرج بإذن الله.

هذه القصة التي في حلقاتها الأخيرة كانت توحي باليأس والتكذيب، في إطار أسرة نبوية بين أب وأبنائه خلال صراع البصر والبصيرة، جاءت لتحكي سنة مهمة تتعلق بكل صراع الحق والباطل، هذه السنة جاءت عقب هذه القصة في نفس الصورة؛ لكي ترشدنا للتعامل جيدًا مع البصر والبصيرة يقول الله سبحانه وتعالى: "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" [يوسف١١٠].

فهذه الآية تحكي الجزء الحيوي الذي تضمنته قصة يعقوب ويوسف والأسباط، وحالة التكذيب التي مني بها يعقوب، لدرجة عندما ذكر قصة الريح قال لولا تفندون، أي لولا تقولون عني أنني أصابني الكبر وبدأت أهذي في كلامي.

*****

سورة العلق: البداية والنهاية

(١)

شهر رمضان هو شهر القرآن، لذا أرى أن أبدأ به من خلال سلسلة بعنوان (سورة العلق: البداية والنهاية)، وخلال هذه السلسلة نحاول أن نتمرن على فهم القرآن الكريم من خلال كشف بعض أسراره لكي تعيننا على فهم المرحلة، وكيف من خلاله يمكن أن نقرأ الكون المنظور حولنا قراءة جديدة، فالسر الأعظم تضمنته الآيات الأولى من كتاب الله ﷻ، لكننا لغفلتنا أحيانًا لا نقرأها قراءة متدبرة نستكشف من خلالها حجب الغيب من خلال كتاب الغيب والشهادة.

بداية القصة كانت مع صاحب الرسالة؛ حيث حبب إليه الخلوة في غار حراء، هناك في مكان مقفر تمامًا، وأذكر أنني عندما ذهبت للغار تعجبت جدًا؛ كيف للنبي عليه السلام أن يصبر على هذه الخلوة بعيدًا عن الإنس نحو الأنس بعالم الملكوت، فالغار صغير جدًا.. وموحش جدًا، ولو جلست داخله فإنك لا ترى إلا النجوم وجانبًا من السماء، كم ممكن تصبر في جلسة كهذه.. ساعة ساعتان!؟

النبي ﷺ كان يقضي الأيام والليالي ذوات العدد، يتزود لرحلته ثم يترك مكة ويتجه لهذا الغار، الذي وجد فيه الأنس أكثر من مكة الصاخبة، يوميًا لا يرى إلا ذات المنظر الذي لا يتغير، وكأن النبي ﷺ كان ينتظر شيئًا ما هو لا يعرفه، لكنه كان أحوج ما يكون إليه.

تمر عليه الأيام والليالي والمنظر لا يتغير عليه، لكن يستمر في تأمله وخلوته، والأمر في بدايته من أعجب العجاب، أين يذهب محمد ﷺ ويترك أهله وزوجه ومكة!؟ إنه يذهب هناك نحو الجبل، وليست جلسة تأمل سريعة، بل ليالي وأيامًا طوال...

وفجأة: بدأ الحدث العظيم في لحظة من الزمان والمكان هي الأهم على مدار التاريخ، إنها بداية رسالة جديدة كانت تمثل تحولًا جديدًا غير معهود منذ خلق الله آدم ﷺ، هذا التحول لم يدركه البشر، لكن الجن كانوا أسرع في إدراكه لتغير النواميس في حقهم، يقول الله ﷻ على لسان الجن: "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠" [سورة الجن].

إنها مرحلة تحول غير معهود على الأرض بأكملها، انتبه لها عالم الجن وتحيروا في أمرها، ما الذي يحصل في السماء التي ملئت فجأة بحرس شديد وشهب، وماذا يراد لأهل الأرض، هل هو الخير أم أريد بأهل الأرض الشر؟

أسئلة حيرت الجن مع بداية الحدث غير المعهود لديهم، والذي قيد كل حركتهم، الحدث تبين لهم بعد ذلك؛ إنه نزول كتاب غير معهود وبداية رسالة عالمية على غير النسق المعهود فيما سبق، فقد نزلت كتب كثيرة لكن الأمر الآن تغير تمامًا مع هذا الكتاب.

(٢)

بينت سابقًا أن الجن كما بين القرآن الكريم قد انتبهت للتغير الكبير الحاصل في السماء، وحيرتهم الكبيرة فيما يمكن أن يكون أثره على الأرض.

هذا التغير ارتبط بمرحلة نزول القرآن الكريم والكتاب المهيمن ليمارس دوره في حياة الإنس ومن ورائهم الجن (الثقلان)، لكن لماذا لم يحصل هذا التغير مع نزول التوراة أو مع الزبور والإنجيل، أو مع صحف إبراهيم!؟

السبب أن القرآن الكريم هو كتاب مغاير لما قبله من الكتب، فالتوراة على سبيل المثال كانت تمثل الناموس أو القانون الذي يحكم الجماعة وفق منهج الله، وهو مغايرة للمعجزة من جهة ومن جهة أخرى نزلت مرة واحدة بكامل التعاليم، فهي تمثل المنهج الرباني للجماعة.

أما القرآن الكريم فهو يكشف حركة الغيب وتدخلها مع الأحداث من وراء ستار رقيق، إضافة للناموس والمنهاج، فهو الكتاب الكاشف لحركة الغيب من خلال السنن والميزان؛ لذا اقتضت طبيعته إنزاله بطريقة مغايرة جدًا للكتب السابقة؛ حيث نزل على مدار ٢٣ سنة مرافقًا للأحداث ومترجمًا لحركة الغيب خلفها، أو عبارة عن حركة الغيب ملامسة للواقع ومهيمنة عليه، دون التدخل المباشر بها كما في التجارب السابقة.

الكلام صعب بعض الشيء لكن عندما يكتمل الموضوع ستتضح لنا الصورة بشكل جوهري، لكن الموضوع يحتاج لصبر وتأني وتأمل وفائدته العظمى ستتجلى تدريجيًا.

وحتى يتضح الأمر لابد من هذه المقدمة الهامة جدًا، فلو نظرنا للتجربة الإنسانية والمنهجية في التعاطي معها لوجدناها تمثل منهجيتين وثلاث مراحل، المنهجية الأولى بدأت بآدم وانتهت بسورة العلق، والمنهجية الثانية بدأت بسورة العلق إلى قيام الساعة. أما المراحل الثلاثة فهي: مرحلة الرسول الفردي ثم الرسول القومي ثم الرسول العالمي، وبيان ذلك فيما يلي:

المرحلة الأولى: مرحلة الرسول الفردي. ([١٣])

وهذه المرحلة بدأت بنوح عليه السلام وانتهت بموسى عليه السلام، وطبيعة هذه المرحلة أن الرسول كان يأتي لقومه فينذرهم، منهم من يؤمن ومنهم من يبقى على عناده وكفره، ثم يكون الفصل من الله في حقهم، وهذه المرحلة كانت واضحة في طبيعة الرسالة كما تبينها الآيات يقول الله سبحانه وتعالى: "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ" [هود٥٠].

"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ" [هود٦١]، "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ" [هود٨٤]، "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ" [هود٢٥].

فالرسول في تلك المرحلة يرسل كفرد لقومه لدعوتهم لله، ويكون دعوة القوم هو محور الرسالة، وهذه المرحلة انتهت بموسى عليه السلام الذي كانت رسالته مغايرة تمامًا، وهدف بعثته مغاير تمامًا.

[١٣] فكرة سورة العلق والقراءتين، لست من سبق إليها، بل سبقني للفكرة عدد من المفكرين لعل أبرزهم هو المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد رحمه الله في كتابه العالمية الثانية للإسلام، لكنه ساقها ضمن إطار فلسفي وأجاد في طرحه لها ضمن إطارها، لكنني هنا أكمل الدراسة بثوب آخر غير فلسفي، بل هو أقرب للإطار المعرفي والإيماني، إضافة لتطبيقات وطروحات جديدة ونتائج قد تكون مغايرة تمامًا في بعض جوانبها عما طرحه الآخرون.

المرحلة الثانية: مرحلة الرسول القومي.

هذه المرحلة بدأت بموسى عليه السلام، فموسى لم يرسله الله لفرعون وقومه لدعوتهم كما كان النهج مع الرسل السابقين، بل حمل موسى مهمة أخرى وهي استنقاذ أمة من يد فرعون، لدى بداية رسالته كانت مغايرة تمامًا لما سبق ذكره من الرسل، يقول الله سبحانه وتعالى: "فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى" [طه٤٧]، "حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ" [الأعراف١٠٥]، "أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" [الشعراء١٧].

المهمة واضحة من الآيات وهي مغايرة لما سبق، فالمهمة هي: "أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ"، فهذه طبيعة رسالة موسى عليه السلام، وهي استنقاذ بني إسرائيل والذهاب بهم إلى الأرض المقدسة، حيث نزول الناموس المنظم لحياتهم والذي نزل على الطور.

فموسى عليه السلام يمثل الرسول القومي الذي جاء لقوم بأكملهم ليستنقذهم من فرعون وقومه باعتبار أنهم أهل رسالة، وتستمر وظيفة الرسول القومي لذات القوم خلال الأنبياء والرسل حتى تنتهي بعيسى عليه السلام الذي أرسل لبني إسرائيل أيضًا، وبعد عيسى عليه السلام بدأت **مرحلة الرسول العالمي** الذي كان من نصيب الأميين بخلاف أهل الكتاب في المرحلة السابقة.

إذًا هذه هي المراحل الثلاثة، والتي ستنقلنا لبيان المنهجيتين التي يتضح لنا من خلالها سر بداية القرآن الكريم بسورة العلق في غار حراء، لكن المطلوب بعض الصبر مع المقالات التي ستكشف لنا سر البداية والنهاية.

(٣)

بينت في المقالة السابقة أن الإنسانية قد مرت بمراحل ثلاثة، هي مرحلة الرسول الفردي ثم الرسول القومي ثم الرسول العالمي.

نأتي هنا للمنهجيتين:

المنهجية فيما قبل سورة العلق وبداية الرسول العالمي:

وهذا له علاقة بطريقة التفكير ومستوى الوعي البشري، فالعقلية القديمة لظروف كثيرة لامستها كانت عقلية إحيائية، لا تؤمن إلا بالمشاهد، أو بالقدرة الغيبية المباشرة، بمعنى أن العقلية القديمة كانت لا تستوعب بسهولة امتداد الغيب في حركة الواقع المتطورة بطريقة خفية، وكانت تريد فعلًا مباشرًا من الله في الطبيعة حولها.

بعبارة أخرى كانت فكرة الإله المحتجب مستعصية على مفهومية الإنسان الذي يفترسه العجز أمام الطبيعة، ومن هذا الوجه كانت ثقافة الأمم السابقة والعصور الماضية معنية بملاحقة القوى الخفية المؤثرة في الكون...؛ لذا كان التوجه لديهم للسحر باعتباره وسيلة لكشف القوى الغيبية المؤثرة، ونلحظ مع كل الأنبياء تقريبًا كانت تهمة السحر والساحر دائمًا تلاحق النبي أو الرسول في زمانهم، مما يشير إلى هيمنة هذه الثقافة على المفاهيم الإنسانية في الماضي.

فعجز الإنسان ومفهوميته في ضرورة رؤية قوة الغيب القاهرة تتدخل في الطبيعة أمامهم كانت السبب الرئيس في استحداث الصنمية؛ حيث استعصى عليهم عبادة إله محتجب.

من هذا الوجه كانت المعجزات التي يأتي بها الأنبياء عبارة عن معجزات حسية تبرز تدخل الغيب المباشر في الطبيعة أمامهم، أو قوة الغيب كانت ظاهرة

لأعينهم من خلال المعجزات الحسية التي يعاينوها ويرون من خلالها تدخل القدرة الغيبية المباشرة في واقعهم.

لذا كان الطلب من صالح عليه السلام أن يأتي بناقة من الصخر، فكانت الناقة من الصخر آية لهم وبرهان على صدق النبي عليه السلام، لكنهم أيضًا جحدوا بها، بالرغم من كونها آية مبصرة واضحة للعيان، وتدخل مباشر للقوة الغيبية أمام أعينهم، لكن الجحود كان عنادًا وظلمًا بالرغم من إيقانهم بمصداقيتها.

ولكي يتضح الأمر أكثر حتى ننتقل لسورة العلق، أطرح أمثلة على هذه العقلية في مرحلة الرسول القومي التي مهدت للرسول العالمي.

وهي مرحلة بني إسرائيل؛ حيث كان موسى عليه السلام الذي جاء بالدعوة إلى الله، لكن مع تدخل القوة الغيبية المباشرة من خلال العصى فكانت أمام أعينهم التسع آيات البينات، وفي كل آية كان التدخل الغيبي المباشر: (الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم)، واليد البيضاء من غير سوء، والعصا التي تحولت إلى حية عظيمة.

تدخل للقوة الغيبية بطريقة مباشرة، لكن بالرغم من ذلك لم تهضم عقلية بني إسرائيل فكرة الإله المحتجب؛ لذا بعد رؤيتهم الآيات التي انتهت بالآية العظيمة، فلق البحر وإغراق عدوهم الأكبر المتأله فرعون وجنوده أجمعون، فبالرغم من وضوح الآية إلا أنهم بعدها مباشرة وقبل أن تجف أقدامهم من ماء البحر كان طلبهم الغريب، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"[الأعراف١٣٨].

يا الله! كم تحمل الآية من دلالات، فقد بدأت بذكر الله أنه هو الذي جاوز ببني إسرائيل وهم يعاينون ذلك بأعينهم، فالذي جاوز بهم هو الله وحركة الغيب، لكنهم وقبل أن تجف أقدامهم انتقلوا للعقلية الإحيائية مباشرة؛ حيث وجدوا قومًا يعكفون على صنم لهم –وبحسب فهمي للحدث وجغرافيته كان بين البحر وبين هذا الصنم قرابة الخمسمائة متر فقط– قالوا: يا موسى اجعل لنا إلها...!

إنها عقلية إحيائية لم تتربَ على الإيمان بالغيب وعبادة إله محتجب. لذا كان هذا الطلب وكانت الإجابة من الرسول: إنكم قوم تجهلون. إنه الجهل بالله وبحركة الغيب والإيمان الغيبي، وإدراك حركة الغيب المؤثرة بالواقع من خلف ستار، كل هذه المعاني جمعها كلمة عبارة موسى عليه السلام: إنكم قوم تجهلون.

بعد هذا الموقف كان الموقف الثاني عند الطور حيث ذهب موسى عليه السلام للقاء ربه، وكان الموعد ثلاثين يومًا وأتمها الله بعشر الذي به تمام الميقات أربعين يومًا.

هذه العشرة أيام التي زادت على بني إسرائيل كانت وراء عبادتهم العجل: "وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ١٤٣" [الأعراف].

هنا موسى أيضًا في ذلك المقام طلب رؤية النظر إلى الله شوقًا إليه وقد اصطفاه الله بالكلام، ولم يطلب الرؤية المباشرة فكان الحدث العظيم بدك الجبل وسقوط موسى صعقًا؛ لأن المقام مقام غيب ومقام الغيب مقام عزة.

لكن هذه الأيام العشر هي التي جعلت بني إسرائيل تتسلل إليهم فكرة العجل من خلال السامري، فموسى صاحب العلاقة المباشرة مع الله قد تأخر عليهم فرجعوا إلى عقليتهم الإحيائية، فوجد الشيطان في ذلك فرصة للدخول إليهم من خلال السامري.

يقول الله ﷻ: "وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ٨٣ قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ٨٦ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ٨٨" [سورة طه].

هذا الحدث الذي سطرته سورة طه، وكيف أنه بمجرد غياب صاحب الأمر المباشر مع قوة الغيب تأخره عشرة أيام فقط، عادت العقلية الإحيائية إلى طبيعتها وعبدوا العجل وبين ظهرانيهم الرسول هارون عليه السلام.

بل نلحظ من هذه العقلية الإحيائية أنها كانت لا تتعامل مع حركة الغيب مباشرة، بل من خلال النبي نفسه صاحب الأمر؛ لذا نجد دائمًا من بني إسرائيل أنهم كانوا يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو الله لكي يحقق طلباتهم، "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" [البقرة٦١].

يا موسى أنت ادع ربك، فهم لم يتعلموا على التواصل مع حركة الغيب مباشرة، بل دائمًا مرجعيتهم النبي حتى في الاستسقاء، فهم لم يستسقوا من الله بل من موسى عليه السلام، "وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" [الأعراف١٦٠].

فالقوم استسقوا موسى عليه السلام، ولم يستسقوا من الله سبحانه وتعالى، بل وصل بهم الأمر أن يطلبوا أن ينكشف أمامهم صاحب حركة الغيب وأن يروا الله عيانًا، "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ" [البقرة٥٥]، فعقليتهم الإحيائية لم تهضم الإيمان بإله محتجب، وكذلك لم تترب على رؤية حركة الغيب المهيمنة على الواقع من خلال ستار خفيف.

واستمرت التربية قرون، ولعل أول تجربة لهم قوية في هذا الاتجاه الذي يبرز حركة الغيب وتدخلها غير المباشر كان مع طالوت عليه السلام، مما يوحي بأن التجربة امتدت طويلًا على بني إسرائيل، فهناك كانت غربلة خاصة على مستوى الشهوات والشبهات، ثم معاندة المشاهدة والتوكل على الله بعكس المشاهد، وبعدها كانت النتيجة فهزموهم بإذن الله.

لكن ما علاقة كل ما ذكرت سابقًا بسورة العلق!؟ العلاقة قوية جدًا، لكن لكي نفهم نحتاج بعض الصبر، فالتجربة الموسوية انتهت من حيث بدأت التجربة المحمدية، في مرحلة نضج مع أمة جديدة أمية بخلاف أمة أهل الكتاب. ومن لم يصبر على ما سبق؛ فسأسوق له درسًا في الصبر في مجال العلم به تكتمل الصورة.

(٤)

نخلص مما سبق أن مرحلة الرسول القومي كانت مرحلة تؤمن بالمشاهدات، بعيدًا عن إدراك لحركة الغيب المهيمنة على الواقع من خلال ستار خفيف، دون التأثير المباشر المشاهد عليه؛ لذا احتاجت تجربة بني إسرائيل في آخر مراحل رسولها القومي (موسى عليه السلام) إلى تجربة يكون صاحبها النبي نفسه، هذه التجربة وفق التحقيق عندي حصلت في العام ٣٨ أو ٣٩ من خروجهم من مصر، وهي تجربة موسى عليه السلام والخضر.

بداية القصة كما تشير الآثار بأن موسى عليه السلام سئل من أعلم الناس فقال: أنا، فتطلب الأمر درسًا في العلم يخوضه النبي عليه السلام مع فتاه، ويظهر من السياق أن موسى عليه السلام كان قد وعد إما بالوحي أو بالمنام على الالتقاء برجل يتعلم على يديه بعض الأمور، وكان الموعد مرتبط بمجمع بحرين، هذا المجمع لن أخوض فيه هنا لكن كان أمام موسى عليه السلام مجمع بحرين قريب منه لذا قال: "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا" [الكهف٦٠].

فهنا الآية واضحة، وإن كانت أشكلت على الكثيرين لعدم معرفتهم بجغرافيا الأحداث التي مر بها موسى عليه السلام، فهنا موسى عليه السلام عقد العزم على الالتقاء بهذا الرجل فأشار إلى خيارين: إما يبلغ مجمع البحرين القريب منه لعله يجد الرجل والعلامة، وإما يمضي حقبًا بحثًا عند كل مجمع بحرين يلتقي به، لكن قدر الله ورحمته بموسى وفتاه أنه وجد الرجل عند المجمع الأول القريب منه، حيث حصلت العلامة التي كان يبغيها المتعلقة بالحوت.

هنا تجربة خاصة مع موسى عليه السلام كانت في آخر سنوات حياته، وكان يراد بها درس تنتهي به التجربة الموسوية من النقطة التي ستبدأ بها التجربة المحمدية في غار حراء.

في قصة موسى والخضر أراد الله لموسى عليه السلام أن يربط من خلال درس عملي تطبيقي بين الغيب والواقع، ليعبر من خلال وحدتهما إلى تجربته الشعورية الوجودية، تجربة توضح فعل الله الآني في مسيرة الفعل البشري، أي حضوره في الحركة الآنية على نحو مهيمن دون المساس بأصول الحركة الواقعية.

كيف ذلك!؟ كانت هناك ثلاثة مواقف مع موسى والخضر، وترتب عليها سلوكيات مستهجنة من الخضر استهجنها موسى عليه السلام، ثم بعد ذلك كشف الخضر لموسى عليه السلام حركة الغيب المهيمنة على تلك الأحداث من باب الرحمة الإلهية، وكيف تتدخل حركة الغيب في الأحداث الذي يعايشها الإنسان من خلف ستار رقيق، لترسم له خط القدر الإلهي المهيمن على حركة البشر.

بداية القصة كانت في اللقاء بين موسى عليه السلام وذلك الرجل الذي وصفه الله بقوله: "فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا" [الكهف٦٥].

هنا في الآية لطيفة مهمة، حيث أثبتت وصفين للرجل، إيتاء الرحمة ثم العلم من لدن الله، ونلحظ أن الرحمة مقدمة على العلم، فالعلم بدون الرحمة قد يورث النزاع الفرقة من باب البغي، يقول الله سبحانه وتعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ" [آل عمران١٩].

هنا جاء العلم عندهم دون الرحمة فكان البغي فيما بينهم بعد العلم، وهذه لطيفة مهمة لمن أراد أن يفهم القرآن الكريم، لذا كان أهم صفة للنبي محمد عليه السلام في بدايته من حيث انتهى موسى عليه السلام، أنه كان عنوان الرحمة للعالم أجمع، يقول الله سبحانه وتعالى عن محمد عليه السلام وعن رسالته: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" [الأنبياء١٠٧].

أما من هذا الرجل!؟ فقد توصلت بعد دارسة مطولة ليس محل التفصيل بها هنا، أنه كان من جهة الغلام الحليم (إسماعيل) عليه السلام، وهي ذات الجهة التي سيكون منها محمد عليه السلام (الرسول العالمي)، أما موسى عليه السلام فكان من جهة الغلام العليم (إسحق) عليه السلام، وكان التقاء البحرين عند مجمع البحرين.

نأتي الآن لفحوى الدروس الثلاثة، وكيف كانت حركة الغيب مهيمنة عليه، وكاشفة لها من خلال التعليم الإرشادي.

الدرس الأول: حركة الواقع: "فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا" [الكهف٧١].

الدرس الثاني: "فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا" [الكهف٧٤].

الدرس الثالث: "فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا" [الكهف٧٧].

إذا هذه المواقف الثلاثة تحكي حركة الواقع أو الفعل البشري الملامس للواقع، لكنها لم تكشف لنا حركة الغيب المهيمنة على الواقع إلا بعد انتهاء تجربة الواقع مع موسى عليه السلام، واستهجان موسى عليه السلام للمواقف الثلاثة هو أمر طبيعي؛ لأنها كانت

مغايرة للمعهود أو المتصور من رجل صالح، وسبب الاستهجان هو قراءة الواقع دون معرفة حركة الغيب الكامنة وراءه.

بعد المواقف الثلاثة وقبل حصول الفراق بين موسى عليه السلام والخضر، بين الخضر حركة الغيب الكامنة وراء المواقف الثلاثة، وكيف أنها كانت من باب الرحمة الإلهية، وليس كما فهم موسى عليه السلام من ظاهرها، وانتهى الدرس بقول الخضر: "رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا" [الكهف٨٢].

إنه أمر الله وحركة الغيب المهيمنة على الأحداث نحو القدر المكتوب لها، هذه الوقائع الثلاثة هي ما نعايشه خلال حياتنا اليومية الفردية والجمعية، لكننا لا نقرأ حركة الغيب الكامنة وراءها، فلا نصبر ونتعجل في كثير من أمورنا، ونصدر أحكامًا سريعة لتجارب حياتنا.

لكن ما علاقة درس الخضر بسورة العلق؟ أقول لقد جاء القرآن الكريم على غير المعهود من الكتب السابقة؛ ليقوم بنفس الدور الذي كان بين الخضر وموسى عليه السلام، لكن ليس في مسائل جزئية بسيطة، بل لكشف حركة الغيب الكامنة وراء الأحداث سواء تلك التي عايشها صاحب الدعوة الأول وصحابته، أو تلك التي تعيشها الأمة إلى قيام الساعة.

القرآن الكريم هو السر الأعظم، فهو ليس منهاجًا لتسيير حياة البشر وفق الأمر الإلهي الشرعي ضمن تعاليم ووصايا كالتوراة، بل هو منهج الحياة الكاملة والكاشف لأسرار حركة الغيب الكامنة وراء الأحداث الآنية التي يعايشها البشر إلى قيام الساعة، إضافة لتضمنه الوصايا التي تضمنتها التوراة كمنهاج شرعي لحياة الثلة المؤمنة.

إنها نفس تجربة الخضر مع الرسول مع فارق بسيط، ففي تجربة الخضر تم الكشف عن حركة الغيب المؤثرة في الأحداث من خلال أسلوب التعليم الإرشادي من خلال الخضر لموسى ﷺ، أما في قصة محمد ﷺ فكان الكشف عن حركة الغيب المؤثرة في الإحداث من خلال الوحي المرافق للحدث.

كشف حركة الغيب من خلال التعليم الإرشادي في التجربة الموسوية، قابلها كشف حركة الغيب من خلال الوحي الإلهامي في التجربة المحمدية؛ لذا كان القرآن عجبًا كما بين الجن أنفسهم، واقتضى الأمر أن تكون بدايته بكلمة اقرأ بالذات والتي سأبين أسرارها.

لاحظنا في قصة موسى مع الخضر ثلاثة أحداث، ثم بعد ذلك جاء التعليم الإرشادي لبيان علاقتها بالغيب، وهو نفسه منهج القرآن الكريم المغاير للكتب السابقة، حيث كان القرآن في كل العهد المكي على سبيل المثال يرافق الأحداث أولًا بأول، مبرزًا حركة الغيب الكامنة وراءها، وفي العهد المدني يتضح لنا الأمر أكثر.

تحصل غزوة بدر، ثم تأتي الآيات في الأنفال لتكشف لنا حركة الغيب وعالم الملائكة المرافق لها، والأحداث الطبيعة المؤاتية معها؛ مبرزة لنا الحدث بشكل آخر غير ما تشاهده الأعين وإن كانت تستشعره القلوب، أكتفي بآية واحدة هنا كشاهد من غزوة بدر، يقول الله ﷻ: "إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ" [الأنفال ١١].

هذا جزء من قراءة الغيب للحدث، ويبرز هيمنة حركة الغيب على الواقع دون المساس به، وذلك من خلال ستار خفيف، لو كنت في المعركة وقبيل حصولها؛ لن أنتبه لموضوع المطر والماء من السماء، وقد أتصوره حدثًا عاديًا، لكن الآيات أبرزت

أنه ليس حدثًا عاديًا بل هو يمثل جزء من حركة الغيب لحكمة قد تخفى على الكثيرين، فهو طهارة للصحابة المشاركين في المعركة، وفيه إذهاب لرجز الشيطان، وربط على القلوب وتثبيت للأقدام في المعركة، إنها معاني ظهرت للصحابة بعد المعركة، وبعد نزول السورة الكاشفة لحركة الغيب.

وفي غزوة أحد التي انتهت بما ظاهره الهزيمة، وبعدها تنزل القرآن ليكشف حركة الغيب خلف الأحداث، ضمن قراءة جديدة للحدث من جوانب متعددة، خلال الآيات من ١٢١–١٨٠ من سورة آل عمران، وضمن وحدة موضوعية متكاملة استوعبت الزمان والمكان في الماضي والحاضر والمستقبل، فصورت الحدث في غزوة أحد بطريقة مغايرة للتصورات الآنية التي يقع بها البشر في حكمهم على الأحداث.

أكتفي هنا بمقطع صغير يبرز جانبًا من هذه القراءة، التي هي امتداد للآية الأولى اقرأ باسم ربك، وإكمال ما انتهى به موسى عليه السلام مع الخضر، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَلَا تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ١٤١" [آل عمران].

فالآيات كشفت جوانب كثيرة للحدث، منها بيان أن المؤمنين هم الأعلى وإن كان الظاهر الهزيمة في المعركة، مبرزة سنة من سنن الله وهي سنة التداول، إضافة إلى الغزوة كانت حدثًا مهما كاشفًا للمؤمن من المنافق، ثم هؤلاء القتلى من المسلمين فهم شهداء اجتباهم ربهم ضمن قدر محتوم محبة لهم وارتقاء بدرجاتهم، ثم في هذه التجربة تمحيص واختبار للمؤمنين من جهة، ومن جهة أخرى سبب لمحق الكافرين بعد هذا الحدث.

فهذا جزء من قراءة الغيب للحدث في غزوة أحد، وهو ذاته نفس المنهج الحاصل مع موسى والخضر مع اختلاف الأسلوب، الخضر قال وما فعلته من أمري، إذًا هو من أمر الله، والقرآن هو من أمر الله، يقول الله ﷻ: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" [الشورى٥٢].

الخلاصة:

القرآن الكريم جاء بطريقة مغايرة، ليبدأ من النقطة التي انتهى منها موسى عليه السلام مع الخضر، وذلك من خلال كتاب يكشف حركة الغيب الكامنة وراء الأحداث والمهيمنة عليها، دون المساس المباشر المشاهد لها، وهي طريقة مغايرة للكتب السابقة، لذا الخضر بتوجيهاته كان يقرأ حركة الغيب لموسى عليه السلام.

وجاء القرآن بمنهجيته وتوجيهاته ليقرأ حركة الغيب وراء الأحداث، ليس في العهد النبوي فقط، بل في امتداد الزمان والمكان إلى قيام الساعة، وهذا السر في نزوله منجمًا ليمتد خلال رحلة النبي كاملة، وهذا الأمر يجعلنا نتهيأ قليلًا لنعرف سر البداية بكلمة اقرأ، كما سأوضحها في المقالات التالية من خلال العودة مرة أخرى إلى غار حراء.

(٥)

خلال المقالات السابقة بينت أن الإنسانية قد مرت بثلاثة مراحل ومنهجيتين، وأبرزت أن مرحلة بني إسرائيل كانت مرحلة المشاهدات بعيدًا عن إدراك حركة الغيب

المهيمنة على الواقع من وراء ستار رقيق؛ لذا كثرت في تلك المرحلة المعجزات الحسية، وكثرت أيضًا العقوبات المرافقة لها، فكما أنهم تعاطوا مع قدرة الغيب المباشرة.

كذلك تناولتهم قدرة الغيب المباشرة خلال انحرافهم، ولم تكن تمهلهم: أرنا الله جهرة؛ ترتب عليها أن أخذتهم الصاعقة فماتوا ثم بعثهم الله. تكاسلوا في حمل الرسالة؛ ترتب عليه مباشرة أن نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة. عبدوا العجل؛ كانت الكفارة المباشرة وهي: اقتلوا أنفسكم. جبنوا عن دخول الأرض المقدسة؛ فكانت التيه أربعين عامًا.

إذًا قدرة غيب من خلال التدخل المباشر رافقتها قدرة غيب في جانب العقوبة، واستمرت المرحلة حتى وصلت إلى قمتها في عهد عيسى عليه السلام، ففي عهد عيسى عليه السلام كانت المعجزات الحسية بأعلى الدرجات: (إحياء الموتى – النفخ في الطين حتى يكون طيرًا بإذن الله – الإبلاغ عما يأكلون وما يدخرون في البيوت – إشفاء المرضى ذوي الأمراض المستعصية على البشرية حتى يومنا: الأبرص والأكمه).

إذا هذه مرحلة بني إسرائيل المبنية على الإيمان بالمشاهدات، والتي انتهت بعيسى عليه السلام الذي بشر بالرسول العالمي خارج دائرة بني إسرائيل.

كذلك بينت فيما سبق أن آخر درس كان لموسى عليه السلام، إنما هو تهيئة لأول درس يبدأ به الرسول العالمي في غار حراء، حيث بينت أن هناك مواقف ثلاثة تعرض لها موسى الكليم عليه السلام كانت موطن استهجان منه، ثم بعد ذلك جاء الترشيد الإخباري في بيان حركة الغيب المهيمنة على الأحداث دون المساس بها، والتي ترسم قدر الله ضمن الفعل البشري الآني.

انتهت فترة الإيمان بالمشاهدات، وبدأت الرسالة العالمية من خلال الفرع الثاني (الأميون)، لكنهم ليسوا الذين يؤمنون بالمشاهدات، بل هم كما بين صدر أكبر سورة في القرآن بعد الفاتحة، يقول الله ﷻ عن الكتاب الجديد والمنهج الجديد: "ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤" [البقرة].

إنه كتاب جديد محفوظ من لدن حكيم خبير، لكن لمن؟ أنه للذين يؤمنون بالغيب، وبحركة الغيب المهيمنة على الواقع من خلف ستار رقيق.

إنها منهجية جديدة تكمل مسيرة الخضر وموسى عليه السلام ليس من خلال أحداث جزئية، بل من خلال استحداث وحمل أمة ضعيفة وأمية لتكون خير أمة تخرج للناس كل الناس، والقرآن الكريم أو المنهج الجديد في طبيعته وتركيبته هو الكفيل بهذه النقلة الجديدة للبشرية، بعيدًا عن التدخل المباشر للغيب، بل من خلال الإيمان بالغيب وتدخله غير المباشر في الأحداث، كما لاحظنا في بدر وأحد وحنين.

هذه النقلة الجديدة التي رافقت بداية الرسالة العالمية، وضعت الخطوط العامة لها في أول سورة في القرآن الكريم، هناك في غار حراء لتنبئ بمنهجية جديدة بدايتها: اقرأ باسم ربك.

عودة لغار حراء وللحظة الأولى لتلك النقلة والبداية، وفجأة في لحظة من الزمان والمكان، على قمة جبل موحش وفي غار صغير، وبعد ساعات طويلة من التأمل لا يعلمها إلا الله، بدأت رحلة النور... نزل أمين السماء على أمين الأرض.

هنا ندع الإمام البخاري يوضح لنا تلك اللحظة وحيثياتها: «فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي،

فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ"» ([١٤]).

ما هي هذه القراءة التي يطلبها الملك جبريل (شديد القوى) من محمد عليه السلام!؟ وما هو سر تلك الغطات الثلاثة التي حصلت من هذا الجسم النوراني الأعظم!؟ والتي بسببها بلغ الجهد الكبير بالنبي محمد عليه السلام بعدها...، هنا موضوع مفتوح للتأمل.

أكيد أن القراءة ليست نفس القراءة التي نعهدها، والتي تتضمن معرفة الخطوط والحروف والقراءة للكلمات المسطورة، إنها قراءة جديدة ضمن دائرة الوحي المباشرة، وهي الدائرة الأوسع في المعرفة، بل هي الدائرة التي تحمل الحقائق المطلقة، بينما دوائر المعرفة الأخرى (الحس والعقل)؛ فهي وإن كانت تحمل حقائق إلا أنها حقائق نسبية.

وموضوع دوائر المعرفة هذه سأخوض بها في مقالة منفصلة لكي يتضح الأمر، لكنني هنا سأركز على البداية وأسرارها فقط، يقول الله سبحانه وتعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥) [سورة العلق].

هذه الآيات الأولى التي نزلت على النبي محمد عليه السلام في غار حراء، وقد حملت في ثناياها السر الأعظم الفاتح للمنهجية الجديدة، والتي يدور في فلكها كل القرآن الكريم، فهذه الآيات هي البداية وهي النهاية في آن واحد، وهذا سر القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه.

[١٤] البخاري: الجامع الصحيح، حديث رقم ٣ (٧/١).

والآيات الأولى قد تضمنت قراءتين:

القراءة الأولى:

وهذه القراءة تأتي عبر التعلق بقدرة الله في الحركة الكونية ودون كيفية محددة، تتجلى في الاتجاه بالعلقة نحو الإنسان، كما تتوجه بالحياة نحو الموت وبالموت نحو الحياة، هي قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية وصفاتها، قراءة خالصة لقدرة الله في كتاب كوني منظور...، هنا جاءت القراءة باسم الله المقدس بوصفه خالقًا للكون.

وبهذه القراءة التي رسخت في قلب النبي ﷺ والتي بها دخل عالم الملكوت، وهذا أمر سأوضحه بالأدلة التفصيلية، لكن أوضح هنا أن هذه القراءة الأولى باسم الله قد وصلت تمامها في رحلة الإسراء؛ حيث وصل النبي ﷺ إلى قمتها في مجالها العلوي (اقرأ باسم ربك)؛ فكان إتمامًا لهذا الانكشاف الكوني عبر الزمان والمكان.

هناك رأى النبي ﷺ من آيات ربه الكبرى، وانكشفت له كثير من عواقب الأعمال بشكل حسي حيوي يخترق الزمان، إنها القراءة بأسمى درجاتها، وبعدها كان النبي ﷺ يقول: لو رأيتم ما رأيت، لو تعلمون ما أعلم.. إنها القراءة باسم الله.

فهي البداية التي نقلت النبي ﷺ للخلافة التسخيرية بكونه عبد رسول، وليس ملكًا نبيًا كسليمان عليه السلام، وبهذه القراءة نستطيع أن نستوعب كثيرًا من معجزاته الحسية المباشرة خلال الثلاثة وعشرين عامًا، فالقراءة هنا هي قراءة كلية تنتقل نحو التفصيل والجزئيات. وهذه القراءة لنا معها بإذن الله شوطًا طويلًا.

القراءة الثانية:

وهذه القراءة مختلفة عن القراءة الأولى، فهي قراءة بالمعية عبر وسيط حضاري (القلم)؛ لذا اختلف الأسلوب ولم يقل اقرأ باسم ربك، بل قال: اقرأ وربك الأكرم؛ فالواو هنا هي واو المعية، أي اقرأ بمعية الله من خلال وسيط حضاري لكي تتعلم ما لم تعلم، هنا القراءة بالمعية تتجه من الجزئيات نحو الكليات.

إذًا نحن هنا أمام قراءتين بهما ينتظم المنهاج الرباني في كونه: قراءة بالمعية للمسطور، وقراءة بالصفات للمنظور، وفي كلا القراءتين يتم الاستكشاف والتسخير والاستخلاف للإنسان.

(٦)

أشعر من بعض الردود في المدونة والفيس أن مقالات سورة العلق فيها بعض الصعوبة، وأحيانًا أشعر أنني أخطأت في طرح الموضوع هنا في مدونة عامة؛ لأنه يحتاج إلى مقدمات كثيرة وأرضية فكرية، حتى يتم فهمه أو الاستفادة منه بطريقة مجدية.

لذا أحاول الآن تبسيط بعض الأفكار في محاولة لجمع شارده وكشف غريبه وتبسيط معقده، بعيدًا عن التوسع في مدلولاته العميقة، بل أكتفي ببعض الدلالات التي من خلالها أنسل من هذا الموضوع العصيب، وأترك بيانه بطريقة علمية خلال كتاب مطول إذا تيسر الأمر لي.

فقد بينت سابقًا أن أول سورة العلق يمثل قراءتين بهما تنتظم مسيرة الإنسان والكون والحياة ضمن دائرة الاستخلاف والتسخير. لكن كيف ذلك!؟ هذا واضح من

القراءتين؛ فالمعلوم أن القرآن الكريم لا تكرار في معانيه، وإن تكررت بعض الألفاظ فهي تأتي في سياق مغاير يرشد إلى مدلول جديد.

بما بدأت سورة العلق؟ لقد بدأت بقوله ﷻ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ"، إذا هذه هي الآية الأولى التي طرقت مسامع النبي محمد ﵇ مؤذنة ببداية المهمة، لكن البداية عجيبة جدًا وهي مطالبة أمي بالقراءة، بينما كانت بداية موسى ﵇ مغايرة حيث دخلت مباشرة للتعريف بالله، يقول الله ﷻ: "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٣" [طه].

فالبداية مع موسى ﵇ هي بداية تعريفية، لكن مع محمد ﵇ كانت أول كلمة تطرق مسامعه هي كلمة اقرأ وهو ليس بقارئ.

هذه البداية ترشد إلى أن القرآن الكريم يحمل منهجية جديدة مغايرة تمامًا لما سبق، وهذا الكلام واضح من خلال كونه المنهج والمعجزة في نفس اللحظة، وذلك بخلاف الكتب السابقة التي حوت المنهج بينما المعجزة شيء مغاير، كذلك الكتب السابقة هي كتب وصايا وتعاليم، بينما القرآن الكريم هي جاء ليحكي تجربة حياة بكل ما تحويه من صراعات بين الحق والباطل، إضافة لبيان السنن الحاكمة لها والمتنبئة باتجاهاتها.

لذا كانت البداية عجيبة وهي اقرأ، لكن أي قراءة تلك التي سيقرأها النبي ﵇!؟ طبعًا ليس المقصود بها قراءة حروف وكلمات فالنبي أمي، بل هي قراءة للكون من خلال الوحي؛ أو هو الدخول على الدائرة الكبرى للمعرفة من خلال الوحي، كما نقول مثلًا: نحن نقرأ الأحداث والمواقف، فهنا القراءة ليست لحروف وكلمات إنما لمعاني مباشرة نستنتجها من خلال حدث ما أو موقف معين.

وهذا هو الأمر الأول الذي واجه النبي ﷺ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ"، هذه هي القراءة الأولى، وهي قراءة كلية من خلال دائرة الوحي لاستكشاف الحقائق الحيوية الغائبة على الإنسان؛ لذا بدأت هذه القراءة باسم الرب بوصفه الخالق للإنسان، فهي قراءة كونية كلية من خلال الغيب ودائرة الوحي.

وهذه القراءة هي التي تحكي تجربة النبي ﷺ مع القرآن الكريم خلال الثلاثة وعشرين عامًا؛ حيث نفذ من خلالها إلى دائرة المعرفة الكبرى من خلال كشف أهم أسرار الإنسان والكون والحياة، الدنيا والآخرة، الحقائق والأوهام، الحق والباطل، العالم العلوي والعالم السفلي، العوالم الظاهرة والخفية.

هذا كله حاصل في القراءة الأولى التي بدأت باسم الرب الخالق، واستخدمت الآية الرب وليس كلمة الله؛ للإشارة أن هذه القراءة هي باب التربية والتزكية للنبي ﷺ، وإمداده بالمعرفة بأسمى أبوابها، وأوسع طرقها، وأجلى معانيها، وأرقى دلالاتها.

فالقراءة الأولى هي من حظ النبي محمد ﷺ، أما كيف كانت القراءة فهذا استمر ٢٣ عامًا...

أما القراءة الثانية فهي قراءة تسير في ذات الاتجاه، لكنها مغايرة تمامًا في المدلول، يقول الله ﷻ: (اقرأ وربك الأكرم...)؛ إذًا هي ليست قراءة باسم الرب، بل هي قراءة بمعية الرب، لأن الواو هنا هي واو المعية، أي اقرأ بمعية الله بوصفه الرب الأكرم الذي يعطيك بقراءتك أعظم مما تأمل.

لكن القراءة بالمعية هنا لم ترتبط بدائرة الوحي، بل بدائرتي الحس والعقل وما ترتب عليهما من معرفة تراكمية عبر التاريخ، والتي تم حفظها عبر وسيلة حضارية

وهي القلم، لذا اقرأ بالمعية من خلال وسيط حضاري وهو القلم، لكي تكتشف السنن والمجهول وتحقق معاني السنن التسخيرية، لكي تنتفع بها بأعلى الدرجات.

اقرأ وربك الأكرم، من خلال وسيط حضاري اختزل كل معلومات دائرتي الحس والعقل في التجربة الإنسانية وهو القلم، ومن خلال هذه القراءة ستكتشف المجهول والسنن التي حولك، وتستطيع استثمار هذا الاكتشاف في تحقيق معاني الاستخلاف وسنن تسخير الكون لك. فهذا الوسيط من خلال هذه القراءة سينقلك من المجهول إلى المعلوم: (علم الإنسان ما لم يعلم).

إذا القراءة الأولى هي قراءة من دائرة الوحي بالاسم، إما القراءة الثانية فهي قراءة بمعية الله الأكرم من دائرتي الحس والعقل من خلال الوسيط الحضاري لنتاجهما.

طبعًا قد يسأل البعض: ماذا تقصد بدائرة الوحي والحس والعقل!؟ طبعًا الاستطراد هنا قد يشتت الموضوع، لكنني أحيل القارئ لبعض مقالاتي في مدونتي الرئيسية، فهي تكشف لكل المقصود بهذه الدوائر بشكل متكامل، هذا رابط بعنوان: (الإنسان والميزان):

http://rasaelnoor.blogspot.com/2016/06/blog-post_94.html

وهذا رابط آخر بعنوان: (وسائل الإنسان في فهم ذاته بعيدًا عن الوحي):

http://rasaelnoor.blogspot.com/2016/06/blog-post_64.html

لكن أقول هنا باختصار شديد، كل علم الإنسان مصدره من ثلاث جهات:

الدائرة الأولى:

وهي دائرة الحس أي الحواس، وما تمد به الإنسان من معلومات عن العالم الخارجي، وهذه الدائرة في دوائر المعرفة مهمة جدًا، لكنها أضيق دائرة في المعرفة وهي يتشارك فيها الإنسان والحيوان.

الدائرة الثانية:

دائرة العقل، لأنها مبنية على الربط بين المعلومات التي تمدها الحواس، واستخراج معلومات جديدة من خلال هذا الربط، وهذه الدائرة تميز بها الإنسان، وقد اعتمد العقل والحس على التجربة والملاحظة في الارتقاء بفهمه وعلومه.

وقد أرشد الله لهاتين الدائرتين بقوله ﷻ: "وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [النحل٧٨]، فالإنسان خرج لا يعلم فتناولته دوائر المعرفة، فالسمع والأبصار هي من دائرة الحس، والأفئدة هي دائرة العقل.

هذه وسائل الإنسان للمعرفة، وهي معتمدة على العقل والحس والتجربة، والحس قاصر بطبعه، والعقل استمد قصوره من قصور المواد المغذية له وهي الحواس، كذلك لا تتسع دائرة العقل لإدراك الحقيقة من جميع جوانبها، فهو لا يملك إدراك الماضي بكل حيثياته، ولا استشراف المستقبل من جميع جوانبه، ولا الإحاطة بالحاضر من جميع ما يلزمه. إضافة إلى أن التفكير البشري بطبعه لا يخلو من مزج الحكمة والتدبر بالعواطف والرغبات والنزوات، فتتخلى الحكمة فيه عن بعض مكانها.

والتفكير البشري بطبعه أنه إذا أبدع شيئًا لا بد أن يوجد انحيازًا إلى جانب، وتفريقًا بين البشر لأسباب لا تمت للعقل بصلة، كذلك العقل بطبعه أسير لبيئته، فهذه الجوانب كلها لا تؤهل العقل مع أهميته الكبرى للاستقلال في بناء المعرفة

للإنسان، خاصة فيما يتعلق بماهيته وجوانب الغيب المتصلة به، ولو انتقلنا للتجربة والعلم فهي وإن نجحت على مستوى المادة لما تتسم به من الثبات النسبي والوضوح في سننها وقوانينها، إلا أنها لم تجد نفس النجاح مع الإنسان لتعقد ظاهرته.

إذًا هذه حقيقة دائرتي الحس والعقل في إنشاء المعرفة وتراكمها، وطبيعة المعرفة المعتمدة عليهما، وهما يعتبران دوائر صغيرة في المعرفة، هنا تأتي الدائرة الكبرى للمعرفة الإنسانية، والتي بدأت مع الإنسان منذ اللحظة الأولى وهي **دائرة الوحي** يقول الله ﷻ: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" [البقرة٣١]، فأول علم الإنسان كان من دائرة الوحي.

المهم الإنسان الغربي المعاصر ألغى من قاموسه دائرة الوحي مطلقًا، واعتمد فقط في علمه على المشاهد، أو دائرتي الحس والعقل والتجربة المرتبطة بهما، والعلم التراكمي المبني عليهما خلال التجربة الإنسانية من خلال القلم.

إذًا هذه دوائر المعرفة الثلاثة، وبانتظام التعامل معها كاملة يحصل الاستخلاف والتسخير بأرقى درجاته، وبإغفال بعضها يترتب نقص واضح في جانب حيوي من جوانب المعرفة الإنسانية.

نرجع مرة أخرى لسورة العلق، فالقراءة الأولى هي قراءة من أوسع الدوائر في تفسير عجلة الحياة والإنسان والكون وهي دائرة الوحي؛ لذا كانت القراءة باسم الرب الخالق.

القراءة الثانية: هي القراءة المضبوطة من خلال دائرتي الحس والعقل، فهذه قراءة بالمعية من خلال وسيط حضاري اختزل به الإنسان كل تجاربه وعلمه التراكمي المبني على الحس والعقل، وهذه القراءة جاء القرآن ليفصل في ضرورة التوسع بها لكن من خلال المعية حتى لا يضل الإنسان.

ومن هذه الآيات كل الآيات التي تطالب الإنسان بإعمال فكره وتدبره وتأمله، وتلك الآيات التي ذمت تعطيل العقل وتغييبه، وتلك الآيات التي نظمت طريق التفكير بعيدًا عن الهوى،... إلى غير ذلك من الآيات التي جاءت لترشد الإنسان كيف يقرأ بمعية الله.

وللأسف هذه القراءة الثانية هي التي أهملها المسلمون في مراحل تخلفهم، وهي التي استثمرها العالم الغربي بأوسع الطاقات، فكشفت لهم عن أسرارها وتعاطت معهم بشكل كبير حتى أكثر مما يتخيل الإنسان، وبهذه القراءة وصلت سنن التسخير إلى درجات عالية جدًا.

لكن الإنسان الغربي ألغى من القراءة الثانية العلاقة بالوحي، أو بعبارة أخرى قرأ بالقلم لكن بدون (وربك الأكرم) بحسب مناهجه، فماذا حصل عند الغرب؟ حصل عنده علوم كثيرة جدًا على مستوى ظاهر الحياة الدنيا، لكنه فقد أو قارب أن يفقد هويته الإنسانية، وهذا موضوع طويل استقصيته في كتابي: (ثقافة السلام: الفكر والواقع والمنشود)، وهناك مقالات حوية في مدونتي الرئيسية نداء الروح، تبرز لنا ما الذي خسره الغرب عندما قرأ بدون (وربك الأكرم).

لكنني هنا سأبقى مع سياق سورة العلق، فعندما قرأ الغرب بدون (وربك الأكرم)؛ حصل عنده طغيان ترتب عليه الاستغناء والتمحور حول نفسه باعتبارها المطلق الذاتي، وهي نفس النتيجة التي وقع فيها فرعون لكن بثوب جديد، يقول الله ﷻ في سورة العلق بعد القراءة بالمعية: "كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ٧ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى" [سورة العلق].

ماذا حصل للغرب عندما قرأ بعيدًا عن ضابط (وربك الأكرم)!؟ لقد وقع في الطغيان بكل معانيه، وترتب على ذلك ضياع الهوية الإنسانية، فالإنسان هناك كسب

التكنولوجيا والوسائل المعينة، لكنه خسر نفسه، وراجع في مدونتي نداء الروح الإحصائيات التي تبرز حال الأسرة ومستوى الجريمة ومستوى القيم في الناشئة، بل بدأت تضيع معاني أصيلة رافقت الإنسانية من بدايتها، كمفهوم الأسرة على سبيل المثال أو الإنجاب أو الزواج التقليدي.

حصل طغيان ثم عندما تعاطت معه السنن التي بثها الله في كونه للإنسان، كل الإنسان بعيدًا عن كونه مؤمن أو كافر، فهي سنن جاءت مسخرة للإنسان وهي تتعاطى مع من يكتشفها، عندما حصل تعاطي السنن أو الأسباب؛ حصل الطغيان الثاني بتعلقه بالسبب وإلغائه واستغنائه عن المسبب، لا حاجة للدعاء لكي تشفى اذهب للطبيب وشخص المرض فتشفى، فحبة الدواء هي التي تشفي...

وهكذا تعلق بالأسباب القريبة واستغنى عن المسبب، وأخرجه من حساباته "أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى"، وهنا بدأ الاستدراج والإحاطة والدخول في مرحلة استعصاء السننية التي سأبينها في مواطنها "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى"، وهذا ينقلني لسورة الروم لبيان تطبيق القراءة الثانية وإلى أين تتجه بنا.

المقالات مهما بسطتها فهي صعبة، لكنها مفتاح مهم جدًا لكي نفهم القرآن الكريم...

(٧)

وصلنا في المقال السابق لبيان طبيعة القراءتين، التي بهما تنتظم دوائر المعرفة ضمن إطار واحد، يحقق الاستخلاف بأبهى صوره، ويفتح الآفاق لإدراك

سنن التسخير والسببية المبثوثة في الكون للإنسان، وذلك كله تحت رداء العبودية لله ﷻ.

فالعلق افتتحت الكون والإنسان والحياة من خلال دوائر المعرفة الثلاثة، لتحقق الاستخلاف وتكشف سنن التسخير في إطار العبودية الحقة لله.

وبينت أن القراءة الثانية بالمعية من خلال وسيط حضاري هو القلم، جاءت لتكشف تفاصيل سنن التسخير، والأصل بها أن تردنا لله وللغيب تحت دائرة الغيب؛ لذا جاء الطلب في القراءة من خلال المعية (وربك الأكرم)، حتى تحقق البغية الحقيقية للإنسان والسعادة العظمى له في الدنيا والآخرة. فالقراءة الثانية قد جاءت مضبوطة بالمعية التي فصلتها آيات كثيرة داعية للتأمل في الأنفس والآفاق والتفكر في السنن واستكشافها.

والقراءة الثانية هي التي أهملها المسلمون في سنين تأخرهم، وانتبه لها الغرب أو الروم فاستثمروها بأقصى الطاقات وأرقى الضوابط، لكن بعيدًا عن دائرة الوحي، فهم قرأوا بالقلم لكن بدون (وربك الأكرم)؛ لذا رافقت قراءتهم حالة إلحاد كبيرة جدًا، وفصل لكل دائرة الوحي عن دائرتي الحس والعقل، وقد نجحوا في مجال اكتشاف سنن التسخير المهيأة للإنسان كل الإنسان بعيدًا عن معتقده، فهي سنن تتعاطى مع كل من اكتشفها، وتعطيه بحسب جهده وفهمه.

وبينت أن الغرب بابتعادهم عن المعية وقعوا في الطغيان، وهذا واضح في كثير من أفكارهم، وأمة وصلت لتشريع الشذوذ في برلماناتها هي أمة طغت وخرجت حتى عن دائرة الحيوانية، فهي أمة نجحت في الوسائل لكنها خسرت الإنسان، أو هوية الإنسان نفسه.

وهذا موضوع يطول شرحه هنا، وقد فصلت فيه في كتبي التي تخصصت بهذا الموضوع، حيث بينت فيها الماورائية الذهنية التي حكمت الغرب وكيف أوصلتهم لثقافة أدخلتهم لسعادة على مستوى الوسائل، لكنها حرمتهم الهوية الإنسانية، وأبسط قواعد المعرفة؛ مما ترتب عليه الطغيان من جهة، ثم الاستغناء من جهة أخرى، وهم من هذا الوجه احتاجوا للزجر بأعظم أداة زجر: "كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ٧ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ٨" [سورة العلق].

وقد بينت الآيات أنهم من حيث لا يعلمون سيجدون أن الأسباب التي طوعها الله لهم ليست مطلق ذاتي يرجعون إليه، بل إلى الله الرجعى...، وهذا باب يطول شرحه. لكن إكمالًا للقراءة الثانية هنا وهي القراءة بالمعية، أرى أن أسوق مثالًا واحدًا من كتاب الله قد نفهم منه القصد، وإلا الموضوع سيتشعب ويطول.

وقبل الولوج في المثال لا بد من بيان قضية محورية في القرآن الكريم وهي من عجائبه، وهي أن القرآن الكريم ميسر وسهل وبين، يستطيع أن يتعامل مع الأمي ويجد بغيته، وفي ذات الوقت ومن نفس الآيات يستطيع أن يتعامل معها أساطين العلم، وأولوا الألباب والعلماء ويجدون بغيتهم وأكثر من بغيتهم، من خلال معرفة لا متناهية، ومن هذا الوجه القرآن لا يشبع منه العلماء. ويرشد إلى ذلك قوله ﷻ: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ" [القمر١٧]، فالقرآن ميسر لكل مدكر، سواء كان أميًا بسيطًا محدودًا، أو عالمًا نحريرًا.

وهنا أسوق مثالًا سريعًا يكشف ذلك، يقول الله ﷻ: "وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ" [الحجر١٩]، فهذه الآية عندما تعامل معها الأمي في كبد الصحراء؛ وجد فيها بغيته، فهو ينظر أمامه فيجد الأرض

ممدودة، ويكفيه ما يراه بالحس...، لكن إذا زاد الوعي عند الإنسان فإنه يرى في ذات الآية دلالات كثيرة جدًا.

فعندما يتعامل معها عالم في الفلك مثلًا يجد أيضًا بغيته، وتتعمق دلالة الآية في ذهنه بحجم علمه، حيث يرى فيها دليلًا واضحًا على كروية الأرض؛ لأن الشكل الوحيد الذي يصدق فيه في أي بقعة منه أن الأرض مددناها، هو الشكل الدائري والكروي.

فالقرآن الكريم حمال أوجه، ومن هذا الوجه لا يمكن أن تنتهي دلالاته، ومهما بلغنا من العلم من خلال دائرتي الحس والعقل، فسنجد دائرة الوحي تخدمنا وتوجهنا نحو قضية يقينية، وهي أنه لا تعارض بين الحقيقة العلمية والحقيقة القرآنية؛ لأن الجهة واحدة للحقيقتين، وهو الله الذي بدأ الكتاب المهيمن بالقراءتين.

إذًا هذا مدخل سريع يقحمنا تدريجيًا لفهم سورة الروم من خلال القراءة الثانية وهي القراءة بالمعية، سورة الروم سميت بذلك لذكر الروم بها، والروم هي رمزية للغرب في زماننا، وقد استخدم النبي نفس الرمزية في علامات الساعة.

بداية السورة تتعلق بحدث عايشه الصحابة في مكة، وهو هزيمة الروم على يد الفرس، وكانوا يتعاطفون مع الروم لأنهم أهل كتاب، فنزلت الآيات لتكشف غيبًا مستقبليًا بإعادة الكرة وانتصار الروم على الفرس، إذا دائرة الغيب أبلغت الصحابة بانتصار الروم، وهذا يقين عند الصحابة، وقيدت الغلبة في بضع سنين؛ لذا راهن أبو بكر على غلبة الروم، لكنه أخطأ في تقدير البضع سنين بطريقة صحيحة، كما نحن الآن نخطئ في كثير من تقديرنا لأمور مستقبلية قطعية.

المهم كيف تناول القرآن الموضوع، وكيف تكشف الغيب!؟ هنا لينقلنا من قصة الروم إلى انتصار المؤمنين الذي لم ينكشف لهم إلا عند حصوله، وكيف في

ذات السياق جاء ليخبر عن خطل وخطأ الروم في آخر الزمان في قراءتهم، القرآن تناول كل هذه القضايا جملة واحدة، وكيف لا وهو من عند الحكيم الذي أحاط بكل شيء علمًا في عالم الغيب، الخبير الذي أحاط بكل التفاصيل الظاهرة والباطنة في عالم المشاهدة.

(اقرأ باسم ربك...)؛ لنبدأ بالقراءة ونكتشف هذه الأسرار التي جاءت جملة واحدة في سياق واحد، يقول الله ﷻ: "الم ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون ١٠ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١" [سورة الروم].

لنبدأ القراءة باسم الله، الآية الثانية تحكي قصة الهزيمة والنصر للروم في بضع سنين، فهي عايشت الواقع الآني (غلبة الروم)، وكشف دائرة الغيب عودة الكرة إليهم "سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ"...

فهو توقيت دقيق محتوم، وهو البضع سنين، وقد اختلف في تقديره على أربعة أقوال يقول الماوردي: "وفي (البضع) أربعة أقاويل: أحدها: من ثلاث إلى سبع. وهذا قول أبي بكر الصديق وقطرب. الثاني: من ثلاث إلى تسع. قاله مجاهد والأصمعي. الثالث: من ثلاث إلى عشر. قاله ابن عباس. الرابع: ما بين الثلاث إلى الخمس. حكاه الزجاج.) ([١٥]).

[١٥] الماوردي: النكت والعيون (٣/ ٤٠).

وهذا التنبؤ الغيبي حصل لكن متى!؟ لقد كان في سنة انتصار المؤمنين في غزوة الفرقان (بدر)، وهنا جاء القرآن في ذات السياق ليرشد إلى ذلك النصر الذي لم يفهمه الصحابة إلا عند وقوعه، فقد ظنوا أن فرحتهم هي بانتصار الروم باعتباره (نصر الله).

لكن عندما حصل نصر الروم متوافقًا مع نصر المؤمنين في غزوة بدر، تجلى مدلول الآيات: "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" وهكذا انكشف الأمر، وإذا بدائرة الغيب بدأت لترشد لعدة معاني وأحداث متزامنة بعضها لا يمكن إدراكها إلا وقت حصولها.

فعندما فرح المؤمنون بنصر الله في السنة الثانية للهجرة، كانت الآيات تنزل في ذات الوقت بفرقان ثانٍ يتعلق بأهل الكتاب، وازداد الوعي لدى الصحابة، عندها فهموا مع غزوة بدر أنهم هم المقصودون بالفرحة والنصر.

لكن هل وقفت دائرة الغيب عند هذا الحد، فهي نقلتنا في مرحلة الاستضعاف في العهد المكي إلى النصر في العهد المدني والسنة الثانية للهجرة، ثم فجأة في نفس السياق إذا بها تنقلنا للقراءة الثانية، وللقرن الخامس عشر الذي فيه الروم أكثر الناس كما بينت أحاديث الفتن والملاحم، وليراجع موضوعي بخصوص الحديث في مقالات المدونة.

لكن كيف نقلتنا!؟ نتابع الآيات مع سورة الروم، فهي مباشرة بعد الحديث عن النصر ذكرت أمرًا عجيبًا: (لا يعلمون – يعلمون ظاهر الحياة الدنيا)، من هؤلاء!؟ إنهم أكثر الناس، لنرجع للآيات: "وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ٧"، آه ثم آه ثم آه ما أعظم القرآن! إنه قرآن كريم وإن قرأته بالمعية فستنال (وربك الأكرم).

الروم وصفهم النبي ﷺ أنهم أكثر الناس، وأكثر الناس لا يعلمون، ثم الآية بعدها وصفهم بعلم مقيد؛ يعلمون ظاهر الحياة الدنيا. ما السر في الآيات!؟ بينا سابقًا أن الغرب قرأ بالقلم بدون (وربك الأكرم)؛ فحصل الطغيان الذي ترتب عليه بعد استجابة الأسباب وسنن التسخير له في حالة من الاستغناء والإلحاد.

ما الذي حصل؟ لقد اعتمد الغرب فقط على دائرتي الحس والعقل، ودائرتي الحس والعقل مجالها عالم المشاهدة (ظاهر الحياة الدنيا)، وعندما أحسن التعاطي مع هاتين الدائرتين؛ وصل لعلوم كثيرة لكنها كلها من عالم المشاهدة فقط، وبالمقابل حرم من الدائرة الأوسع...

لذا جاءت للبشرية بعلم كسيح، وتفسيرات كثيرة أغفلت كل جوانب الغيب، فضيع الإيمان بالله، وضيع إدراكه لعالم الملائكة والجن، وضيع إدراكه لنفسه من خلال علم النفس الذي اعتمده، ووقع في أزمة كبيرة بين السيكولوجي والبارسيكولوجي، وهو أمر فصلت فيه في موطنه في أحد كتبي، وضيع إدراكه للروح الكامنة في داخله.

وضيع إدراكه للبداية والمصير (المنشأ واليوم الآخر)؛ فوقع في الداروينية، وهذه قابلتها دائرة الوحي بقوله ﷻ: "مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا" [الكهف٥١]، فالله يقول أنه بدأ خلق الإنسان بأحسن تقويم ثم بدأ الانحدار، وداروين يقول بدأ الإنسان من الانحطاط للارتقاء.

الخلاصة:

نجح الغرب في اكتشاف سنن التسخير ضمن دائرتي الحس والعقل (عالم المشاهدة)، لكنه أخفق جدًا في فهم ذاته ومبدأه ومصيره ووظيفته (عالم الغيب)، فهو في الحقيقة ضيع العلم الحقيقي المرتبط بغاية الإنسان، لذا جاءت الآية للقول للروم

أكثر الناس إنكم لا تعلمون، فإن قالوا وهذه التكنلوجيا وهذا العلم!؟ فجاءت الآيات لتقول لهم إنكم تعلمون ظاهر الحياة الدنيا، ولكنكم عن الاخرة والأمور الغيبية في قمة الغفلة؛ فأنتم لا تعلمون من أين ولا تعلمون إلى أين، فأي علم هذا الذي تتكلمون عنه!!؟

ثم بدأت الآيات بتساؤلات مهمة جدًا تردهم عن غيهم وإغفالهم القراءة بالمعية (وربك الأكرم)، أو إغراق أنفسهم بالأسباب دون رؤية المسبب، يقول الله ﷻ: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ٨" [الروم].

استفهام توبيخي يردهم إلى دائرة العقل التي استخدموها، وظنوا أنهم أحسنوا استخدامها، التفكر.. لكن في ماذا؟ في أنفسهم لرؤية المسبب، ففي كل شيء آية تدل على أنه واحد، وبعد هذا الاستفهام يأتي استفهام ثاني لينقلهم للكون ضمن قراءتهم المنكوسة الكسيحة بدون (وربك الأكرم): "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون ١٠" [سورة الروم].

إنه استفهام توبيخي آخر يطالبهم مرة أخرى للتقلب في الكون الذي ظنوا أنهم أدركوا كل شيء فيه، ولينظروا إلى مصير الأمم السابقة التي أغرقت بالأسباب وتركت المسبب، حصل عندكم طغيان ثم استغناء؛ إذًا إلى ربك الرجعى. وكان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله، والرجعى هو العقاب بردهم إلى المسبب.

وهنا جاءت الرجعى الصادمة التي لم تكن في بالهم في آخر المقطع الأول: "اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١" [سورة الروم]، فالله بدأ الخلق وأعاده مرة

أخرى في قصة الطوفان، وهؤلاء لهم موعد مع طوفان لكن بشكل جديد، يبدأ الله به الخلق ثم يعيده، إن إلى ربك الرجعى.

ثم بدأت الآيات في تنبيه هؤلاء الغافلين الذين أغرقوا أنفسهم بالأسباب وأغفلوا المسبب، وجاءت لترسم الطريق القويم للقراءة الثانية ضمن (وربك الأكرم)، وهي قراءة الأصل بها أن تنتقل من الجزئيات للكليات، وهي عكس القراءة الأولى التي تنتقل من الكليات للجزئيات.

لذا بدأت الآيات تتكلم عن أن كل الأسباب التي ترونها هي من آيات الله، ولن أطرح الآيات هنا ولكن أحيل القاري ليتدبر سورة الروم، ويرى كم مرة ذكر فيها كلمة (ومن آياته)، والمعنى الإجمالي لها هو أن الله أيها الغرب هو المسبب، فلم وقفتم عند السبب؟ فكل ما تناولتموه بالدرس والتجربة والتمحيص مرده إلى الله، فلم وقفتم في منتصف الطريق وبقيتم عند علم ظاهر الحياة الدنيا!؟

آيات مليئة بالدلالات وكلها توجهنا للمسبب، ثم بعد تقرير هذه القضية العظيمة التي أغفلها الروم في قراءتهم من دائرتي الحس والعقل بعيدًا عن المعية، تأتي الآيات لتبرز لهم أن الأسباب التي تعاطت معكم مرجعها إلى الله (إن إلى ربك الرجعى)، وعلمكم المنكوس عاقبته الفساد في الكون الذي ظننتم أنكم عمرتموه بمنهجكم.

بل منهجكم هذه عاقبته؛ يقول الله ﷻ: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٠ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ٤٢ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ" [الروم].

هذه الآيات تحمل من الدلالات الكثير، مما يجعلنا نقف رهبة لها عاجزين صامتين عن إدراك مدلولها، فقد بدأت باسم الله فجأة ليقرع الآذان الغافلة بقوة، للروم من جديد: الله الذي خلقكم، ثم رزقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم، إن إلى ربك الرجعى.

لكن ما هي نتائج علمنا في ظاهر الحياة الدنيا!؟ بينت الآيات وفي سورة الروم أن الكون الذي تعاطى معكم قد اختل ميزانه باختلال موازينكم، وبدأ التغير التدريجي بالسنن من حيث لا تشعرون وظهر الفساد في البر والبحر.

أشعر أنني تعبت، وأرجو أن أكون وضحت المثال من خلال سورة الروم، ولو قليلًا منه من خلال القراءتين.

(٨)

أعرف أنني أثقلت على القراء في هذا الموضوع العميق، الصعب في الولوج به، ولولا فائدته العظيمة ما أشغلت قرائي به...، هنا قبل الولوج في القراءة الأولى للنبي محمد عليه السلام؛ وجدت أن أقحم هذا المثال لكي نفهم منهجية القرآن في طرح القراءتين، وهذا المثال هو خارج السياق وإن كان في حقيقته ضمن السياق ويسير في ذات الاتجاه، وهذا المثال يمازج بين القراءتين بطريقة عجيبة من خلال قصة مع أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

وقفنا عند مثال تطبيقي من خلال سورة الروم، وهنا أرى أن أسوق مثالًا آخر يبرز لنا طبيعة القراءتين، وكيف أنهما يمثلان البداية والنهاية.

قبل الشروع في المثال، أذكر بأن القراءة الأولى التي تضمنتها سورة العلق هي قراءة باسم الله لدائرة الغيب وعلاقتها بالمشاهد، فهي قراءة تنتقل من الكليات إلى

الجزئيات، أما القراءة بالمعية فهي قراءة تتنقل من الجزئيات إلى الكليات عبر دائرتي الحس والعقل، وهذه القراءة لو كانت بضوابطها؛ فهي تدخلنا إلى القراءة الكلية عبر دائرة الغيب.

وبينت أن بهاتين القراءتين من خلال الدوائر الثلاث، ينتظم كل الكون والعلاقة بينه وبين الإنسان والحياة.

أعطينا مثالًا من خلال سورة الروم للقراءة بالمعية وتطبيقاتها، وهنا أنتقل لمثال آخر ينقلنا من الحفيد للجد الأكبر، ومن الرسول العالمي إلى صاحب الملة وإمام الحنفاء. ففي غار حراء بدأت الرسالة بإبراز القراءتين لمحمد ﷺ، وجاء القرآن الكريم ليبرز لنا ممارسة حيوية للقراءتين وقعت عند أبي الأنبياء وخليل الله.

يقول الله ﷻ: "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٧٩" [سورة الأنعام].

هذه الآيات مفعمة بالأسرار، لكن أقتصر هنا على الشاهد الحيوي على القراءتين في سورة العلق، وهنا قد يظن القارئ للآيات أن المقصود بالملكوت الذي رآه إبراهيم عليه السلام، هو قصته مع الكوكب والقمر والشمس، وهذا غير صحيح، خاصة أن القصة تتحدث عن أفلاك سماوية، والرؤية المذكورة في الآية الأولى شملت ملكوت السموات والأرض، وليس بعض أفلاك السماء.

ما هو الملكوت الذي رآه إبراهيم عليه السلام، تذكر كتب التفسير نقولات متنوعة ترشد إليه، منها ما قاله البغوي: "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَقَالَ

مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي آيَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أُقِيمَ عَلَى صخرة وكشف له عن ملكوت السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْعَرْشِ وَأَسْفَلَ الْأَرَضِينَ، وَنَظَرَ إِلَى مَكَانِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: "وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا" [العنكبوت٢٧]، يَعْنِي: أَرَيْنَاهُ مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ" ([١٦])، وهذا الرأي أيضًا عند ابن جرير، ونقل نصوصًا في ذات السياق لسعيد بن جبير والسدي ومجاهد وغيرهم ([١٧])، والقرطبي وقد عزاه لإبراهيم النخعي، وساق نصوصًا في ذات السياق ([١٨]).

قال ابن جرير: "وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قولُ من قال: عنى الله ﷻ ذكره بقوله: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)، أنه أراه ملك السماوات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب، وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلَّى له بواطنَ الأمور وظواهرَها، لما ذكرنا قبل من معنى (الملكوت) في كلام العرب، فيما مضى قبل" ([١٩])، وقال عن معنى "وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ": "أريناه ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حسًّا لا خبرًا" ([٢٠]).

لقد سقت هذه النقول حتى تساعد في توضيح الأمر، وهو أن الآية الأولى الخاصة برؤية الملكوت، إنما تشير إلى رؤية واسعة حصلت لإبراهيم عليه السلام استطاع من خلالها أن ينفذ إلى دائرة الغيب، وينتقل من حال علم اليقين إلى حال عين اليقين، وهذا معنى ابن جرير بقوله: "يوقن كل شيء حسًا لا خبرًا"؛ فهنا الرؤية تشير إلى رحلة سرانية أو إسرائية، وقعت لإبراهيم عليه السلام كما وقعت لحفيده محمد عليه السلام، وكما تشير بعض النصوص أنها وقعت أيضًا لإدريس عليه السلام.

---

[١٦] تفسير البغوي (١٣٦/٢).
[١٧] ابن جرير: جامع البيان (٤٧٢/١١).
[١٨] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٤/٧).
[١٩] ابن جرير: جامع البيان (١١/ ٤٧٥).
[٢٠] المرجع السابق نفس الصفحة.

وقد تتبعت هذا الموضوع في كتب العهد القديم، فوجدت قصة الرؤية أو الرحلة الرؤيوية أو الرحلة السرانية في أحد كتب التوراة المنحول، وهي بعنوان (رؤيا إبراهام)، وقد وجدته في مخطوطات قمران ترجمة ديب الخوري ضمن التوراة المنحول ([٢١])، والقصة في بعض أجزائها تتوافق تمامًا مع مدلول الآية، وتتحدث عن رحلة تعرف إبراهيم (عليه السلام) من خلالها على كثير من أجزاء الأرض ومسمياتها، ثم بعد ذلك انتقل للسماء وحصلت له رؤية للعوالم العلوية والجنة والنار...، فهي كثير من أجزائها تشبه رحلة المعراج لرسولنا الكريم.

وهذا الكلام يتوافق بمجمله مع ما طرحه المفسرون في الآية، ويتوافق مع مدلول: "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ"، وقد نال إبراهيم (عليه السلام) رؤيتين: إحداهما: منة وهبة من الله دون طلب منه، وهي هذه الرؤية التي أدخلته دائرة الوحي وعالم الغيب ليكون من الموقنين، ورؤية أخرى طلبها إبراهيم بنفسه، وهي في قوله: "أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى".

أما لماذا هذه المقدمة الطويلة في شرح آية الملكوت!؟ طبعًا حتى يتضح لنا كيف دخل إبراهيم (عليه السلام) من القراءة الأولى إلى القراءة الثانية في سياق واحد، بحيث أن إحداهما كانت نتيجة للأخرى، لكن جاء الترتيب القرآني للحدث موافقًا للترتيب في سورة العلق، هذا كلام عجيب غريب يحتاج لتوضيح.

ننتقل الآن لقصة الكوكب والقمر والشمس، وسواء كانت القصة بمجملها من باب المحاجة للكفار وبيان سقم عبادتهم، أو كانت تمثل مرحلة من مراحل إبراهيم (عليه السلام)، وتجربته في الفهم كما يشير ظاهر القرآن. فأيًا كان الأمر؛ نسير مع سياق الآيات، وهنا استخدم إبراهيم (عليه السلام) القراءة الثانية بجدارة (اقرأ وربك الأكرم)، طبعًا

---

[٢١] دوبون، وفيلوننكو: مخطوطات قمران، ترجمة ديب الخوري (٥٦٩/٣).

هنا لم يكن قلم لأن القلم هو وسيط حضاري يسجل ذاكرة الحس والعقل، وإبراهيم بتجربته دخل على دائرتي الحس والعقل مباشرة، لكن مع (وربك الأكرم).

رأى كوكب (دائرة الحس رؤية بصرية)، ترتب على الرؤية حكم (هذا ربي) حصل أفول للكوكب، تدخلت دائرة العقل، فالأفول نقص والنقص لا يكون للإله الذي يجب أن يكون كاملًا. كذلك كونه يأفل يشير إلى قوة تتحكم فيه. القصة تتكرر مع القمر ونفس النتيجة، ثم الشمس وهنا تتدخل دائرة الحس والعقل، رأى الشمس (دائرة الحس)، هذا أكبر (حكم حسي عقلي)، ثم الأفول الأخير والنتيجة العقلية اللازمة منه.

المهم هنا قرأ إبراهيم عليه السلام بالمعية، فكانت النتيجة الدخول على دائرة الغيب: "إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، هنا لا توجد رؤية؛ لكن توجد وجهة للقلب، وتوجيه الوجه لله الذي فطر السموات والأرض، هنا معناه الانتقال من دائرتي الحس والعقل إلى دائرة الغيب، والذي يتناسب معه الوجه المعنوي.

هنا مباشرة بدأت الرؤية والجائزة مع إبراهيم عليه السلام، فدخوله للقراءة الأولى كان بأعلى الدرجات؛ فهي قراءة نقلته من علم اليقين الذي عبر عنه بقوله: (وجهت وجهي..) إلى عين اليقين بقوله سبحانه وتعالى: (كذلك نري إبراهيم..).

فرؤية الملكوت هو دخول إلى دائرة الغيب، وهو الذي يحتاج القراء باسم الله، وهذا معنى قولي في أحد المقالات السابقة أن النبي محمد عليه السلام وصل بالقراءة الأولى إلى أعلى مقاماتها خلال رحلة الإسراء، التي نقلته من علم اليقين إلى عين اليقين.

لكن هنا يطرح تساؤل، فإذا كان الترتيب المنطقي للأحداث والقراءتين مع إبراهيم يجعل القراءة بالمعية سابقة للقراءة بالاسم، لكن الترتيب القرآني خالف الترتيب المنطقي.

وهنا سر القرآن الكريم وعظمته التي تتجلى لنا في كل حرف منه، "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"، القرآن هنا رتب الحدثين بحسب الأولية، والترتيب المنطقي للمعرفة والعلم، فدائرة الوحي سابقة لدائرتي الحس والعقل.

وهنا أذكر بقصة آدم: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ"، فالتعليم كان من دائرة الوحي قبل استخدام الحواس المنفذة للعقل المعلومات، ودائرة الوحي التي تمثل عالم الغيب هي أوسع دوائر المعرفة والمهيمنة على الدوائر الأخرى، ومن هذا الوجه نجد أن القرآن الكريم يقدم الغيب على المشاهدة: "عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" [الأنعام٧٣]، "قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" [الزمر٤٦]، "عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [التغابن١٨].

وهكذا لو تتبعت القرآن الكريم تجد عالم الغيب مقدم على عالم الشهادة، وفي السورة الأولى كانت القراءة الأولى التي تمثل دائرة الوحي وعالم الغيب مقدمة، على القراءة بالمعية التي تمثل دائرتي الحس والعقل (عالم المشاهدة).

والقرآن نتلقاه من الحكيم الخبير، والحكمة تقابل عالم الغيب، والخبرة تقابل عالم الشهادة كما هو واضح من آية سورة الأنعام السابق ذكرها، يقول الله ﷻ: "الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" [هود١]، انظر هذا الترتيب وقارنه بآية سورة الأنعام التي جعلت الحكمة مقابلة لعلم الغيب، والخبرة مقابلة لعالم الشهادة.

فالترتيب المنطقي لسورة العلق بدأ بالقراءة باسم الله ضمن دائرة الغيب، ثم قراءة بالمعية ضمن دائرة المشاهدة، فالمشاهدة تحتاج المعية من خلال وسائط المعرفة التي أكرم الله بها الإنسان، لكن الغيب يحتاج الاسم لعظمته وسعته وصعوبة الولوج به.

وهذا الترتيب المنطقي للمعرفة في سورة العلق هو ذاته الترتيب الذي جاءت به سورة الأنعام في حق إبراهيم عليه السلام، وهناك لاحظنا كيف قرأ إبراهيم عليه السلام القراءة الأولى بالمعية، وكيف أسلمته للقراءة الثانية (رؤية الملكوت)، وكيف جاء الترتيب للأحداث موافق للترتيب في سورة العلق التي تمثل البداية والنهاية.

كما قلت قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام مفعمة بالأسرار، لكن هنا جئت فقط بالسياق الخادم لفكرة القراءتين، وهذه مسودة وكتابة سريعة سأعود عليها بالتحقيق والتمحيص.

تعقيب على سورة العلق

أعلم أن ما طرحته من المقالات فيه بعض الصعوبة في كثير من حيثياته، وأسأل الله أن ييسر لي تبسيط الأفكار لكي نصل للنتيجة المتوخاة في الطرح، الذي من خلاله نستطيع استثمار القرآن الكريم في فهم المرحلة الحالية.

بداية أوضح أن القرآن الكريم قد تضمن منهجية جديدة مغايرة لما سبقه من الكتب السماوية، فالكتب السماوية كانت تمثل المنهاج الذي يتضمن الوصايا والتعاليم فقط، وهي شيء والمعجزة الدالة على صدق النبي شيء آخر، أما القرآن الكريم فالأمر مغاير تمامًا حيث أن المعجزة هي نفسها التي تضمنت المنهاج.

والمعلوم أن المعرفة والعلم شيء تراكمي، فالقرآن الكريم جاء لينقل البشرية إلى مرحلة وعي جديدة مغايرة لما سبق، نقلة لم تعهد البشرية مثلها، هذه النقلة تم التمهيد لها خلال التجارب السابقة، وأصدق مثال على ذلك تجربة موسى ﵇ مع الخضر.

لكن لماذا هذه النقلة؟ السبب والله أعلم أن التجربة الإنسانية قد وصلت مدى ومساحة من الوعي تستطيع من خلاله التعاطي مع تجربة جديدة عقلية، تجعلها تكتشف الميزان الذي يحكم حركة الحياة والإنسان والكون، بما تلامسه من حركة للغيب مهيمنة على الواقع من خلال ستار رقيق، دون المس بعناصر الحياة بطريقة مباشرة.

وهذه النقلة هي السبب في إغلاق باب النبوة وختمها، وإغلاق باب الكتب السماوية بالكتاب الخاتم المهيمن، الذي تضمن الإحاطة التي تستغرق الزمان والمكان والشخوص، وهذا الأمر سأفصل به إن شاء الله.

لكن المهم هنا هو: لماذا تغير النهج الإلهي في التعامل مع البشر، وأغلق باب المعجزات الحسية نحو معجزة كلية عقلية معنوية!؟ ولماذا لم يستمر إرسال الرسل والتأييدات الحسية المباشرة كما كان مع الأنبياء السابقين!؟ السبب كله هو في طبيعة القرآن المغاير تمامًا للكتب السابقة، فالقرآن الكريم هو رسول متجدد استغرق الزمان والمكان والشخوص، وفيه تبيان لكل شيء، ومع بقائه وحفظه لا حاجة لترادف الرسل بعده، فهو ليس كتاب تعاليم، بل هو صفحة مرافقة للتجربة الإنسانية على مدار التاريخ، تحكي عجلة الحياة وتجيب على كل تساؤلاتها.

هذا التعقيب السريع وضعته هنا، وقد تم توضيح الأمر أكثر من خلال الأمثلة التي أبرزت مراد القراءتين في سورة العلق، وكيف استوعبتا كل دوائر المعرفة الإنسانية بطريقة كلية وجزئية متكاملتين.

الموضوع صعب لكنه شيق من ناحية، ومفيد جدًا من ناحية، والأهم أنه يمثل مفتاحًا من مفاتيح الفهم لكتاب الله، وأنا في نفس المرحلة التي سأعالج سورة العلق، سأعالج في موضع آخر قصة موسى والبصائر التي تضمنتها كتطبيق لفهم القرآن الكريم.

وأرى هنا أن أوقف سلسلة اقرأ أو سورة العلق البداية والنهاية، لمدة بسيطة أتفرغ فيها لقصة موسى والألف بصيرة، خاصة أن موضوع سلسلة سورة العلق قد تشعب، والمادة العلمية داخله فيها عمق، وأحيانًا تحتاج لدراسة عدة مرات حتى تكون منها الفائدة؛ لذا أقتصر على ما ذكرت، ثم أنتقل لمدونتي الرئيسية نداء الروح للخوض في قصة موسى عليه السلام.

لكن ما أود توضيحه هو أن الآيات الأولى التي نزلت في غار حراء تنبئ بمنهجية جديدة، وتحمل في ثناياها سر القرآن الكريم من جهة، ومن جهة اخرى تكشف لنا أسرار المرحلة بشكل حيوي، لكن بشرط أن تكون القراءة بالمعية (اقرأ وربك الأكرم)، فهذه البداية التي تعامل معها المسلمون ببساطة؛ تحمل في طياتها روح القرآن الكريم، وتكشف سر العلاقة بين الإنسان والكون والحياة، وتكشف لنا الانسجام بين دوائر المعرفة.

*****

صرح سليمان عليه السلام [٢٢]

الحمد لله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وأصلي على المبعوث رحمة للعالمين، الذي بدأ الله رسالته بكلمة اقرأ وختمها بقوله سبحانه وتعالى: "وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" [البقرة٢٨١]، ثم أما بعد:

قبل أن أشرع بموضوعي أوضح أن كلماتنا هي: بذور ننثرها مع هبات الرياح وقطرات المطر، ولا ندري في أي أرض يستقر بها القدر، لكن بإذن الله يومًا ما سيأتينا منها بعض الثمر.

استوقفني موضوع صرح سليمان عليه السلام والإمكانات التي تمتع بها من بين الأنبياء، وانتهاء مملكة بكل آثارها حتى الصغيرة منها، مما جعلني أرى ضرورة فتح هذا الموضوع، وتناوله بطريقة غير نمطية تبرز بعض مدلولاته، وطبعًا ما سأطرحه إنما هو نتاج لعلمي المحدود القاصر، ورب مبلغ أوعى من سامع؛ لذا أضع هذه التصورات المحدودة بين يدي متابعي المدونة، لعل الله يرشدهم لما نجهله في هذا الموضوع الهام في نظري جدًا.

ولكي يتضح مدلول طرحي هنا أرى أن أوضح بطريقة موجزة طبيعة القرآن الكريم الذي بين أيدينا، وبعض قدرات النبي سليمان عليه السلام، ثم التوسع في موضوع صرح سليمان وذلك على النحو التالي:

[٢٢] ملاحظة: هذه سلسلة متواصلة يفضل قراءتها بتتابع حتى تحصل الفائدة.

المبحث الأول:

القرآن الكريم الكتاب المفتوح على الماضي والمستقبل

يقول الله ﷻ: "الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" [هود ١]، "وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ" [النمل ٦].

هذه الآيات تبرز لنا قضية جوهرية هامة؛ غفلنا عنها عند تعاملنا مع القرآن الكريم، وهي طبيعة هذا القرآن وسعة ما يحمله من دلالات، فالقرآن من لدن حكيم خبير، والحكمة هي الإحاطة الكلية بالأشياء تستوعب الزمان والمكان والشخوص (معنى كلي للمعرفة)، والحكمة تقابل عالم الغيب، والخبرة هي معرفة التفاصيل الظاهرة والباطنة للأشياء والأحداث، بما يستوعب الظاهر والباطن في كل صغيرة في الكون، والخبرة تقابل عالم الشهادة بكل تفاصيله الواضحة والخفية.

من هذا الوجه جاء القرآن الكريم ليستوعب الزمان والمكان، ويفوق الزمان والمكان وأفهام البشر وعقولهم إلى قيام الساعة، وكيف لا والقرآن الكريم لا يوصف بكونه مخلوق، بل هو كلام الله حقيقة، فإذا كانت الآيات المخلوقة مهما صغرت عندما نعمل فيها العقل؛ نجد أنها تكشف لنا من الأسرار ما لا نستوعبه أحيانًا.

على سبيل المثال: عندما فكر بعض العلماء أن يتعاملوا مع الخلية الأولى التي لا ترى إلا بالمجاهر ويجتهدوا في كشف أسرارها، رأى جمهور العلماء في ذلك الوقت أن هذا الأمر هو مضيعة للوقت والجهد، وأنه لا طائل من هذه الدراسة، لكن المجتهدون في هذا المجال لم يُحبطوا، وواصلوا أبحاثهم وتأملاتهم في هذا الشيء الصغير جدًا، فماذا كانت النتيجة؟ لقد كانت فوق تصور أصحابها؛ حيث فتحت المجال واسعًا في باب الهندسة الوراثية...

كانت فاتحة لثورة علمية في نظر أهلها لا يمكن استيعابها من كل جوانبها، خاصة بعد الكشف عن وجود خارطة وراثية تتضمن في كل كروموزوم خمسين ألف جين وراثي، وهذه المنظومة تسير ضمن نسق دقيق واعي، أمكن التنبؤ ببعضه أو التحكم ببعضه وتوجيهه بحسب مبلغ علم هؤلاء.

إعطاء مجال للتأمل في الخلية الأولى فتح المجال لأسرار أصبحت في نظر علماء الغرب أعظم من اختراع القنبلة النووية والحاسوب، وجزء من طفرات هذا العلم ما زال يعتبر من المحظورات على الدول النامية لعظمته وخطورته.

إذا خلية واحدة أو آية صغيرة مخلوقة عندما تأملها الإنسان وتعامل معها بجدية؛ وصل لكل هذه النتائج الباهرة التي لا تستوعب تفاصيلها هذه المقدمة، فكيف لو تأملنا بكتاب الله وآياته التي لا تعتبر مخلوقة!؟ فإذا كان المخلوق الصغير الذي لا يُرى أبهرنا بأسراره، فكيف بآيات الله غير المخلوقة، والتي كانت ليلة نزولها بمثابة عرس وعيد روحاني وملائكي ومضاعفة للأجر!؟ إن ذكرى ليلة تنزله ما زالت تنزل الملائكة والروح كأعظم ليلة في السنة، يقول الله ﷻ: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ" [القدر ٤].

هذا هو القرآن الكريم الذي قالت عنه الجن: "إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا". وقال عنه الإمام علي رضي الله عنه في أثر ضعيف: "لا تنقضي عجائبه"، ومعنى لا تنقضي عجائبه؛ أي أننا كلما أعملنا فكرنا وتأملنا به وتدبرنا آياته يأتينا بجديد، ويفتح لنا آفاقًا كانت عن قلوبنا غائبة، وعن عقولنا مغيبة.

لماذا؟ لأنه نزل من عند عالِم الغيب والشهادة ومن لدن حكيم خبير، جاء القرآن الكريم لكي يستوعب سننية الماضي ويحكي الحاضر ويتنبأ بالمستقبل في ذات اللحظة، لذا كل حرف فيه بحسب موضعه في القرآن له دلالاته التي يمكن أن

نستثمر منها الخير الكثير، ونستكشف من خلالها الغيب، ونقرأ بواسطتها واقعنا وما يؤول إليه أمرنا، والقرآن الكريم ما زال غضًا طريًا لم يكتشف بعد.

خلال هذه المقدمة أردت الخلوص إلى فكرة حيوية مهمة جدًا عند تعاملنا مع القرآن الكريم، وهي أن كل قصة في القرآن الكريم إنما جاءت لهذه الأمة لتحمل عِبَر ودلالات تتكشف عبر الزمن، فالقرآن هو كتاب الإحاطة المطلقة للغيبيات والعلم التفصيلي للمشاهدات، فقصة موسى عليه السلام لم تأت لتحكي قصة حصلت في الماضي، فهذا متصور لو كانت القصة من عند البشر، لكنها من عند الذي أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل؛ لذا ساقها القرآن كقصة حقيقية تحكي الماضي وتكشف عن المستقبل، عبر سننية ثابتة لا تحتمل التبديل والتحويل.

وقصة سليمان عليه السلام أو بعض تفاصيل قصة سليمان عليه السلام إنما طُرحت ليس فقط لنقول أن ملك سليمان كان عجيبًا عظيمًا، ثم ننسج حوله تخيلاتنا كما تعج به كثير من كتب التفسير، بل جوانب قصة سليمان عليه السلام في القرآن إنما تحكي أسرارًا ستتكشف مع الأيام ومع نضج الأفهام.

بل قد يكون جزء من هذه القصة وآثارها هي ما سنعاينه مستقبلًا، وهذا محتمل جدًا، من هذا الوجه سأتناول مسألة صرح سليمان عليه السلام، كدراسة مطولة قد تكون مملة في بعض جوانبها لكنها مفيدة جدًا، وقد تفتح المجال أمامنا لتساؤلات كثيرة جدًا.

المبحث الثاني:

بعض قدرات سليمان كما بين القرآن

قبل الخوض في موضوع صرح سليمان عليه السلام أرى أن أستعرض بعض إمكانات سليمان عليه السلام كما تشير كثير من الآيات، وذلك لتلازم الأمرين.

أولًا: الصناعة المعدنية والبناء.

يقول الله سبحانه وتعالى: "وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ١٢ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ١٣" [سبأ].

موضوع الريح ليس محلها هنا، لكن الآيات تشير إلى تسخير عالم الجن لسليمان عليه السلام، إضافة لتسخير الموجودات مثل عين القطر أي عين النحاس، والتي ارتبط إسالتها بالقدور والجوابي، وتسخير الجن كان بأعلى طاقاته ودرجاته؛ لدرجة لا يملك أي جني أن يزيغ عن الأمر وإلا العذاب.

ثم جاء تفصيل بعض الأعمال على النحو التالي:

١- المحاريب.

والمحراب المأخوذ من كلمة حرب، يظهر أنه في أصله كان عبارة عن قلعة حصينة، ثم استعير في مراحل متأخرة للإشارة للعبادة وأماكنها، أو أماكن الخلوة بين يدي الله كما في قصة مريم وزكريا عليهما السلام، أما أصل الكلمة فهي تشير إلى ما يشبه القلاع، وفي قصة داود عليه السلام "تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ"، مما يشير إلى أن المحراب له سور عالي.

وقد ذكر الماوردي ثلاثة تأويلات لها يقول عن المحاريب: "فيها ثلاثة أقاويل: أحدها: أنها قصور، قاله عطية. الثاني: المساجد، قاله قتادة والحسن. الثالث: المساكن، قاله ابن زيد. قال أبو عبيدة: محراب الدار أشرف موضع فيها، ولا يكون إلا أن يرتقى إليه" ([٢٣]).

وكلام أبي عبيدة هنا هو الأقرب للدلالة، وهو الأصدق لغويًا لمعنى محراب المأخوذة من الحرب، وكأنها الحصن الذي يرتقى إليه لمنعته وعلوه.

٢- التماثيل.

وهذه يحتمل أنها من القطر كما يرشد السياق، ويحتمل أنها من الذهب والفضة، كما تشير إصحاحات العهد القديم فيما يخص التماثيل التي تحف كرسي سليمان عليه السلام، والتماثيل كانت في شرعة سليمان عليه السلام مباحة، وهناك تفصيلات كثيرة حول هذه التماثيل وأشكالها، بعضها كان في قصر سليمان عليه السلام وبعضها في مواضع أخرى، وسنلحظ أن التماثيل سيأتي ذكرها مرة أخرى مع الجفان.

٣- الجفان كالجواب ([٢٤]).

وقد استغربت من بعض المفسرين الذين اعتبروا الجفان هنا هي صواني عظيمة للطعام، فالجابية هي الحوض الذي يستقر فيه الماء، وقد رجح الطبري أن المقصود بالجواب هو ما ينحت الجن في الصخر من أحواض مياه ([٢٥]). والرازي اعتبر الجفان هي الصحاف التي يوضع بها الأكل، وذكر أن الجفنة كان يجلس عليها ألف رجل. ([٢٦]).

---

[٢٣] الماوردي: النكت والعيون (٤/٤٣٨).
[٢٤] يقول الماوردي: "(وِجِفَانٍ) قال مجاهد: صحاف. (كَالْجَوَابِ) فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: كالحياض، قاله الحسن. الثاني: كالجوبة من الأرض، قاله مجاهد. الثالث: كالحائط، قاله السدي". [الماوردي: النكت والعيون (٤/٤٣٩)].
[٢٥] الطبري: جامع البيان (٢٠/٣٦٧).
[٢٦] الرازي: مفاتيح الغيب (٢٥/١٩٨).

وترجيح الطبري مبني على فهمه اللغوي لمعنى الجابية، لكن كلمة جفنة هنا تشير إلى مقصود آخر غير النحت في الصخر، وكلام الرازي لا يخدمه السياق. وقد أرشد ابن عاشور إلى أن الجواب كانت أحواضًا كبيرة لأجل وضع الماء فيها ([27])، وهو الصحيح عندي، وهو ما ترشد له طبيعة كلمة جفنة المشبهة بالجابية.

وهذه الجفان جاء ذكر واحد منها في العهد القديم، وهو يعرف عندهم بالبحر المسبوك، جاء في سفر الملوك الأول عن البحر المسبوك الذي وضعه سليمان في بيت المقدس في الدار الداخلية منه لأجل الطهارة: "٢٣وَعَمِلَ الْبَحْرَ مَسْبُوكًا. عَشَرَ أَذْرُعٍ مِنْ شَفَتِهِ إِلَى شَفَتِهِ، وَكَانَ مُدَوَّرًا مُسْتَدِيرًا. ارْتِفَاعُهُ خَمْسُ أَذْرُعٍ، وَخَيْطٌ ثَلاَثُونَ ذِرَاعًا يُحِيطُ بِهِ بِدَائِرِهِ. ٢٤وَتَحْتَ شَفَتِهِ قِثَّاءٌ مُسْتَدِيرًا تُحِيطُ بِهِ. عَشَرٌ لِلذِّرَاعِ. مُحِيطَةٌ بِالْبَحْرِ بِمُسْتَدِيرِهِ صَفَّيْنِ. الْقِثَّاءُ قَدْ سُبِكَتْ بِسَبْكِهِ. ٢٥وَكَانَ قَائِمًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ ثَوْرًا: ثَلاَثَةٌ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الشِّمَالِ، وَثَلاَثَةٌ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الْغَرْبِ، وَثَلاَثَةٌ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ، وَثَلاَثَةٌ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الشَّرْقِ. وَالْبَحْرُ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقُ، وَجَمِيعُ أَعْجَازِهَا إِلَى دَاخِل. ٢٦وَغِلَظُهُ شِبْرٌ، وَشَفَتُهُ كَعَمَلِ شَفَةِ كَأْسٍ بِزَهْرِ سُوسَنٍّ. يَسَعُ أَلْفَيْ بَثٍّ. ٢٧وَعَمِلَ الْقَوَاعِدَ الْعَشَرَ مِنْ نُحَاسٍ، طُولُ الْقَاعِدَةِ الْوَاحِدَةِ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ، وَعَرْضُهَا أَرْبَعُ أَذْرُعٍ، وَارْتِفَاعُهَا ثَلاَثُ أَذْرُعٍ. ٢٨وَهذَا عَمَلُ الْقَوَاعِدِ: لَهَا أَتْرَاسٌ، وَالأَتْرَاسُ بَيْنَ الْحَوَاجِبِ. ٢٩وَعَلَى الأَتْرَاسِ الَّتِي بَيْنَ الْحَوَاجِبِ أُسُودٌ وَثِيرَانٌ وَكَرُوبِيمُ، وَكَذلِكَ عَلَى الْحَوَاجِبِ مِنْ فَوْقُ. وَمِنْ تَحْتِ الأُسُودِ وَالثِّيرَانِ قَلاَئِدُ زُهُورٍ عَمَلٌ مُدَلًّى. ٣٠وَلِكُلِّ قَاعِدَةٍ أَرْبَعُ بَكَرٍ مِنْ نُحَاسٍ وَقِطَابٌ مِنْ نُحَاسٍ، وَلِقَوَائِمِهَا الأَرْبَعِ أَكْتَافٌ، وَالأَكْتَافُ مَسْبُوكَةٌ تَحْتَ الْمِرْحَضَةِ بِجَانِبِ كُلِّ قِلاَدَةٍ. ٣١وَفَمُهَا دَاخِلَ الإِكْلِيلِ وَمِنْ فَوْقُ ذِرَاعٌ. وَفَمُهَا مُدَوَّرٌ كَعَمَلِ قَاعِدَةٍ ذِرَاعٌ وَنِصْفُ ذِرَاعٍ. وَأَيْضًا عَلَى فَمِهَا نَقْشٌ. وَأَتْرَاسُهَا مُرَبَّعَةٌ لاَ مُدَوَّرَةٌ. ٣٢وَالْبَكَرُ الأَرْبَعُ تَحْتَ الأَتْرَاسِ، وَخَطَاطِيفُ الْبَكَرِ فِي الْقَاعِدَةِ، وَارْتِفَاعُ

[27] ابن عاشور: التحرير والتنوير (٢٢/١٦٢).

الْبَكَرَةِ الْوَاحِدَةِ ذِرَاعٌ وَنِصْفُ ذِرَاعٍ. ٣٣وَعَمِلُ الْبَكَرِ كَعَمَلِ بَكَرَةِ مَرْكَبَةٍ. خَطَاطِيفُهَا وَأُطُرُهَا وَأَصَابِعُهَا وَقُبُوبُهَا كُلُّهَا مَسْبُوكَةٌ. ٣٤وَأَرْبَعُ أَكْتَافٍ عَلَى أَرْبَعِ زَوَايَا الْقَاعِدَةِ الْوَاحِدَةِ، وَأَكْتَافُ الْقَاعِدَةِ مِنْهَا. ٣٥وَأَعْلَى الْقَاعِدَةِ مُقَبَّبٌ مُسْتَدِيرٌ عَلَى ارْتِفَاعِ نِصْفِ ذِرَاعٍ مِنْ أَعْلَى الْقَاعِدَةِ. أَيَادِيهَا وَأَتْرَاسُهَا مِنْهَا. ٣٦وَنَقَشَ عَلَى أَلْوَاحِ أَيَادِيهَا، وَعَلَى أَتْرَاسِهَا كَرُوبِيمَ وَأُسُودًا وَنَخِيلًا كَسِعَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ، وَقَلاَئِدَ زُهُورٍ مُسْتَدِيرَةً. ٣٧هكَذَا عَمِلَ الْقَوَاعِدَ الْعَشَرَ. لِجَمِيعِهَا سَبْكٌ وَاحِدٌ وَقِيَاسٌ وَاحِدٌ وَشَكْلٌ وَاحِدٌ" (٢٨).

فالبحر المسبوك هو جفنة كالجابية وهو مصنوع من النحاس، وكونه مصنوع بقياس واحد وشكل واحد يشير إلى عظمة الصنعة، وهكذا صنع في العهد القديم لا يستطيع القيام بمثله البشر، لذا جاء ذكر الجوابي مع ذكر تسخير الجن وإسالة عين القطر، ونلحظ من قصة البحر المسبوك أيضًا ذكر للتماثيل التي تحمله.

وهذه الجابية كما بين النص تتسع لألفي بث، والبث يعادل ٢٢،٩٩١ لترًا تقريبًا، يعني ما يقارب ٤٦ كوبًا أو ٤٦ ألف لتر ماء، وهذا يشير إلى مدى ضخامته، كذلك نلحظ أن سُمك هذا الإناء العظيم كان شبرًا، مما يشير إلى الكمية العظيمة من النحاس التي استخدمت لبنائه.

كذلك يبرز هذا التوصيف للمساحة والسمك مدى ضخامة وزن هذه الجابية التي تقدر بأطنان كثيرة من النحاس، وهذا يتناسق مع قضية إسالة عين القطر التي استثمرها سليمان عليه السلام بواسطة الجن، ويظهر من السياق أن صنع هذه الجوابي كان في نفس موضع إسالة عين القطر، ثم يقوم الجن بنقلها نحو الموضع المطلوب، وقدرات النقل اتضحت لنا من خلال قصة عرش بلقيس.

---

٢٨ سفر الملوك الأول: الإصحاح السابع.

لكن يستوقفني هنا أن كل العهد القديم لم يتكلم إلا عن جابية واحدة (البحر المسبوك)، والنص القرآني استخدم لفظة الجمع؛ مما يشير إلى أن سليمان عليه السلام قد صنع أكثر من جابية، نعم جاء ذكر عمل المراحض أيضًا مع ذكر البحر المسبوك.

جاء في سفر الملوك: "٣٨وَعَمِلَ عَشَرَ مَرَاحِضَ مِنْ نُحَاسٍ تَسَعُ كُلُّ مِرْحَضَةٍ أَرْبَعِينَ بَثًّا. الْمِرْحَضَةُ الْوَاحِدَةُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ. مِرْحَضَةٌ وَاحِدَةٌ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْوَاحِدَةِ لِلْعَشَرِ الْقَوَاعِدِ. ٣٩وَجَعَلَ الْقَوَاعِدَ خَمْسًا عَلَى جَانِبِ الْبَيْتِ الأَيْمَنِ، وَخَمْسًا عَلَى جَانِبِ الْبَيْتِ الأَيْسَرِ، وَجَعَلَ الْبَحْرَ عَلَى جَانِبِ الْبَيْتِ الأَيْمَنِ إِلَى الشَّرْقِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ" ([٢٩])، لكن نلحظ أن المراحض كانت صغيرة، أي تتسع كل واحدة لأقل من كوب من الماء فقط، ولا أتصور أنها يصدق عليه كونها جابية.

ووفق ما ذكرت الجفنة التي كالجابية يصدق عليها قصة البحر المسبوك، وصيغة الجمع في القرآن الكريم توحي بأن هناك أكثر من جابية قامت الجن بعملها لسليمان عليه السلام، ويحتمل أن المراحض تعتبر جوابي لأنها أحواض للمياه.

٤- القدور الراسيات.

وهذه القدور أيضًا من نحاس، يقول الماوردي: "(وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ) فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: عظام، قاله مجاهد. الثاني: أن أثافيها منها، قاله ابن عباس. الثالث: ثابتات لا يزلن عن أماكنهن، قاله قتادة ، مأخوذ من الجبال الرواسي لثبوتها وثبوت الأرض بها" ([٣٠]).

وكلمة راسيات هي من الثبات وعدم التحرك، مما يشير إلى عظمتها وثقل وزنها، ويحتمل أن تكون قواعدها تابعة لها، فكل ما طرحه الماوردي محتمل بخصوص هذه القدور.

[٢٩] سفر الملوك: الإصحاح السابع.
[٣٠] الماوردي: النكت والعيون (٤/٤٣٩).

الخلاصة:

الآيات من سورة سبأ تحكي لنا إمكانات هائلة في مجال الصناعة المعدنية التي كانت عند سليمان ﵇، وصنعة بهذا المستوى لا بد أن تترك وراءها أثرًا يرشد إليها، فالأمم السابقة إلا تترك وراءها آثارًا ترشد إليها، حتى لو كانت بسيطة أو ضعيفة كالفخاريات، فما بالك بكل هذه الصناعة المعدنية المهيبة، التي لم يبق خلفها ولو أثرًا صغيرًا يرشد إليها...!! وهذا الموضوع ستظهر لنا أهميته عند حديثي عن بقايا مملكة سليمان ﵇ وآثارها بحسب الآثاريين.

ثانيًا: تسخير الجن في البناء والغوص بأقصى الدرجات.

يقول الله ﷻ: "فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَالشَيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ ٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩" [ص]، "وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ" [الأنبياء٨٢].

هذه الآيات تحكي تسخير الجن والشياطين على وجه الخصوص لسليمان ﵇، وكلمتي (بناء) و(غواص) هي صيغ مبالغة للدلالة على الصنعة كنجار وحداد، أي من يشتهر منهم في البناء والغوص، ومعنى الآية أن الله سخر لسليمان ﵇ الشياطين، كل بناء في البر وكل غواص في البحر، يقول البغوي: "أي سخرنا لَهُ الشَّيَاطِينَ، كُلَّ بَنَّاءٍ يَبْنُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ، وَغَوَّاصٍ يَسْتَخْرِجُونَ لَهُ اللَّآلِئَ مِنَ الْبَحْرِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اسْتَخْرَجَ اللُّؤْلُؤَ مِنَ الْبَحْرِ" ([٣١]).

---

[٣١] البغوي: معالم التنزيل (٧٣/٤).

وقد أشارت الآية الأخرى أن للشياطين أيضًا أعمالًا دون ذلك، وخلال السياق السابق وجدنا عظمة الصنعة المعدنية، ويتصور أن العظمة نفسها كانت موجودة فيما يتعلق بالبناء والغوص، ويتصور أن يكون هناك ما هو أكثر من اللؤلؤ مما استخرجته الشياطين لسليمان عليه السلام من البحر.

وبخصوص البناء يتصور أنه كان عظيمًا أيضًا؛ لذا بينت الآية تسخير الشياطين وليس الجن لذلك، واختيار هذه اللفظة هنا للدلالة على التمكن في القدرة أكثر من الجن، في الصنعة التي طالبهم بها سليمان عليه السلام.

ثالثًا: الهيمنة الكاملة على عوالم متعددة في المملكة.

يقول الله سبحانه وتعالى: "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ" [سورة النمل].

الآيات تبرز وراثة سليمان عليه السلام للنبوة والملك من أبيه داود عليه السلام، وهي صريحة في بيان أمرين مهمين، هما القدرة على التواصل والتخاطب مع الطير وفي السياق مع الحشرات أيضًا كالنمل، والأمر الثاني هو إشارة سليمان عليه السلام بأن الله آتاهم من كل شيء، وهذه عبارة عامة تحتمل دلالات كثيرة قد يغيب علينا تفاصيلها المتعددة.

لكن جاءت الآية التي بعدها للإشارة لجزء من هذا الشيء الذي آتاه الله لسليمان عليه السلام، وهو الهيمنة على العوالم الظاهرة والخفية وعوالم الأرض وما يطير في كبد السماء، فكل هذه العوالم هي من جنود سليمان عليه السلام التي حشرت له، ولا تستطيع الزيغ عن أمره.

يقول الرازي: "فَالْحَشْرُ هُوَ الْإِحْضَارُ وَالْجَمْعُ مِنَ الْأَمَاكِنِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ جَعَلَ اللَّه ﷻ كُلَّ هَذِهِ الْأَصْنَافِ جُنُودَهُ وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَتَصَرَّفَ عَلَى مُرَادِهِ. فَهُمْ يُوزَعُونَ مَعْنَاهُ يُحْبَسُونَ وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي كُلِّ قَبِيلٍ مِنْهَا وَازِعٌ، وَيَكُونُ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَى مَنْ يَرُدُّهُ وَيَكُفُّهُ وَيَصْرِفُهُ، فَالظَّاهِرُ يَشْهَدُ بِهَذَا الْقَدْرِ وَالَّذِي جَاءَ فِي الْخَبَرِ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَمْنَعُونَ مَنْ يَتَقَدَّمُ لِيَكُونَ مَسِيرُهُ مَعَ جُنُودِهِ عَلَى تَرْتِيبٍ فَغَيْرُ مُمْتَنِعٍ" ([٣٢]).

الخلاصة:

الآيات تتحدث عن خلافة تسخيرية بأعلى الطاقات وأسماها: طير، إنس، جن، شياطين، تسخير براكين وعين القطر، تسخير طاقة الرياح سواء للحمل أو للمطر، بناء، غوص في أعماق البحار، قدور راسيات، تماثيل، جفان كالجواب، البحر المسبوك، صناعة معدنية بأرقى صورها.

والقرآن كتاب صدق، وعندما أشار إلى كل هذه القدرات والطاقات إنما أشار إلى أشياء سيكشف المستقبل مصداقيتها بدقة، فالقرآن من لدن حكيم خبير الذي قال: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" [فصلت٥٣].

وآيات القرآن جزء من آيات الله ﷻ التي ستتضح مع المستقبل القريب، أما القول أن هذا الملك وهذه الإمكانات الهائلة كلها قد تبخرت في الهواء وأصبحت أشبه بالأساطير، وأن علم الآثار لم يفلح بإيجاد أي أثارة من علم ترشد إليه، فهذا مما لا يقبله عقل، وسأوضح الأمر أكثر خلال حديثي عن علم الآثار ومملكة سليمان في مباحث لاحقة.

---

[٣٢] الرازي: مفاتيح الغيب (٥٤٢/٢٤).

لكن ما أود توضيحه هنا مع السياق، هو أن هذا الملك لا بد أن له بقايا ترشد إليه، فإذا كانت الحضارات المدمرة قد تركت وراءها ما يرشد إليها، فمن باب أولى بقاء آثار من هذه المملكة التي سخرت لها كل هذه الطاقات على غير المعهود لدى البشر.

وعندما يقول سليمان عليه السلام أوتينا من كل شيء، ثم يأتي بعض التفصيل لبعض هذا الشيء فنسمع العجب العجاب من القدرات، كالحديث مع حشرة صغيرة وسماع صوتها (النمل) والحديث مع الطير، وتسخير الجن والشياطين بأقصى طاقاتهم؛ فهذه كلها عجائب جاءت لترشد لعظمة التسخير، هذا التسخير الذي لم يبق وراءه أي أثر يرشد إليه، وهذا هو العجيب في المسألة.

المبحث الثالث:

عرش بلقيس وصرح سليمان عليه السلام

خلال المبحث السابق استعرضنا بعضًا من إمكانات سليمان عليه السلام، وجانبًا من أشكال الخلافة التسخيرية التي أكرمه الله بها، وهذا ينقلنا لجانب آخر يتعلق بالجزء الأخير من قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس، المتعلق بإحضار العرش وذلك على النحو التالي:

يقول الله سبحانه وتعالى: "قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ
٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ
٣٩ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ
مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ٤٠ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ
مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤١ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن
قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ
٤٣ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ
مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"
[سورة النمل].

هذه الآيات من سورة النمل تحكي جزءًا من قصة سليمان ﷺ مع بلقيس ملكة سبأ، وقد بدأت الآيات بطلب سليمان ﷺ من حاشيته أن يأتوا له بعرش بلقيس قبل أن يأتوا مسلمين.

فأجابه عفريت من الجن بأنه يستطيع إحضار العرش قبل أن يقوم سليمان من مقامه، وهذا عرض مغري وتحقيقه فقط يحتاج إلى ساعات قلائل جدًا، وقد بين العفريت بأنه يمتلك القوة في إحضاره، وتعهد بأن يكون أمينًا على العرش، وذلك لأن العفاريت بطبعها تتميز بالخداع، فتعهد الجني بالأمانة ليطمئن سليمان ﷺ له فيكلفه بالمهمة.

العرض كما بينت مغرٍ جدًا، لكن يظهر من السياق أن سليمان ﷺ قد رأى هذه السويعات وقتًا طويلًا، فلما لم يجب العفريت على طلبه شعر الحاضرون من الخاصة لديه أنه يريد العرش في مدة أقل من ذلك، وقد يكون سليمان ﷺ قد طلب من حاشيته ما هو أعجل من ذلك، عندها "قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ".

من هذا الذي عنده علم من الكتاب؟ هل هو وزير سليمان ﷺ، وهل اسمه آصف!؟ أم هو سليمان ذاته!؟ أم ملك من الملائكة أم الخضر!؟ أم رجل جاء من جزائر البحر!؟ كل ما يُطرح في كتب التفسير لا يشفي الغل، ولا دليل عليه.

لكن نفهم من السياق أنه إنسي يمتلك علمًا خاصًا من علوم الكتاب، وقد جاءت هذه القصة لتبرز لنا عظمة العلم، وعظمة ثماره التي تفوق حتى كل قدرات الجن أنفسهم وعفاريتهم. لكن ما هو هذا العلم: هل هو التوراة أو اللوح المحفوظ أو غير ذلك!؟ كل ما تذكره كتب التفسير في هذا الشأن لا يوجد عليه أي دليل مقنع ([٣٣])، ويبقى علم الكتاب هنا ما زال في طور الغيب في حقنا. لكن ثمرة هذا العلم تفوق حتى تصورات العلماء في عصر العلم والتكنولوجيا.

فالعفريت قدم أقصى ما تقتدر عليه العفاريت، وكان سويعات قليلة، لكن الذي عنده علم الكتاب هنا فاق كل تصور: "قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ".

حتى ما تطرحه كتب التفسير، من أنه قام فصلى لله وكان لديه اسم الله الأعظم فدعا به...؛ أقول: كل هذه الطروحات أيضًا في ظني لا تسلم، فكم تستغرق الصلاة والدعاء من الوقت، وكم يستغرق الدعاء لوحده من الوقت، لا يمكن بحال أن يكون بمقدار طرفة عين، وذِكر القرآن لهذا الاستعداد المقيد بطرفة عين؛ معناه أنه جاء به في طرفة عين، لأن القرآن كله حق وليس فيه مبالغة.

ما هذا العلم وأي كتاب!؟ لا نعلم...، لكن هذه القصة جاءت في القرآن لتبرز لنا عظمة التمكين والعلو في الأرض بالحق الذي ناله سليمان عليه السلام، هذه القدرات لأحد رعايا سليمان عليه السلام، يجعل كل الإمكانات العظيمة والتكنولوجيا الرهيبة التي وصل لها الإنسان في العصر الحاضر لا شيء أمام هذه القدرة العظيمة، فمن الناحية الفيزيائية وصل الإنسان إلى فكرة تحول المادة إلى طاقة، لكن إعادة الطاقة

[٣٣] هذه أهم الأقوال فيمن عنده علم من الكتاب، ذكر الماوردي في النكت: "فيه أربعة أقاويل: أحدها: أنه ملك أيد الله به سليمان، والعلم الذي من الكتاب هو ما كتب الله لبني آدم، وقد علم الملائكة منه كثيرًا فأذن الله له أن يعلم سليمان بذلك، وأن يأتيه بالعرش الذي طلبه، حكاه ابن بحر. القول الثاني: أنه بعض جنود سليمان من الجن والإنس، والعلم الذي عنده من الكتاب هو كتاب سليمان الذي كتبه إلى بلقيس، وعلم أن الريح مسخرة لسليمان وأن الملائكة تعينه فتوثق بذلك قبل أن يأتيه بالعرش قبل أن يرتد إليه طرفه. والقول الثالث: أنه سليمان قال ذلك للعفريت. والقول الرابع: أنه قول غيره من الإنس، وفيه خمسة أقاويل: أحدها: أنه مليخا، قاله قتادة. الثاني: أنه أسطوم، قاله مجاهد. الثالث: أنه آصف بن برخيا وكان صدّيقًا، قاله ابن رومان. الرابع: أنه ذو النور بمصر، قاله زهير. الخامس: أنه الخضر، قاله ابن لهيعة" [الماوردي: النكت والعيون (٢١٣/٤)].

لمادة وبهذه القدرة المدهشة وفي طرفة عين؛ فهذا ما لم يستطعه البشر في عصرنا الحاضر، وإن كانوا يتحدثون عن إمكانية حدوثه.

ولعل هذا الجانب من قصة سليمان عليه السلام قد جاء ليبرز لأهل هذا العصر الذي تميز بقدرات فائقة من الناحية العلمية على مستوى علوم الأرض (ظاهر الحياة الدنيا)، بأنهم مهما بلغوا من تمكين جزئي من الناحية العلمية هي لا شيء بالنسبة لما حصل من تمكين لأولياء الله...

فقد يخرج لنا من يقول أن تسخير الريح لسليمان عليه السلام قد حصل ما هو أعظم منه في عصرنا؛ حيث سخر الإنسان بالعلم -وهو بعيد عن الله- طاقة الريح، بقدرات تفوق تسخير الريح الحاصل لسليمان عليه السلام، وهذا ملحوظ في الطائرات والصواريخ. فجاءت هذه القصة كإعجاز لأهل العلم في عصر أعطى العلم لأهله كل طاقاته، وجاء عرش بلقيس العظيم في ثواني معدودة بين يدي سليمان.

ففي هذا الحدث إشارة إلى عظمة التمكين الذي ناله سليمان عليه السلام، والذي يفوق قدرات زماننا بكثير فكيف بزمانه!؟ وقد جاءت الصيغة القرآنية لتبرز تحقق الحدث وفق التقدير المقدر له، فبعد كلمة طرفة عين مباشرة جاء قوله سبحانه وتعالى: "فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ" [النمل].

وقد استخدمت الآية مباشرة حرف الفاء الذي يدل على الترتيب مع التعقيب، مما يشير إلى حصول الأمر مباشرة في طرفة عين. لذا وفق هذا الاقتدار والتمكين، وما يمكن أن تراه بلقيس؛ كان هناك ثقة لدى سليمان عليه السلام من أن بلقيس وقومها ليس أمامهم من عظمة ما سيرون إلا الإسلام؛ لذا بين في طلبه: "قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ".

كذلك هناك إشارة حيوية ومهمة جدًا نتعلمها من هذه القصة، وهي أن التمكين الذي يؤتيه الله للبشر مهما عظم، فالأصل فيه أنه لا يعطي صاحبه الشعور بالقوة إلا بالله، ومن رحمة الله بعباده المؤمنين أن ينزعهم من فكرة المطلق الذاتي التي هلك بسببها من هلك من ملوك الأرض.

والمعلوم أن أي مُلك وتمكين يحتاج أمرين: الإحاطة والعلم، والقدرة؛ لذا جاء هذا الدرس لسليمان عليه السلام، حيث وصل في ملكه إلى درجات عالية من الإحاطة والقدرة، لكنه وجد في رعيته من يأتيه ليقول له: "أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ" (العلم والإحاطة من طائر الهدهد)، ومن يأتيه ليقول له: أنا آتيك بالعرش العظيم البعيد جدًا في طرفة عين (القدرة من أحد الرعايا).

وهذا الدرس في ظل عظمة التمكين الذي ناله سليمان عليه السلام مهم جدًا؛ ليستقيم العلو في الأرض بالحق.

كذلك هذه القدرة العجيبة التي حصل بها إحضار عرش بلقيس؛ تبرز لنا عظمة ملك سليمان عليه السلام، ومن كان مقتدرًا على جلب عرش عظيم في ثواني معدودة؛ يقتدر على بناء أعجب البنايات، والإيتاء بأشكال كثيرة من المدنية بأبهى صورها، وهذه اللفتة مهمة لنا عند حديثنا عن صرح سليمان عليه السلام.

لكن ما يستوقفني هنا هو سر استعجال سليمان عليه السلام، بحيث لم يعجبه إحضار العرش في سويعات، فلماذا هذا الاستعجال؟ والمعلوم أن بلقيس عندما تخرج مع موكبها تحتاج على أقل الأحوال لأيام وأسابيع حتى تصل إلى قصر سليمان من بلدها سبأ، ولو تم إحضار العرش في سويعات فما زال هناك متسع كبير من الوقت أمام سليمان عليه السلام.

سر هذا الاستعجال لم يتضح لي بعد، لكن أتصور أن سليمان عليه السلام قد طلب بإحضار العرش عندما اطمأن بأن موكب بلقيس على مشارف الأرض المقدسة، وهي في هذه الحالة لا يقتدر رعيتها في سبأ من اغتنام الوقت وإرسال رسول إليها يبلغها بفقدان عرشها في المملكة.

ويحتمل لدي أيضًا أن هذه المرأة أو المملكة كانت لديها أيضًا قدرات خاصة عالية جدًا، بحيث عامل الوقت حتى لو كان قليلًا كفيلًا بوصول العلم عندها بأن عرشها قد فقد فجأة من المملكة، ويرشد إلى هذه القدرات قول الهدهد: "وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ".

فوفق هذا الاحتمال يكون طلب سليمان عليه السلام فقط عندما كان الموكب على مشارف الوصول لسليمان عليه السلام ([34])، وهنا يتدخل عامل الوقت بشكل حيوي جدًا، مما جعل سليمان عليه السلام يستعجل إحضار العرش في مدة أقل من سويعات.

يقول الله سبحانه وتعالى: "قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤١ فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ" [سورة النمل].

في هذه الآيات يطلب سليمان عليه السلام من الرعية إحداث تغييرات على العرش توحي بأنه ليس هو، وذلك من باب التنكير له ([35])، ويظهر من السياق أنه عندما

---

[34] ذكر القرطبي بعض الروايات التي تشير إلى ذات الفكرة: "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ سُلَيْمَانُ مَهِيبًا لَا يُبْتَدَأُ بِشَيْءٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ عَنْهُ، فَنَظَرَ ذَاتَ يَوْمٍ رَهْجًا قَرِيبًا مِنْهُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: بِلْقِيسُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِجُنُودِهِ -وَقَالَ وَهْبٌ: وَغَيْرُهُ لِلْجِنِّ-: (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ). وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ: كَانَتْ بِلْقِيسُ عَلَى فَرْسَخٍ مِنْ سُلَيْمَانَ لَمَّا قَالَ: (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها)، وَكَانَتْ خَلَّفَتْ عَرْشَهَا بِسَبَأٍ، وَوَكَّلَتْ بِهِ حَفَظَةً" [القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم (١٣/٢٠٢)].

[35] يذكر العلماء أشكال لهذا التنكير، ولا يعنينا شكل التنكير إنما يعنينا الفكرة ذاتها، لكنني أذكر بعض الاجتهادات الواردة في ذلك، يقول الماوردي: "(قَالَ نَكِرُواْ لَهَا عَرْشَهَا) أي غيروه، وفي تغييره خمسة أوجه: أحدها: أنه نزع ما عليه من فصوصه ومرافقه وجواهره، قاله ابن عباس. الثاني: أنه غيّر ما كان أحمر فجعله أخضر وما كان أخضر جعله أحمر، قاله مجاهد. الثالث: غيّر بأن زيد فيه ونقص منه، قاله عكرمة. الرابع: حوّل أعلاه أسفله ومقدمه مؤخره، قاله شيبان بن عبد الرحمن. الخامس: غيّره بأن جعل فيه تمثال السمك، قاله أبو صالح. [الماوردي: النكت والعيون (٤/٢١٤)]، وفي نظري أن قول ابن عباس هو أوجه الأقوال في المسألة.

عرض عليها عرشها مع بعض التغييرات البسيطة عليه، لم تكن قد قابلت سليمان عليه السلام بعد، بل الذي قام بعرض العرش عليها قد يكون أحد وزرائه؛ لذا جاءت الصيغة (قيل أهكذا عرشك) فكلمة قيل هنا توحي بذلك بقوة.

وكانت الإجابة من بلقيس تنم عن حكمة عجيبة وذكاء متميز: (كأنه هو)، فهي لم تنفِ ولم تثبت! فهي شعرت أنها لا تستطيع أن تنفي خاصة أن الملامح العامة للعرش تؤكد أنه هو، ولم تستطع أن تثبت لأن هناك اختلافات واضحة في بعض الملامح، إضافة لصعوبة إحضاره بهذه السرعة لهذا المكان. فكان منها أجمل إجابة وأحكمها (كأنه هو)، فإن لم يكن هو وكان تقليدًا له كانت إجابتها صادقة، وإن كان هو فإجابتها صادقة أيضًا.

لكن إجابة بلقيس والذي سبقها معاينة بعض قدرات سليمان عليه السلام، جعلها تشعر بذكائها أن العرش عرشها، خاصة أن طبيعة السؤال والسياق يوحيان بذلك، وأن عرضه عليها من باب إبراز قدرة مملكة سليمان عليه السلام، ويحتمل بعد إجابتها وصلها الخبر اليقين بأنه هو عين عرشها.

لكن هذا الموقف لم يزعزع ثباتها على موقفها القديم: "وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ"، فهذه القدرة الفائقة التي تفوق الوضع الطبيعي للبشر لم يغير من موقفها وقناعاتها، ومعتقدها في عبادة الشمس من دون الله.

وهذه هي طبيعة المعتقد؛ حيث لا يسهل هدمه من موقف أو موقفين، ومنطق القوة بالذات دائمًا أثره ضعيف جدًا على المعتقد، قد يستره لكن لا يهدمه، وموقف العرش وغيره يدخل تحت دائرة منطق القوة؛ لذا ما كان لهذا الموقف من أثر على معتقد بلقيس، وإن كان أثر عليها من جانب الرهبة لهذه المملكة ذات القدرات

الخارقة، واحتاج الأمر الانتقال من منطق القوة إلى منطق الإقناع، وهذا هو نهج الحق في الرسالات حتى لو بلغت شأنًا عظيمًا في القدرة المادية.

لذا جاء الموقف الثاني، ويظهر أيضًا من السياق أنها أيضًا لم تلتق بسليمان عليه السلام بعد، بل يتوكل في الأمر أحد وزرائه، حيث أخذها إلى الصرح للقاء سليمان عليه السلام، يقول الله تبارك وتعالى: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [النمل].

ما الذي حصل عند دخولها الصرح؟ وما هو الذي رأته أعظم من إحضار عرشها العظيم بقدرات خارقة؟ ما هو الصرح، وما الذي جعلها تنتقل بعد دخوله للإسلام بقناعة كاملة!؟ لدرجة أنها بدلًا من مخاطبة الشمس التي ألفت وقومها عبادتها من دهور، إذا بها تخاطب ربها بحالة من التوبة والانكسار بين يديه: "رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي".

الموقف كله يشير إلى أن هناك تغيرًا كبيرًا جعلها تغير قناعاتها كلها، وتدخل على الله من باب الندم واستشعار ظلمها لنفسها باتخاذها وقومها الشمس إلهًا من دون الله.

ما يتضح من السياق أن هناك أمورًا في الصرح ساعدت بسرعة على انكشاف بصيرة بلقيس، هذا الأمر لم يتضح لنا بعد لأننا لا نعلم ماهية الصرح بشكل حيوي، والآيات تعطينا استنتاجًا مهمًا فرضه الحدث، "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ" أرضية الصرح ظاهرها أنها لجة ماء أي أشبه ببركة ماء، وهذا ما يظهر للعيان وللبصر، والدخول في الماء ترتب عليه سلوك طبيعي من بلقيس، وهو كشف ساقها لكي تخوض بقدمها العارية غمار هذه اللجة.

لكنها عندما مشت على الصرح لم تبتل أقدامها ولم تغص في الماء، سارت على هذا الماء المتجمد في ظنها وهي متعجبة، إلى أن وصلت لسليمان ﴿عليه السلام﴾، هنا بدأ اللقاء الأول مع هذا الملك العظيم الذي حيرها بقدرته قبل أن تراه، هنا كانت المواجهة الأولى، وبدأ الكلام من سليمان ﴿عليه السلام﴾ مباشرة بدون صيغة قيل بل.. قال: "إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ".

ما الدرس المتصور من هذا الحدث؟ قد تكون هنا إشارة مقنعة لبلقيس أنك حسبت أرضية الزجاج بركة ماء، فترتب على ذلك سلوك منك بأن رفعت من ثيابك، وهكذا خدعك بصرك وأوحى لك سلوكًا خاطئًا لا يتناسب مع المقام.

وكما انخدع بصرك، كذلك انخدعت بصيرتك؛ فنظرت بالكمال لمخلوق يأفل (الشمس) ويغيب، مما يدل على أنه مربوب لغيره، وها أنت وقومك تسجدون لمخلوق من دون الله، ودلائل هذا المخلوق تشير إلى نقصه صراحة، لولا الغشاوة على البصيرة.

إذًا قد ينخدع البصر، وقد تنخدع البصيرة يا بلقيس. نعم قد يتصور هذا الموقف وهذا الدرس، الذي استهل به سليمان الحكيم ﴿عليه السلام﴾ لقاءه مع الملكة بلقيس، وكانت حكمة سليمان ﴿عليه السلام﴾ هو إقحام بلقيس بموقف عملي إقناعي يستهل به ويجعله مدخلًا لدعوته لها.

نعم هذا متصور، ويتصور أيضًا أنها قبل رؤيتها لسليمان ﴿عليه السلام﴾ قد شعرت برهبة عظيمة من هذا الملك صاحب القدرات العظيمة، وهي قبل دخولها الصرح قد صفعت صفعة قوية برؤية عرشها العظيم أصبح ملقى بين يدي هذا الملك، لكنها عندما التقت بهذا الملك وجدته أنه بمواصفاته يرشد إلى أنه صاحب قيم وأخلاق

وزهد، بالرغم من عظمة ملكه مما يشير إلى مصداقيته في دعوته، فهو ليس شبيهًا بملوك الدنيا.

هذه الأمور كلها متصورة، لكن أيضًا يظهر من السياق أن الصرح نفسه كان فيه من الدلائل الباهرة والقرائن القوية المعينة للملكة لتغيير موقفها من ديانتها وبيان سقمها وبطلانها، بل والدخول على الله مع استشعار الندم على ما كان منها قبل ذلك الموقف.

فالقرآن الكريم قد أسدل الستار عن الحوار الذي كان بين سليمان ﷺ وبين بلقيس، بالرغم من أن نهج القرآن التوسع في الحوارات ليكشف زيف الباطل، وربط مباشرة بين دخولها الصرح ومعرفتها لحقيقته وبين تلك النقلة المفاجئة لها: "رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي"؛ فهذا النهج يوحي بالتلازم بين الأمرين، ولا أظن أن المقصود والتأثر كان من طبيعة الصنعة المادية للصرح، بل يظهر أن في الصرح دلائل على بطلان عبادتها للشمس أو الكواكب.

فهذا الاحتمال قوي جدًا والسياق يخدمه بقوة، ويظهر من قصة أرضية الصرح الزجاجية أن الصرح كان شيئًا مهيبًا، وآية في الصنعة والبناء.

لكن ما هو الصرح، ولماذا هذه التسمية بالذات!؟ سياق الآية يشير إلى أن الصرح هو بهو القصر الذي ينتهي إلى سرير الملك، يرشد إلى ذلك بقوة ضمير الهاء الموجود في الآية، ولكي يتضح الأمر أعيد طرح الآية هنا يقول الله ﷻ: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [النمل].

فالآية فيها ثلاثة ضمائر: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ" الضمير يعود على الصرح، "حَسِبَتْهُ لُجَّةً" والضمير هنا يعود على الصرح أيضًا، عندها كشفت عن

ساقيها، مما يشير إلى أن الصرح سيكون تحت الأقدام، فالصرح هنا يوحي أنه البهو الواسع الذي منه تنتقل نحو عرش الملك أو سريره، ويشير إلى ذلك صراحة بقول سليمان عليه السلام: "إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ "، أي بهو مملس من الزجاج.

فدلالة الآية تشير إلى أن الصرح هو بهو القصر، لكن هل كل القصر كان من الزجاج!؟ الأمر محتمل، كذلك يحتمل أيضًا أن يكون الصرح هو القصر بمجموعه وبأرضيته، ويرشد إلى ذلك عبارة ادخلي الصرح، التي تحتمل دخول القصر أكثر من دخول بهو القصر. لكن الأرجح هنا أن الصرح هو البهو نفسه الموصل إلى سرير الملك؛ لأن السياق يخدم ذلك بقوة.

لكن هنا يأتي تساؤل ملح جدًا: وهو لماذا سمي بهذا الاسم!؟ لماذا كانت تسميته بالصرح، وهذا يفرض علينا الخوض في أصل مدلول الكلمة من الناحية اللغوية ثم بيان استخداماتها القرآنية.

الحقيقة أنني عندما بدأت بسلسلة صرح سليمان عليه السلام، ظننت أنني أستطيع إنهاءه في أسبوع واحد، لكنني وجدت نفسي في بحر عميق غوره، ولا ساحل له، حيث وجدت تشعب المباحث وتوسع الطروحات، مما يحتاج لدراسة متأنية طويلة المدى في هذا الجانب.

والحقيقة أنني أعددت منه ما يقارب ٣٤ صفحة، لكن كثير من الصفحات اتخذت شكلًا علميًا بحتًا لا يصبر على قراءته إلا المتخصصين الذين لهم باع في علوم عدة، وهو لذلك قد لا يصلح لمدونة يرغب قراؤها بالنتائج السريعة، لذا وجدت إقفال هذا الموضوع لحين من الوقت، أكمل فيه كل مباحث الموضوع التي قد تفوق المائة صفحة، لكنني هنا أود أن أشير للمهم في الموضوع:

١- موضوع صرح سليمان وغيره من إمكانات سليمان ﷺ هي مما طرحه القرآن الكريم، مما يشير إلى أن الواقع سيأتي مصدقًا لكل كلمة في القرآن الكريم؛ لأن منزل القرآن هو ذاته خالق الأكوان.

٢- خلال دراسات مستفيضة قام بها علماء الآثار بحثًا عن أي شيء مهما كان صغيرًا يرشد إلى مملكة سليمان، وذلك خلال قرنين من الزمان، وكانت النتيجة صفر، وكأن هذه المملكة تبخرت من الأرض، ولم يكن لها وجود، وهذا أمر حير عمالقة علم الآثار حتى تشككوا فيما تشير إليه التوراة عن مملكة داود وسليمان، وهذا موضوع قمت بدراسته دراسة مستفيضة وأعددت فيه أبحاثًا معمقة، ومنها مبحث صرح سليمان وعلم الآثار، والحقيقة أنه لا توجد أي أثارة من علم ترشد إليه، وهذا أمر كما بينت محير، وخلال دراسة مستفيضة وصلت إلى نتيجة لا تحتمل غيرها، وهي أن المكان الحقيقي لمملكة سليمان ﷺ ليس هو المكان المفترض الذي يبحث فيه علماء الآثار، وإلا قطعًا يجب أن يصدق الكتاب المنظور الكتاب المسطور؛ لأن كليهما هي حقائق لا تحتمل التعارض.

٣- عندي قناعة وقرائن ليست قوية أن جزءًا حيويًا من آثار مملكة سليمان ﷺ سيكتشف خلال السنوات والعقود القليلة القادمة، وقد يكون الصرح باقيًا كما هو ليومنا، لكنه في مكان لا يخطر ببالنا؛ لوقوعنا واليهود والنصارى في خدعة تاريخية ما.

٤- وإلا لو لم يكن الموقع الحقيقي غير الموقع التقليدي المفترض، فماذا نقول لعلماء الآثار الذين نبشوا بيت المقدس شبرًا شبرًا في ظل التطور الكبير في علم الآثار والتكنولوجيا التي تخدمه!؟ ولم يجدوا خلال قرنين ولا حتى على قطعة صغيرة من زجاج الصرح، بالرغم أنهم نقبوا أكثر طبقات الأرض

المحتملة، بل لم يجدوا أثرًا واحدًا ولا حتى فخارية واحدة ترشد إلى ملك يمثل حقبة داود وسليمان عليهما السلام، وفي وقت كانت فيه الصنعة المعدنية بأرقى صورها.

٥- يحتمل عندي أن يكون لصرح سليمان عليه السلام أهمية للمسلمين حال اكتشافه، وقد يحوى أسرارًا لا نعلمها، فالسياق يرشد إلى ذلك والأيام هي الكفيلة ببيان قيمة هذا الاحتمال.

٦- ما أكتبه هنا قد لا يفهمه البعض، لكنني على بينة من الأمر، وأعلم أن الأيام حبلى بالكثير...، قل انتظروا فإنا منتظرون.

٧- هذا الموضوع أقفل باب البحث فيه، حتى تتضح لدي القدرة العلمية المناسبة للخوض فيه، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه. لكنني أعلم أنني أسست لشيء قد يراه البعض بعد سنوات أنه سابق لأوانه.

تساؤلات من القراء على موضوع (صرح سليمان عليه السلام)

هذه تساؤلات لأحد متابعي المدونة على موضوع صرح سليمان عليه السلام، ورأيت أن أفردها هنا في مقالة مع بيان ردي عليها:

يقول أبو الحسن: (بداية هذه مشاركة محزنة؛ ألا تستكمل هذه السلسلة الماتعة في الوقت الحالي. ولكن نتصبر ما دام الحامل على ذلك هو مزيد من التنقيح والتدقيق، فجزاك الله خيرًا وأعانك.

وحتى ذلك الحين أرجو أن تسمح لي بطرح بعض التساؤلات، وأبتدئ بما يلي:

١- ألا يمكن أن يكون سبب اختفاء آثار مملكة سليمان إجابة لدعاء سليمان ﷺ لما سأل الله "ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي"؛ فلم يسلط على ملكه أحد حال حياته، وذهبت آثاره بعد مماته لكيلا لا ينتفع بهذا الملك العظيم بأي وجه من الوجوه من ليس في حكمة سليمان ولا في تقواه؟

٢- ما يقال في سليمان ﷺ ألا يقال مثله في كثير من آثار الأنبياء قبله وبعده، ليكون الإيمان تصديقًا يقينيًا جازمًا بما جاء في الكتاب، حتى ولو لم تؤيده الآثار المادية؟ أعني ليكون الإيمان خالصًا؟

٣- هل تلمح يا دكتور إلى أن اكتشاف مثل هذه الآثار والاهتداء إليها يحتمل أن يكون من علامات المهدي وسببًا في تسميته المهدي كما يروى أنه يهدى إلى أمر خفي؟

وجزاك الله عنا خير الجزاء).

ويتساءل متابع آخر تحت معرف خالد: (أنا مع الأخ أبو الحسن في رقم ٣: هل تلمح أن اكتشاف هذه الآثار يحتمل أن يكون على يد الإمام المهدي وهو من سيكون مقدرًا له -بمشيئة الله- أن يعيد هذه القدرات في العالمية الثانية للإسلام والتمكين لدين الله).

وهذه إجابتي على التساؤلات:

أخي أبو الحسن: كل تساؤلاتك قيمة وتتم عن فهم جميل، لكن نحن هنا نجتهد في الفهم:

بخصوص البند الأول: اختفاء آثار المملكة يتعلق بدعوة النبي سليمان ﷺ.

هو احتمال قوي جدًا خاصة أن ملك سليمان عليه السلام كان ملكًا مغايرًا لما حوله على مدار التاريخ، إنه الملك الوحيد الذي كان فيه أحد من الإنس يتحكم في عالم الجن، حتى في الشياطين بشكل تسخيري لا يستطيع أحدهم أن يزيغ عنه؛ لذا بقاء هذا الملك بعده يترتب عليه شر كبير خاصة لو حصله إنسان قليل التقوى، بل بالرغم من ذهاب ملك سليمان إلا أن الشياطين استغلت المرحلة ونسبت لسليمان عليه السلام السحر، الذي اتبعه اليهود كما صرحت سورة البقرة وقصة هاروت وماروت.

فملك سليمان عليه السلام ملك خاص؛ ودعوة سليمان عليه السلام فيها من الرحمة ما فيها، وموضوع الآية وتحليل العلماء لدعاء سليمان عليه السلام، والراجح في المدلول؛ قد أفرده في مقالة مستقبلية لأهميته، فهي من الآيات التي أشكل فهمها على المفسرين، وكيف لنبي أن يدعو بدعوة يطلب في نهايتها ملكًا لا يكون لأحد بعده.

بخصوص البند الثاني: آثار الأنبياء وملك سليمان عليه السلام.

بخصوص آثار الأنبياء هي مغايرة لآثار سليمان عليه السلام، فسليمان عليه السلام كان ملكًا نبيًا، ودل بصريح القرآن أن ملكه كان فيه صنعة معدنية وبناء ملفت للنظر، أما باقي الأنبياء فكانوا بخلاف ذلك، أما سبب غياب ملك سليمان واختفاؤه، فهذا قدر الله.

لكن طرحه بالقرآن بهذه التفاصيل التي هرب من طرحها أهل الكتاب في كتبهم، يشير إلى أن هذه التفاصيل إنما طرحت لأن الأيام ستثبت مصداقيتها، وهذا لا يكون إلا إذا تم اكتشاف الجزء الحيوي منها، ففي هذا الاكتشاف أهمية كبرى في كون القرآن الكريم مصدق لما بين يديه، خاصة بعدما حصل إجماع عند علماء الآثار بعد تجربة مريرة مطولة خلال قرنين، تبين لهم من خلالها أن كل ما يقال عن

مملكة سليمان، وعن كثير من الأمور في كتاب العهد القديم تكذبه النتائج الأثرية بقوة.

وهذا موضوع استغرق آلاف الصفحات البحثية في كتب علم الآثار، بما لا تستوعبه هذه المدونة في الملاحقات، فالوقت الحالي هو الوقت الأنسب لبيان مصداقية القرآن المصدق لما قبله في طرح ملك سليمان، وراجع أول مقالة عن القرآن وتحليلي لمعنى (من لدن حكيم خبير)، فهذه مهمة جدًا في فهم مقصودي من أن ملك سليمان وجزء حيوي من مملكته ستظهر مع الأيام، وعندي قناعة أن المسلمين سيكونون هم أهل هذا الاكتشاف، وهم المستفيدون منه.

بخصوص البند الثالث: لقب المهدية ومملكة سليمان.

هذا الأمر محتمل، لكن ما تحصل لدي من قرائن كثيرة هو أن ما يهدى إليه الإمام المهدي أكبر من ذلك بكثير، وقد يكون هو الشاهد الثاني في آخر سورة الرعد والله أعلم. نحن نجتهد بحدود علمنا القاصر، والأيام كفيلة ببيان مصداقية هذا الاجتهاد أو خطئه.

مداخلة مهمة من الفيس عن عرش بلقيس

هذه إضافة طرحها أحد الإخوة الأفاضل ممن لهم باع في العلم، على موضوع عرش بلقيس وصرح سليمان عليه السلام، وكيف أنها آمنت بعد دخولها الصرح ولم تؤمن بعد رؤيتها العرش.

يقول الأخ ممدوح الغمري: (إضافة لما ذكرت من معنى جليل وإشارة لكل ذي لب، فإن هناك بعدًا آخر في قصة العرش والصرح، فنبي الله سليمان عليه السلام كان

يتعامل مع امرأة قبل أن تكون ملكة، ومن هنا فإن النساء غالبًا لا يستطيع الرجال من أسر قلوبهن بمواقف القوة والشدة والعنفوان، وهذا ما رأيناه في إصرارها على الكفر رغم آية القوة والعظمة بنقل العرش، لكن سرعان ما يتملك الرجل قلبها حين يدخل إليها من باب الرقة والعطف واللين، تماما كما رأينا تسليمها وإسلامها حين دخلت الصرح ذا القوارير والماء والمشاهد الخلابة. والله ﷻ أعلم).

أخي الكريم: الأستاذ ممدوح الغمري.

مداخلتك رائعة وإشارتك مهمة، لكن هذا الأمر أتصوره من بلقيس لو كانت زوجة لملك، وليست ملكة منفردة في الملك، فالملكة المنفردة في الملك لا بد أنها تتجاوز مرحلة الاحتكام للعواطف في شأنها، وإلا لما استطاعت بمفردها حكم قومها.

وخلال تحليلي لشخصية بلقيس، لاحظت أن هذه المرأة بالذات كانت تتميز بذكاء وحكمة بأعلى الدرجات، ولعل هذا هو السبب في طرح موضوعها من بين كل الأمم التي أخضعها لسليمان عليه السلام لحكمته. فالصراع بين بلقيس وسليمان عليه السلام كان صراع حكمة مغلف بالقوة، وقد حملت القصة الأدلة على ذلك.

الأول: استهلالها الحديث مع قومها بخصوص رسالة سليمان عليه السلام، حيث ابتدأت قولها معهم بقولها: "قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ" [سورة النمل]، فالرسالة كان فيها ألا تعلو علي وأتوني مسلمين، لكنها رأت أن الكتاب كريم؛ حيث لاحظت من صياغته تعظيم الله دون تعظيم الملك الذي أرسل الرسالة: "إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" [سورة النمل].

فهذه الرسالة بدأت باسم الله بأعظم أوصافه المرتبطة بالرحمة، ثم لم تخلع على سليمان عليه السلام أي لقب من تلك الألقاب التي يحرص الملوك بخلعها على

أنفسهم، خاصة أن مضمون الرسالة كانت تقتضي استسلام مملكة بلقيس له. فقط إنه من سليمان؛ فهذه الصيغة المغايرة لنهج الملوك نبهت بلقيس إلى عظمة الرسالة، ووصفت الكتاب بأنه كريم بالرغم من تضمنه ما ينزع ملكها، فالمرأة ذكية وحكيمة جدًا وتقيم بعيدًا عن العواطف.

الثاني: حوارها مع قومها يرشد أنها أبعد الناس عن تحكيم العواطف، ففي الحوار يقول الله ﷻ: "قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ٣٢ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ٣٣ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" [النمل].

فالملاحظ أنها ابتدأت بالمشورة وإشراك الملأ معها، وهذا من حكمتها، والملاحظ من الملأ أنهم طمأنوها أنهم أصحاب قوة وبأس شديد، وفي ذات المقام لا يخرجون عن أمرها؛ مما يرشد أنها استطاعت حكم الرجال بحكمتها ورجاحة عقلها، لدرجة أنهم بالرغم من استعداداتهم، كانوا يعلمون أن ما ستطرحه من مشورة هو أعظم مما طرحوه لها.

وبالفعل الآيات بينت رجاحة عقلها بقولها: "قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً"، فمقالتها أصبحت مثلًا وحكمة جارية، وقد أكد الله الحكيم الخبير على مصداقية قولها، بقوله ﷻ معقبًا على مقولتها: "وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"، فأين تحكيم العواطف عند هذه المرأة، خاصة بعد الاستعداد والتهييج من رجالها وملئها.

فهذه العبارة هي التي ألقمت بها كل استعدادات مجلس شورتها، وتهجيهم بامتلاكهم القوة والبأس، ثم فكرة إرسال هدية والنظر بعدها بم يرجع المرسلون؛ يدل

على أنها وصلت في حكمتها أقصى الدرجات، فالهدية وتعامل هذا الملك معها هو الفيصل لديها في تقييم الموقف، وهل هو من ملوك الدنيا أم ملك نبوة داعية لله!؟

الثالث: إجابتها عند رؤيتها العرش تنم عن حكمة عالية، وعن حسن التخلص من المواقف الحرجة بأحكم إجابة، فالسائل استخدم معها أسلوب التشكيك: أهكذا عرشك؟ فأجابته بنفس الأسلوب إجابة صادقة لا تشف غله: كأنه هو. ويحتمل لو أنه قال لها بدون تشكيك: هذا عرشك، لأجابته: إنه هو، فيما استخدم التمويه ردت عليه من بضاعته بأحكم عبارة.

هذه العبارة وغيرها من المواقف ترشد أننا أمام ملكة تتميز بأعلى درجات تحكيم العقل بعيدًا عن العاطفة، وتتمتع بدرجة عالية من الحكمة؛ لذا هي أحوج لمنطق الإقناع لتغيير معتقدها، وليس العاطفة.

تسلل الشيطان لفكرة ملك سليمان عليه السلام

هذا مقطع من أحد كتبي، يشير إلى التغير الحاصل عند بني إسرائيل بعد السبي، وكيف تسلل الشيطان لديهم مستغلًا فكرة ملك سليمان عليه السلام، لينقلهم للفكر الثنوي الذي أثر على أكثر أسفار العهد القديم.

بداية المقطع: (وجاءت بعض الآيات لتشير إلى بداية التحول الثنوي، المتأثر بفكرة إله الظلمة وإله النور عند بني إسرائيل، يقول الله سبحانه وتعالى: «وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ١٠١ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ» [البقرة١٠١-١٠٢].

فهذه الآية تشير إلى تحول نحو السحر، ومعرفة الطالع والغيب من خلال الاستعانة بالجن بدلًا من الكتب السماوية، ولعل الظرف الصعب الذي مر به بنو إسرائيل بعد السبي، ورؤيتهم لأمة كافرة تسوقهم نحو بابل وهم بعزهم، وصدمهم كثيرًا وهم في أوج اعتقادهم بأنهم الأمة التي اختارها الله في الأرض، وعندهم بيت الله والتابوت، وفجأة تهاوى كل ذلك في مرحلة السبي.

ففي تلك الظروف الصعبة تسلل الشيطان لبيان أن قدرة سليمان عليه السلام كانت من خلال الاستعانة بالجن والشياطين، وقصة موسى عليه السلام كانت فيها مراغمة للسحر بما يشبهه، فهذه الأوجه نقلتهم نحو كتب السحر، وجعلها جزءًا من التلمود أو جزءًا من المقدس، هذا الأمر كان له أثره في الثقافة الثنوية التي تغلغلت في الأسفار) نهاية المقطع.

طبعًا هذا المقطع كان في سياق كتابي الذي يخدمه، لكن هنا أود أن أشير إلى أن فكرة ملك سليمان عليه السلام قد استغلها إبليس في مرحلة انهزامية لأمة بني إسرائيل في ذلك الوقت، ونحن حتى اللحظة نعاني من آثار هذا التغير الحاصل عند اليهود، والذي جعلهم يتجهون للوسائل الخبيثة إرضاءً للشيطان لتحقيق رغباتهم، وهذا واضح في كتاب الكابلاة (القبلة) عند اليهود.

والصراع المستقبلي كما أنه سيحسم الفتنة التي تموج موج البحر عند المسلمين، والتي بدأت بمقتل عثمان رضي الله عنه، وما ترتب عليه من فرقة وشيع متعددة على مدار التاريخ الإسلامي إلى يومنا (موج البحر الذي لا ينتهي)، كذلك سيحسم الفتنة الحاصلة في مرحلة بعد السبي، والتي استغلها الشيطان من خلال فكرة ملك سليمان، لكي يجعل لها جنودًا اوفياء من الإنس، والتي نحن الآن نعيش في قمة هذا

الاستغلال الإبليسي لبني البشر، وما الحركات السرية والمنظمات الخفية التي تعبث بالعالم إلا نتاج لفكرة ابتدأت مع قصة ملك سليمان وهاروت وماروت.

تعقيب على سلسلة صرح سليمان عليه السلام

عندما تناولت سلسلة صرح سليمان قد يتبادر للذهن: ما علاقة هذا الموضوع بعلامات الساعة!؟ وأنا نفسي لو طرحت أمامي الموضوع قبل سنوات لجاء في خاطري هذا التساؤل، لكن توافرت لدي قرائن متعددة سواء من فهم للقرآن أو من رؤى، أو من إشارات مطروحة في بعض الآثار، أو نصوص تضمنها العهد القديم للأمم السابقة؛ كل هذه القرائن تشير بقوة إلى احتمالات ظهور جزء حيوي من هذه المملكة في آخر الزمان، ويكون ذلك في عهد الإمام المهدي.

وعندما وجدت القرائن عندي بحجم كبير رأيت ضرورة الخوض في الموضوع، لكنني أوقفته عند النقطة التي شعرت فيها أن إكمال الموضوع ليس فيه خير أو فتنته أكثر من خيره، لكن ما أود أن أوضحه هنا أن القرآن الكريم عندما أشار إلى هذا الملك، بالرغم من تغييب جزء حيوي له من كتاب العهد القديم، إنما يراد به في أحد الاحتمالات القوية الإشارة إلى أن هذا الملك الذي اختفى بكل تفاصيله، ستأتي أيام وتكشف جزءًا حيويًا منه بحسب ما أخبر القرآن الكريم.

ويكون بذلك عملية تصديق للكتاب المسطور من خلال الكتاب المنظور، خاصة أننا الآن في ظل علم الآثار نجد تكذيبًا قويًا لفكرة كون سليمان وداود كان لهما مملكة إقليمية قوية، وصلت أفضل الأبحاث وأكثرها تفاؤلًا إلى احتمال كونهما

كانا شيخين لقبليتين، وما يطرح من عظيم ملكهما هو من الأوهام التي يطرحها كتاب العهد القديم.

فمع هذا التكذيب الذي له دواعيه العلمية في غالب الأمر؛ سيبدأ يتضح لنا تدريجيًا مسرح الأحداث الحقيقي لملك سليمان، ويكون الأمر مصدقًا للقرآن بكل تفاصيله.

هذه المقالة قد لا يفهمها البعض لأنها تحتاج مقدمات كثيرة في علم الآثار، وفي علوم اللغة، وفي فهم منهجية القرآن في طروحاته، ودراسات جغرافية وتاريخية متأنية؛ فمن لم يؤت هذه الكفايات قد لا يفهم علي ما أقول، لذا أقول مطمئنًا: في يوم من الأيام المستقبلية سيشهد البعض بقوة أنني كنت على بينة من أمري فيما أطرحه في هذه المقالة.

* * * * *

ميثاق عالم الذر ويوم عرفة [٣٦]

يوم الميثاق الأعظم

يقول الرب لعالم الذر: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ..."، يقول العبد في عالم المشاهدة: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، ويقول الرسول الأعظم: "خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا النبيون من

[٣٦] ملاحظة: هذه فكرة أحاول فيها كشف سر المنسك الأعظم في عرفة، وهي خاطرة لا أظن أنه قد سبقني إليها أحد؛ لأنها كانت عبارة عن تأملات خاصة وليس دراسة مسبقة، وهذه الفكرة هي نواة لموضوع متكامل، لكنني هنا وضعت مسودة صغيرة منه بين يدي يوم عرفة، وهذه المقالة تحتاج تأمل ودراسة متأنية.

قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير" ([٣٧]).

يقول الله ﷻ: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" [الأعراف ١٧٢].

هذه الآية من الآيات التي كانت محل إشكالية بين المعتزلة وبين أهل السنة، فالمعتزلة وبعض المفسرين يرونها مجازًا وليس على الحقيقة، بمعنى أنه لم يحصل هذا الإخراج في الماضي، بل المراد به أنه أخرج الله تلك الذرية من أصلاب الآباء حيث كانوا نطفة حتى اكتملت أطوار خلقتهم، ثم صار الإشهاد بما ركب الله فيهم خلال الحياة من دلائل وحدانيته؛ فصاروا بهذا الإشهاد كأنهم قالوا بلى، وإن لم ينطقوا بهذا على وجه الحقيقة، أي هذه الآية من باب المجاز التمثيلي. ([٣٨]).

لكن الرأي الأرجح في الآية أنها على حقيقتها، وأن الله خلق الذرية وأخرجها من ظهر آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم كما بينت الآية ثم بعد ذلك أماتهم، ليعيدوا مسيرة الحياة من خلال عالم المشاهدة، بالطريقة المعهودة حيث النطفة والعلقة إلى اكتمال الخلق ودورة الحياة، ويكون معنى الآية هنا أن الذرية بأكملها قد حصل لها نوع حياة في عالم الغيب وعالم الذر، وأخذ الله الميثاق من الإنسانية ثم كانت عملية إماتة، ثم بدأت دورة الحياة المعهودة في عالم المشاهدة.

وهذا الرأي هو الذي تعززه الأدلة الخبرية الكثيرة، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا

[٣٧] أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب في دعاء يوم عرفة ٥/٥٧٢-٣٥٨٥، وقال الألباني: صحيح كما في صحيح الترمذي رقم(٢٨٣٧).
[٣٨] انظر مفاتيح الغيب (١٥/٤٠٠).

كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ"، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنْهَا، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ على ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاَءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاَءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ بُهُ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ بُهُ النَّارَ" ([٣٩]).

فالأثر صريح في بيان أن حادثة إخراج الذرية كان حاصلًا مع آدم عليه السلام، وخلاله تبين أهل النار من أهل الجنة كما يبرز الأثر. وفي حديث آخر يبرز حصول هذا الميثاق في عرفة، فعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان -يعني يوم عرفة-، وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قُبلًا قال: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -إلى قوله:- بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ" [سورة الأعراف١٧٢-١٧٣]" ([٤٠]).

فالآية بظاهرها والأخبار المتنوعة تؤكد أن العهد والميثاق حصل للبشرية بكيفية محددة وهم في ظهر آدم، وما طرحه المعتزلة من كون الأمر مجازيًا إنما هو يتمشى مع منهجهم في التأويل وتعطيل الأدلة الخبرية.

لكن بأي كيفية كان هذا الميثاق؟ لقد تم الإخراج للبشرية الأولى على هيئة الذر، والذر إما هو صغار النمل، أو هو هذا الغبار المتطاير في الهواء، والذي يضرب به المثل في الصغر ومنه كلمة الذرة.

---

[٣٩] أخرجه مالك في الموطأ برقم ١٨٧٣.

[٤٠] رواه أحمد في المسند ٢٧٢/١-٤٥٥، والنسائي في السنن الكبرى كتاب التفسير باب سورة الأعراف ٣٤٧/٦-١١١٩١، والحاكم في المستدرك برقم (٤٠٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٩٧) والصحيحة (١٦٢٣).

وكان خلقًا مكتملًا، لكن بهذه الصورة (أمثال الذر) والله على كل شيء قدير، وحصل الإشهاد والعهد بين الله وبين عباده، ثم كانت الموتة الأولى...، ثم بدأت مسيرة الحياة الطبيعية في عالم المشاهدة خلال الرحم ثم رحلة الحياة، ويليها الموتة الثانية التي بعدها النشور.

ونفهم من ذلك أن العوالم التي مر ويمر بها الإنسان ثلاثة: **عالم الذر** وهو عالم حقيقي كل واحد منا وعاه وشاهده، والظاهر أن الله عندما رد الذرية لظهر آدم قبض أرواحهم.

والعالم الثاني: هو عالم الدنيا الذي نحياه الآن، وقد يكون داعي الفطرة الموجود في داخلنا والذي يدعونا للتوحيد هو من آثار ذلك العهد السابق في عالم الذر.

والعالم الثالث: هو اليوم الآخر الذي يشهد على العالمين السابقين، ووفق هذا المفهوم يستقيم فهمنا لقوله ﷻ: "قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ" [غافر١١]، فالموتة الأولى هي التي كانت بعد الميثاق والعهد في عالم الذر، ثم تلاها حياة في الدنيا من خلال دورة الحياة المعروفة، ثم الموتة الثانية في الدار الدنيا، ثم بعدها الحياة الثانية يوم البعث.

فهذه الآية تشهد لآية ميثاق الذر أنه على حقيقته، وأنه حصل بعده وفاة أو موتة، وإلا بدون هذا الفهم كيف نفسر الموتتين هنا!؟

وكون الذرية قد عاشت بكيفية معينة في عالم الذر ثم ماتت، أمر أرشدت له الآية الكريمة والأحاديث التي منها ما ذكرت وهو ليس مستعجبًا، فالله على كل شيء قدير، ولكل عالم سننه الخاصة به وكيفيته الخاصة. على سبيل المثال: في العالم

الثالث في الآخرة يكون ضرس الكافر مثل جبل أحد، وفخذه مثل جبل ورقان وجبل ورقان لوحده طوله ٢٤ كيلومتر، وعرضها في بعض النواحي ٨ كيلو متر.

فمعنى الآثار أن الكافر يتضخم جسمه بشكل مهول جدًا، بحيث لو نظر لصورته الأولى في عالم المشاهدة، كانت أشبه بالذر أو صغار النمل قياسًا لحجمه في النار، بالرغم من أنه نفس الشخص، فلكل عالم سننه الخاصة.

ونلحظ أن ميثاق الذر في عالم الغيب قبل المشاهدة ركز على قضية أساسية وهي قضية التوحيد، لكن أين وقع هذا الميثاق!؟ وفي أي توقيت!؟ هذا يستلزم منا مرة أخرى العودة للحديث النبوي، فعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان –يعني يوم عرفة–، وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قُبلًا قال: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ –إلى قوله:– بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ" [سورة الأعراف١٧٢–١٧٣]" ([٤١]).

هذا الحديث يكشف لنا فجأة سر المنسك الأعظم في الحج وهو الوقوف بعرفة، حيث أبرز الحديث أن مسالة عالم الذر حصلت بنعمان أي بعرفة، وهو رأي ابن عباس أن الميثاق كان ببطن نعمان وهو وادٍ إلى جنب عرفة، ويحمل أيضًا قول الكلبي على نفس المعنى، حيث قال أنه بين مكة والطائف. ([٤٢]).

إذًا ميثاق الذر حصل في عرفة أو واد نعمان جنب عرفة، والقضية الأساسية التي ركز عليها الميثاق هو التوحيد، وأعظم دعاء في عرفة هو شعار التوحيد، يقول

[٤١] رواه أحمد في المسند ١/٢٧٢-٤٥٥، والنسائي في السنن الكبرى كتاب التفسير باب سورة الأعراف ٦/٣٤٧-١١١٩١، والحاكم في المستدرك برقم (٤٠٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٩٧) والصحيحة (١٦٢٣).
[٤٢] انظر القرطبي (٣١٦/٧).

الرسول الأعظم: "خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا النبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير" ([٤٣]).

والوقوف بعرفة يعتبر أعظم منسك من مناسك الحج بل هو ركنه الأعظم، والنبي عليه السلام قال: "الحج عرفة"، فهو الركن الأعظم، فما السر في ذلك!؟ ولماذا اعتبر الوقوف بعرفة أعظم منسك من مناسك الحج!؟

قضية ميثاق الذر تكشف لنا هذا السر، وكأن الحج الذي من معانيه القصد، هو يراد به الانطلاق بتلك الذرية من كل أنحاء العالم نحو ذات المكان الذي حصل فيه العهد الأول في عالم الذر، وهناك يكون أدعى للذرية لتذكر الميثاق، أو بمعنى آخر هذه الذرية التي شهدت العهد في عالم الذر في عرفة، كان من أهم مناسكها أن تعود لنفس المكان لتؤكد على هذا العهد في عالم المشاهدة من جديد؛ لذا كان التوحيد هو أهم دعاء بعرفة، وهو استجابة العبد وتقريره وتأكيده للميثاق الذري القديم، أو استجابة لقوله سبحانه وتعالى: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ".

فهذا المنسك هو قمة الهرم في التأكيد على عهد عالم الذر وميثاقه، لذا الحج عرفة؛ وتمام النعمة عرفة، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، أَنَّ أُنَاسًا مِنَ اليَهُودِ قَالُوا: لَوْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ فَقَالُوا: "اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا" [المائدة:٣]. فَقَالَ عُمَرُ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ مَكَانٍ أُنْزِلَتْ أُنْزِلَتْ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ» ([٤٤]).

فهذا التوقيت العجيب لنزول آية كمال الدين وتمام النعمة، إنما يشير إلى قمة الهرم في المكان الذي يمثل حلقة الوصل بين العوالم الثلاثة، فعرفة هو ذلك المكان

---

[٤٣] أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب في دعاء يوم عرفة ٥/٥٧٢-٣٥٨٥، وقال الألباني: صحيح كما في صحيح الترمذي رقم(٢٨٣٧).
[٤٤] أخرجه البخاري برقم ٤٤٠٧.

التي تكون النفس أدعى لمعرفة وتذكر ذلك العهد والميثاق الغابر في عالم الذر في نفس المكان، وعرفة تتضمن حشرًا طوعيًا لعباد الرحمن في عالم المشاهدة؛ ليؤهلهم لحشر الوفادة يوم القيامة يقول الله ﷻ: "يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا" [مريم٨٥]، فهم في عالم المشاهدة وفد الرحمن، أما في يوم القيامة فهم يحشرون حقيقة إلى الرحمن وفدًا.

بل قد تكون تسمية نعمان الذي حصل به ميثاق الذر قد جاء من عظمة النعمة في هذا المقام، حيث يتذكر العبد ميثاقه الأول ويأتي للتأكيد عليه، فنعمان هي بلغة المسند الذي يجعل أل التعريف آخر الكلمة على هيئة ألف ونون أو واو ونون، ولو عربنا نعمان بحسب أل التعريف الحالية فتكون الكلمة النعمة، وفي جنباتها نزلت آية تمام النعمة.

ولعل حديث مباهاة الله في أهل عرفات على وجه الخصوص له علاقة بأنه المقام الأعظم في عالم المشاهدة الذي يؤكد على الميثاق في عالم الذر.

*****

ننقصها من أطرافها

يقول الله ﷻ: "أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" [الرعد٤١]، "بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ"

[الأنبياء٤٤]. هاتان آيتان شغلني مدلولهما، ولم يشف غليلي ما قرأته من تفسير حولهما، أو حول المراد بإنقاص الأرض من أطرافها

بداية أود أن أطرح رأي المفسرين والعلماء في تأويل الإنقاص هنا، ثم أبرز تصوراتي حولها، يقول الماوردي: "(نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) فيه أربعة تأويلات: أحدها: بالفتوح على المسلمين من بلاد المشركين، قاله قتادة. الثاني: بخرابها بعد العمارة، قاله مجاهد. الثالث: بنقصان بركتها وتمحيق ثمرتها، قاله الكلبي والشعبي. الرابع: بموت فقهائها وخيارها، قاله ابن عباس. ويحتمل خامسًا: أنه بجور ولاتها" ([٤٥]).

هذا الذي طرحه الماوردي تتبعته في أكثر من تفسير، فوجدت أن أكثر التفاسير تدور بالفعل على المعاني المطروحة هنا، مع بعض الاختلافات البسيطة؛ منها أن المقصود بالأرض مكة، وأن إنقاصها من أطرافها هو نهاية الكفر فيها والتضييق عليهم، ومن رأى أن (ال) في كلمة الأرض للجنس ورأى عمومها؛ رأى فيها ما ذكره الماوردي من التضييق على أهل الكفر بالأرض من خلال الفتوح.

أما قول قتادة، فالرؤية هنا قلبية وليست بصرية، بمعنى أن الخراب الذي يحل بالبلاد بعد عمرانها هو نقصان لتلك الأرض، وقول مجاهد أيضًا يدخل في السياق حيث رأى نقصان الأرض بقلة البركة فيها، أما رأي ابن عباس الذي جعله بموت الفقهاء والعلماء؛ فلعله يشير إلى أن العلماء هم سبب الأمن في الأرض فإن ماتوا جاء للناس ما يوعدون من خراب.

فيصبح موت العالم هو بمثابة إنقاص للأرض لأنه ذهب منها أحد أعمدة الأمان، والرأي الخامس الذي طرحه الماوردي يدخل في ضمن الرابع لأن موت

---

[٤٥] النكت والعيون (١١٩/٣).

العلماء وضياع الوعظ بالحق يترتب عليه جور السلطان، وجور السلطان مؤذن بالخراب.

ويرى ابن عاشور أن إنقاص الأرض هنا مجازي وليس على حقيقته، حيث يقول: "وَأُطْلِقَتِ الْأَرْضُ هُنَا عَلَى أَهْلِهَا مَجَازًا، كَمَا فِي قَوْله ﷻ: (وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ) [سُورَة يُوسُف:٨٢] بِقَرِينَةِ تَعَلُّقِ النَّقْصِ بِهَا، لِأَنَّ النَّقْصَ لَا يَكُونُ فِي ذَاتِ الْأَرْضِ وَلَا يُرَى نَقْصٌ فِيهَا وَلَكِنَّهُ يَقَعُ فِيمَنْ عَلَيْهَا". ([٤٦]).

هذا أبرز ما يطرحه المفسرون في الآيات، وقد تكون الآيات ترشد إلى هذا المدلول، لكنها لا تقتصر عليه فالقرآن حمال وجوه، وهذا ما جعل الخائضين في الإعجاز العملي يرون مدلولات أوسع للآيتين، وأقرب لعباراتهما والصريح من ألفاظهما، ومما طرحه الدكتور زغلول النجار في ذلك من دلائل الآتي:

١- الأرض نتيجة دورانها انبعجت عند خط الاستواء وتفلطحت عند القطبين، بحيث أصبح محور دوران الأرض عند القطبين أقل بـ٤٢ كيلو متر عن خط الاستواء، بحيث أن الانتقاص يحصل تدريجيا كلما ابتعدنا عن خط الاستواء نحو القطبين، فهذا من معاني الانتقاص في الأرض من أطرافها بحسب الدكتور زغلول النجار.
٢- عوامل التعرية التي تقع على الأرض ضمن دورة معهودة تأكل من المرتفع من الأرض حتى تسويه بالأرض، ثم تبدأ دورة أخرى جديدة ترتفع فيها جبال جديدة غير السابقة، فهذا التآكل من القمم والجبال وعوامل التعرية المستمرة التي تأكل يوميًا من تلك المرتفعات هو إنقاص للأرض من أطرافها العالية.
٣- الأرض تتكمش من كل أطرافها باستمرار، وذلك من خلال ما تفقده الأرض في الفضاء الكوني من مادتها، وثبت علميًا بأن الأرض الأولية كانت مائتي

[٤٦] التحرير والتنوير (١٣ /١٧١).

ضعف الأرض الحالية، فهذا الانكماش التدريجي هو إنقاص للأرض من أطرافها، ويرى الدكتور زغلول النجار أن هذا القول الأخير هو أكثر الآراء قبولًا وإقناعًا وأكثر التصاقًا بمدلول إنقاص الأرض من أطرافها.

إذًا هذه سبعة آراء واجتهادات في إنقاص الأرض، أربعة منها من علمائنا المفسرين القدماء، ويلحظ عليها كلها أنها حملت الآية على المجاز، فموت العلماء وذهاب بركة الأرض، وفتح البلدان أو خراب البلدان بعد عمرانها، هذه المعاني كلها مجازية، والأصل حمل الكلام على حقيقته إلا إذا كان هناك مانع من حمله على الحقيقة عندها يحمل على المجاز، وما حملهم على القول بالمجاز هو تصورهم أن الأرض بحسب العادة لا ينقص منها شيء، فهي على مدار الدهر كما هي بحسب ظنهم ومبلغ علمهم، ولكل زمان وعيه.

أما ما طرحه الدكتور زغلول النجار من آراء علمية، فأرى أن حملها على إنقاص الأرض كما في الآية قد يكون بعيدًا، فاعتبار المفارقة بين انبعاج الأرض عند خط الاستواء وتفلطحها عند القطبين، وإن كان يصدق على إنقاص الأرض بالعموم، لكن سياق الآية الذي يشير إلى عقوبة مرئية لا يخدمه.

كذلك القول في اعتبار التعرية من الجبال أيضًا ليس فيه معنى العقوبة من جهة، ومن جهة أخرى لا يقال لقمم الجبال والمرتفعات أطراف الأرض، لأن طرف الشيء حافته، وهذا المعنى لا يصدق على الجبال التي هي في عمق اليابسة من الأرض، كذلك القول بأن المراد بالآية انكماش الأرض، فالآية وسياقها لا يخدمه؛ لأنها ظاهرة غير مرئية، وهذه الحالة سابقة حتى للعهد النبوي، والآية تشير إلى عقوبة حادثة مرئية، كذلك الانكماش في الأرض ليست انتقاصًا من أطرافها.

هذه أبرز الآراء المطروحة فيما يتعلق بإنقاص الأرض من اطرافها، وبعض هذه المعاني قد تكون هي المرادة من الآية، ولكن كما ذكرت أن القرآن الكريم حمال أوجه، ويعطي دلالات كثيرة جدًا وغير متناهية بألفاظ قليلة، والقرآن بطبعه لا تنتهي عجائبه، وهو دائمًا يستحثنا في الاستبصار والتأمل لنكون أقرب لفهم مدلولاته وإشاراته.

من هذا الوجه أرى أن نفصل القول في الآيات السابقة، لعلنا نكتشف بعض المدلولات الأخرى التي تكون أقرب للمدلول، وبداية أرى أن أوضح سياق الآيتين.

أولًا: سياق الآيتين.

بالنظر إلى سياق سورة الرعد نجد أنها أشارت إلى موضوع عقوبة قد يكون بعضها في العهد النبوي، وقد تكون بعد وفاته يقول ﷻ: "وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ٤٠" [الرعد]، فهذه الآية هي السابقة لآية انتقاص الأرض، وواضح منها أنها تذكرنا بالآية المطروحة بنفس المدلول في سورة يونس، والتي تشير إلى عقوبة عامة كما بينت سابقًا في أحد مقالاتي.

ثم نلحظ هنا قوله ﷻ: "وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ.." ثم بعدها جاء تحقيق المراد بقوله ﷻ: "أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ..."؛ فهنا العقوبة ستتجاوز مرحلة العهد النبوي في الأجيال اللاحقة، بحيث يراها المقصودون منها عبر التاريخ رؤية عيانية، أو أقرب للعيان في المستقبل، مما يرشد أن المقصود بإنقاص الأرض هو عقوبة موعودة في مستقبل البشرية. وانتهاء الآية بقوله ﷻ: "وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ"؛ إشارة قوية إلى أن العقوبة هنا جاءت من باب الجزاء الوفاق للبشرية بسبب كفرها وعنادها.

ثم بعدها تأتي آية إنقاص الأرض، مع لاحق لها يبرز أنها عقوبة ماضية لا مرد لها، وهي رد إلهي على المكر البشري الذي يقوم به أهل ذلك الزمان بأهل الله، يقول الله ﷻ: "أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٤١ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ٤٢" [الرعد].

وهنا عبارة سريع الحساب وبيان المكر البشري الذي سينتهي بإدالة أصحابه من حيث لا يعلمون، بحيث تكون عاقبة الخير لأهل الله، كل هذه الإشارات تدل على عقوبة عظيمة تكون من باب الحساب الدنيوي قبل الأخروي. هذا مجمل سياق الآية في سورة الرعد.

أما في سورة الأنبياء فقد بدأت ببيان اقتراب الحساب من الناس وهم عنه غافلون، ثم بينت أن آيات الله سيراها الجميع فلا يستعجلها الذين لا يعلمون، يقول الله ﷻ: "خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ٣٧" [الأنبياء]، وقد جاء بيان هذه الآيات في سورة الأنعام، وهي تشير إلى العلامات العظام للساعة، فهي آيات ربك التي لا ينفع نفس إيمانها ما لم تكن أمنت من قبل.

ثم تحكي الآيات تعنت أهل الباطل واستبعادهم لهذه الوعود، ثم يقول الله ﷻ: "بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ٤٤ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ ٤٥ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٤٦" [الأنبياء].

هنا الآيات توحي بتوقيت عجيب، يشير إلى أن أهل الباطل يطول بهم الأمر من الرخاء والتمتع لهم ولآبائهم، من قبل أن تصيبهم أي عقوبة، فهو إمهال طال الآباء وامتد للأبناء، مما يشير إلى أن العقوبة ستكون عظيمة، ونلحظ أن الأرض قد

مرت بمرحلة تعافي من بعد الحرب العالمية إلى يومنا، وخلال هذه المدة كل البلاء فقط على المسلمين، أما باقي البلدان فقد مرت بمرحلة استرخاء ومتعة وأمن من الآباء وامتد للأبناء، فهذا ملاحظ بقوة في زماننا.

وهذا المعنى أرشدت له سورة الأعراف بقوله ﷻ: "ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ" [الأعراف٩٥]، هنا أصبحت مرحلة من العافية والتمتع تجعل الضراء هي من التاريخ، وذكريات الأبناء لسالف حال الآباء، على سبيل المثال كما نشاهد: اليابان التي تعيش مرحلة عافية وتمتع، أما الضراء فهي في حقهم من باب الذكريات كذكرى سقوط القنابل النووية.

المهم السياق في سورة الأنبياء أيضًا يبرز أن الآية جاءت من باب الإشارة إلى عقوبة، وفي سورة تتحدث في بدايتها وعمقها عن اقتراب حساب الناس عنه في غفلة. كذلك أهم ما يميز سورة الأنبياء أنها سورة الاستجابة من الله لأوليائه؛ لذا يكثر فيها عبارة (فاستجبنا)، وتبرز هذه الصورة كيف ينصر الله أهل طاعته حتى لو بعكس الأسباب.

هذا مجمل سياق الآيتين في سورتي الرعد والأنبياء.

ثانيًا: تحليل لمضمون الآيتين وبيان المراد بإنقاص الأرض.

كما بينت سابقًا أن سياق الآيتين يشير إلى عقوبة مقدرة تأتي عبر الدهر، وظاهر الآيتين أنها تشير إلى عقوبة عامة، والأصل أن أل التعريف هنا للجنس وليس للعهد مما يشير إلى عموم المراد بها.

وبينا أن الآية في سورة الرعد قد ختمت ببيان أن هذا حكم لله وقضاء محتم لا يملك أحد تغييره أو يعقب عليه، وهذا الأسلوب يرشد إلى عظمة الأرض وتحققه لا محالة، أما في سورة الأنبياء فقد ختمت بقوله ﷻ: (أفهم الغالبون) وهو استفهام إنكاري لأولئك الذين يظنون أنهم أحاطوا بالمسلمين وأهل الله، وأنهم قد تمكنوا بهم؛ فيأتي الأمر لبيان أن الغلبة في الخاتمة تكون للحق، وهذا السياق كله يرشد إلى أن المراد بالآية هو عقوبة حاصلة.

نأتي الآن إلى إنقاص الأرض، فالنقصان هو تقليل كمية الشيء، والأطراف جمع طرف وهو ما ينتهي به الجسم من جهة من جهاته، ويقابله الوسط؛ أي لو أتينا بثوب وأردنا أن نعرف أطرافه، فهي ما انتهى إليه هذا الثوب في أي جهة من جهاته، فهذا طرف الثوب، ولو أتينا لليابسة فأطرافها هي حوافها التي تنتهي عند الماء أو البحار، فهذه هي أطراف الأرض إذا كان المقصود بها اليابسة وهو الأعم.

إذًا إنقاص الأرض من أطرافها يراد به الإشارة العلمية إلى أن البحار سيكون لها جولة قوية على الأرض، بحيث تأكل المياه من كل أطراف الأرض أو اليابسة، واستخدام أسلوب (من أطرافها) إشارة للعموم، فكل ما يصدق عليه أنه طرف للأرض محاذي للمياه سيكون له نصيب من الإنقاص أو التآكل.

فهذا المعنى واضح جدًا ويصدق تمامًا على ملفوظ الآية، لكن من أين تأتي المياه الكثيرة للبحار بحيث تحصد نصيبًا من أطراف الأرض جميعها!؟ هذا حاليًا وبحسب وعينا وفهمنا لمجموع الكرة الأرضية أصبح واضحًا لدينا من خلال المخزون المائي الهائل الذي حجزه القطبان الشمالي والجنوبي على شكل جليد متراكم.

ويطرح العلماء أن ذوبان جليد القطب الجنوبي لوحده كفيل برفع منسوب المياه إلى أكثر من ثلاثين متر على مستوى الأرض، وينذر العلماء أنه مع نظرية

الدفيئة والغازات المتصاعدة واحترار الأرض المتزايد؛ يتصور خلال هذا العقد القادم فقط أن يزيد منسوب المياه متر تقريبًا على مستوى الأرض جميعًا.

لكن لو تدخلت عوامل مفاجئة كنزول نيزك أو تغير في الأقطاب أو انحراف فيها، فعندها سيكون الأمر كارثي ومباغت وسريع جدًا، بحيث يغمر كل أطراف الأرض ومدن كبيرة هي محور العالم حاليًا ستكون تحت الماء فجأة. عندها ستكون الرؤية من رؤية علمية عقلية إلى رؤية بصرية ملحوظة من الجميع، وتكون الآية هنا هي إشارة إلى بعض نتائج الفساد في الأرض المطروح في سورة الروم.

والملاحظ في الخرائط المفترضة للعالم حال ذوبان الجليد أن أكثر البلدان تأثرًا به هي تلك المدن العالمية المحورية المؤثرة على العالم المعاصر. إذًا في ظني الآية في معناها الحقيقي إنما ترشد إلى ظاهرة متوقع حدوثها، تتعلق بطغيان الماء على أطراف الأرض ويابستها، ومن ينظر للآية وبلاغتها وأسلوبها يشعر بدقة التركيب في الإشارة إلى هذا المعنى والله أعلم.

لكن هذا لا يمنع أيضًا المعنى المجازي الذي طرحه المفسرون الأوائل، والمتعلق بأن المراد بالآية انتصار المسلمين، والأكل من أطراف الجزيرة العربية تدريجيًا من خلال إسلام أهلها. فالقرآن حمال أوجه، والمعنى المجازي خدم مرحلته، والمعنى الحقيقي يخدم مرحلة أخرى يرشد إليها وينبه لدلالاتها.

*****

المفارقة بين القسط والعدل

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى الْأَنْفِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ" ([٤٧]). موضوع القسط والعدل ورد في أحاديث كثيرة جدًا، إنما ذكرت هنا الحديث كشاهد على فكرة المفارقة بين القسط والعدل؛ حيث نلحظ أن الحديث هنا أشار إلى امتلاء الأرض من الجور والظلم، ثم يخرج رجل يملأ الأرض قسطًا وعدلًا.

فهل هناك مفارقة بين الأمرين!؟ السياق يشير إلى ذلك بقوة، وكشف دلالة المفارقة شغلني قليلًا ولم أجد إجابة شافية، سوى أن القسط يتعلق بالأمور الظاهرة وله تعلق بالميزان، بينما العدل أعم منه.

وهذا استلزم مني ملاحقة مدلول الكلمتين لكي يتضح المراد بهذه العبارة، فالقسط معناه الحظ والنصيب، وقد ارتبطت في الآيات بالميزان، ولا تجد ذكر للميزان إلا وذكر معه القسط، يقول الله ﷻ: "وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" [الأنعام]، فمع الكيل والميزان يستخدم القسط وليس العدل، والمعنى ذاته يتكرر في قصة شعيب: "وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ" [هود٨٥]، وفي سورة الرحمن نفس الفكرة: "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" [الرحمن٩].

وكل الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة وعن الجزاء استخدمت كلمة القسط لتعلق الأمر بالموازين، يقول الله ﷻ: "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" [الأنبياء٤٧]، أما لماذا القسط يوم القيامة؟ لأن الميزان كمي بأدق الدرجات فهو يوزن بالذرة للأعمال.

[٤٧] أخرجه أبو داود برقم ٤٢٨٧ (١٧٤/٤)، ونقل البستوي عن ابن القيم أنه قال: رواه أبو داود بإسناد جيد، وذكر أن الألباني حسنه، وقال عقب ذلك: حسن لشواهده. [البستوي: المهدي المنتظر (١٧٥)].

ولو تتبعت كل الآيات المتعلقة بالقيامة والجزاء والميزان نجدها تستخدم كلمة القسط، ولا تستخدم كلمة العدل، فلماذا؟

القسط يحمل معنى العدل لكن مع مفارقة دقيقة جدًا، فالقسط يشير إلى مساواة كمية ومماثلة تطابقية؛ وأصله من القسطاس، والقسطاس هو الميزان الذي يحقق مماثلة تطابقية ومساواة بين الكفتين، والملاحظ أن العدل في اللغة الانجليزية هو (justice) ولفظها جستس أو قسطس، فهي نفس كلمة القسطاس.

لكن اللغة العربية جعلت مفارقات لطيفة بين الكلمتين، وهذا من طبيعة اللغة التي يوجد فيها مردافات تطابقية من كل الوجوه، فالقسط مساواة ظاهرة للعيان دون زيادة أو نقصان لأي اعتبار من الاعتبارات، فمعنى القسط هو تكافؤ كفتي الميزان بغض النظر عما في كل كفة. لذا قابل القسط الجور، والجور معناه الزيادة، وفي الميزان الزيادة في أحد الكفتين مما يترتب عليه نقصان في الكفة المقابلة.

إذا القسط هو عدل كمي، ومساواة تطابقية من كل الوجوه، بينما العدل يختلف قليلًا عن هذا المعنى، فأقوى تعريفات العدل أنه المساواة بين المتساويين واللامساواة بين اللامتساويين، فالقسط عدل كمي لذا تعلق بالمسائل الكمية والموازين، بينما العدل هو في الناحية الكيفية، أو هو يرشد إلى العدل الكيفية. فقد لا تكون مساواة لكن يكون العدل بالنظر لاعتبارات أخرى.

فللذكر مثل حظ الأنثيين هنا عدل بالرغم أنه جانب المساواة، لماذا؟ لأن هناك اختلاف وظيفي بين الرجل والمرأة استلزم اختلافًا في الميراث. وهذا الاختلاف هو عين العدل، ولو تعاملنا معهما في الميراث بالقسط أو الميزان الكمي دون مراعاة للفروق يكون هنا الظلم.

لذا لأن العدل يخضع لاعتبارات كيفية قد تكون سببًا في التفاضل في المسائل؛ فقد تمت المطالبة به دون القسط في مسألة الحكم والقضاء، يقول الله ﷻ: "وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ" [النساء]، لماذا الحكم يكون بالعدل وليس القسط؟ لأن الحكم ينظر إلى اعتبارات مطلوبة لإحقاق الحق، وقد يترتب عليها تغير الحكم من شخص لآخر.

فالحاكم ينظر للقضية أو للمتهم ويراعي جوانب معينة تتعلق بالسن والظرف الاجتماعي والنفسي، والقرابة ودوافع الجريمة وغير ذلك من الأمور التي قد تدخل في كل قضية على حدة، ولها تأثير على حكم القاضي، وذلك في كل ما هو خارج الحدود، بل حتى في الحدود هناك اعتبارات تتعلق بتأخير الحدود، وأحيانًا إلغاؤها لوجود موانع من إقامتها في حالات مخصوصة.

وفي حالة الحكم العام أيضًا نجد العدل لا القسط؛ لذا قد نجد موظفين في نفس الوظيفة لكن أحدهما يتقاضى أكثر من الآخر لاعتبارات أخرى منها كثرة من يعول وشدة العوز، فالمراعاة هنا لا تتنافى مع العدل الذي من معانيه التعديل في الموازين بطريقة كيفية.

ولكي يتضح لنا الأمر أكثر أسوق مثالًا واحدًا على القسط والعدل في حياة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فأبو بكر عندما حكم ساوى بين الناس في الأعطيات، واعتبر المفاضلة بينهم هي مفاضلة أخروية أما في الدنيا فلا فرق بين إنسان وإنسان، هنا حكم أبو بكر بالقسط الذي يعني المساواة الكمية بعيدًا عن أي اعتبارات أخرى.

لكن عندما حكم عمر بن الخطاب رأى ألا يساوي بين الناس في العطاء؛ لأن الله لم يساوي بين من آمن وأنفق من قبل الفتح وبين من آمن وأنفق من بعد الفتح،

ومن شهد بدر له خصوصية ومن شهد الشجرة له خصوصية حتى بنص القرآن الكريم، لذا المساواة بين هؤلاء وباقي الناس هو إجحاف.

من هذا الوجه فرق عمر في العطاء بين الناس بخلاف أبي بكر الصديق، هنا كان العدل وليس القسط، لأنه فرق بين الناس لاعتبارات خارجية. فأبو بكر حكم بالقسط، وعمر حكم بالعدل في مسألة العطاء للناس من بيت مال المسلمين.

فهذا المثال واضح جدًا، وكل من القسط والعدل هو من الحق سواء كان الميزان كيفي أو كمي، وفي عهد الإمام المهدي يتعاطى الإمام مع الميزانين بدقة عجيبة؛ فيتعاطى مع القسط لينفي الجور والزيادة والمفارقة بين الناس حيث لا وجود للاعتبارات الأخرى.

ويحكم بالعدل والميزان الكيفي ليحقق تعديل للكفة المكسورة والراجحة التي أفرزت طبقية بين الناس، ويسير في منهج تحت شعار (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ)، فتحويل الفيء من المقاتلين للفقراء والمساكين؛ أراد الله به تعديل الكفة بين الفقير والغني، وهو العدل لتحقيق المماثلة.

فالعدل هو ميزان كيفي بينما القسط هو ميزان كمي، وفي كليهما يستقر الحق، فحيث وجود مساواة ولا اعتبارات مفضية للظلم فيكون القسط، وحيث يحتاج الحكم أو الموقف للنظر في حالة بخصوصها، لاعتبارات معينة ترشد للجزاء أو الموقف الأمثل فهنا يكون الحكم كيفي؛ لذا من رحمة الله بنا أن طالبنا في حال القضاء والحكم بالعدل لا القسط، لأن المساواة التامة بين الفعل أو الجرم والجزاء يصعب على الإنسان تحقيقه من كل الوجوه.

نفهم مما سبق أن القسط هو ميزان كمي ويقتضي المساواة والمماثلة دون أي اعتبارات وأي زيادة تعتبر جور؛ لذا قابل القسط عبارة الجور التي تعني الزيادة،

والعدل هو ميزان كيفي لتعديل كفة الميزان في المجتمع، ويكون في الحالات والاعتبارات التي تقتضي ذلك، والجمع بين الأمرين يدل على قدرة وإلهام ومزيج من الكفايات والملكات، يظهر أن الله قد خص بها الإمام المهدي في آخر الزمان.

وهذا الحديث يبرز لنا أسرارًا كثيرة بعضها يتعلق بطبيعة المرحلة التي يأتي بها الإمام المهدي حفظه الله، فهي مرحلة ينتشر فيها الاضطهاد وتضييع الحقوق، فيأتي المهدي وهناك الكثيرون الذين سُلبوا من حقوقهم، وكفة الميزان في جهتهم أو في حقهم مكسورة، وهذا الواقع المركب يحتاج من الإمام أن يتحرك باتجاهين في ذات الوقت: الاتجاه الأول هو رفع الظلم عن هؤلاء المستضعفين بدفع الظلم عنهم، وإعادة تعديل كفة الميزان في حقهم حتى ينالوا كامل حقوقهم.

وهذا يقتضي التعامل بالميزان الكيفي الذي يراعي الاعتبارات السابقة، وذلك لتعديل كفة الميزان هنا يكون العدل، أما الباقي أو الحالة المستأنفة في الأمة فيحتاج التعامل معهم ضمن ميزان المساواة للتربية على العدالة، حتى تكون منهج حياة في أمة ألفت الظلم واستمرأت به وأصبح جزءًا أصيلًا من ثقافته، وهو في هذه الحالة يحتاج الميزان الكمي (ميزان أبو بكر الصديق).

والتعاطي مع الميزانين في ذات الوقت يقتضي حكمة واسعة جدًا، فهي لا تقوم بالعلم، بل يجب أن تكون معها الحكمة في أرقى درجاتها، والحديث أرشدنا من خلال دلالة الإشارة إلى سعة حكمة الإمام.

أما كونه يملأ الأرض قسطًا وعدلًا، فمعناه لا يبقى تخم أو ناحية حتى لو صغرت إلا نالت من هذا العدل، وهذا أمر لم يحصل على مدار البشرية كاملة حتى العدل في عهد عمر بن عبد العزيز لم يكتمل، فامتلاء الأرض عدلًا هو حالة خاصة

بمرحلة المهدي؛ لذا التهوين من شخصية المهدي هو هضم لهذا المخلص الذي تفوق ثمرته جهود الكثيرين على مدار التاريخ.

ويكفينا أن عجلة القدر والتاريخ البشري مرتبطة بخروجه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ -قَالَ زَائِدَةُ فِي حَدِيثِهِ- لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ثُمَّ اتَّفَقُوا حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا" ([٤٨]).

فهذا الحديث إنما جاء ليبرز لنا أهمية ظاهرة الإمام المهدي بالنسبة للصفحة الأخيرة في حياة البشرية، والتي بها يتم معالجة أكبر القضايا العالقة على مدار التاريخ بخصوصها، ورجل إمام مجدد مخلص يستدعي الإمام إطالة عمر الدنيا لأجله، هو يمثل ظاهرة لا يجب في حال أن ينظر لها البعض بأي شيء من التهوين.

ولإتمام الفائدة فيما يتعلق بالمفارقة بين القسط والعدل، وطبيعة الميزان الكمي والكيفي لإقرار الحق في الأرض؛ أرى أن أسوق بعض الآيات وأطرح تساؤلاتي عليها وفق ما ذكرت من دلالة سابقة، وأطرحها هنا لأنها قد تأتي في ذهن البعض عندما يقرأ تقسيمي للمفارقة وفق الميزان الكمي والكيفي.

يقول الله ﷻ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ" [النساء١٣٥]، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" [المائدة٨].

[٤٨] أخرجه أبو داود ٤٢٨٤ (١٧٣/٤)؛ والترمذي في الفتن برقم ٢٢٣١، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٥٠٥/٤)؛ قال الألباني: حسن [مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني (١٨٣/٣)].

هنا لا يوجد موازين بل هي مواقف وأحكام، فلماذا استخدم القرآن الكريم القسط ولم يستخدم العدل!؟ هذا من عظمة القرآن الكريم ودقة ألفاظه وأحكامه، انظر للآيتين السابقتين، إنها تتحدث عن قول الحق وإقراره وإخراج العواطف من أن تؤثر عليه حتى يتحقق العدل، ففي الآية الأولى كانت المطالبة بكلمة الحق حتى لو كانت مخالفة لعاطفة المحبة، فمحبتك لأهلك أو لنفسك أو لقرابتك لا تجعلك تنقص من الحق والقوامة بالقسط في حكمك، وأخرج عواطف المحبة من الحسبان.

وفي الآية الثانية جاءت الشحناء والعداوة والشنآن كعاطفة تحول بين الناس وبين الموضوعية وقول الحق، فعداوة الإنسان للغير دائما تحول دون إنصافه.

إذًا الآيتان تتحدثان عن إقامة الحق والموضوعية في الأحكام، ونظرًا لأن إقامة الحق والموضوعية محفوفة بعواطف قد تؤثر عليهما، فالمحبة قد تضيعه والعداوة قد تنقصه؛ فهنا إقامة الحق محفوف بعواطف في أغلب الأحوال ستتدخل للتأثير عليه، لذا هنا لا ينفع الميزان الكيفي الذي يخضع للاعتبارات الخارجية (العدل)؛ لأننا لو فتحنا المجال للاعتبارات، فهنا فتحنا المجال لتسلل الشيطان من خلال العواطف التي تحف به في تحديد هذه الاعتبارات.

لذا هنا كان إقامة العدل أو الحق عبارة عن قيمة صارمة لا تخضع للعواطف، وهذا يستلزم الميزان الكمي الذي يستلزم المساواة دون أي اعتبارات خارجية، معنى الكلام بدك تقول كلمة الحق بميزان دقيق لا تنقص ولا تزيد، هذا المعنى هو عين القسط.

ولو قلت هناك اعتبارات للمحاباة، نقول لك في الأحكام التي تحفها العواطف لا مجال للاعتبار، والآية أقفلت عليك هذا الباب، وهنا بالذات طالبتك بالقسط وليس العدل حتى لا تفتح لك المجال للميزان الكيفي الذي يخضع للاعتبارات.

ونفس الكلام يقال في آية اليتامى: "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا" [النساء١٢٧].

فموضوع اليتامى وأموالهم موضوع مغري لكثير ممن يأتي تحت يديه هؤلاء الضعفاء؛ فيقومون باستغلال أموالهم أو تزوجهم أو تزويجهم بعيدًا عن رعاية حقوقهم، لذا كثير من الآيات احتاطت لحق هؤلاء الضعفاء، ولما كان حال اليتيم وظروفه قد يخضعه الكفيل لاعتبارات كثيرة قد تكون مدخلًا للتلاعب؛ لذا لا يصلح هنا الميزان الكيفي الذي يفتح المجال للاعتبارات (العدل)؛ لذا لا بد هنا من ميزان كمي (القسط) الذي لا يخضع للاعتبارات الأخرى، وهنا أيضا طلبت القوامة كما يقوم الإنسان على الميزان وينظر بدقة للكفتين ليحقق القسط.

آية أخرى قد يطرح من خلالها البعض تساؤلات، يقول الله ﷻ: "شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [آل عمران١٨]، فهنا جاءت آية الشهود بالقوامة بالقسط لا العدل، هنا القسط يعني الميزان، والله يقوم بالقسط في كونه بحيث يتساوى الفعل والنتيجة ضمن موازين لا تضيع مثقال ذرة واحدة لا في الدنيا ولا في الآخرة، والآية واستخدام القسط فيها تحتمل أسرارًا لا تستوعبها المقالة هنا؛ لذا أرى أن يسر الله أن أفردها في مقالة خاصة.

*****

أسرار التسبيح

(١) "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا"

بعض متابعي المدونة قد يقولون ما علاقة هذا الموضوع في الفتن، أقول: تابعوا الموضوع بأكمله في مقالاته الثلاثة، وعيشوا دلالاته واعلموا أن الذي أخرج يونس من بطن الحوت؛ هو ذاته العلاج في إخراجكم من بطن الحوت الكبير الذي احتوى الأمة بمجموعها.

والشيء الذي كان سببًا في دخول داود عليه السلام مرحلة الخلافة التسخيرية كأول خليفة في الأرض؛ هو ذاته السبب الذي يدخلكم نحوها، هذا الموضوع مليء بالأسرار لمن صبر عليه وتأمله بتأنٍ، فقد يفتح الله عليه آفاقًا أعظم مما نتصور، ورب مبلغ أوعى من سامع...، تابعوا بتأنٍ هذا الموضوع بمقالاته الثلاثة.

بعد التعريف كان التكليف، بعدما تعرف موسى عليه السلام عند الطور على العظمة الإلهية وكيف تحولت العصا إلى حية، جاء التكليف: "اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ"، عندها سأل موسى ربه عدة سؤالات: "رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٨ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ٢٩ هَارُونَ أَخِي ٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي"، لماذا هذه السؤالات يا موسى!؟ بيَّن موسى الغاية العظمى لكل سؤالاته: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا".

هذا التعليل من موسى عليه السلام عجيب جدًا، ويحمل ألف تساؤل في ذات اللحظة، السياق كله مرتبط بفرعون والذهاب إليه، والسؤالات الهدف منها تعزيز قدرته في مراغمة فرعون ومواجهته، لكن موسى عليه السلام ترك موضوع فرعون، ودخل

مباشرة على الغاية العظمى المتوقعة من مراغمته لفرعون، وهي حصول معاني العبودية عند أتباعه، بما يترتب عليه القيام بأعلى غاياتها وهو التسبيح.

يا رب أعطني سؤالاتي لأصمد وأواجه فرعون وأراغمه؛ فينتصر الحق ويترتب على انتصار الحق تحقيق مقام العبودية لك وحدك، حتى ندخل جميعًا في أعظم أبواب العبودية وغاية الغايات منها، وهي: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا"، فالتسبيح هو الذكر الأعظم السابق لكل ذكر في الكون، فهو الذكر السابق لخلق الإنسان نفسه.

فالله سبح نفسه قبل أن يكون شيء، وسبح نفسه بعد خلق الأشياء، وهنا السر الأعظم الذي قد لا يدركه البعض، وهو أن التسبيح هو المقام الأسنى الأعظم الذي يمثل غاية الغايات فهو روح الروح، وهذا يحتاج توضيحًا بسيطًا هنا حتى ندرك عظمة التسبيح، وكيف نستفيد منه في تيسير كل عسير بإذن الله ﷻ:

أولًا: لماذا خلق الله الإنسان!؟ الآيات وضحت: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"، هنا المقصود بالعبادة التزام الأمر والنهي خلال الأربع وعشرين ساعة، في السوق في البيت في الشارع، في كل مقام هناك أمر ونهي رباني.، والالتزام به يحقق معنى العبودية لله.

ثانيًا: لكي يستطيع الإنسان أن يقوم بمقام العبودية؛ شرع الله له بعض الشعائر المعينة وهي الشعائر التعبدية: صلاة صيام زكاة حج. فالصلاة صلة، والصوم تقوى، والزكاة تزكية، والحج استخلاص وعبودية. هذه الشعائر جاءت لتذكر الإنسان بمقام العبودية لله، وتعينه على العبادة بمفهومها العام الذي ذكرته في البند الأول.

أعظم الشعائر التعبدية الصلاة، وهي أول ما يحاسب به العبد بين يدي ربه، لكن مع عظمة الصلاة إلا أن الذكر أعظم منها؛ لذا قال الله: "إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ"، ذكر الله أكبر من كل شيء ومن الصلاة؛ لذا الذكر هو العبادة الوحيدة التي تبقى مع الإنسان في الجنة، فلا صلاة ولا زكاة في الجنة، لكن هناك ذكر، ويلهم أهل الجنة التسبيح والتهليل والتحميد كما نلهم النفس، إذن عندنا عبادة بمفهومها الواسع، وعندنا شعائر تعبدية أهمها الصلاة، وعندنا الذكر وهو أعظم من كل عبادة، فهو غاية العبادة.

ثالثًا: التسبيح هو غاية الغايات وأعظم أشكال الذكر؛ لذا بالرغم من أنه شكل من أشكال الذكر، لكن نجد موسى عليه السلام بدأ به ثم ثنى بالذكر: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا"، لماذا خص التسبيح من دون الذكر، وجعله الهدف الأسمى له!؟ لأن التسبيح كما ذكرت هو أعظم أشكال الذكر؛ لما يحمله من تنزيه وتعظيم لذات الله.

فالتسبيح غاية الغايات وبه تقضى كل الحاجات ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولكي يتضح لكم كيف أن التسبيح يلين الحديد ويغير النواميس؛ سأكمل هذه الفقرة بفقرة أخرى مكملة. إذًا لنعلم السر الأعظم وراء اعتبار موسى عليه السلام أعظم هدف من أهدافه هو: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا".

(٢) التسبيح وإلانة الحديد والخلافة التسخيرية

ما زلنا مع التسبيح إتمامًا للموضوع السابق، الذي بينت فيه سر بداية موسى عليه السلام به كغاية الغايات عنده، وهنا سأثبت من خلال القرآن الكريم عظمة التسبيح، باعتباره الذكر الأول السابق لوجود الكون والإنسان.

مرت مرحلة على سيدنا دواد (عليه السلام) حصلت بينه وبين طالوت إشكالية بسبب الواشين والحاسدين له، فترتب على ذلك أن داود (عليه السلام) فر في الجبال مرحلة من عمره، في تلك المرحلة التي كانت عبارة عن آلام وآهات وابتلاءات في حق داود (عليه السلام)؛ كانت ذاتها المرحلة التي ارتقت فيها نفسية داود (عليه السلام) بطريقة شفافة جدًا، جعلته ينفتح على الموجودات حوله؛ بما يؤهله لأول خلافة تسخيرية في الأرض.

ابتلاءات من باب الاصطناع، كما في حق موسى (عليه السلام): "وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا"، "وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي"، في هذه الأجواء داود الشاب صاحب الصوت الجميل الشجي بدأ رحلة التسابيح بين يدي الله، هناك في الجبال وبين جنبات الأودية؛ بدأت تجربة من أعظم التجارب البشرية، صوت جميل من مبتلى محب لله، يدعو ويسبح الله بنفس شفافة جدًا.

وتدريجيًا بدأت هذه النفس التي دخلت على غاية الغايات بالتمازج بينها وبين الطبيعة، بطريقة منسجمة جدًا وانكشاف عظيم بين أفراد مختلفة في ذات الكون العابد، جاء القرآن ليسطر لنا هذا الحدث الجلل بقول الله: "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ"، يا جبال.. يا طير.. أوبوا مع عبدي داود، رددوا معه في تسابيحه، وهكذا انكشفت عناصر الكون بشفافية تامة مع داود (عليه السلام)، ووجد من يؤنسه في تسبيحه وعبوديته لله.

ومعنى أوبي في الآية أي رددي مع داود ما يقول، أما ماذا كان يقول داود!؟ فقد بينته آية أخرى: "وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ"، إنه التسبيح الغاية العظمى التي دخل عليها موسى (عليه السلام) من قبل، وبالتسبيح ألان الله لداود (عليه السلام) الحديد، وبالتسبيح انكشف أمامه الكون العابد، وبالتسبيح بدأ الخطوة الأولى نحو الخلافة التسخيرية التي اكتملت في وريثه سليمان (عليه السلام)...

الموضوع المتعلق بداود عليه السلام والتسبيح يحتاج لمجلد، لكن هذه أفكار سريعة بسيطة أشرح فيها لماذا بدأ موسى عليه السلام بالتسبيح كغاية: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا".

(٣) بطن الحوت

ما زلت مع موسى عليه السلام ومعنى بدايته بعبارة: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا"، حيث بينت أن التسبيح هو غاية الغايات، وأعطيت مثالًا عليه في حق داود عليه السلام وكيف أنه بالتسبيح ألان الله له الحديد!!

والمثال الثاني مع يونس عليه السلام، الذي ذهب مغاضبًا وركب الفلك التي تعرضت للخطر، وانتهى به الأمر إلى أن التقمه الحوت، هناك في لجج البحار ومن بطن الحوت سمع تسبيح الحيتان للرحمن، وسمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى؛ عندها قال بلسان حاله ومقاله: "لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ".

يقول النبي محمد عليه السلام: "كان دعاء أخي يونس عجبًا: كان أوله توحيدًا، وأوسطه تسبيحًا، وآخره إقرارًا بالذنب"، إذًا دعاء يونس عليه السلام يتكون من ثلاثة أمور: (توحيد – تسبيح – إقرار بالذنب)؛ التوحيد أربع كلمات، التسبيح كلمة واحدة، الإقرار بالذنب أربع كلمات.

لكن عندما عبر عنه القرآن ترك ثماني كلمات، ودخل على غاية الغايات على الكلمة الواحدة فقط (التسبيح)، فقال: "فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ"، لم يقل القرآن فلولا أنه كان من الموحدين، ولم يقل فلولا أنه كان من المقرين بذنوبهم مع أن المقام مقام توبه، ترك القرآن ذلك وركز على الغاية العظمى (التسبيح) فقط، وجعله سببًا لنجاة يونس عليه السلام من بطن الحوت.

موسى عليه السلام اعتبر هدف كل رسالته الأول هو: "كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا"، دواد بنفسه الشفافة وتسابيحه بين يدي الله دخل على الخلافة التسخيرية، وهنا يونس عليه السلام بالتسبيح انكشفت غمته وخرج من بطن الحوت.

والأمة الآن في بطن الحوت، حوت كبير لكن هل من مسبح لله يرتقي تسبيحه هناك عند العرش لتنكشف الغمة عنا!؟ سبحانك اللهم وبحمدك تسبيحًا وتنزيهًا، وتعظيمًا وتقديسًا وتمجيدًا، وحمدًا وشكرًا وثناءً، وإجلالًا وإعظامًا؛ يكافئ تسبيح المسبحين وحمد الشاكرين، وشكر العابدين وثناء العارفين لك يا رب العالمين إلى يوم الدين، سبحان الذي تعطف العز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له.

البعض يسأل: كيف يلين الرزق لنا وقد تعسر علينا، والنصر وقد حالت دونه جبال!؟ أقول يلين الرزق وتكرم الأمة بالنصر بما ألان الله به الحديد لداود عليه السلام "وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ".

*****

مع طالوت عليه السلام: قراءة بين الماضي والحاضر

قصة طالوت عليه السلام هي القصة التي مهدت لأول خلافة تسخيرية في الأرض على يد النبي دواد عليه السلام، وهي تمثل المرحلة التي انتقلت بها بنو إسرائيل من مرحلة القضاة الذين كانوا يحكمونهم إلى مرحلة الملكية؛ حيث إن طالوت يعتبر أول ملك في تلك المملكة التي بلغت أوجها في عهدي داود وسليمان عليه السلام.

كذلك هذه القصة جاءت في القرآن مفعمة بالدلالات والإشارات المهمة، والسنن المتنوعة التي تتعلق بالتمييز والغربلة وسنن الاختيار وكذلك سنن التمكين، فهي قصة مع صغرها تحمل أسرار النصر في طياتها، وترسم لنا مسار الطريق خاصة لأمة تاهت بوصلتها والتبس فيها الحق بالباطل، والمصالح والأهواء بالمبادئ، وهي من هذا الوجه تعتبر قصة محورية تستلزم منا الوقوف مع ما ييسره الله من دلالاتها المتنوعة.

يقول الله ﷻ: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" [البقرة٢٤٦].

سياق القصة:

هذه القصة سيقت في آخر سورة البقرة تقريبًا أو في آخر الجزء الثاني منها، بعدما توسعت السورة في بيان حال بني إسرائيل على مدار التاريخ حتى العهد النبوي، وقد جاءت القصة في المرحلة الزمنية ما بين غزوة بدر والخندق تقريبًا، فهي جاءت مرشدة ومعينة للأمة الجديدة الصاعدة؛ لكي تستلهم منها سنن النصر ومواقعه وظروفه وموانعه، لكنها في سياقها العام جاءت لترشد الأمة في مرحلة ضياعها في آخر الزمان، حيث ستشبه حال بني إسرائيل في مرحلة ما قبل طالوت وبعده.

فالقصة في ثناياها تحمل متواليات من المعاني التي تشبه المثل أكثر من كونها قصة محكية، بل هي مثل جاري متكرر عبر التاريخ، قد تتوافق بعض أجزائه

في حقبات متنوعة من التاريخ، لكنها تكتمل في آخر الزمان بجميع عناصرها، مع اختلاف الشخوص والزمان والمكان.

أما عن الجو العام الذي يحكم بداية القصة والسابق لها، فالمعلوم أن خليفة موسى عليه السلام وهو النبي يشوع عليه السلام، قد استطاع أن يقود بني إسرائيل في معركة النصر الأولى نحو الأرض المقدسة وتم الاستيلاء عليها، وتوزيعها على الأسباط، لكن كانت القيادة بعده بيد قضاة لبني إسرائيل، هؤلاء القضاة خاضوا معارك وجود مع السكان الأصليين والأمم المجاورة، وكانت تتراوح بين النصر والهزيمة، وامتد بهم الأمر على ذلك.

وكان عامل الزمن له أثره على تلك الأمة سواء من ناحية المعتقد والوعي، أو من الناحية الخلقية والاجتماعية، وتدريجيًا أصبحت الأمة مزيج من المعتقد السليم والمعتقدات الوافدة، وتسللت لهم عبر التاريخ كثير من الأخلاقيات الهابطة، وتحول الدين إلى المنحى الكهنوتي أكثر من المنحى العملي البسيط، لكنها بقيت الأمة الحية النابضة في ذلك التاريخ، حيث كانت تحمل بذرة الاصطفاء الإلهي بالرغم من تراكمات كثيرة أصابت الكثيرين منها.

لكن مرحلة الأزمة هي التي تعبر عنها الآيات السابقة، حيث إن ضعف الوازع الديني وتسلل الأفكار الدخيلة كان له أثره على قوة هذه الأمة، التي بدأت تتآكل تدريجيًا ويدب فيها الوهن الذي جعلها نهبة لسطوة الأمم المجاورة لها، وبلغ الأمر مداه حين فقدوا التابوت الذي كان يعتبر رمزًا لهم وعنوانًا لنصرتهم...

إذًا الجو العام للقصة يحكي استنزافًا طويلًا لهذه الأمة، ترتب عليه ضياع أجزاء من الأرض التي تحت أيديهم، وتحولهم لحالة من الخوف الشديد من القادم، مع حالة بعثرة لجهودهم ولمحاولة لملمتها. إضافة لما ترتب على تلك الجولات من

مخاسر شديدة على مستوى الأبناء، الذين تحول جزء منهم لعبيد عند الأمم الأخرى، إضافة لفقدانهم كثيرًا من أهليهم في تلك الغارات التي كانت تصيبهم أحيانًا في تخوم أرضهم أو حتى في عمقها.

ويظهر أن حالة الاستنزاف قد طال مداها حتى أوصلت تلك الأمة إلى حالة من التخبط من جهة، وإلى حالة من ضرورة استنقاذ الحال من جهة أخرى، فالتجربة المريرة أحيانًا تستدعي تحرك العقلاء في اللحظات الأخيرة لمحاولة الاستنقاذ، خاصة ان هذه الأمة تنسب لدين الله.

هنا بدأ شعور النخبة بضرورة الاجتماع على ظاهرة جديدة لكنها ملحة، وهي ظاهرة اختيار ملك لهم ينصاعون لأمره، ويجتمعون تحت رايته لإعادة الأمجاد التليدة. لكن حتى النخبة مع عامل الزمن كانت المعايير لديها أرضية، بعيدة عن الفهم الحقيقي لدين الله...؛ لذا كانت تجربة الاستنزاف المريرة هي التي أوصلتهم لتلك المعادلة الملكية الجديدة، والبواعث هي إعادة الأمجاد، لكنها تتلفع في ثوب إعادة الاستخلاف والتمكين الإلهي.

إذًا نحن أمام أمة أنهكتها الهزائم، هذه الأمة تحمل ميراث النبوة في ذلك الزمان، لكنها في نفس الوقت ما زالت تخلط بين المبادئ والمصالح، فالمسألة ليست بتنصيب ملك يعيد الأمجاد، بل المسألة هي بالعودة الصادقة للدين والاستعداد لحمل أعبائه كاملة...، وهذا الأمر كان يحتاج إلى غربلة وتمحيص لتلك الأمة.

فهذه الأمة تحمل في داخلها معول البناء ومعول الهدم في ذات اللحظة، وما أصابها هو بلاء يحمل في بعض معانيه الابتلاء للبعض...، وهي معادلة صعبة تحتاج حالة استثنائية في العلاج.

وكان العلاج بإنهاك قوتهم، واستنزافهم في كل الجبهات والأحوال؛ لكي تتحرك فيهم الدواعي الصادقة من جديد نحو التمسك الكامل بدين الله، وبالفعل الاستنزاف القوي حرك أشراف القوم وعنوان السيادة ليفتحوا ملف الأمة من جديد مع نبي لهم، وهذه بداية جيدة، يقول الله ﷻ: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ".

إذًا المهتمون بأمر الأمة قد تحركوا لإيجاد مخرج لأزمتهم، وهم هنا الملأ، والملأ هم أشراف الناس، وسموا ملأ لأنهم يملئون العين رواءً، والقلوب هيبةً. أو بعبارة أخرى هم كبار القوم، ونجد في طلبهم هنا أنهم يبحثون عن الحلول الممكنة الصادقة لإنقاذ الأمة من الهلاك أو الاندثار.

وعودتهم لنبي لهم إشارة إلى أنهم يبحثون عن تمكين ديني لهم كسابق عهدهم، وقد رأوا أن الأمم حولهم لها ملوك تجتمع الأمم حولهم وتأتمر بأمرهم، فلماذا لا يكون لهم ملك كمرجعية عليا لهم يقودهم نحو إعادة امجاد الأمة!؟ فقتال تلك الأمم بطريقة عشوائية دفاعية بعيدة عن مرجعية واحدة عمق من مأساتهم، وضيع هيبتهم، وكانت الجهود القتالية تتضارب أكثر من كونها تتجه في الاتجاه الصحيح.

وهذه حقيقة: فمسألة الجهاد بالذات لا يمكن أن تؤتي ثمرتها المرجوة إلا إذا كانت تحت قيادة أو إمام يأتمر الناس بأمره، يحدد متى نقاتل ومتى نسالم!؟ وكيف نحافظ على قيم الرسالة في قتالنا!؟ ويقوم بتجميع الجهود بدلًا من تبعثرها هنا أو هناك، أو تضاربها بسبب اختلاف وجهات النظر والاجتهادات...؛ لذلك ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله.

هنا حدد الملأ الهدف أنه في سبيل الله، الهدف سامٍ لكنه بحاجة للاختبار والاستيثاق منه، ومدى الاستعداد لحمل تبعته الثقيلة؛ لذا قال النبي لهم: "قَالَ هَلْ

عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا!؟"، وهذا السؤال في محله؛ فسبق أن طالبهم موسى عليه السلام بالقتال فنكصوا عنه، لكن يظهر أن الاستنزاف قد بلغ مداه عندهم، بحيث لا سبيل لهم إلا الاخلاص والعودة الصادقة، والاستعداد الكامل لحمل كل تبعات القتال في سبيل الله.

لذا سارعوا بالإجابة على النبي بقولهم: "قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا" [البقرة:٢٤٦]. في البداية قالوا نقاتل في سبيل الله، وهنا بينوا الأسباب الأخرى وهي حماية الديار والأبناء، وهي أهداف أصيلة معتبرة، لكنها أحيانًا تغلب الهدف الأصيل.

وهنا أود أن أفرق بين أمرين بينهما فارق دقيق جدًا: فهناك فرق واضح بين من يبحث عن عزته من خلال الدين، وبين من يبحث عن عزة الدين من خلاله. فهم يبحثون عن عزتهم من خلال الدين، أي أنهم يتمحورون حول موضوع العزة السلبية أكثر من تمحورهم حول الدين نفسه، وهذا جيد نسبيًا لكنه ليس بعيدًا عن هوى النفس وتسلل الشيطان.

لكن الأعظم منه هو من يبحث عن عزة الدين من خلاله، فهنا الهدف أصبح أكثر دقة ووضوحًا، وتصبح النفوس معه أكثر استعدادًا للعطاء اللامحدود، سواء ترتب على ذلك عزة دنيوية أم لا، المهم أن تكون العزة لدين الله في الأرض. وحتى يكون هذا المعنى واضحًا عند هذه الأمة الضبابية في مفاهيمها وسلوكها؛ اقتضى الأمر الاختبار، وعند الاختبار تبين أن هناك فارقًا كبيرًا بين الدعاوى والفعل.

ومع التمحيصات المتعددة انكشفت القلوب المتسترة خلف الأقنعة، أو تلك القلوب التي اختلط عليها أمر الدنيا مع أهداف الآخرة؛ لذا "فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ" [البقرة:٢٤٦]، فـ"الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا

بمظهرها. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة".

ثانيًا: الفلترة والتمحيص للأمة قبل خوض المعركة.

لاحظنا في بداية القصة أنهم حددوا هدفهم (في سبيل الله)، وأرادها الله لهم في هذا المقام أن تكون في سبيل الله، أي أرادها أن تكون معركة بين الحق والباطل، وهذا من رحمة الله بهم في ذلك المقام، فالمعركة ستكون يومًا من أيام الله؛ لذا لا بد أن يستخلص الحق من بين براثن الباطل الموهن في قلوب تلك الأمة، وهذا لا يكون إلا بالتمحيص والاستخلاص.

وهنا أود أن أنوه إلى قضية مهمة جدًا، وهو أن القوة لله جميعًا، ومن سننه إذا كان هناك مواجهة بين الحق والباطل، أن تلك المواجهة لا تدوم طويلًا، بل تحصل المفاصلة بسرعة بينهما بانتصار الحق واندثار الباطل وهزيمته، فهذه سنة من سنن الحق والباطل، يقول الله ﷻ: "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ" [الأنبياء١٨]، فمعنى ندمغه هنا أي نضربه ضربة قاتلة على الدماغ، فيزهق بسببها.. وهذه سنة ماضية إلى يوم القيامة.

بل مجرد مجيئ الحق فذلك إيذان بزهوق الباطل، يقول الله ﷻ: "وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" [الإسراء٨١]، وهنا الآيات أبرزت أن صفة الزهوق للباطل هي صفة ثابتة له على مدار التاريخ، لكن هذا الزهوق لا يتضح إلا إذا جاء الحق. ومن هنا كانت القضية المحورية هو في استخلاص الحق وتمحيضه وتصفيته، فإذا كان ذلك عندها لا تسأل عن الباطل مهما امتلك من قوة وهمية زائفة؛ لأن صاحب القوة الحقيقي هو الله ﷻ.

هذه المعادلة تغيب عن الكثيرين، وقد جاءت قصة طالوت لتقررها بقوة، ولتحمي تلك الأمة من تجارب الاستنزاف الطويلة...، ومن هذا الوجه أقول: إذا وجدت أن معركة ظاهرها بين الحق والباطل قد طال أمدها؛ فاعلم أن المواجهة في حقيقتها هي بين باطل لديه شبهة حق لا تعجل سقوطه، وبين حق في ثناياه باطل يحول دون تمكنه وانتصاره، فالمعارك التي يطول أمدها لا يمكن أن يكون فيها الحق واضحًا من كل الوجوه، ولا الباطل مستمكنًا في الجهة الأخرى من كل الوجوه؛ لذا تطول تلك المعارك دون حسم واضح فيها بما تحمله من استنزاف طويل المدى.

ومن رحمة الله بأمة طالوت أن الله قد يسر لهم الأمر الذي به يستخلص الحق، الذي يمتلك المفاصلة التاريخية ويهزم الباطل من الجولة الأولى ويزهقه. لذا مع أمة اختلطت فيها الآمال والآلام وتوزعت فيها الهمم، وتضاربت الأفكار والتبست معالم الحق بالباطل، وتلفع فيها الباطل بثوب الحق...، أمة هذه حالها؛ تحتاج لغربلة وفلترة وممحصات، تتنقل من خلالها نحو الاستخلاص، حتى لو كان الأمر على حساب العدد أو اللحمة.

وهذه سنة ربانية فيمن أراد الله بهم الخير والخلاص والاستخلاص، يقول الله ﷻ: "مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ" [آل عمران١٧٩].

هذه الآية جاءت في السياق العام لغزوة أحد التي كانت من أعظم الممحصات للأمة، والتي قدر الله فيها للمسلمين انكشاف قلوب كل من حولهم؛ لكي يبقى الصف المسلم واضح المعالم وعنوانًا للحق المنصور، فكانت غزوة أحد التي تحمل شكل الهزيمة الظاهرية أعظم انتصار للأمة الإسلامية الصاعدة، بما حملته من غربلة في الصف وتمحيص للحق داخله.

وهي نفس المرحلة التي تنزلت فيها أيضًا قصة طالوت، لتحكي ذات السنة لكن بشكل آخر كان يسبق المعركة الفاصلة. لقد طلب الملأ من نبيهم ملكًا؛ إذًا هم يريدون هذا الملك من خلال الوحي، فاختياره ليس متروكًا لمعاييرهم ولا لمقاييسهم التي تهتم بالظاهر دون الباطن، بل ترك الأمر للحكيم الخبير.

هنا جاء الاختيار بعكس ما يتوقعون، بل كان صادمًا لهم ليعطينا درسًا حيويًا في سنن الاختيار، فسنن الاختيار البشرية دائمًا تبحث عن رجل مؤثر في المجتمع، ويمتلك من حطام الدنيا في تأثيره، وتحتكم للظاهر في كل مقاييسها في الاختيار، أما الله فيختار بحسب القلوب، وبحسب العلم الذي أحاط بكل شيء، وبحسب الحكمة، بعيدًا عن مقاييس السلم الاجتماعي الذي يحتكم إليه البشر في فهمهم لما حولهم...

يقول الله ﷻ: "وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" [القصص٦٨]، وعلى مدار التاريخ كان هناك اعتراض من الأمم على من اختاره الله لهم، كما قصة نوح وصالح وهود وحتى محمد عليه السلام.

"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ"، الاختيار كان لطالوت، وطالوت من أصغر عشائر سبط بنيامين، وسبط بنيامين هو من أصغر أسباط بني إسرائيل، وطالوت اسمه شاول، أما اسم طالوت فسأوضح مدلوله في فقرة خاصة به بإذن الله.

إذن هناك تجاوز لكل ما يمكن تصوره في نظر بني إسرائيل أن يكون ملكًا عليهم، فطالوت ليس من سبط يهودا الملكي الذي يعتبر من أكبر الأسباط، ولا من سبط لاوي الكهنوتي وهو السبط الذي يمثل علماء بني إسرائيل، بل كان حتى من أقل عشائر السبط الأصغر قيمة حتى في نظر السبط الذي ينتمي إليه، إنه رجل من

عامة الشعب، بل كما يبرز سفر صموئيل أن طالوت نفسه استغرب من الأمر الذي لم يكن في باله.

معنى الكلام لو أردنا أن نقوم بعملية انتخابية (كشأن الديمقراطية) وكان طالوت أحد المرشحين، فنتيجته قد تكون صفرًا أو في أحسن الأحوال لن يحوز إلا أصوات عائلته الصغيرة فقط. لكنه اختيار الله ﷻ.

بل حتى قصة الاختيار كما ينقلها سفر صموئيل كانت عجيبة جدًا، أرى أن أطرحها هنا، جاء في سفر صموئيل: "١وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنْيَامِينَ اسْمُهُ قَيْسُ بْنُ أَبِيئِيلَ بْنِ صَرُورَ بْنِ بَكُورَةَ بْنِ أَفِيحَ، ابْنُ رَجُل بَنْيَامِينِيٍّ جَبَّارَ بَأْسٍ. ٢وَكَانَ لَهُ ابْنٌ اسْمُهُ شَاوُلُ، شَابٌّ وَحَسَنٌ، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحْسَنَ مِنْهُ. مِنْ كَتِفِهِ فَمَا فَوْقُ كَانَ أَطْوَلَ مِنْ كُلِّ الشَّعْبِ. ٣فَضَلَّتْ أُتُنُ قَيْسُ أَبِي شَاوُلَ. فَقَالَ قَيْسُ لِشَاوُلَ ابْنِهِ: «خُذْ مَعَكَ وَاحِدًا مِنَ الْغِلْمَانِ وَقُمِ اذْهَبْ فَتِّشْ عَلَى الأُتُنِ». ٤فَعَبَرَ فِي جَبَلِ أَفْرَايِمَ، ثُمَّ عَبَرَ فِي أَرْضِ شَلِيشَةَ فَلَمْ يَجِدْهَا. ثُمَّ عَبَرَا فِي أَرْضِ شَعَلِيمَ فَلَمْ تُوجَدْ. ثُمَّ عَبَرَا فِي أَرْضِ بَنْيَامِينَ فَلَمْ يَجِدَاهَا. ٥وَلَمَّا دَخَلاَ أَرْضَ صُوفٍ قَالَ شَاوُلُ لِغُلاَمِهِ الَّذِي مَعَهُ: «تَعَالَ نَرْجعْ لِئَلاَّ يَتْرُكَ أَبِي الأُتُنَ وَيَهْتَمَّ بِنَا». ٦فَقَالَ لَهُ: «هُوَذَا رَجُلُ اللهِ فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ، وَالرَّجُلُ مُكَرَّمٌ، كُلُّ مَا يَقُولُهُ يَصِيرُ. لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى هُنَاكَ لَعَلَّهُ يُخْبِرُنَا عَنْ طَرِيقِنَا الَّتِي نَسْلُكُ فِيهَا». ٧فَقَالَ شَاوُلُ لِلْغُلاَمِ: «هُوَذَا نَذْهَبُ، فَمَاذَا نُقَدِّمُ لِلرَّجُلِ؟ لأَنَّ الْخُبْزَ قَدْ نَفَدَ مِنْ أَوْعِيَتِنَا وَلَيْسَ مِنْ هَدِيَّةٍ نُقَدِّمُهَا لِرَجُلِ اللهِ. مَاذَا مَعَنَا؟» ٨فَعَادَ الْغُلاَمُ وَأَجَابَ شَاوُلَ وَقَالَ: «هُوَذَا يُوجَدُ بِيَدِي رُبْعُ شَاقِلِ فِضَّةٍ فَأُعْطِيهِ لِرَجُلِ اللهِ فَيُخْبِرُنَا عَنْ طَرِيقِنَا». ٩سَابِقًا فِي إِسْرَائِيلَ هكَذَا كَانَ يَقُولُ الرَّجُلُ عِنْدَ ذَهَابِهِ لِيَسْأَلَ اللهَ: «هَلُمَّ نَذْهَبْ إِلَى الرَّائِي». لأَنَّ النَّبِيَّ الْيَوْمَ كَانَ يُدْعَى سَابِقًا الرَّائِيَ. ١٠فَقَالَ شَاوُلُ لِغُلاَمِهِ: «كَلاَمُكَ حَسَنٌ. هَلُمَّ نَذْهَبْ». فَذَهَبَا إِلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي فِيهَا رَجُلُ اللهِ..... ١٥وَالرَّبُّ كَشَفَ أُذُنَ صَمُوئِيلَ قَبْلَ مَجِيءِ شَاوُلَ بِيَوْمٍ قَائِلًا: ١٦«غَدًا فِي مِثْلِ الآنَ أُرْسِلُ إِلَيْكَ

رَجُلًا مِنْ أَرْضِ بَنْيَامِينَ، فَامْسَحْهُ رَئِيسًا لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ، فَيُخَلِّصَ شَعْبِي مِنْ يَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، لأَنِّي نَظَرْتُ إِلَى شَعْبِي لأَنَّ صُرَاخَهُمْ قَدْ جَاءَ إِلَيَّ». ١٧فَلَمَّا رَأَى صَمُوئِيلُ شَاوُلَ أَجَابَهُ الرَّبُّ: «هُوَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَلَّمْتُكَ عَنْهُ. هذَا يَضْبِطُ شَعْبِي»... ١٩فَأَجَابَ صَمُوئِيلُ شَاوُلَ وَقَالَ: «أَنَا الرَّائِي. اِصْعَدَا أَمَامِي إِلَى الْمُرْتَفَعَةِ فَتَأْكُلاَ مَعِيَ الْيَوْمَ، ثُمَّ أُطْلِقَكَ صَبَاحًا وَأُخْبِرَكَ بِكُلِّ مَا فِي قَلْبِكَ. ٢٠وَأَمَّا الأُتُنُ الضَّالَّةُ لَكَ مُنْذُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فَلاَ تَضَعْ قَلْبَكَ عَلَيْهَا لأَنَّهَا قَدْ وُجِدَتْ. وَلِمَنْ كُلُّ شَهِيِّ إِسْرَائِيلَ؟ أَلَيْسَ لَكَ وَلِكُلِّ بَيْتِ أَبِيكَ؟» ٢١فَأَجَابَ شَاوُلُ وَقَالَ: «أَمَا أَنَا بَنْيَامِينِيٌّ مِنْ أَصْغَرِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ، وَعَشِيرَتِي أَصْغَرُ كُلِّ عَشَائِرِ أَسْبَاطِ بَنْيَامِينَ؟ فَلِمَاذَا تُكَلِّمُنِي بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَمِ؟» ([٤٩]).

هذه القصة إن صدقت تكون من العجائب، فطالوت نفسه الذي كان يجوب الأرض ويبحث عن أتنه (حميره)؛ وجد نفسه فجأة ملك على بني إسرائيل، وكان الأمر محط تعجب منه، بل كان صادمًا له لأنه بعكس كل التصورات.

إنه اختيار الله ﷻ، والوضع الطبيعي بحسب تصوراتنا أن يتم اختيار رجل تأتلف عليه القلوب، ويكون موطن قبول واجماع فيما بين الأسباط، رجلًا مشهورًا من بينهم لا شابًا مغمورًا من بينهم، يتجاوز كل السلم الاجتماعي للأسباط؛ فهم عندما أرادوا ملكًا إنما أرادوا من يلم شعثهم وتفرقهم، ورجل تأتلف عليه القلوب أولى من رجل مغمور لم يكن في الحسبان.

هذه هي موازيننا وحساباتنا، لكن هذا الاختيار كان لتجاوز كل المقاييس الجاهلية، التي كانت تنازع القوم في سلوكهم وقلوبهم، فالتنازع على السيادة دائمًا يدمر الحركات الصادقة في المجتمع، ويتصور من الملأ أنهم بعد طلبهم من نبيهم ملكًا، قد بدأ كل واحد منهم يعد نفسه للمنصب، واختيار واحد منهم قد يكون مدعاة

[٤٩] سفر صموئيل، الإصحاح التاسع.

لنار الحسد والكيد أكثر من أن يكون سببًا للتآلف، والموضوع ليس منصبًا وتكريمًا، بقدر ما هو تكليف؛ لذا تم تجاوزهم جميعًا نحو رجل كان محل اختيار الله بعكس تصوراتهم.

وقد استبانت كل مقاييسهم الجاهلية المدمرة، حيث اعتبروا أنه (لا بد من شرف النسب وكثرة المال)، "وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ" [البقرة:٢٤٧]، وهو ما يؤدي إلى إلغاء فكرة المساواة، ويجعل المناصب أداة فساد وإفساد بسبب تولية غير الأكفاء.

لكنهم طلبوها مسبقًا (في سبيل الله)؛ لذا شبهاتهم نفسها كانت سببًا في إيضاح الحق وتجلية السنن، فهؤلاء لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك؛ أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبهة والريب. هنا جاء الحق ليدفع ريب الباطل في القلوب ببيان أسباب هذا الاصطفاء: "قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [البقرة٢٤٧].

وأول هذه الأسباب هو الاصطفاء الرباني، وهذا أمر لا نعلم حقيقته إلا من عند الله، ومعنى أن الله اصطفاه أي أن الله قدّر فيه مؤهلات القيادة الربانية للأمة، ومن بعض مظاهر هذا الاصطفاء أن الله زاده بسطة في العلم، والمعلوم أن تمكين السلطان الشرعي يحتاج إلى العلم الشرعي كما في قصة يوسف عليه السلام، ومعنى زاده بسطة في العلم، أي أنه نال من العلم النافع ما يزيد على كل من حوله.

وزاده بسطة في الجسم، وتلك إشارة إلى قوة جسده وبنيانه، وقدراته الجسدية الخاصة الظاهرة عليه، وقد جاء في سفر صموئيل أنه كان يطول من حوله من الرقبة فما فوق، مما يشير إلى تميزه بالطول عمن حوله، والبسطة في الجسم للقائد مطلوبة خاصة في المعارك القديمة، والتي يكون لمعالم الشخصية وضخامتها الأثر

الكبير سواء على أتباعه أو عدوه، وإذا كان جالوت من العمالقة كما تشير النصوص، فيلزم أن يكون المقابل له ضخم الجثة.

فهم وفق منهجهم الاختياري نظروا إلى أن الملك يحتاج أن يكون صاحبه ذا نسب عريق وذا مال، وهنا الاصطفاء الإلهي بين أن الملك يحتاج للعلم والقدرة؛ لأن النسب والمال شيء خارج عن ذات الإنسان، أما العلم والقدرة فهما من كمالات ذات الإنسان، والرجل العالم بأمور الحرب وغيرها، والشديد في مواطن البأس؛ أقدر على حفظ البلد من صاحب النسب أو المال.

إذًا مقاييس القوم في الاختيار لا ترشد إلى الاختيار الصحيح، هنا كان الاصطفاء الرباني بعيدًا عن تلك المقاييس، نحو المقاييس الجوهرية التي هي محل اعتبار، وفي النهاية الخَلْق خلقُ الله والملك بيد الله، والله يؤتي ملكه من يشاء، ولو كان طالوت فقيرًا مغمورًا فالله واسع عليم، إن كان يحتاج للمال لتدبير المملكة وسع الله عليه، والله عليم وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ومن هو أجدر بالاصطفاء.

ثالثًا: آية الملك.

لكن هذا الاختيار المخالف لطريقة تفكير القوم؛ اقتضى من النبي أن يأتي بإشارات ربانية تؤكد على أحقيته، هنا كان البرهان والدليل من الله، بأن يكون تنصيب طالوت مرتبط بعودة التابوت. في هذا نجد أن سنة الرحمة الربانية تدخلت في هذا المقام لدفع الريب والشبهات من القلوب، ولكي تقام الحجة كاملة على الناكصين الظالمين منهم؛ لذا كانت آية التابوت، وهذه سنة ماضية حيث أن تمليك إنسان مغمور يحتاج لأدلة تثبت اصطفائه.

يقول الله ﷻ: "وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" [البقرة٢٤٨]، جاء في العهد القديم أن التابوت الذي أخذته الأمم المجاورة لهم كان سبب بلاء لهم، حتى فكروا في التخلص منه فوضعوه على عربة يجرها عجلان، وهذه العربة انطلقت نحو تخوم بني إسرائيل حتى دخلت في أراضيهم وبذلك عاد التابوت إليهم. وهم في هذه القصة لا يطرحون أي تعلق للعالم السماوي بفكرة عودة التابوت، لكن القرآن الكريم أشار بوضوح إلى أن الملائكة كانت تحمل التابوت.

والحقيقة أن كل نصوص العهد القديم والتي كانت تدوينًا من الذاكرة، كانت دائمًا لا تبرز حركة الغيب المتعلقة بالأحداث والتي تكون خلفها، وقد تكون قصة عودة التابوت لديهم لها درجة من الصحة لكنها مبتسرة غير كاملة، لذا جاء القرآن الكريم ليبرز تعلق الحدث بالملائكة، مما يشير بوضوح إلى أن عودة التابوت لم تكن حدثًا عاديًا أو متوقعًا، بل هو حدث رباني تدخلت الملائكة في الجزء الحيوي منه. وهذا يذكرني بغزوة بدر، فلو قرأنا الحدث بحسب المشاهد عندها سنفصل أحداثه بعيدًا عن حركة الغيب الملائكي، التي كانت مؤثرة به بشكل جوهري، هنا جاء القرآن الكريم وأبرز حجم التدخل الملائكي وطبيعته في الغزوة.

وهذا التابوت حتى لو كان موضوعًا على عربة يجرها عجلان، إلا أنه في حقيقته كانت هنا ملائكة تحمله وتحفظه، وتوجه حركة العجلين إلى أن استقر بين أيدي بني إسرائيل، ويظهر من سياق الآية أن النبي قد بشرهم بعودة التابوت قبل أن يقع الحدث ذاته، وبذلك اكتملت الآية عندهم.

لكن ما هو هذا التابوت؟ الحقيقة أن قصة التابوت عند بني إسرائيل قد تكون شبيهة بقصة الحجر الأسود وأهميته عند المسلمين، حتى ما يطرحه العهد القديم عن

قصة أخذ التابوت وعودته، شبيهة جدًا بنفس قصة الحجر الأسود عندما أخذه القرامطة، ثم ردوه في آخر أمرهم إلى مكة.

والتابوت كما يصفه العهد القديم عبارة عن صندوق خشبي كان مصنوعًا من خشب السنط، ومطلي بالذهب من طرفيه الخارجي والداخلي. ويوصف حجمه بأن طوله ذراعين ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف. وكان التابوت محمولًا على مساند من خشب السنط المذهبة، المعشقة في حلقات ذهبية مصبوبة بجانب التابوت. ومكان التابوت كان المكان الأكثر قداسة في الهيكل، ألا وهو قدس الأقداس، وكان في بداية أمره في عهد موسى عليه السلام يسير معهم في ترحالهم، ويوضع في خيمة خاصة به تسمى خيمة الاشتراع.

ويظهر أن بداية فكرة التابوت متعلق بنزول الألواح، حيث وضع به رضاض التوراة، ثم الأسفار وكتب التوراة، ثم بعد ذلك وضع فيه جزء من المن والسلوى وهي المعجزات الخاصة ببني إسرائيل في تيههم، أيضًا بعد وفاة موسى وهارون وضع فيه عصا موسى عليه السلام، وبعد مقتنيات هارون الدينية، وقد يكون غير ذلك من الأمور.

وهذا قد عبر عنه القرآن الكريم بقوله: "وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ"، وكلمة الآل هنا تشعر بأنها متعلقة بموسى وهارون وبعائلتيهما النووية الصغيرة، مما يشير إلى أمور دينية متعددة كانت في التابوت، أكثر مما كان لدى موسى وهارون عليهما السلام، وذلك لتعلق الأمر بالآل والأهل أيضًا، وهي كلها متعلقات دينية هي أهم ما تبقى لدى بني إسرائيل في حقبتهم التاريخية تلك.

ولئن كان الحجر الأسود في المعتقد الإسلامي أنه كان حجرًا خاصًا من الجنة، ومنها أخذ خصوصيته وقدسيته؛ فالتابوت أيضًا فيه رضاض الألواح بما فيها من خصوصية، وفيه عصا موسى التي كان فيها أمر الله سبحانه وتعالى.

لذا كان التابوت هو أهم شيء مقدس لدى بني إسرائيل، وبيت المقدس عندهم يأخذ قدسيته من وجود التابوت في داخله، بما يعرف بقدس الأقداس في الغرفة الداخلية من بيت المقدس. وكان بنو إسرائيل يأخذون التابوت في حروبهم؛ حيث تسكن نفوسهم معه، وقد تعلق النصر عندهم وبحسب معتقدهم بوجود التابوت في وسطهم.

وفي الدمار الأول لبيت المقدس أو أورشليم في عهد نيوبيند أو نبوخذ نصر كما يصرحون اختفى التابوت من حينها، ولم يعد له أثر بعدها، وهناك نظريات كثيرة عند اليهود في اختفائه: منها أن أرميا النبي قد أخفاه في جبل نبو قبل الغزو، ومنها أن الملائكة قد أخفته في تخوم الأرض قبل الهجوم على بيت المقدس، ومنها أنه تم إخفائه في غرفة سرية تحت بيت المقدس، ومنها أنه تم نقله لليمن ثم لأثيوبيا.

وهذه كلها نظريات أو تصورات لتفسير اختفاء أهم شيء مقدس لدى بني إسرائيل، ولم يتضح بعد ماذا كان مصير هذا التابوت. لكن الغريب في التصورات الإسلامية أن هذا التابوت سيتم إيجاده في آخر الزمان على يد الإمام المهدي، وهذا مطروح في روايات ضعيفة ومتضاربة في بيان مكانه، لكن هذا الأمر وبعد دراسة طويلة عندي غير مستبعد.

أما لماذا حمل اسم التابوت؟ طبعًا الواو والتاء هي لاحقة لغوية قديمة، تمثل نفس الحقبة التي كان فيها دواد وسليمان ﴿عليهما السلام﴾، وهذه اللاحقة تحول الاسم إلى صفة مشبهة، فهو من التوبة والتوبة معناها اللغوي العودة والرجوع، تاب إلى الله أي رجع إليه بتركه للذنوب.

فالصندوق هنا سمي التابوت لأنه يمثل المرجعية التي يرجع إليها بنو إسرائيل في أمور دينهم؛ حيث حوى النصوص الأصلية الأولى التي نزلت من السماء،

إضافة لما يتضمنه من أمور مذكرة بالأحداث الرئيسية التي مرت بها الأمة مع أعظم أنبيائها موسى (عليه السلام).

فالتابوت هو الصندوق المرجعية، حتى التابوت الذي يوضع فيه الإنسان بعد موته إنما يشير أيضًا لنفس المعنى اللغوي الذي فيه الرجوع إلى الله (سبحانه وتعالى)، فالإنسان بموته يكون قد رجع إلى الله، الذي يبعثه من جديد: "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى" [العلق٨]، فالتابوت هو الرجعى أو المرجعية التي ترجع إليها بنو إسرائيل في شئون دينهم.

لكن ما يعنيني هنا من الدرجة الأولى عند حديثي عن آية التابوت هو الإشارة إلى سنة ربانية عظيمة، وهي أن الله إذا أراد تمليك إنسان مغمور على غير المعهود؛ فإنما يسوق له من الآيات الدالة على صدق هذا التمليك، فبالرغم من وجود نبي يوحى إليه من السماء، وهو الذي بين لهم أن مراد الله كان في تمليك طالوت، إلا أن ذلك لم يكف في تمليكه، بل ساق الله لهم آية التابوت كبرهان ودليل على أحقية طالوت للملك.

وهذه الإشكالية في طالوت نجدها بشكل أقوى في الإمام المهدي في آخر الزمان؛ حيث يكون الإمام مغمورًا كحال طالوت، وليس من السهل انصياع الناس لرجل مغمور يخرج لهم من مكنون الغيب فجأة؛ لذا يحتاج إلى أدلة وبراهين قوية تكفل طمأنينة الناس له ولأحقيته في الخلافة والملك، خاصة إذا كان خروجه في مرحلة اضطرابات وفتن وهرج وكذب كثير وأدعياء كثر، فهذه المرحلة تحتاج براهين قوية جدًا تؤكد أحقية المهدي للملك.

ولئن كان في بني إسرائيل نبي يوحى إليه، ففي مرحلة خروج المهدي لا يكون هناك نبي تنساق الناس له ويقوم بتزكية المهدي للملك، وهنا تصبح الآية، أو آية الملك أكثر إلحاحًا منها في حق طالوت (عليه السلام).

طبعًا قد يقول البعض أن آية ملك المهدي تكون بعد بيعته في خسف الجيش الذي يغزو مكة، أقول: نعم هذه آية مهمة، لكنها من الآيات التي تكون بعد البيعة، لكن تغلب شخص ما على الناس في مكة باعتباره المهدي؛ يحتاج إلى دلائل وبراهين قوية جدًا خاصة من اللحمة الأولى التي ستتبعه، وأظن والله أعلم أن لقب المهدي له علاقة قوية بالآية والبرهان الذي به يستحق الإمام تلك البيعة لأجلها.

فلقب المهدي له علاقة بهداية خاصة لم ينلها بشر، وهذه الهداية قد تكون في الفهم ومعارج الحكمة من جهة، وقد تكون لأمور حسية واضحة وبرهان مادي ملموس، يهدى إليه الإمام قبل البيعة ويستحق لأجله أن يلقب بهذا اللقب على وجه الخصوص، فهل تكون هذه الهداية أيضًا للتابوت نفسه بإخراجه من مكمنه الذي مكث فيه قرابة ٢٦٠٠سنة!؟ هذا محتمل، ومحتمل لدي أيضًا أن يكون الأمر أكبر من ذلك بكثير...

والأيام ستكشف لنا الحقيقة إن كنا من زمانها، لكن بحسب فهمي للسنن ومن أدلتها القوية قصة طالوت؛ لا يمكن أن يتم تمليك رجل مغمور على عامة الناس، ويشار إليه أنه الخليفة في الأرض كلها، إلا إذا كان مؤيدًا ببراهين وأدلة ترشد بقوة إلى أحقيته بهذا المنصب، فهذه من سنن رحمة الله بالبشرية، ولتتحقق السكينة لهذا المتملك الجديد عليهم، وكلما كانت المرحلة حالكة والريبة فيها أشد؛ كلما كانت البراهين أشد وضوحًا ودلالة على صاحبها.

ولاحظنا كيف أن عودة التابوت بما يحمله من أسرار الرعيل الأول كان سببًا للبشرى لبني إسرائيل، وسببًا للسكينة لهذا الاختيار الجديد، أيضًا كان سببًا لضعف صوت مروجي الفتن في تلك الأمة، حيث كانت هذه الآية ملجمة للجميع ومطمئنة لقلوب الصادقين، ومبشرة لهم بأنهم على أبواب يوم من أيام الله التي ينتصر فيها الحق على الباطل.

رابعًا: اختبار الصبر واليقين.

كان قدوم التابوت كآية ربانية ملجمًا للجميع خاصة الملأ ومن حولهم، وقد حققت هذه الآية إذعان الجميع للملك الجديد، لكن الله أرادها معركة خالصة بين الحق والباطل، فالإذعان الظاهري لا يشير إلى الإيمان الحقيقي والاستسلام الباطني لأمر الله إضافة للإذعان الظاهري.

لذا لا بد لهذه الألوف المؤلفة، والجموع الكثيرة التي اختلفت أهدافها ومآربها، وإن كانت تجتمع في ظاهرها على فكرة واحدة، لا بد لهذه الألوف من أن تدخل اختبار الإمامة الحق في الأرض، والتي بينها الله ﷻ بقوله ﷻ: "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" [السجدة٢٤]، الآية هنا نزلت في حق بني إسرائيل، وقد بينت أنهم نالوا إمامة الهدى في الأرض عندما توفر فيهم شرطان هما الصبر واليقين.

أما لماذا الصبر واليقين؟ فلأن العدو الأول للإنسان قد انطلق في كل جهوده الإغوائية فقط لزعزعة هاتين الصفتين بالذات، يقول الله ﷻ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ" [فاطر٦]، فالشيطان هو العدو الأول للإنسان، وكل العداوات في الأرض إنما هي مظاهر وأشكال لغوايته بالإنسان، والشيطان تسلح في عداوته للإنسان بسلاحين هما: الشهوات والشبهات، والآية تطالبنا باتخاذه عدوًا.

ومعنى الآية أن نتسلح بالأسلحة الوقائية المقاومة لأسلحته، فنتسلح بالصبر لندفع الشهوات، ونتسلح باليقين لندفع به الشبهات، فإذا كان الانتصار على الأمرين؛ كان هنا استحقاق خلافة وإمامة الهدى في الأرض. من هذا الوجه يمكن فهم كيف استوعب الصبر واليقين كل معاني الإيمان، كما في الأثر عن عبد الله بن مسعود ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ" (٥٠).

وقصة طالوت ﵇ جاءت كتجربة عملية للصبر واليقين، يقول الله ﷻ: "فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" [البقرة٢٤٩].

لما فصل طالوت بالجنود، أي خرج بهم من المدينة نحو الهدف المقصود، وكان الحر شديدًا وأصابهم ظمأ شديد جدًا فطلبوا الماء، فقال لهم طالوت: إن الله مبتليكم أي مختبركم بنهر، والوضع الطبيعي للقائد أن يدع جنوده العطشى أن ينالوا نصيبهم من الماء، خاصة مع ما أصابهم من العطش الشديد، لكن كانت التعليمات والتي ظاهرها الوحي السماوي، أن هذا النهر أو الماء هو من باب الاختبار لكم، ولمدى مصداقيتكم مع الله، فمن شرب منه فليس مني، ومن التزم التعليمات ولم يشرب منه إلا غرفة واحدة فهو مني!

إذًا هذا هو اختبار الصبر، لكن من يصبر وقد أصابه ما أصابه من العطش، وفي الاختبار الأولى تهاوى الجميع إلا قلة معدودة صبرت، والتزمت أمر القائد الرباني الذي سبق أن استوثقوا أنه من عند الله، شرب أكثر الجيش وانفصل عن طالوت ناكصًا إلى بلاده، ولم يتجاوز النهر إلا القلة القليلة، ويقال أن عددهم

٥٠ أورده البيهقي في شعب الإيمان برقم ٩٠٨٢.

كان ثلاثمائة ونيف فقط. تذكر كتب التفسير أن الذين شربوا من الماء بِنَهَم ولم يحترموا أمر طالوت لم يرويهم الله من الماء، أما من استقام على الأمر وأخذ غرفة واحدة من الماء حصل له الرواء بإذن الله ﷻ.

إذًا هذا الاختبار فقط إنما يراد به اكتشاف مدى استعداد الجيش على الصبر على أمر الله ومدافعة شهواتهم، وقد سقط الجميع إلا القليل، هؤلاء القلة هم من وصفهم الله بالإيمان، وهم من انتصر على نصف الإيمان كما بين الحديث السابق، يقول الله ﷻ: "فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ"، إذًا كل الذين جازوا النهر مع طالوت كانوا من المؤمنين الخُلص.

وهنا يأتي اختبار اليقين، حيث وجدوا أنفسهم بعدما كانوا آلافًا مؤلفة، وإذا بهم يقتصرون على ثلاثمائة رجل، وأمامهم جيش عرمرم، يقدمه رجل عظيم البأس نال شهرة قوية ببأسه، حتى أصبحت لقبًا له وهو جالوت، أي رجل الجولات العظام، وكان عملاقًا عظيم الجثة، المسألة هنا بحاجة لأن ينتبه هؤلاء المؤمنون إلى قوة الله، بدلًا من استغراقهم في عظمة ما يشاهدونه من قوة جالوت وجنوده.

لكن في مسألة اليقين والشجاعة تختلف درجات الناس؛ لذا من الوهلة الأولى قالوا: "لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ"، هنا تدخل أهل اليقين لتوجيه البوصلة إلى نصابها، "قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" [البقرة٢٤٩]، يظنون هنا في الآية معناها يوقنون، وهم أهل اليقين بالله وبموعوده، هؤلاء الذين ينتظرون لحظة لقاء الله بشغف، وقد جاءت الفرصة العظيمة أمام أعينهم.

لذا هؤلاء الذي تشبعت قلوبهم بالإيمان بعظمة الله وبقدرته، هؤلاء لم ينظروا لجيش جالوت، بل نظروا لعظمة الله فهانت عليهم تلك القوة الوهمية التي تتراءى

أمامهم بجالوت وجنوده، فقالوا: "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ"، وهنا قرروا الحقيقة المتكررة عبر التاريخ، وهو أن الذي يحكم النصر ليس العدد بل العون من الله فقط، لذا النصر يكون بإذنه فقط، ومعيته تكون مع الصابر على أمره.

هنا في هذه الكلمات انتصر اختبار الصبر واليقين في الفئة المؤمنة المستخلصة عبر الاختبارات المتعددة، إذًا هنا تمحضت المواجهة بين الحق والباطل، ولا محالة إذا تمحض الحق وخلص لله فكفته هي الغالبة قطعًا، كما تبرز السنن الكثيرة المتنوعة في كتاب الله.

بعد انتصار اليقين تأتي قيمة التوجه الصادق لطلب المعونة من الله ﷻ: "وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" [البقرة٢٥٠]، وإفراغ الصبر أي صبه عليهم صبًا، فالمقام مخوف جدًا تبلغ فيه القلوب الحناجر، فليس أي صبر ينفع في هذا المقام، إلا إن كان إفراغًا يستوعب كل خلية في أجسادهم لتثبت في مثل هذا المقام، حيث ثلة قليلة أمام جيش عرمرم.

إنها نفس الدعوة المتكررة، إنها استغاثة بالله تذكرنا باستغاثة الثلاثمائة قبيل غزوة بدر، وكأن القصة بسننيتها تتكرر عبر التاريخ؛ لذا من أراد أن يفهم معطيات هذه المعركة فليقرأ سورة الأنفال، التي توسعت في تفاصيل الأحداث ومعطياته ومؤيدات النصر فيه، والتي يجمعها هنا عبارة بإذن الله، إنها السنن التي تتكرر حيثما حصلت مقدماتها الباعثة لها.

فغزوة طالوت كانت فرقانًا بين ثلة مؤمنة وجيش كافر، وبدر كانت فرقانًا بين ثلة مؤمنة وجيش كافر، مع مفارقة واضحة في العدة والعدد، ومن شارك في بدر كان المستخلصون من الثلة المؤمنة وكذا الذين شاركوا في غزوة طالوت، وفي غزوة

طالوت كانت اختبار الصبر واليقين، وفي بدر كان اختبار الصبر في شهر رمضان شهر الصبر، وكان اختبار اليقين نفسه.

لذا معطيات غزوة بدر وتفاصيلها تحكي ذات المعطيات والمؤيدات التي تميزت بها غزوة الفرقان أو غزوة طالوت ﷺ. إنها السنن نفسها في كلا الغزوتين ونتائجهما بل وتفاصيلهما، مع اختلاف الزمان والمكان والشخوص.

هنا في سياق القصة يأتي لنا ذكر داود ﷺ، وكان غلامًا في مقتبل العمر، وهو الذي جعل الله على يديه قتل كبير جيش العدو جالوت، وكان الحدث صادمًا للجميع، حيث أن غلامًا في مقتبل عمره، وليس صاحب تجربة في القتال؛ يخرج ليواجه بمقلاعه هذا الرجل الضخم، وهنا تأتي آيات سورة الأنفال لتحكي حدثًا مشابهًا بقوله ﷻ: "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَنًا إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [الأنفال١٧].

فالحجر الذي خرج من مقلاع هذا الغلام كان حجرًا مصوبًا قاتلًا دامغًا بإذن الله أنهى عملاق جيش العدو، ولم يكن النصر بضربة داود ﷺ لكنها كانت مؤثرة، وإلا فالهزيمة حاصلة حتى قبل قتل داود لجالوت، يقول الله ﷻ: "فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" [البقرة٢٥١].

فالهزيمة هنا في الآية مقدمة على قتل داود ﷺ لجالوت، ولعل قتل داود لجالوت يذكرنا بقتل الصبيان معاذ ومعوذ ابنا عفراء لأبي جهل، أو حتى قتل عبد الله ابن مسعود المشهور بضعفه لأبي جهل، كما في روايات قتل أبي جهل،... إنها نفس السنن.

لكن حدث قتل داود عليه السلام لجالوت يذكرنا بالدرجة الأولى بحادثة قتل علي بن أبي طالب لعمرو بن ود في غزوة الخندق، حيث تتشابه القصتان بأكثر تفاصيلهما، من ذلك احتقار جالوت لداود عندما خرج إليه، وكذا عمرو بن ود طالب القوم بأن يأتوه بمن هو أسن من علي ليبارزه، وفيهما تبرز رباطة جأش كل من داود عليه السلام الغلام، وعلي بن أبي طالب الذي كان في مقتبل عمره، وكان عمر بن ود تهاب العرب مبارزته وكذلك جالوت في زمانه...، القصتان تتشابهان تمامًا، وكأن التأريخ يكرر من فضائله ويعيد من صفحاته من جديد.

وتعتبر قصة هذه الغزوة هي البداية الأولى لاصطفاء دواد عليه السلام، ليكون بعد ذلك الخليفة الأول في الأرض صاحب خلافة تسخيرية، تلك الخلافة التي ورثها لولده سليمان عليه السلام، حيث اكتملت في كل جوانبها في عهده.

وقصة غزوة طالوت التي تكررت في عناصرها في غزوة بدر في العالمية الأولى للإسلام، ستتكرر بنفس العدد في بداية العالمية الثانية للإسلام، وأيضًا بعد ممحصات عظام على مستوى فتن الشهوات والشبهات، وتكون البداية الأولى أو اللبنة الأولى لها هي على نفس عدة جيش طالوت، أو أهل بدر ثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا، إنها قصة متكررة وسنن متعاقبة ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

لكن هناك وقفة مهمة فرضها سياق قصة طالوت عليه السلام؛ حيث إن سياق الأحداث يشير إلى أن تلك الأمة موعودة بهزيمة، فعلى مستوى القيادة بدلًا من أن يأتي قائد تأتلف القلوب حوله ويكون محل اتفاق بينهم، خاصة قبل معركة مصيرية حرجة تتطلب حشدًا جامعًا لكل فئاتهم؛ أسند الله القيادة إلى شخص مغمور ينقسمون عليه.

ثم من بقي منهم والتزم بقيادة طالوت يضع الله أمامه اختبارات صعبة من شأنها إضعاف المقاتل نفسه، وهو عدم الشرب من الماء إلا غرفة واحدة وذلك بعد حر وعطش شديدين، وهكذا انقسم عدد كبير من الجيش وبقيت قلة عطشى منهكة، ثم هذه القلة عندما التقت بجالوت وجنوده؛ تبينوا قلة عددهم أمام هذا الجيش الكبير، وهذا جعل الريبة في قلوبهم أو قلوب بعضهم من إمكانية الانتصار على هذا الجيش الكبير.

فلو أخضعنا هذه المعطيات لطريقة تفكيرنا وللواقع المشاهد، قد يستشعر البعض أن هذه القلة العطشى تساق إلى حتفها وهزيمتها المؤكدة، لكن هذه المعركة سارت إلى نتائج تخالف كل مقدماتها، وكان النصر لهذه القلة العطشى المنهكة على الجيش العظيم؛ لأنها في ميزان الغيب كانت صاحبة القوة الوحيدة، ومخولة بالاستفادة من خزائن الله، ومهيأة للمدد السماوي وما يعلم جنود ربك إلا هو...

هؤلاء الجنود التي جاءت آيات سورة الأنفال في تفصيلهم ضمن سننية خاصة حال مراغمة الحق للباطل، فالمعركة كانت مهيأة جدًا لتسلل سلاح الرعب داخلها، وكانت مهيأة للمدد الملائكي الغيبي الذي يحدد في الخفاء سير المعركة لصالح الفئة العطشى القليلة، وهناك المعية الإلهية لمن بيده النواصي يحركها كيف يشاء، وإن شئت فردد قوله ﷻ: "وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا".

فكل شيء في المعركة تحول لجندي لصالح القلة العطشى ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، كذلك تلك المعركة الفارقة المتكررة عبر التاريخ في بدر الكبرى، وفي بداية أمر المهدي مستقبلًا بنفس العدد، تشير إلى أن ثلاثمائة رباني تحت قيادة حكيمة؛ كفيلون بجلب النصر الفارق بعكس الأسباب، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

خلاصة قصة طالوت:

١- قصة طالوت تحكي مرحلة جديدة مرت بها بنو إسرائيل، استمرت قرابة الثلاثمائة عامًا حتى نضجت ثمرتها، حيث إن الأوائل منذ عهد موسى عليه السلام كانوا لا يفهمون قدرة الغيب الفاعلة والمهيمنة من وراء الستار، بل كانوا يؤمنون بالمشاهدات الحسية والتدخل الرباني المباشر؛ لذا غياب موسى عنهم مدة قليلة جعلهم يصنعون إلهًا حسيًا لهم يعبدونه، وطالبوا صراحة من موسى عليه السلام أن يروا ربهم جهرًا، وكانوا دائمًا يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو ربه في أمورهم، حيث لم تكن فيهم تلك العلاقة المباشرة مع الله...

وهذه التجربة الموسوية انتهت بقصة موسى والخضر، التي استبان فيها كيف تتدخل قدرة الغيب في الأحداث، وتحركها نحو الأهداف بطريقة غير مباشرة أو من وراء ستار رقيق، وقد احتاج بنو إسرائيل تجربة مطولة، وفتون متنوعة عبر التاريخ اكتملت في عهد طالوت، حيث يدخلون معركة ظاهرها أنها خاسرة، لكن القوة المعنوية والإيمانية كانت تحركها نحو رؤية عظمة الله وتدبيره حتى بعكس الأسباب الظاهرة، وكان الانتصار الجوهري الفارق في هذه المعركة التي صدق أهلها أيما صدق.

وإن شئت فقارن بين موقف هذه الفئة وبين موقف أتباع موسى عليه السلام عندما قالوا: "قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن

يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ" [المائدة٢٢]، "قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ" [المائدة٢٤]، وموسى عليه السلام لم يجد بين القوم إلا رجلين فقط، من أهل اليقين بالله وبعظمته وبتدبير الغيب لهم: "قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" [المائدة٢٣].

فهنا رجلان لكن في قصة طالوت كان الاستعداد الإيماني القوي من ثلاثمائة، هم الذين أقحموا أنفسهم في غمار المعركة، فقصة طالوت تشير إلى عظمة الفتون والتجارب التي مرت بها بنو إسرائيل، في تجربتها الإيمانية في الانتقال من الإيمان بالحسي والمشاهد نحو الإيمان الغيبي؛ لذا كانت هذه المرحلة الناضجة هي المهيأة لتكون بداية الخلافة التسخيرية على يد داود وسليمان عليهما السلام.

٢- إن الأمة الربانية مع طول العهد يتسلل لفكرها وسلوكها كثيرًا من مقاييس الجاهلية دون أن تشعر، بل تلبس هذه المقاييس ثوب الشرعية؛ لذا لا بد من الفتون والممحصات التي تكشف زيف هذه المقاييس، وتعزز المعاني الحنيفية البسيطة للإيمان الحقيقي الذي يتأهل للاستفادة من خزائن السموات، ولاحظنا الفتون التي تعرض لها القوم في رحلة الاستخلاص...

وهذا يجعلنا نفسر أن خروج الإمام المهدي يكون بعد فتنة الدهيماء، المميزة للمؤمن من المنافق في ساحة الأمة؛ فالفتن ممحصات تغربل وتميز الغث من السمين، وهذه سنة ماضية إلى يوم القيامة: "وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" [العنكبوت٣] والملاحظ من غزوة طالوت أنها كانت بعد ممحصات كثيرة.

لكن غزوة بدر لم يكن معها ممحصات؛ لأن كل من اتبع النبي عليه السلام كان مؤمنًا خالصًا، لكن بعد انتصار بدر بدأ تسلل كثير من المنتفعين والمنافقين والتبس الأمر على المسلمين؛ لذا جاءت غزوة أحد التي ظاهرها الهزيمة، لكن باطنها أنها كانت الممحص الأقوى الذي أبرز أهل الحق من الأدعياء، وتكشفت الحقائق جلية للمسلمين لكل من حولهم من يهود ومنافقين من بينهم.

٣- الصبر واليقين هي الضريبة الحقيقية للنصر الرباني، وبدونهما لا يتصور أي نصر لأمة تزعم أنها تريد وجه الله، والقوة الحقيقية هي فقط لله، أما غير الله فلا يمتلك إلا قوة وهمية، سرعان ما تزول وتتكشف مع أول نزال، يقول الله سبحانه وتعالى: "أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ" [البقرة١٦٥]، فالقوة جميعًا لله، أما غير الله فهم "وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا" [الفرقان٣]، والذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا كيف يملك أن يضر أو ينفع غيره!؟ لذا عناصر القوة الحقيقية في الأرض لا يمتلكها إلا أهل الله إذا استقاموا على الأمر؛ لأنهم الوحيدون المخولون بالاستفادة من خزائن السماء.

٤- السنن الإلهية هي حالة دينامية متحركة ومتداخلة فيما بينها عبر التاريخ، ونتائجها حتمية لكن بعد فهمنا لتداخلها وتفاعلها مع بعضها حسب الأحداث والزمان والمكان؛ حيث نرى السنن التي تحتكم لها غزوة طالوت هي ذات السنن التي احتكمت إليها غزوات النبي عليه السلام، والفارق كان في التقديم والتأخير بحسب تداخل السنن.

على سبيل المثال: لحظة التحام الجيشين وقبيل ذلك بقليل غزوة طالوت تحكي نفس سنن غزوة بدر، لكن غزوة أحد وعودة ثلث الجيش تحكي قصة طالوت عند النهر، أما غزوة الخندق ببعض سننها تحكي قصة قتل داود لجالوت الشبيهة

بقصة قتل علي لعمر بن ود، إضافة لدرس اليقين والظنون الذي رافق غزوة الخندق والشبيهة بحال بعض المؤمنين الذين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده.

هنا السنن نفسها التي لا تحابي أحدًا، كانت هي التي تحدد نتائج تلك المعارك وتفرز بعض مظاهرها، لكن الفارق هنا أو هناك يكون بتداخل السنن مع بعضها في إفراز النتيجة النهائية، ونلحظ أن قصة الفتون والممحصات التي استخلصت الثلاثمائة في غزوة طالوت، كانت كلها والقائد قد تمت بيعته مسبقًا؛ أي كانت كلها تحت رعاية قائد الأمة. وهذا الشرط سيتخلف في مرحلة المهدي لعدم وجود نبي كما في قصة طالوت؛ لذا يترك الثلاثمائة للممحصات المتنوعة التي تستخلصهم قبل حتى بيعتهم للإمام.

ونلحظ في قصة الملحمة العظمى أنها تكون من باب الممحصات والمغربلات للأمة، حيث ينهزم ثلث هم أشد الناس نفاقًا، ويموت ثلث هم أفضل الشهداء، وينتصر ثلث لا يفتنون بعدها أبدًا، فهذه القصة تأخذ سننها من غزوة أحد التي قال النبي ﷺ بعدها لا يتبعني إلا أحدي، أي شهد غزوة أحد وثبت فيها، وانهزام الثلث هو تكرار لانهزام الثلث في غزوة أحد.

فالسنن واحدة هي التي تحكم الأحداث، وتخلف بعض التفاصيل مرده إلى تداخل السنن فيما بينها؛ لذا من رزق فهم السنن وامتلك إحاطة بحسب القدرة البشرية لها يستطيع أن يتنبأ بالنتائج، ويمتلك رؤية مستقبلية استراتيجية، ويفهم إلى أي اتجاه تسير الأحداث.

هذا ما جاد به قلمي في تحليلي لقصة طالوت عليه السلام، وكيف أن هذه القصة التي سيقت كمثل جاري وسنة ماضية؛ إنما تحمل في طياتها دلائل كثيرة جدًا،

أبرزها أنها ترشد إلى معالم النصر الحقيقي للأمة، خاصة بعد اختلاط فكرها وسلوكها بكثير من الأمور الهجينة الموهنة لها.

وإتمامًا للفائدة هنا أرى أن أسوق مقدمتين تتعلقان بقصة طالوت في العهد القديم، وطبيعة الأسماء التي استخدمها القرآن الكريم.

المقدمة الأولى: تحريف الكلم من بعد مواضعه.

كان لي تجربة واسعة مع كتاب العهد القديم، وهذه التجربة مكنتني من إدراك أشكال كثيرة من التلاعب في نصوصه، وبعد دراسة متخصصة لأشكال التحريف التي ذكرها القرآن الكريم؛ وجدت أن القرآن قد استوعب أشكالًا متعددة من التلاعب يجمعها مفهوم التحريف، وإن كانت كل آية تعالج جانبًا من جوانب هذا التلاعب أو التحريف، وهذا موضوع لاحقته في أحد كتبي.

لكن يعنيني هنا أحد أشكاله، وهو تحريف الكلم من مواضعه أو من بعد مواضعه، يقول الله ﷻ: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ» [المائدة:١٣]، فالتحريف في الآية إشارة إلى تغيير إما في المعاني، أو بالتلاعب في النصوص نفسها من خلال وضعها في غير موضعها، أو من خلال الحشو الكثير الذي حاولوا فيه تعويض الحظ الذي نسوه من الكتاب.

ويعنيني هنا التحريف الذي يتعلق بنقل وتغيير موضع القصص بحيث تنسب لغير صاحبها الحقيقي، ومن ذلك على سبيل المثال أجزاء من قصة طالوت كما أثبتها القرآن الكريم، حيث نجدها في كتاب العهد القديم قد نسبت لأحد القضاة قبل عهد طالوت عليه السلام كما سأبين، مما يرشد تمامًا إلى أن السرد القصصي في العهد

القديم هو عبارة عن جمع قصاصات من الذاكرة، أكثر من كونه كتاب وحي كما يزعم الكثير من أهل الكتاب.

طبعًا المشكلة في كتاب العهد القديم ليس في قصة طالوت، بل هي مشكلة استوعبت كل الأسفار بشكل سافر، واضح جدًا لا يشك فيه أهله من علماء أهل الكتاب، خاصة في السنوات العشر الأخيرة.

وموضوع التحريف وملاحقة أسراره ليس موضوعنا هنا، إنما موضوعنا هو الشاهد هنا من قصة طالوت في القرآن، والتي نجدها ألصقت بجدعون من القضاة قبل طالوت بسنوات طوال، جاء في سفر القضاة: "١فَبَكَّرَ يَرُبَّعْلُ، أَيْ جِدْعُونُ، وَكُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي مَعَهُ وَنَزَلُوا عَلَى عَيْنِ حَرُودَ. وَكَانَ جَيْشُ الْمِدْيَانِيِّينَ شِمَالِيَّهُمْ عِنْدَ تَلِّ مُورَةَ فِي الْوَادِي. ٢وَقَالَ الرَّبُّ لِجِدْعُونَ: «إِنَّ الشَّعْبَ الَّذِي مَعَكَ كَثِيرٌ عَلَيَّ لأَدْفَعَ الْمِدْيَانِيِّينَ بِيَدِهِمْ، لِئَلاَّ يَفْتَخِرَ عَلَيَّ إِسْرَائِيلُ قَائِلًا: يَدِي خَلَّصَتْنِي. ٣وَالآنَ نَادِ فِي آذَانِ الشَّعْبِ قَائِلًا: مَنْ كَانَ خَائِفًا وَمُرْتَعِدًا فَلْيَرْجِعْ وَيَنْصَرِفْ مِنْ جَبَلِ جِلْعَادَ». فَرَجَعَ مِنَ الشَّعْبِ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ أَلْفًا. وَبَقِيَ عَشَرَةُ آلاَفٍ. ٤وَقَالَ الرَّبُّ لِجِدْعُونَ: «لَمْ يَزَلِ الشَّعْبُ كَثِيرًا. اِنْزِلْ بِهِمْ إِلَى الْمَاءِ فَأُنَقِّيَهُمْ لَكَ هُنَاكَ. وَيَكُونُ أَنَّ الَّذِي أَقُولُ لَكَ عَنْهُ: هذَا يَذْهَبُ مَعَكَ، فَهُوَ يَذْهَبُ مَعَكَ. وَكُلُّ مَنْ أَقُولُ لَكَ عَنْهُ: هذَا لاَ يَذْهَبُ مَعَكَ فَهُوَ لاَ يَذْهَبُ». ٥فَنَزَلَ بِالشَّعْبِ إِلَى الْمَاءِ. وَقَالَ الرَّبُّ لِجِدْعُونَ: «كُلُّ مَنْ يَلَغُ بِلِسَانِهِ مِنَ الْمَاءِ كَمَا يَلَغُ الْكَلْبُ فَأَوْقِفْهُ وَحْدَهُ. وَكَذَا كُلُّ مَنْ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ لِلشُّرْبِ». ٦وَكَانَ عَدَدُ الَّذِينَ وَلَغُوا بِيَدِهِمْ إِلَى فَمِهِمْ ثَلاَثَ مِئَةِ رَجُل. وَأَمَّا بَاقِي الشَّعْبِ جَمِيعًا فَجَثَوْا عَلَى رُكَبِهِمْ لِشُرْبِ الْمَاءِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ لِجِدْعُونَ: «بِالثَّلاَثِ مِئَةِ الرَّجُلِ الَّذِينَ وَلَغُوا أُخَلِّصُكُمْ وَأَدْفَعُ الْمِدْيَانِيِّينَ لِيَدِكَ. وَأَمَّا سَائِرُ الشَّعْبِ فَلْيَذْهَبُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَكَانِهِ».

٨فَأَخَذَ الشَّعْبُ زَادًا بِيَدِهِمْ مَعَ أَبْوَاقِهِمْ. وَأَرْسَلَ سَائِرَ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ كُلَّ وَاحِدٍ إِلَى خَيْمَتِهِ، وَأَمْسَكَ الثَّلاَثَ مِئَةِ الرَّجُلِ. وَكَانَتْ مَحَلَّةُ الْمِدْيَانِيِّينَ تَحْتَهُ فِي الْوَادِي" ([٥١]).

هذا جزء من قصة يربعل أو جدعون أحد القضاة، وهذه القصة قد خلطت بين قصتين حدثتا مع يشوع وطالوت عليهما السلام، يعنيني هنا ما يتعلق بطالوت عليه السلام، وهي قصة النهر وعدم الشرب منه إلا مقدار غرفة واحدة كما بين القرآن الكريم، وهنا أبرزت القصة أن العدد المتبقي كان فقط ثلاثمائة، وهو ذات العدد الذي تطرحه المصادر الإسلامية في قصة طالوت عليه السلام.

وهنا نلاحظ كيف أن القصة تحولت من طالوت عليه السلام وألصقت بجدعون، وبالمقابل في قصة شاؤل أو طالوت لا نجد ذكر لهذه القصة التي تحولت كمنقبة من مناقب جدعون. هذا الجانب يوضح لنا حجم التحريف الذي طال كتاب العهد القديم، بحيث لا تجد أي قصة تستقيم في سياقها، وهو يبرز لنا أيضًا كيف أن القرآن الكريم كان من أعظم النعم علينا، لأنه حفظ لنا الحقائق المغيبة والتي تم التلاعب بها كما في هذه القصة.

فالقرآن الكريم جاء ليعيد للتاريخ النبوي صورته الحقيقية، التي غيبها التلاعب الكبير على مدار التاريخ، يقول الله سبحانه وتعالى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" [النمل٧٦]، فهذه الآية تبرز أحد وظائف القرآن الكريم، أو أحد أهم أهدافه السامية؛ وهو بيان الحقيقة المغيبة خاصة فيما يتعلق بالأمم التي سبقتنا، والتي ابتليت بمن يتلاعب بالنصوص من بينها.

والقصة السابقة الملصقة بجدعون لا علاقة لجدعون بها، بل هي القصة الحاصلة مع طالوت عليه السلام كما بين القرآن الكريم، ونلحظ أيضًا النفس الثنوي في

[٥١] سفر القضاة (٧/١-٨).

ذات النص السابق، حيث أن جدعون قد طلب من أتباعه يلغوا من الماء كما يلغ الكلب، وهذه من تسلل الشيطان في النصوص ذاتها؛ ليعطي صورة كئيبة مقززة للأمر.

وهذا التسلل الشيطاني نراه في كثير من النصوص، وهذا من أمثلته الواضحة، والقرآن الكريم قد بين حقيقة الأمر، وهو الاغتراف باليد وليس الولوغ باللسان كالكلب.

المقدمة الثانية: طالوت وجالوت.

نلحظ في الاسمين السابقين أنهما انتهيا باللاحقة الأرامية (وت)، وهذه اللاحقة هي حالة متطورة من لاحقة سابقة لها وهي (يت)، وهي تدخل على الاسم فتحوله إلى صفة مشبهة باسم المفعول تدل على الكلية أو الاستغراق.

والعجيب في القرآن الكريم أنه في كل حقبة زمانية يستخدم اللفظ الحقيقي المناسب لها، فهذه الحقبة كانت اللاحقة (وت) مستخدمة بقوة؛ لذا نجد أن القرآن عبر عنها بألفاظها: هاروت ماروت تابوت طالوت جالوت، وأيضًا استخدم القرآن الكريم اللاحقة المتطورة عنها وهي (ات)، في كلمات متعددة ما زالت تحتفظ برسمها العثماني الدال عليها، كما في كلمة صلواة وزكواة، أي صلات وزكات.

وكذلك يلاحظ أن القرآن الكريم أيضًا استخدم اللاحقة (ون) (ان)، التي كانت تستخدم في المسند أو اللغة الكنعانية في حقبة فرعون وموسى عليه السلام، ومنها (فرعون – قارون – وهامان – هارون)، فهذه الكلمات لو عربناها بحسب أل التعريف لدينا لكانت (الفرع – القار – الهام – الهار)، ونلحظ أن كتاب العهد القديم قد استخدم

لفرعون الكلمة المتطورة المخففة أخيرًا للفظة فرعون، وهي (فرعه) ومنها أخذت الإنجليزية.

فالقرآن الكريم حتى في ألفاظه والمسميات كان يذكر الاسم بحسب ما يلفظ بالضبط في زمانه، وهذا يرشد إلى أي درجة مصداقية القرآن الكريم، "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا" [النساء١٢٢]، "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا" [النساء٨٧].

واسم طالوت الحقيقي كان شاول، لكن نظرًا لأنه تميز بطوله قياسًا لكل من حوله، حيث أن منكبيه كانت أعلى من كل من حوله، فقد تميز بالطول، وقد عرفه بنو إسرائيل بصفته أكثر من معرفتهم لاسمه فغلبت الصفة على الاسم، وهذا معهود فعلى سبيل المثال: ابن قيم الجوزية اسمه محمد بن أبي بكر الزرعي، لكن لأن أباه كان قيمًا أو قائمًا على مدرسة الجوزية؛ اشتهر بهذا اللقب حتى غلب على اسمه الحقيقي، وكذلك صلاح الدين الأيوبي اسمه يوسف بن أيوب، لكنه اشتهر بصلاح الدين الأيوبي.

إذًا اسم طالوت معناه الطويل، وجالوت معناه كثير الجولات، أو الجائل الذي يجول في المعارك، وهو أشبه باسم ملاعب الأسنة، وهذا اللقب أيضًا غلب على صاحبه حتى أصبح يعرف به.

الأمثال في القرآن والسنة

الأمثال في القرآن والسنة

من أراد أن يختصر أبواب العلم، وينال شهادة (العالم) من الرب وليس من العبد؛ فعليه بتدبر الأمثال في القرآن والسنة، لأنها بمجموعها تختصر كل أبواب العلوم والمعرفة النافعة للإنسان في دينه ودنياه، وهي من أبواب الحكم العليا التي لا ينال بركتها إلا أصحاب الهمم العالية من أولي الألباب.

وقد تتبعت أمثال القرآن والسنة؛ فوجدتها قد اختزلت في ثناياها كل أسرار الدين، إنها الحكمة البالغة التي من أدرك أسرارها فقد أحاط بخيري الدنيا والآخرة، واستوعب كل روح الشريعة وتعلق بحبل النجاة ومنارة الهدى...

لذا يستحق من يحصلها على درجة العالم بشهادة الخالق، يقول الله ﷻ: "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" [العنكبوت٤٣]، فكونك أدركت الأمثال التي يضربها الله للناس، فهذا معناه أنك تستحق درجة عالم، وهذه الدرجة ليست من البشر بل من خالق البشر؛ لذا هي بحق الشهادة المعتمدة في أسمى درجات الاعتماد.

والحقيقة أن إدراك الأمثال القرآنية ليس بالأمر الهين كما يستبسطه الكثيرون، بل هو علم لا يمكن إدراكه إلا من نال مزيجًا واسعًا من المعرفة ومدارك الحكمة، ويمتلك بعد نظر يرى من خلاله التجليات المعرفية، والدلالات المتنوعة التي يكتنفها المثل في ثناياه.

*****

خيوط العنكبوت وقوة أهل الباطل الوهمية

قال الله ﷻ: "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٤١ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤٢ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" [العنكبوت ٤١-٤٣].

المعنى العام للمثل:

إن الذين يتخذون من دون الله ﷻ أنصارًا أو آلهة يعبدونها من دون الله، مع كونها لا تنفع ولا تضر؛ فهؤلاء مثلهم كمثل العنكبوت التي صنعت بيتًا لها من خيوطها، وهذا البيت لا يؤيها ويقيها حر الشمس ولا برد الشتاء، إضافة إلى كونه بيت ضعيف لا يحمي صاحبه، بل هو من أضعف البيوت.

لذا هؤلاء الذين يتوجهون بالتعظيم والعبادة لغير الله إنما يستندون لقوة وهمية لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا، وهكذا حال كل من يأوي لغير الله طلبًا لعزة أو نصرة أو قوة أو نفع، فهو لا يؤوي إلا لقوة وهمية لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، فكيف تملك أن تنفع الغير أو تدفع عنه الضرر.

وهذا مثلهم كمثل العنكبوت التي تصنع بيتًا واهنًا ضعيفًا، لا يملك أن يحميها أو يقيها، ويسهل تدميره بأقل نسمة هواء، ثم بينت الآيات أن هؤلاء الذين يطلبون العزة والنصرة من الباطل وأهله لجهلهم، لا يدركون أنهم قد أووا إلى وهن وضعف لا إلى بيت منيع أو حصين.

ويكون وجه الشبه بين من يتخذ من دون الله أنصارًا وبين العنكبوت: أن العنكبوت اتخذت لها بيتًا ضعيفًا قياسًا مع كل البيوت التي يتخذها غيرها، وكذلك هؤلاء الذي توجهوا لغير الله ﷻ بالتعظيم والطاعة وطلب النصرة؛ إنما استندوا إلى متكأٍ في غاية الضعف، فهما مشتركان في اتخاذ مأوى ومتكأ في غاية الضعف، لا ينفعهم عند الحاجة إليه ولا يدفع عنهم الضر إذا حاق بهم.

«إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»، ثم بينت الآيات أن الله ﷻ يعلم كل هؤلاء الذين يستندون إلى الباطل، ويستعينون به ويلجئون إليه، سواء من خلال تعظيمهم وعبادتهم لمعبودات متعددة ابتدعوها، كالمعبودات السماوية من ملائكة أو أجرام سماوية، أو معبودات أرضية كالأصنام أو حيوانات، أو اتخاذهم بعض البشر أربابًا من دون الله ﷻ، أو كل هؤلاء الذين يتخذون النصرة والولاية من الباطل وأهله، فكل هؤلاء يعلمهم الله ﷻ.

ويعلم كل هؤلاء الذين يدعون الإيمان بالله، أو الالتزام بدينه ثم نراهم يلجئون لغيره ويوالون من دونه، فالله يعلم ما هم به من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، ويعلم أنهم بفعلتهم استندوا إلى وهن، والله عزيز غني عن كل شيء، ولا يعجزه شيء، وأن هؤلاء وما يعبدون حصب جهنم هم لها واردون.

والله الحكيم صاحب الحكمة المتناهية، الواضع كل شيء يريده في أكمل مواضعه؛ فأبطن نفسه بكبريائه وجلاله حتى لا باطن سواه، وأظهرها بأفعاله وما كشف من جماله فلا ظاهر في الحقيقة غيره، وهو يغلب من يشاء بعزته، ويمهله إن شاء بحكمته، فلا يغتر أحد بإمهاله فيظن أنه لإهماله.

«وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ»، جاءت هذه الآية معطوفة على ما سبق وصدرت بقوله ﷻ: «وتلك الأمثال» على جهة التعظيم، والتنبيه على جليل قدرها.

«نضربها» بما لنا من العظمة والكبرياء بيانًا للناس، من خلال تصوير المعقولات بالمحسوسات، لعلها تقرب من عقولهم لعلهم ينتفعون بها، ثم بينت الآيات أن فهم هذه الأمثال العالية المدارك لن يكون إلا من نصيب العلماء ذوي العقول المستنيرة بنور الحق، أما غيرهم فسيحرم بركتها ويجهل مكنونها ودلالتها.

هذا المعنى العام للمثل، ويتضمن إضافة إلى ذلك إيحاءات ودلالات كثيرة أخرى، يمكن أن نستشفها من طياته وذلك في البند التالي:

إيحاءات المثل ودلالاته.

أولًا: القوة الحقيقية والقوة الوهمية.

هذا المثل جاء ليبين حقيقة قد تكون غائبة عن الكثيرين، وهي أن صاحب القوة الحقيقية المهيمنة على الكون والمدبرة لكل صغير أو كبير فيه هو الله ﷻ: "وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ" [البقرة:١٦٥]، "الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا" [النساء:١٣٩].

فالآيتان صريحتان بأن صاحب القوة والعزة هو الله ﷻ، وتذييل العبارة بكلمة "جميعًا" للتأكيد، ودفع الوهم من القلوب في أن غير الله ﷻ يملك شيئًا مهما قل من

عناصر القوة أو العزة، وقد جاءت آيات أخرى لتعزز هذا الفهم، وتؤكد على أن غير الله لا يستند إلى أي قوة، بل لا يملك شيئًا في الكون، وهو كما وصفه الله ﷻ:

"وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا" [الفرقان:٣]، "قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ" [سبأ:٢٢]، "قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا" [الرعد:١٦]، "ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ" [فاطر:١٣].

إذا قوة الباطل مهما عظمت هي خيوط عنكبوت واهنة، لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل لا تملك في كون الله قطميرًا أو مثقال ذرة في السموات والأرض، أما القوة الحقيقية فهي لله وحده ﷻ، والإيواء الحق لا بد أن يكون إليه.

لكن هذه الحقيقة قد يغفل عنها الناس، ويسوء تقديرهم للقيم، وتختل في أيديهم جميع الموازين، فينخدعون حينئذ بتلك القوة الوهمية، تخدعهم قوة الحكم والسلطان، ويظنون أنها القوة القادرة في الأرض، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم، ويخشونها ويفزعون منها، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها، أو ليضمنوا لأنفسهم حماها.

وأحيانًا ينخدعون بقوة المال، ويحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس، وأقدار الحياة، فيتقدمون إليها في رغب ورهب، ويسعون لتحصيلها، والتسلط بها على رقاب الناس، وأحيانًا تخدعهم قوة العلم أصل القوة والمال، وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول، فيتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في محاريب.

ينخدعون في هذه القوى الوهمية، وينسون القوة الحقيقية الوحيدة المدبرة لهذا الكون، والتي خلقت هذه القوى الصغيرة، وتملكها وتمنحها وتوجهها وتسخرها كيفما تريد حيثما تريد، ينسون أن الالتجاء لتلك القوة الوهمية سواء كانت بأيدي أفراد أو جماعات أو دول؛ إنما هو كالتجاء العنكبوت هذه الحشرة الضعيفة الرخوة التي لا حماية لها بسبب تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن.

وليس هناك في الكون إلا حماية الله وحماه، وركنه القوي الشديد، فقوته هي القوة وولايته هي الولاية، أما غيره فهو واهن هزيل مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما بلغ من وسائل البطش والطغيان؛ فما هو إلا عنكبوت، وما يملك من قوة إلا خيوطًا واهنة وبيتًا هزيلًا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون.

أسرار العنكبوت وبيته.

١- يلحظ أن سائر الكائنات إنما تصنع بيتًا لتؤوي إليه إلا العنكبوت فإنها تصنع بيتًا لتصطاد به، وهذا يفسر ضخامة حجم بيت العنكبوت قياسًا للعنكبوت نفسه، وهذا حال أهل الباطل فإنهم يحرصون على إنشاء شبكة عنكبوتية من مؤسسات وجمعيات ووسائل إعلامية ونوادي وغير ذلك، وذلك بهدف اصطياد النفوس الضعيفة.

ومن تتبع حال كثير من المؤسسات المنتشرة في أصقاع الأرض من أهل الباطل، والتي تحمل في صورتها الظاهرة الخدمة الإنسانية؛ نجد أنها تحمل خلف ذلك أهدافًا خفية، يشملها هدف السيطرة النفسية والفكرية والاقتصادية والعقائدية على الأمم الأخرى، إنها شباك صيد والعنكبوت من بعيد يرصد كل الواقعين فيها.

٢- نلحظ في بيت العنكبوت أنه يستهلك من العنكبوت وقتًا طويلًا في بنائه، ويتسم بالدقة الهندسية في البناء، لدرجة تجد نفسك معجبًا بل منبهرًا بهذه الدقة وهذا الإحكام الذي يحققه العنكبوت في بنائه، وبالمقابل بالرغم من دقة بيت العنكبوت وإحكامه إلا أن أقل نسمة هواء قد تكون كفيلة بهتكه أو تدميره، بل سقوط غصن شجرة كفيل بإنهائه كليًا، ولعل السر هنا ليس في درجة إحكام وهندسة بيت العنكبوت، بل بطبيعة المادة الضعيفة التي صنع منها بيته، إنه بيت لا يملك الصمود أمام ضربة قدر واحدة.

ولو نظرت إلى قوة أهل الباطل وذلك التنظيم الدقيق بين مؤسساتها، وتلك الهندسة الهرمية بينها، وهذا الجهد المتواصل في البناء؛ تشعر أنك أولًا: أمام بناء مترامي الأطراف كلف أهله جهد الليل والنهار، جهد تراكمي طويل المدى ومحكم الصنع ومبرمج بدقة في الأداء، إلا أنه بالرغم من ذلك هش المادة.

أو بعبارة أخرى ضربة واحدة دامغة كفيلة بانهياره بشكل كلي، وهشاشة هذا البناء مرجعه إلى أنه في أصله وتأسيسه لا يستند إلى عناصر قوة حقيقية، فضعف البناء ليس عائدًا إلى إشكالية في دقته أو هندسته، بل الإشكالية في العناصر المكونة له والمواد المؤسسة له، وهو أشبه بخيوط العنكبوت التي يمكن إنهاء وجودها بضربة واحدة.

وهذه حال قوة أهل الباطل، فهي مهما بلغت من دقة في البناء وإبداع في الصنع، إلا أنها في أصلها قوة وهمية يسهل إفناؤها وتدميرها في حال اصطدامها مع القوة الحقيقية، يقول الله ﷻ: "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ" [الأنبياء:١٨]، فالآية تشير أن أي اصطدام للحق المستند

للقوة الحقيقة مع الباطل المستند للقوة الوهمية؛ فإنه يترتب عليه ضربة قاتلة مدمرة للدماغ «فيدمغه»، كفيلة بإزهاق الباطل بالكلية.

ومن تتبع تاريخ الباطل يجد عظمة البناء وانتفاشه ودقته وما يترتب على ذلك من اغترار أهله، ثم تكون حالة الاصطدام بينه وبين الحق، والتي تنتهي بزوال الباطل بأهون الأسباب، فقوم عاد بلغوا من القوة والعظمة ما لم يبلغه بشر، وهذه القوة أنستهم عظمة القوة الإلهية، وأكسبتهم غرورًا بأنفسهم فكان دمارهم بأهون ما يتوقعون يقول الله ﷻ: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ" [الفجر:٦-٨].

فالآيات صريحة في بيان العظمة والقوة والمنعة التي حصلها قوم عاد، وجاء وصفها بأنها لم يخلق مثلها في البلاد، قوة خولت أهلها بأن يحولوا الجبال إلى قصور، وهذا القوة ترتب عليها الغفلة والغطرسة والاغترار، يقول الله ﷻ: "فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ" [فصلت:١٥].

هذا التحدي السافر بقوتهم الوهمية مع نسيان القوة الحقيقية وصاحب الأمر والخلق في الكون والمهيمن على كل ذرة فيه، هذا التحدي وما رافقه من كفر وطغيان؛ اقتضى مواجهة واحدة وتسليط لمخلوق من مخلوقات الله ﷻ عليهم، حسم الصراع في سبع ليالي وثمانية أيام، إنها الريح التي دمرتهم عن بكرة أبيهم، وجعلتهم كأعجاز نخل خاوية؛ ليعلموا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة.

وهذا فرعون الذي بلغ في دولته أعلى درجات المجد والعظمة البشرية، ثم سيق سوقًا هو وجنوده إلى القدر المحتوم فغشيهم من اليم ما غشيهم، هناك نبذتهم القوة الحقيقية وطردتهم من معترك الحياة: "فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ" [القصص:٤٠]، وفي لحظات قلائل أصبحت أعظم قوة في العالم القديم تحت الماء مهينة مطرودة أو منبوذة من مسرح الحياة، إنها خيوط العنكبوت التي لا تملك أي قدرة للصمود أمام معترك القوة الحقيقية.

وهذا مثل لكل قوة وهمية في الأرض؛ أنها مهما أوتيت من مصادر القوة الأرضية أو البشرية، فإنها في حقيقتها قوة واهنة وهن خيوط العنكبوت، والأصل فيها الاعتبار من التاريخ الذي يذكرها بمصرع أسلافها، يقول الله ﷻ: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا" [فاطر:٤٤].

إذا قد يتكلف أهل الباطل الجهد الجهيد في البناء، إلا أن تدمير ما بنوه قد يستغرق لحظات، كالعنكبوت التي تتكلف الكثير من الوقت والجهد في البناء، وفي لحظة واحدة يتحول بناؤها إلى سراب.

٣- بالنظر إلى بعض خيوط العنكبوت نجد أنها تحمل مادة لزجة، تكفل تعلق الفريسة فيها إلى أن يتم تخديرها وأكلها، وهذا دأب أهل الباطل لا بد أن يتركوا مادة إغرائية جذابة تكفل تعلق بعض ذوي القلوب السقيمة أو العقول الضعيفة بهم، ثم بعد ذلك يتم تخدير فكرهم وتسميمه، ولا يتركونه إلا جسدًا بلا روح بعد أن نزعوا منه تلك الدماء التي تضخ سر الحياة فيه.

٤- المعلوم في عالم العناكب أن أنثى العنكبوت تكون أقوى وأضخم من الذكر، كذلك نلحظ في هذا العالم العجيب أن الذكر دائمًا يكون في حالة حذر شديد من الأنثى خوفًا من أن تلتهمه؛ لذا عندما تحين لحظة التزاوج يعمد الذكر إلى عدة وسائل تكفل عدم التهام الأنثى له بعد انتهاء التزاوج والتلقيح، فنراه أحيانًا يأتي بفريسة لتلتهي بها الأنثى، وأحيانًا يخدرها، وحينًا يربطها بخيوطه

فإذا انتهى من عملية التلقيح فر هاربًا بعيدًا عنها خوفًا من أن تلتهمه، وأيضًا من طبيعة بعض أنواع العناكب أنها إذا لم تجد ما تأكله التهمت صغارها.

وهذه التصرفات توحي بأن هذه الحشرة ليس لها رصيد من الفضيلة والأخلاق حتى مع أقرب الناس إليها، إنما مدار علاقتها بالغير مبنية على فلسفة المنفعة المادية البحتة، فهذه الأنثى التي تخنع للذكر قبل التزاوج إنما خنوعها فقط لتحصيل هذه المنفعة، فإن تحققت فلا مانع بعد ذلك من التمرد عليه والتهامه.

وهذه الطبيعة المجردة من الفضيلة التي تميزت بها العناكب ناسب التمثيل بها في حق أهل الباطل أو شرائح منه؛ حيث تقوم العلاقة بين أفراده على أساس المنفعة المادية المجردة بعيدًا عن الفضيلة والمعاني الخلقية، بل المنفعة هي التي تحدد مسار الفضيلة وحدودها، وهذا الفكر وفق هذه الفلسفة تقوم عليه دول بأكملها، وهو ما يعرف بالفلسفة البراجماتية أي الفلسفة النفعية، وكذلك بما يعرف بالفكر الميكافيللي.

لذا لا يستغرب من حالات الاستغلال بين أفراد وشرائح أهل الباطل سواء على مستوى فردي أو دولي، وأحيانًا تكون هناك مواءمة والتقاء بين دول لوجود منفعة ما، فإذا انتهت هذه المنفعة فلا مانع من التهام هذه الدول، وكذلك الأفراد أحيانًا يتجردون من كل فضيلة حتى مع أقرب الناس إليهم في سبيل تحقيق مصالح ذاتية ومنافع شخصية، فهم أشبه بالنار التي يأكل بعضها بعضًا إن لم تجد ما تأكله.

ومن هنا يمكن القول أن الفضائل والأخلاق عند أهل الباطل نفعية وليست مبدأية، فاحترامهم لقيمة ما كالعدل مثلًا يكون بقدر ما تجر لهم هذه القيمة من نفع، فإذا أصبح العدل ينال منهم ويكشف ظلمهم انقلبوا إلى ضده دون اعتبار له، وحقوق الإنسان لها احترامها إذا كان الناتج النفعي منها في صالحهم، فإذا وجدوا أن نفعها

أو جزء منه كان من نصيب الغير انقلبوا على مدلولاتها، وهذا يفسر ازدواجية المعايير والقيم والأخلاق عند هؤلاء، إنها العنكبوت التي تخنع لزوجها ليلقحها، ثم تلتهمه بعد أن تأخذ حاجتها منه.

٥- نلحظ أن بيت العنكبوت كمصيدة في الغالب يعتمد على الجهد الأنثوي؛ لذا ضرب القرآن المثل بالأنثى دون الذكر، وهذا المعنى يفسر لنا جهد أهل الباطل في استغلال العنصر النسائي في حبائله وشباكه التي ينصبها لاصطياد الغير، وكذلك يفسر لنا تركيزه الشديد على قضية تحرير المرأة وإنفاقه الملايين بهذا الصدد.

وهذا المعنى انتبه له النبي ﷺ مبينًا خطورة العنصر النسائي إذا استغل في الشر، حيث قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» ([٥٢])، «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» ([٥٣])، «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» ([٥٤]).

فهذه النصوص صريحة في بيان خطورة استغلال العنصر النسائي في الإفساد، ونلحظ من بعضها أنها تشير أنها أعظم فتنة، وجعل الافتتان بها قرينا للافتتان

---

[٥٢] أخرجه البخاري في النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، حديث رقم ٥٠٩٦ [البخاري مع الفتح (٩/ ٤١)]؛ ومسلم في الرقاق برقم ٢٧٤٠ [مسلم بشرح النووي (٥٤/٩)].
[٥٣] أخرجه مسلم في الرقاق برقم ٢٧٤٢ [مسلم بشرح النووي (٥٥/٩)].
[٥٤] أخرجه مسلم في اللباس والزينة برقم ٢١٢٨ [مسلم بشرح النووي (٣٢٦/٧)].

بالدنيا ومساويا له، وبعضها يفصل في بعض جوانب الإفساد الذي ستقع به الأمة المحمدية من خلال النساء، إنها الشبكة العنكبوتية الأمثل للاصطياد. ([*]).

*****

مثل البعوضة في القرآن

قال الله ﷻ: "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" [البقرة:٢٦].

أولًا: مناسبة إيراد هذا المثل.

ذكرت كتب التفسير سببين لإيراد هذا المثل:

١- قال الحسن وقتادة: «لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل؛ ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله. فأنزل الله الآية» ([٥٥])، وعن ابن عباس قال: لما ذكر الله آلهة المشركين، فقال: وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه. وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت،

[*] ما ذكرته سابقًا إنما يخص جانب فتنة النساء ذي العلاقة بمثل العنكبوت، ويصدق على شريحة معينة في المجتمع مُستَغَلة للفساد والإفساد، أما النظرة العامة للمرأة المسلمة القائمة على أمر الله ﷻ فهي نظرة التكريم والإعجاب بالتضحيات التي تتميز بها في جوانب عديدة من الحياة، وهي شقيقة الرجل في الوظيفة الدينية، وفي الذود عن حوض الإسلام، بل لا أجانب الصواب إن قلت بأن هناك مواقف للمرأة المسلمة في زماننا تستحق أن تسطر بحروف من نور، ويعجز عنها عظماء الرجال، وحقيق ببعض هذه التضحيات أن تكون علمًا يؤتم به في الأمة بأسرها، فالمرأة شعلة إن اتقدت في الخير كانت منارًا يهتدى به، وإن استغلت في الشر احترقت وأحرقت.

[٥٥] القرطبي (٢٤٢/١).

قالوا: أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أي شيء يصنع!؟ فأنزل الله الآية» ([٥٦]).

٢- عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي: « لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله: مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا. وقوله: أو كصيب من السماء. الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال. فأنزل الله: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة» ([٥٧]).

يتضح من النصوص السابقة أن هذا المثل إنما جاء تقريعًا وتوبيخًا لهؤلاء الذين يشككون في القرآن، من خلال ما ذكر فيه من أمثلة على اعتبار أن الله أجل من أن يضرب الأمثال بتلك المخلوقات الحقيرة، فكيف يضرب مثلًا بذبابة ويترك الجمل أو الحصان وهي أشرف!؟ والسبب نفسه أيضًا كان وراء قول المنافقين بأن الله ﷻ أجل من أن يضرب الأمثال بالرعد والبرق.

وسواء كان هؤلاء المشككين في أمثال القرآن وصحة نسبتها لله اليهود أو المشركون أو المنافقون، فقد جاءت هذه الآيات لتشير إلى أن الله لا يستنكف أن يضرب مثلًا بأي شيء من مخلوقاته، ما دام يتحقق بذلك المقصود من بيان الحق ودحض الباطل.

والعبرة في ضرب الأمثال ليس بأدواتها وآلاتها، وإنّما بمكنوناتها وغاياتها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد يكون هذا المخلوق الحقير التي استعظم أهل الباطل ضرب المثل به؛ أكثر تعقيدًا وإعجازًا في الخلقة من المخلوقات الأخرى، وقد يكون

[٥٦] المصدر السابق نفس الصفحة.
[٥٧] الطبري (١٧٧/١).

الإعجاز الخلقي في البعوضة أعظم منه في الفيل، وهذا ما غفلت عنه الجاهلية الأولى.

وتشير كثير من الدراسات إلى أن تركيب البعوضة على صغر حجمها أكثر تعقيدًا من غيرها من المخلوقات، بل تتجلى فيها عظمة الخالق، من ذلك أن البعوضة أنثى ولها مائة عين في رأسها، أما فمها ففيه ٤٨ سنًّا، ولها ثلاثة قلوب في جوفها بكل أقسامها، ولها ستة سكاكين في خرطومها ولكل واحدة وظيفتها، ولها ثلاث أجنحة في كل طرف مزودة بجهاز حراري، يعمل مثل نظام الأشعة تحت الحمراء، وظيفته يعكس لها لون الجلد البشري في الظلمة إلى لون بنفسجي حتى تراه، إضافة إلى كونها مزودة بجهاز تخدير موضعي يساعدها على غرز إبرتها دون أن يحس الإنسان.

هذه بعض أسرار البعوضة المكتشفة، وهي تشير صراحة إلى أننا وإن كنا أمام مخلوق غاية في الصغر إلا أنه غاية في الإعجاز التكويني. إضافة إلى ذلك أن الله هو رب الصغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في الفيل هي ذاتها المعجزة في البعوضة، إنها معجزة الحياة، ذلك السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

أما الحكمة في ضرب الأمثال بالذباب أو البعوض أو غيرها من الحشرات الحقيرة؛ فهذا اقتضته طبيعة المثل والتمثيل، فالمثل عبارة عن تشبيه ومناظرة بين أشياء بينها وجه شبه معين، فإذا كان الشيء الذي يراد بيانه عظيمًا ناسب أن يذكر شبيهه من درجته في العظمة، وإذا كان حقيرًا ناسب أن يذكر شبهه في الحقارة، فبذلك تتضح المعاني وتستبين للسامع، يقول الزمخشري: «والتمثيل إنّما يصار إليه

لكشف المعاني، وإدناء المتوهّم من الشاهد، فإن كان المتمثَّل له عظيمًا كان المتمثّل به مثله، وإن كان حقيرًا كان المتمثل به كذلك» (٥٨).

ثانيًا: معنى الآية السابقة.

كما ذكرت سابقًا أن الآية جاءت ردًا على هؤلاء الذين استعظموا أن يضرب الله الأمثال في مخلوقاته الحقيرة، فبينت الآية أن الله ﷻ لا يمنعه مانع من أن يضرب الأمثال بأي شيء من مخلوقاته ولو صغر، ولو كان بعوضة أو ما هو أصغر منها، فالعبرة في المثل ليست في الحجم.

وكما أن الله لا يستنكف أن يخلقها كذلك لا يستنكف أن يضرب بها الأمثال؛ لأن الأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب الأمثال ما يعاب، وما من شأنه الاستحياء من ذكره ما دام في هذا المثل يستبين الحق لأهله، وهذه الأمثال إنما تضرب لاختبار القلوب وامتحان النفوس، فأما المؤمنون فيعلمون أنها الحق من عند الله، فتزيدهم هداية إلى هدايتهم، وأما أهل الزيغ فتزيدهم رجسًا إلى رجسهم وطغيانًا إلى طغيانهم، وعجبًا إلى عجبهم.

فقد تعجبوا من الرسول ﷺ أن جعل الآلهة إلهًا واحدًا، وتعجبوا لحال الرسول الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وتعجبوا من البعث وإحياء العظام وهي رميم، وها هو ذا يزداد عجبهم فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا!! فيزيدهم الله بهذه الأمثال في طغيانهم وضلالاتهم.

---

[٥٨] الإتقان في علوم القرآن (١٠٤٢/٢)، البرهان في علوم القرآن (٤٨٨/١).

ثالثًا: سر مثل البعوضة.

عن الربيع بن أنس قال: «هذا مثل ضربه الله للدنيا، إذ البعوضة تحيا ما جاعت؛ فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلأوا من الدنيا ريًا أخذهم الله» ([٥٩]).

إذا مثل البعوضة إنما سيق لبيان الدنيا، وضرورة عدم التوغل فيها وطلبها، بل يأخذ منها الإنسان بقدر حاجته فقط؛ لأنها دار حاجات وليست دار شهوات، فإن توغل فيها فهذا إيذان بهلاكه، كما أن البعوضة تجد فرص للنجاة ما دامت جائعة، فإذا أكثرت من الدماء وسمنت فهذا إيذان بقرب هلاكها.

وهذا المثل يبرز سرًا من أسرار العقوبة الربانية للبشر وناموسًا من نواميسها؛ مضمونه أن الإنسان إذا اعتبر الدنيا مجالًا لقضاء الشهوات، واستكثر منها ومال لجانب الترف فيها، فإن ذلك مفضي لهلاكه لا محاله.

والعجيب في هذا المثل روح المطابقة، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أن الدنيا تسوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء»، فالدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة، وطلبها ناسب معه مثل البعوضة نفسها.

وهذا المثل العجيب يكشف لنا سر الربط بين الهلاك والترف، كما بينت كثير من الآيات، يقول الله ﷻ: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" [الإسراء:١٦]، "فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ" [هود:١١٦]، فالآيات صريحة في الربط بين الترف

[٥٩] ابن كثير (٦٥/١).

والتوغل في الدنيا وبين العقوبة الربانية، بل الترف كما بينت آيات أخرى كان مانعًا لأهله من قبول الإيمان، بما ترتب عليه بعد ذلك هلاكهم.

ولهذا نجد أن النبي الأعظم قد حذر أمته الدنيا والتوغل فيها، يقول النبي ﷺ: «وَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» ([٦٠]).

لطيفة:

قد يتبادر سؤال هو: ما هي الحكمة من خلق البعوضة تلك الحشرة الضارة!؟ وفي ظني أن من حكمة خلقها أن يعلم الإنسان أن هذه الدنيا ليست دار راحة، بل فيها من التنغيص وأسبابه الكثير؛ لذا الأصل ألا يأوي إليها، ويطمئن لها.

*****

مثل اتباع الهوى والشيطان

قال الله ﷻ: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَاء مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ" [الأعراف:١٧٥-١٧٧].

[٦٠] أخرجه البخاري برقم ٢٩٨٨ (٣/١١٥٢)..

أولًا: الجو العام لسياق المثل.

هذا المثل جاء في الأعراف بعد سرد لجانب من قصص بني إسرائيل، بما يوحي بنوع تعلق بها، وجاء هذا المثل بشكل قصصي يتضمن حكاية واقعية، حصلت مع رجل أعطاه الله علمًا ورزقه إيمانًا، لكنه أعرض عن عطاء الله واستخدمه في الشر؛ فكانت النتيجة أن أصبح عبدًا للشيطان وتابعًا له.

ويتضح من القصة أنها لم تذكر اسمًا وزمانًا معينًا لهذا الحدث، شأن كثير من القصص القرآني الذي يعرض عن التفصيل فيما ليس في ذكره فائدة، فالعبرة في الحدث نفسه وليس في شخصه، ولعل عدم ذكر صاحب هذه القصة هو أننا مع قصة يتكرر حدوثها وأشخاصها؛ حتى أضحت مثلًا سائرًا متكرر الحدوث في كل زمان ومكان، وهذا ناسب التمثيل بها هنا.

معنى المثل وصورته:

هذا المثل يحكي صورة إنسان أعطاه الله ﷻ من آياته، وخلع عليه من فضله، وكساه من علمه، وقد اختلف المفسرون في الآيات التي أعطاها الله لهذا الرجل: هل هي اسم الله الأعظم أو علم الكتاب، أو استجابة الدعاء، وأيًا كانت هذه الآيات فالمحصلة أن الله ﷻ أعطاه فرصة كاملة للهداية والرفعة، ولكن هذا الرجل قابل فضل الله أو تلك الخصوصية بالنكران، بل استخدم عطاء الله ﷻ في الشر، وبدأ يتجرد من درعه الواقي وينسلخ تدريجيًا من تلك الآيات، لهثًا وسعيًا وراء الدنيا وشهواتها وتتبعًا لخطوات الشيطان.

هذه الفرصة التي اغتنمها الشيطان؛ فأضاف إلى عبدته وأتباعه رصيدًا جديدًا وصيدًا كان يظنه ثمينًا، فاستحوذ عليه وأنساه ذكر الله، بل أنساه إنسانيته فأخرجه من بشريته المركبة من روح وجسد، وأضحى جسدًا بلا روح وإنسانًا بلا هدف، بل تحول إلى روح شيطانية في جثمان إنسي.

لقد كان بمقدور هذا الإنسان أن يرتفع وفق قدر الله في سلم الولاية والنصرة الإلهية، لكنه اختار الركون للدنيا وشهواتها، اختار الهبوط من الأفق المشرق إلى الطين المعتم، ومال إلى ترابيته المظلمة بعد أن انسلخ من روحانيته التي لو لزمها لحلقت به في سماء الرحمة والرضوان والعزة، فماذا كانت النتيجة؟

لقد سقط هذا الرجل إلى الهاوية، والتصق بالطين وتلوث بها، وإذا به يتحول إلى مسخ كهيئة كلب في أقبح أوصافه وأسوأ أحواله، إنه الكلب اللاهث في جميع أحواله: إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، وهكذا هذا الرجل الذي أصبح يجري وراء نزواته وشهواته في كل أحواله، ويرضيه لخسته أي رمة تلقى له، ويبقى على لهثه جريًا وراء رمم أخرى.

لقد أضحى هذا الرجل أهون على الله ﷻ من هوان الكلب على أصحابه، فهو ممقوت مطرود من رحمة الله، كالكلب يزجره الناس ويطردونه من مساحتهم، ويتاحشونه مخافة أن يتنجسوا به.

ثم بينت الآيات أن هذا المثل لا يقتصر على رجل بعينه، بل هو مثل لكل قوم استحبوا العمى على الهدى، واختاروا غير طريق الله ﷻ: «ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا»، والغرض من المثل ليس تقرير قصة معينة بل حصول العبرة والموعظة: «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».

ثم بينت الآيات مدى بشاعة الذي يختار طريق الكفر بعد أن عرف الإيمان واستبصر طريقه، هذا الاختيار القبيح الذي يعود بالثبور والويل على صاحبه: «سَاء مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ».

إيحاءات المثل ودلالات عباراته.

١- «اتل عليهم نبأ»: التلاوة هي تكرار القراءة، والنبأ هو الخبر العظيم، وهذا يوحي بأهمية الأمر المتلو، وضرورة تكراره لحصول العبرة منه.

٢- «فانسلخ منها»: الانسلاخ في أصل اللغة يراد به عملية نزع الجلد أو الأديم عن الحيوان، وفي الغالب أن عملية السلخ تحتاج إلى جهد ومشقة، وذلك لحالة التلازم والالتحام بين الجلد واللحم، وهي أيضًا عملية تدريجية تبدأ من نقطة معينة حتى تكتمل بخروج الحيوان من ثوبه.

وجاء التعبير هنا بأنه بمجرد ما جاءته آيات الله ﷻ بدأ بالتنصل التدريجي والانسلاخ منها، يرشد إلى ذلك استخدام حرف الفاء الدال على الترتيب مع التعقيب؛ أي أنه لم يستقر على حالة الإيمان مدة طويلة بل سارع في التخلص منها.

كذلك لفظة الانسلاخ توحي بأن هذا الرجل كان حريصًا على التنصل من آيات الله التي كانت كالأديم المتلبس بلحمه، وها هو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة؛ انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه، إنه انسلاخ أيضًا من الفطرة الإيمانية التي فُطر عليها، ليخرج من جلده ودرعه الواقي ويتحول إلى صورة ممسوخة لا حافظ لها.

ومعنى انسلاخه هنا: تبرؤه من عهدة الإيمان والفطرة، وتنصله من أمانة حفظها، والتخلي عن التفكر فيها، والعمل بها، بل ونسيانها بالكلية وصد الناس عنها، يرشد إلى ذلك قوله ﷻ: «فكان من الغاوين» أي الضالين المضلين.

٣- «فأتبعه الشيطان»: لكلمة أتبع هنا معنيان في أصل اللغة: الأول: لحق به واستولى عليه وجعله تابعًا من أتباعه. والثاني: سبقه فلحقه.

والشيطان الرجيم من دأبه أن يخطو أمام الإنسان في الشر خطوات ليسلك الإنسان مسلكه ويقتفي أثره، فإن تأخر الإنسان عنه وتردد في اتباعه؛ أسرع خلفه حتى يدركه ويستحوذ عليه وينسيه ذكر الله.

والتعبير السابق يوحي بأنه بمجرد ما تنصل هذا الرجل من ربقة الإيمان ومن ثوب الهداية؛ تعهده الشيطان بالغواية مباشرة، يرشد إلى ذلك استخدام حرف الفاء، كذلك يمكن أن نستنبط من ذلك أن هذا الرجل قبل انسلاخه من آيات الله كان ميؤوسًا منه من قبل الشيطان، وذلك لما يرى من هالة نورانية تجلل هذا الرجل وتحفظه بفضل آيات الله، فلما انسلخ منها انكشفت سوأته أمام الشيطان، وذهبت تلك الهالة الحافظة فسارع إليه الشيطان وأغواه.

كذلك نستشف من التعبير السابق أن هناك نوعًا من المؤالفة حصلت بين هذا الرجل وبين الشيطان، فهو عندما كان يهرب من كنف الله ﷻ إنما يسارع الخطى نحو الشيطان، وهذه المسارعة منه نحو الشيطان وسبله اقترنت بمسارعة الشيطان نحوه، فأدرك كل منهما صاحبه واعتنقه، والتقيا على الغي والإلحاد.

٤- «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»: الإيمان أعظم نعمة يكرم الله ﷻ بها الإنسان، وهو سر إنسانيته، وإلا كان كالأنعام أو أضل، فإذا رافق الإيمان مزيد من الفضل الإلهي من خلال إطلاع صاحبه على بعض الآيات؛ كان الإنسان يحلق في ملكوت الرحمة الربانية والنعمة الإلهية: "قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ" [يونس:٥٨]، فهذه نعمة ما بعدها نعمة.

والأصل في الإنسان أن يحرص على شكرها بحفظها وتعهدها، والتضرع إلى الله بأن يديمها عليه إلى أن يلقاه، وهذا كان شأن النبي الأعظم: «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»، «اللهم اجعل خير أعمالي خواتيمها، وخير أيامي يوم ألقاك»، كذلك من مظاهر شكر الله على النعمة، بل أسمى تلك المظاهر؛ تصريفها في مرضاة الله واستغلالها في طاعته، يقول الله ﷻ: "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ" [الضحى:١١]، والإنسان إن طلب الهداية زاده الله منها: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ" [محمد:١٧].

وهذا الرجل لو شكر الله على نعمة الإيمان؛ لزاده الله ﷻ بها رفعة وتثبيتًا ونورانية، ولكنه قابل نعمة الله ﷻ بالجحود، واستغلها في غير طاعة الله ﷻ، سعيًا وراء لذات الدنيا وشهواتها، وآثر العاجل بالآجل: "أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ" [العنكبوت:٦٧]، فكانت النتيجة السقوط إلى الهاوية نحو الذل والمهانة والمسخ: "وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ" [الحج:١٣١]، إنه السقوط من سماء العبودية لله بما تتضمنه من رحمة ورضوان إلى ذل الهوان واستعباد الهوى واستحواذ الشيطان.

٥- «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث»: الرجل السابق مثله ونظيره هو الكلب الذي يلهث في جميع أحواله، بخلاف باقي الحيوانات التي تلهث فقط حال الإعياء أو العطش، أما عن وجه الشبه بين هذا الرجل وبين الكلب فيمكن إيراده من عدة جوانب:

الأول: اللهث في جميع الأحوال، فالكلب يلهث لضيق تنفسه بسبب ضعف قلبه، وهذا الرجل يلهث وراء شهواته وملذاته في جميع أحواله لمرض قلبه وضيق صدره، يقول الله ﷻ: "فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى

الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ" [الزمر:١٢٥]، فالآية ربطت بين اختيار طريق الضلال وبين ضيق النفس والرجس، أو النجاسة المعنوية.

وفي المثل اختار نفس الحالة، فاللهث إنما يكون بلسان الكلب لضيق نفسه، ولسانه هو أنجس ما فيه، مما يشير إلى أن هذا الرجل جمع إلى ضيق صدره ولهثه أيضًا نجاسة مركبة، شبيهة بنجاسة لسان الكلب الذي هو موطن اللهث.

الثاني: الخسة والدناءة بين كل من الكلب وهذا الرجل الذي استحب الكفر على الإيمان ولهث وراء الدنيا الفانية.

الثالث: الكلب اللاهث يستمر في لهثه في جميع أحواله، وكان اللهث منه عادة أصيلة في طبعه الخسيس، وكذلك الذي يؤتيه الله علمًا ودينًا ويغنيه عن أوساخ مال الناس، ثم نراه يميل إلى الدنيا طلبًا لها ويلقي نفسه إليها؛ فحاله كحال اللاهث، حيث واظب على الفعل القبيح والعمل الخبيث، لمجرد خبث نفسه وخستها ودناءتها لا لحاجة أو ضرورة.

الرابع: هذا الرجل قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وأصبح يجرى وراء الدنيا دون وعي، فكان الكلب اللاهث الذي لا يستطيع أن يترك لهثه سواء حملت عليه أو لم تحمل.

ومن أخلاق الكلب أنه ينبح ويهجم على من لم يخف منه ابتداءً، ثم تهدأ طائشته إذا ألقيت إليه أي رمة ليأكلها فتصرفه عن همته الأولى، وهذا حال أهل العلم الذين يطلبون الدنيا بفتاواهم.

*****

الدنيا والآخرة موازنة نبوية

مثل الدنيا والآخرة

عن المستورد ﵁ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ –وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ– فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ» ([٦١]).

شرح المثل:

هذا الحديث يسوق لنا صورة تمثيلية تبين النسبة بين الدنيا والآخرة، فقد نعلم أن الآخرة عظيمة، وأن الدنيا حقيرة قياسًا لها، لكن قد لا يحصل عندنا تصور حقيقي لنسبة المفارقة بين الاثنتين؛ لذا جاء هذا المثل ليبرز لنا مدى المفارقة بينهما، وقد جاء ضمن صورة حسية قريبة من واقعنا.

فمثل الدنيا من الآخرة كمثل إنسان يذهب إلى البحر العظيم، فيضع إصبعه فيه ثم يخرجه وينظر كم حمل من ماء البحر؛ لعل أقصى شيء أمكن تصوره هو أن يحمل على إصبعه ما يعادل قطرة واحدة من ذلك البحر، هذه القطرة هي الدنيا، أما ذلك البحر العظيم الذي لا يدرك منتهاه، ولا تحيط بسعته وحدوده الأبصار فهو الآخرة.

[٦١] أخرجه مسلم.

ولو نظرنا إلى الدنيا بمجموعها نجد فيها الآلام والآمال، السعادة والحزن، الملذات والشدائد والابتلاءات، النعيم والعذاب.

ومقتضى المثل أن ينظر المرء لكل أشكال النعيم الدنيوي، ما عرفه وما لم يعرفه، ما ذاقه وما لم يذقه، ما رآه وما لم يره، ويقول هو بالنسبة لنعيم الآخرة قطرة من بحر. كذلك ينظر لكل عذابات الدنيا وأشكال الآلام فيها، ما ذاقه وما لم يذقه، وما سمع به أو رآه أو ما لم يسمع وير، ويقول هو بالنسبة لعذاب الآخرة قطرة في بحر.

وهذه النسبة أحيانًا لا يدركها الإنسان لأنه ما رأى نعيم الآخرة ولا عذابها؛ ولا يوجد بشر في الأمة عنده تصور حقيقي لهذه النسبة إلا محمد ﷺ الذي عاين الجنة والنار، ورأى من آيات ربه الكبرى؛ لذا كان هذا المثل الذي يشير إلى تلك المعاينة التي تبرز المفارقة بين الدنيا والآخرة بشكل نسبي تقديري.

ولصعوبة إدراك عظمة نعيم الآخرة قال الله ﷻ: "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [السجدة:١٧]، وهذه الصيغة تشير إلى عموم النفي؛ أي لا يمكن لأي نفس بشرية أن تدرك أو يحيط إدراكها عظمة النعيم الأخروي، كما أننا لا نستطيع الإحاطة بأبصارنا عظمة البحر المحيط، بل يمكن إدراك عظمة البحر المحيط لإمكان إخضاعه لحواسنا؛ لكن لا يمكن تصور عظمة النعيم أو العذاب الأخروي؛ لأنه خارج حدود حواسنا ومداركنا.

وفي الحديث القدسي: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» (٦٢)، هذا الأثر يبرز عجز الحواس ومن ورائها المدارك والعقول عن تصور مدى عظمة النعيم الأخروي؛ بل في الحديث

٦٢ أخرجه البخاري.

إشارة عجيبة، وهي أنه لو فتحنا المجال للخيال لكي يسرح من كل البشرية في تصور لأشكال النعيم المتوقعة في الجنة؛ فهناك ما هو فوق الخيال مما لا يمكن أن يخطر في فكر بشر؛ أي هناك نعيم فوق كل تصورات البشر وعقولهم وخيالاتهم.

والسبب أن العقل محكوم في إدراكه بالحواس، يدور في فلكها وما تمده من معلومات، والحواس لم تر إلا القطرة (الدنيا)؛ لذا يعجز العقل وفق المعلومات التي استمدها من الحواس إدراك عظمة وحدود البحر العظيم من أشكال نعيم الآخرة؛ لأنها خارجة عن حدوده، ومن هذا الوجه يمكن القول أن تصورنا لنعيم الآخرة وعذابها ما زال تصورًا سطحيًا محدودًا، بالرغم من كثرة الآيات والأحاديث المفصلة في هذا الأمر، ويرى العلماء أن هذه الآيات مما لم يأت تأويله، ولا يمكن إدراكه إلا عند رؤيته حقيقة.

حديث آخر يبرز المفارقة بين نعيم الدنيا وعذابها مقارنة بالآخرة: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» ([٦٣]).

هذا الأثر يبرز مدى المفارقة، لدرجة أن لحظة واحدة في عذاب الآخرة كفيلة بأن تلغي من الذاكرة كل لحظات النعيم التي ذاقها أكثر الناس تنعمًا في الدنيا، وبالمقابل نظرة واحدة في الجنة كفيلة بأن تجعل أبأس الناس في الدنيا ينفي أنه في كل حياته الدنيا قد تعرض لأي بؤس، والذي حصل أنه لا مقارنة لكليهما بين الدنيا والآخرة.

---

[٦٣] أخرجه مسلم.

موازنة فكرية بين الدنيا والآخرة.

قد يستعظم البعض تلك المفارقة بين الدنيا والآخرة، أو قد لا يتصورها؛ لذا لا بد من تقريب الأمر، فنقول: إن أغلى ما في الأرض بحدود علمنا هو ما يعرف بالأحجار الكريمة، وطبعًا هذه الأحجار خاصة النفيسة منها لا يمتلكها إلا عدد قليل جدًا من الأثرياء، أما باقي أهل الأرض فلا يملكون إلا أن يسمعوا عنها أو يرونها في الصور؛ إذًا هذا أثمن ما في الدنيا.

وأثمن شيء في الأرض أو غاية ما يطمح بتحصيله الإنسان في الدنيا يكون تحت الأقدام في الجنة، فالجنة حصباؤها اللؤلؤ والياقوت والمرجان، طبعًا مع فارق في الجودة بين كلٍ؛ فإذا كان غاية ما يطمح الإنسان في الدنيا يكون تحت الأقدام في الجنة، فكيف بالجنة نفسها!؟

ومن وجه آخر نقول: أن نعيم الدنيا ليس خالصًا لأهله، بل تحفه المكدرات والمنغصات والمخاوف، تجعل الإنسان في كل لحظة من حياته أسيرًا بين أمرين وهما الحزن على ما فاته، والخوف من زوال ما في يديه، أما في الجنة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

يكفي القول أن نعيم الدنيا مهما عظم إلى زوال وفناء، أما نعيم الآخرة فهو دائم خالد، ولا قياس بين ما يفنى وما يبقى.

أما بالنسبة لعذابات الدنيا قياسًا مع عذاب الآخرة، فالمعلوم أنه مهما عظم عذاب الدنيا أو أشكال البلاء والتنكيل فيها فهي حتمًا تنتهي بالموت، وكلما اشتد

العذاب والتنكيل كلما كان ذلك إشارة إلى نهاية صاحبه في الدنيا في الغالب، لكن المعذَّب في الآخرة قال في حقه الله ﷻ: "ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى" [الأعلى:١٣].

فهذا هو العذاب حقًا؛ لأنه لا يسمح لصاحبه بالاستراحة منه أبدًا، بل هو عذاب سرمدي دائم يقول الله ﷻ: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ" [فاطر:٣٦]، "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا" [النساء:٥٦]؛ فأي عذاب يقاس مع هذا العذاب!! بل كل عذاب الدنيا لا يعادل قطرة من بحر من عذاب الآخرة.

سئل أحد العلماء عن مكث أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة؛ فذكر مثلًا تقريبيًا فقال: تصور لو ملئ ما بين السماء والأرض من حبوب السمسم، تلك الحبوب الصغيرة جدًا، والتي لا تملك أن تعد حفنة صغيرة في قبضة يدك، ثم جاء طائر وأخذ حبة سمسم واحدة كل خمسمائة عام، ينتهي السمسم بين السماء والأرض، وأهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار؛ إنه الخلود، فأي نعيم أو عذاب يقاس مع نعيم الآخرة أو عذابها!؟

لماذا نستعظم القطرة ونغفل عن البحر العظيم!؟

المثل السابق أشار إلى أن الدنيا بنعيمها وعذابها هي قطرة من بحر مقارنة مع الآخرة، لكن هذه القطرة بالرغم من صغرها لو وضعناها فوق بؤبؤ العين فإنها لا محالة تحجب عنا رؤية البحر العظيم، وهذا ما وقع فيه أكثرنا، حيث نكثر من ذكر الدنيا والانشغال بها؛ بحيث يتركز فكرنا ووجداننا وعواطفنا نحوها في ليلنا ونهارنا،

في كلامنا وسلوكنا حتى استمكنت من قلوبنا، وسدلت ستارًا كثيفًا وحجبًا بين القلب وبين رؤية الآخرة، وأصبحت الدنيا في مركز النظر بيننا وبين الآخرة فحرمنا رؤيتها.

لذا كان جهد الأنبياء في مسح تلك القطرة من مركز النظر؛ لكي يتسنى للبشر رؤية ما حجبته من بحر عظيم غير متناه، وقد نجح الأنبياء في ذلك مع أتباعهم حتى أصبحوا أجسادًا في الدنيا، أما أرواحهم فانطلقت في جنبات البحر العظيم، وسرحت في عالم الملكوت بين الجنة والنار.

عن الحارث بن مالك الأنصاري ﵁ قال: «إنه مر برسول الله ﷺ فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقًا. فقال: انظر ما تقول! فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال النبي ﷺ: يا حارث! عرفت فالزم ثلاثًا» ([٦٤]).

وكلما بعدت المسافة عن هدي الأنبياء كلما استمكن حب الدنيا من جديد من القلوب، وعادت القطرة لتحجب البحر العظيم، وقد استشعر الصحابة بداية استمكان الدنيا في التابعين عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال لبعض التابعين: «أنتم أكثر صلاة وأكثر صيامًا من أصحاب محمد ﷺ وهم كانوا خيرًا منكم. قالوا: وبم؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب منكم في الآخرة» ([٦٥]).

[٦٤] أخرجه الطبراني برقم ٣٣٦٧ [المعجم الكبير (٢٦٦/٣)]؛ وابن حميد برقم ٤٥٥ [مسند عبد بن حميد (١٦٥/١)]؛ والبيهقي برقم ١٠٥٩١ [شعب الإيمان (٣٦٣/٧)]؛ وذكره ابن كثير [التفسير (٢٨٧/٢)]؛ قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج للكشف عنه [مجمع الزوائد (٥٧/١)].

[٦٥] أخرجه الحاكم برقم ٧٨٨١، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه [المستدرك (٣٥٠/٤)].

وعن عمرو بن العاص ﷺ يقول على المنبر: «والله ما رأيت قومًا قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم، ترغبون في الدنيا وكان يزهد فيها، والله ما مر برسول الله ﷺ ثلاث من الدهر إلا والذي عليه أكثر من الذي له» ([٦٦]).

فهذه بداية الخلل، ويترتب على هذا الخلل كل الشرور المتوقعة، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة؛ لذا كان حبها هو أشد ما يخافه النبي ﷺ من أمته، يقول ﷺ: «.. فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» ([٦٧]).

صورة حية تبرز أثر انكشاف عظمة الآخرة على القلوب.

عندما اشتد الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون لعنه الله، وانتهى الأمر بالمنازلة العظيمة بينه وبين السحرة، لم يكن في بادئ الأمر في قلوب السحرة إلا عظمة فرعون ودنياه؛ لذا قبل المنازلة تزلفوا لفرعون بطلب أجر عظيم إذا كانت لهم الغلبة في تلك المنازلة، يقول الله سبحانه وتعالى: "فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ" [الشعراء: ٤١-٤٢].

إذًا هذه وعود فرعون، وهي التي حفزتهم أكثر بل جمعت جهودهم للكيد بموسى عليه السلام، فلما ألقى موسى عصاه، وأدرك السحرة بحكم خبرتهم بالسحر وحدوده أن حية موسى عليه السلام كانت حقيقية، وأن بشرًا عاديًا مهما أوتي من قدرات لن يقوم بما قام به موسى عليه السلام، وأنه لا بد من قوة عظيمة كانت وراء تحويل العصا لحية حقيقية.

[٦٦] أخرجه الحاكم برقم ٧٨٨٢، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه [المستدرك (٣٥٠/٤)].
[٦٧] أخرجه الترمذي برقم ٢٤٦٢، وقال: حسن صحيح (٦٤٠/٤)؛ وابن ماجة برقم ٣٩٩٧ (١٣٢٤/٢).

لذا وبحالة إيمان سريعة غير شعورية جعلت السحرة يسجدون لله ﷻ، بعدما عاينوا عظمته ماثلة أمام أعينهم: "فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى" [طه:٧٠]، وقد جاء لفظ «أُلقي» بصيغة المبني للمجهول؛ أي أن عظمة الله ﷻ التي عاينوها هي التي ألقتهم على الأرض ساجدين لله ﷻ، وبسجودهم هذا كانوا عند عرش الرحمن.

فقد ثبت في الأثر القدسي أن الله ﷻ يقول: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» (٦٨)، فمقتضى الأثر السابق أن تقرب العبد لله ﷻ يترتب عليه تقرب أكثر من جهة الرب، والسحرة لم يتقربوا من الله ﷻ لا شبرًا ولا ذراعًا، ولا أتوه ماشين بل بسجودهم هذا كانوا أقرب ما يكونون من الله كما ثبت في الحديث الصحيح: «وأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» (٦٩).

إذا كان السحرة بسجدتهم هذه عند عرش الرحمن، ومقتضى الحديث الذي سبقه يشير إلى أن هذا التصرف من العبد يرافقه مباشرة قربة من الله ﷻ تعزز تثبيت هذا العبد، يقول بعض المفسرين: أن الله ﷻ أكرم السحرة عندما سجدوا برؤية الجنة والنار؛ أي عاينوا البحر العظيم قياسًا مع الدنيا التي لا تمثل إلا قطرة واحدة منه.

وبهذه الرؤية هان على السحرة نعيم فرعون وتهديده وعذابه، مع أن تهديده كان فظيعًا جدًا: "فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى" [طه:٧١].

---

٦٨ أخرجه البخاري برقم ٧٠٩٨ (٦/٢٧٤١)؛ ومسلم برقم ٢٦٧٥ (٤/٢٠٦٧).
٦٩ أخرجه مسلم برقم ٤٨٢ (١/٣٥٠).

إذًا هذا تهديد فرعون ووعيده الفظيع، وسبقه وعوده وهباته للسحرة إن كانوا هم الغالبين، وبالرغم من عظمة وعده ووعيده إلا أن السحرة عندما رأوا عظمة الجنة وما فيها من نعيم مقيم، لم يكونوا يتصورون مثله؛ هان على قلوبهم كل هبات فرعون ووعوده، التي تعتبر قطرة من بحر نعيم الآخرة الذي رأوه.

وكذلك عندما رأوا هول عذاب الآخرة؛ أصبح في نظرهم تهديد فرعون المخيف لا شيء أمام عذاب الله ﷻ؛ لذا قالوا لفرعون: "لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٢ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ٧٣ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى ٧٤ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ٧٥ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى" [طه:٧٢-٧٦].

فالآيات فيها تصريح بموازنة السحرة بين الدنيا والآخرة، وإن كنت يا فرعون تظن أن عذابك أشد وأبقى فإن الله خير وأبقى، أما أنت فلا تملك بعد قدر الله إلا الحياة الدنيا، التي هي قطرة بالنسبة لبحر الآخرة؛ لذا نصبر على تهديدك ووعيدك طمعًا في الجنات العلى التي عايناها، ولن نبيعها بدنياك الحقيرة.

إذا هذا مثل حيوي يبرز لنا أن الإنسان إذا عاين بقلبه الآخرة وعظمتها، فإنه ستهون عليها الدنيا وزينتها، ولن يبيع الباقية بالفانية.

ما يؤخذ من المثل:

١- هذا المثل يعتبر من أهم الأمثلة المبرزة لعظمة الآخرة قياسًا بالدنيا، وإدراك المؤمن لهذه المفارقة له الأثر الكبير في ثباته على دينه وصبره على المكاره

والابتلاءات، وعدم إيثاره للعاجل بالآجل، وبهذا الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

٢- في المثل إشارة إلى أن الإنسان مهما أوتي من بصيرة وعلم فإنه لن يحيط بعظمة الآخرة، بل الآيات ذات العلاقة بوصف الآخرة تعتبر من المتشابه، الذي لم يأت تأويله على حقيقته بعد، وإنما سيقت هذه الآيات للتقريب والترغيب فقط.

٣- هذا المثل يهيج على الزهد بالدنيا وعدم الاغترار بزهرتها، بل إذا استعظم شيئًا منها فإنه قياسًا لما أعده الله ﷻ قطرة في بحر.

*****

مثل الحياة الدنيا والحدث الكوني

ذكر الله في القرآن الكريم ثلاثة أمثال صريحة تبرز طبيعة الحياة الدنيا، واحد في سورة يونس، وواحد في سورة الكهف، والثالث في سورة الحديد، هذه الأمثال الثلاثة وإن كانت تدور حول فكرة واحدة إلا أن كل مثل فيها يعالج جانبًا غير الذي يعالجه المثل الآخر.

ومدى إدراكنا لعمق المعالجة التي يعالجها المثل مرتبط تمامًا بمستوى الوعي الذي نمتلكه في فهمنا للمثل ودلالاته وفق السياق المطروح داخله، ووفق الجزئيات الخاصة به والتي تميزه عن غيره من الأمثال التي تتناول نفس المضمون.

والقرآن الكريم كما وصفه الله أنه كريم أي عظيم العطاء، وهو كذلك قرآن مجيد، ومجيد ترشد إلى ديمومة العطاء في كتاب الله، فهو حينما تسأله يعطيك ويعطيك، وهكذا تنتهي البشرية ولا تنتهي عطاءات القرآن الكريم.

من هذا الوجه قال بعض علمائنا: من لم ير أن القرآن الكريم ليس حمال وجوه في دلالاته فليس بمفسر. والأمثال بما حوته من كلمات قليلة؛ هي في حقيقتها بحر خضم من العطاء اللامتناهي من الدلالات.

نرجع لموضوعنا وهو مثل الحياة الدنيا المذكور في سورة يونس، لنرى ما يحمله لنا من دلالات متنوعة، بعض هذه الدلالات قريب المآخذ، وبعضها عميق.

يقول الله ﷻ: "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" [يونس٢٤].

هذا المثل بدايته تشبه بداية المثل في سورة الكهف، لكن بقية المثل حملت أسراره الخاصة به، والمعنى السريع للمثل هو بيان حقيقة الدنيا التي تصل أعلى مراتب التزين ثم يأتيها الهلاك فجأة، وتتبدل أحوالها بعكس ما كانت عليه، فهذا هو المعنى العام، وحتى يستبين نهج المفسرين في طرح مدلول المثل، أرى أن أضع هنا ما ذكره ابن كثير عند تفسيره للآية.

يقول ابن كثير: "ضرب تبارك وتعالى مَثَلًا لِزَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَسُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ، بماء أنزل من السماء، مما يأكل الناس من زروع وَثِمَارٍ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، وَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ مِنْ أَبٍّ وَقَضْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى إذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها أَيْ زِينَتَهَا الْفَانِيَةَ وَازَّيَّنَتْ أَيْ

حَسُنَتْ بِمَا خَرَجَ مِنْ رُبَاهَا مِنْ زُهُورٍ نَضِرَةٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَظَنَّ أَهْلُها الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أي على جذاذها وحصادها، فبينما هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ أَوْ رِيحٌ شديدة بَارِدَةٌ، فَأَيْبَسَتْ أَوْرَاقَهَا وَأَتْلَفَتْ ثِمَارَهَا، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهارًا فَجَعَلْناها حَصِيدًا أي يابسًا بعد الْخُضْرَةِ وَالنَّضَارَةِ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ أَيْ كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حَسْنَاءَ" ([٧٠]).

وما طرحه ابن كثير هنا هو ذات المعنى الذي يدور حوله أكثر المفسرين القدماء، لكن هل تنتهي دلالة المثل عند ما يطرحه المفسرون!؟ طبعًا لا، خاصة أن القرآن الكريم يؤتي كل حين أكله بإذن الله، فما يطرحه المفسرون هو المعنى العام الظاهر للآيات، وهو هنا لا يختلف في مدلوله عن المثل المطروح في سورتي الكهف والحديد.

لكن سياق المثل في سورة يونس ودلالات نظمه تشير إلى معاني كثيرة أعمق من المطروح، ويحتملها المدلول وإن كان بعيد المنال، ونحن هنا نعيش مع سياق المثل وروحه؛ لنحاول اكتشاف ما يخبئه لنا من دلالات أخرى مهمة جدًا لنا، خاصة في تلك المرحلة التي تتميز ببعدها عن عهد النبوة، وكثرة ما حملته من مفاجآت سواء من الناحية العلمية أو من طبيعة المرحلة، أو ضعف الناصر وضبابية التصورات، ففي مثل تلك الظروف تتجلى دلالات القرآن لترشدنا وتحذرنا وتعلمنا ما لم نكن نعلم، ولكي يتضح الأمر تعالوا نفصل مدلول المثل بكل أجزائه وسياقه ونظمه ومدلولاته.

أولًا: سياق المثل.

[٧٠] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢٢٧/٤).

عندما نتعامل مع القرآن الكريم نعلم أن كل حرف أو كلمة أو عبارة فيه لها موضعها الخاص، بحيث لو غيرت أو بدلت مكانها تغير كل مدلولها، فالعبارات في القرآن هي كتلة حيوية تعطي بحسب موضعها في السياق، ومن هذا الوجه مثل سورة يونس له سياقه الخاص المغاير لذات المثل في سورتي الحديد والكهف.

فسورة يونس ركزت من بدايتها على مسألة الكفر والعصيان وما يترتب على ذلك من عقوبات ربانية، وتميزت بكثرة الردود على تلك المعاندة الكافرة في الآيات التي تسبق المثل، ومن القضايا المحورية التي طرحتها الآيات:

١-الله يبدأ الخلق ثم يعيده وهذه إشارة مهمة.

٢-المطمئنون للدنيا ولا يرجون لقاء الله وهم في غفلة عن تدبير الله في كونه.

٣-لو عجل الله للناس حسابهم لقضي إليهم، لكن حلمه عليهم هو الذي يبقيهم في الأرض، ويتركهم في طغيانهم يعمهون.

٤-أبرزت الآيات طبيعة الإنسان أنه في السراء يكفر، وفي الضراء يلجأ لله مخلصًا له الدين.

٥-أبرزت الآيات بشكل مجمل قانون العقوبة المتعاقبة على البشرية وموجباتها، مما يرشد أن السياق يركز على جانب عقوبة ما.

٦-يقول ﷻ بين الآيات السابقة للمثل: "وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ"، هنا الحديث عن آية تنزل من عند الله، والآية بينت أن مرد الآية لله عالم الغيب، ثم طالبت بالانتظار من جهتهم ومن جهة النبي والمؤمنين من ورائه، مما يشير إلى أن الآية قادمة لا محالة؛ لكنها ما زالت في طور الغيب، ونلحظ أن صيغة انتظروا إني معكم من المنتظرين، هي ذاته الصيغة المطروحة في سورة

الأنعام، والتي تتحدث عن آيات الساعة العظام أو ما عرفت بعلامات الساعة الكبرى.

٧-ركزت الآيات بعد موضوع الآية على مسألة الطبيعة البشرية، خلال ثلاث آيات تبرز كيف أن الإنسان عندما يأتيه العذاب يرجع إلى الله مخلصًا له الدين، والفكرة هنا ذكرت بإشباع مع أنها طرحت سابقًا في الآيات، وبعد هذه الآيات مباشرة جاء طرح المثل ليتكلم عن حالة عقوبة عظيمة هي من باب أمر الله.

فسياق الآيات السابقة كلها من بداية سورة يونس حتى المثل كأنها تمهد لأمر عظيم منتظر، وهو وعد إلهي وهو آية عظيمة طلبها الأولون ولم يأت نفي حدوثها، بل طُلب من الجميع الانتظار، حتى تأتي هذه الآية في وقتها المحدود والمعلوم مسبقًا.

هذا السياق الذي جاء لأجله المثل هنا، لا ليتحدث عن عقوبة جزئية، بل جاء لينبه إلى قضية محورية تتعلق بكامل الأرض، وليس جزء منها كما سيتضح من تفصيل مدلول المثل.

ومن تتبع سياق السورة بعد المثل، وهو الذي نعبر عنه بـ(اللاحق)؛ نجد أن الفكرة ما زالت مهيمنة على السياق، وخلال آيات كثيرة متتابعة، منها على سبيل المثال قوله ﷻ: "وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ" [يونس٤٦].

إذًا هناك أمر موعود به القوم، وهذا الأمر قد يكون بعد وفاة النبي فهو متروك للمشيئة والغيب إلى حينه، ثم عادت الآيات لتؤكد على الأمر الموعود بقوله ﷻ: "لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ٤٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ

إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ" [سورة يونس]، هنا الآيات تسير في ذات سياق المثل، وبيان طبيعة العذاب المفاجئ ليلًا أو نهارًا، وهذا العذاب الذي يستعجل به البعض ما ينتظرون إلا وقوعه، عندها يؤمنون ساعة لا ينفع معها إيمان ولا ندم.

وهكذا السورة بمجملها في سابق المثل ولاحقه تشير إلى العقوبة، وإلى حال الإنسان معها قبل وقوعها وبعد وقوعها، وتكرر فيها لفظة (الآن) مرتين: مرة مع الحدث الذي يصيب الناس ليلًا أو نهارًا، ومع فرعون وهو يصارع الأمواج في لحظاته الأخيرة، هناك وحدة عضوية تسير معها السورة كاملة، وتشير إلى أمر مباغت وتمهد له، وفي عمق الأمر جاء المثل ليبين لنا ما هو هذا الأمر المباغت.

ثانيًا: مدخل لتحليل مدلول المثل.

يقول ﷻ: "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ"، هنا المثل يسير مع ذات السياق المطروح في سورتي الكهف والحديد، لكن الشيء المغاير في المثل هنا هو أنه انتقل من ظاهرة النبات ونموه ثم هلاكه الطبيعي –كما في السور الأخرى–، إلى حالة جديدة تتعلق بالعقاب الرباني. هنا تحول الكلام بصيغته ليتحدث عن الأرض وزينتها، وأصبح الكلام عن الأرض كل الأرض، وهذا هو السر الخاص بهذا المثل؛ لذا سأفصله تدريجيًا.

ثالثًا: زخرف الأرض وزينتها.

يقول ﷻ: "حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا" [يونس٢٤]، هنا المثل بدأ يأخذ منحىً آخر، يبرز فيه توقيت تلك العقوبة التي طرحها مسبقًا، واستعجل بها القوم الأوائل المدعوون من الرسول الأعظم، هذه العقوبة التي ترك تحديد وقتها إلى الله وعالم الغيب، وأبرزت الآيات أنها قد تكون بعد وفاة النبي عليه السلام.

فالعقوبة لن تكون في عهد النبي عليه السلام، إنما تكون عندما تأخذ الأرض زخرفها وزينتها بأعلى الدرجات، إنه زماننا حيث تعاطت الأسباب مع الإنسان بأكثر مما يتصور أو يطمح، حتى استطاع اكتشاف سنن الأرض الكونية التي تفاعلت معه بشكل متكامل، ووصلت الأرض إلى أقصى درجات عطائها، وهذا زخرفها كما نشاهد حاليًا على مستوى الأرض.

أما كلمة "ازينت"؛ فهي إشارة إلى ذلك النفع الكبير الذي حصل للإنسان، وما ترتب عليه من زينة وترف، فهي في حالة تزين مستمر كل يوم تأتيه بجديد، مما نشاهده من مدنية بأرقى درجاتها...

فالزخرف والزينة حاصلة في زماننا بأسمى أشكالها، لكنها في نفس اللحظة التي تفاعلت مع الإنسان؛ قابلها الإنسان بالطغيان والنسيان، حيث أغرق نفسه بالأسباب التي تفاعلت معه، وحصل عنده حالة استغناء عن رب الأسباب ومسببها. وهذا حاصل بقوة فبدل الدعاء لله اذهب للطبيب يكفيك أمرك، وبدل الواعظ الديني يكفيك الطبيب النفسي، وبدل سؤال الله مباشرة أو حمده والاستعانة به، أصبحت حالة استغناء؛ فالأسباب ها هي تعطينا دون لجوء إلى أي قوة غيبة عن أعيننا وأبصارنا.

وكان الاستدراج أن الأسباب تفاعلت بأكثر مما يطمح الإنسان، ضمن أعظم تمحيص وامتحان تغيب معه حركة الغيب، ولا تتكشف للإنسان مباشرة في تدخلاتها؛ هنا حصل الاستغناء والطغيان والنسيان، ودخل الامتحان أقسى درجاته عندما

أقحمت فيه أمة الإسلام، التي لم تلتفت للسنن الكونية وأهملتها؛ فخرجت من حوزتها بشكل من أشكال الاستبدال الجزئي، ثم ابتليت في آخر أمرها بما يبهرها من خلال هذا الزخرف والتزين على أيدي غيرهم.

إذا مع الزخرف والزينة كان الابتلاء في أوجه، وتعاطت الأسباب مع من يفهم سننها وقوانينها التي لا تحابي أحدًا، لكنها لم تكن في كفة المسلمين، ولكن في كفة غيرهم.

هنا نرجع للسياق لأشير إلى لطيفة مهمة جدًا؛ وهي أننا نلحظ أنه في العهد النبوي كان هناك تحذير من عقوبة عظيمة، وكان يستعجلها أهل مكة، لكن الآيات أبرزت أنها موكولة بعالم الغيب عندما يأتي أوانها، فكل نبي كان يشير إلى العقوبة، وكذلك النبي العالمي أشار لعقوبة أبرزتها سور أخرى.

لكن لطبيعة رسالة محمد ﷺ بكونها عالمية؛ لم يكن المقصود بها أهل مكة، بل المقصود بها زمان آخر تتنهي فيه رسالة الإسلام من حالة الانتشار العالمي كرسالة عالمية، فطبيعة الرسالة المحمدية هي التي غيرت من نمط العقوبة وتوقيتها.

فهو رسول عالمي؛ لذا ينتهي باب العقوبات الماحقة حتى تكتمل عالمية الرسالة، وتدخل في أتون الصراع وبؤرته بعد اكتمال الحجة؛ عندها يكون توقيت العقوبة، وقد جاءت الآيات في سورة يونس نفسها لتؤكد على هذه السنة الخاصة بالعقوبة، وجاءت أيضًا الآيات المشيرة إلى الانتظار، ثم احتمالية وقوع الآية بعد وفاة النبي، وهذا سر عجيب حملته الآيات خاصة في سورة يونس.

رابعًا: الثقة العمياء بالأسباب.

يقول الله ﷻ: "وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا"، هذا المقطع من الآية يبرز نتيجة طغيان الإنسان برؤيته الأسباب وغفلته عن مسببها، وعدم انتباهه أن تعاطي الأسباب معه ليس مطلقًا، بل هو يدخل ضمن مرحلة خاصة من الابتلاء، وتجارب الحق والباطل على مدار التاريخ.

فكل زمان له وعيه وسننه الخادمة له، وهكذا تفاعل الأسباب لا يعني أنها تنطلق من ذاتها بعيدًا عن المسبب، واقتضت حكمة الله أن تطول التجربة الإنسانية وتعاطي الأسباب معه بشكل تفاعلي أكبر من المتصور، وهذا عمق عند الإنسان الغافل فكرته في نسيان المسبب وفكرة الله من حساباته، خاصة أنه وثق بإمكاناته وقدرته على التحكم في كل شيء حوله.

فالزلازل وجدوا لها من الحلول المخففة لآثارها، ووصلوا حتى إلى فكرة الاستنساخ بكل أنواعها، وتحكموا في تأثير كثير من الأمراض، بل حتى لو جاء نيزك نحو الأرض فلهم خطط لمواجهته، بالفعل لقد ظنوا أنهم قادرون على الأرض كل الأرض، ولا ينازعهم في قدرتهم منازع، تعاطي الأسباب معهم بهذا الشكل استدرجهم لنسيان المسبب، وطول العهد أنساهم المفاجآت من الرب.

خامسًا: المفاجأة من حيث لا يحتسب الإنسان.

يقول ﷻ: "أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ"، إذا بعد اكتمال تزين الأرض وأخذها كامل زخرفها، وما ترتب على ذلك من اعتقاد يجعل الإنسان يتمحور حول ذاته، واثقًا بقدرته بعيدًا عن الله، ومع اكتمال الثقة

العمياء والشعور بالقدرة المطلقة، وتغيب المطلق الحقيقي (الله) من الحسابات، ففي هذا التوقيت بالذات يأتي أمر الله. وهذا ينقلنا للبحث عن الأمر في السور القرآنية.

جاءت الإشارة للأمر في بداية سورة النحل بقوله ﷻ: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" [النحل١]، بحسب المعطيات التي بين أيدينا أن الأمر انطلق نحو الهدف مع نزول الآية، وبحسب فكرة قدوم كوكب يحتاج إلى آلاف السنين حتى يصل إلى الأرض، عندها يكون الأمر أتى في ميزان السماء.

ومعنى أتى أي أنه في الطريق إلينا، تلك المسافة الزمنية التي نراها طويلة لكنها في ميزان السماء لا تعد، فتكون مسألته شبيهة فيما يقع من الأرصاد الجوية، عندما ترى منخفضًا جويًا قادمًا نحو جهة ما فتقول لهم جاءكم المطر. المطر قد يستغرق أسبوع أو يومان، لكنهم يعبرون عنه بصيغة الماضي؛ للإشارة إلى حتمية وصوله بحسب العادة.

وهذا ينقلنا مرة أخرى للبحث عن الأمر في السنة النبوية أيضًا، يقول النبي عليه السلام: «لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» ([٧١])، «وَلاَ تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ» ([٧٢])، «وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ: حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ» ([٧٣]).

إذًا هذه ثلاث روايات وكلها تشير إلى بقاء الأمة، إما لقيام أو حتى يأتي أمر الله، مما يشير إلى أمر الله هو قادم، بعضهم قال: أمر الله هنا نزول عيسى عليه السلام، وبعضهم قال: الإمام المهدي...، فهذا في نظر علمائنا هو توقيت أمر الله، وهو

[٧١] صحيح البخاري.
[٧٢] صحيح البخاري.
[٧٣] صحيح البخاري.

توقيت الدخول في العلامات العظام، وفي سورة النحل أمر الله يتعلق بعقوبة ربانية عظيمة، فيكون أمر الله في أدق توصيفاته هو آية الدخان، المرتبطة بنزول نيزك أو اقتراب الكوكب ذي الذنب كما أشارت النصوص الأخرى.

إذًا عندنا في سورة النحل أتى أمر الله، وعندنا في الأحاديث بيان حال الأمة وضعفها مع بقائها حتى يأتي أمر الله، وفي مثل سورة يونس عندنا "أتاها أمر الله".

هذه النصوص والقرائن المتنوعة والمرتبطة بحالة قدرة إنسانية عالية جدًا كلها ترشد إلى زماننا بقوة، وكما بينت أن المثل يتكلم عن الأرض بشكل عام وليس عن بقعة واحدة فيها، وقد حصل آية الزخرف والزينة للأرض في زماننا، ونحن نشاهد ثقة الإنسان وتمحوره حول مطلقه الذاتي بعيدًا عن الله، ونلحظ من سلوكياته نشوته بقدرته التي يراها أصبحت مطلقة.

وهي ذات المرحلة التي يحصل خذل المسلمين في كل الأرض، حتى لا تبقى إلا طائفة منهم ثابتة على الحق، في ظل تلك الأوضاع "أتاها أمرنا"، وهذا الأمر يأتي ليلًا أو نهارًا، وحرف (أو) يأتي للتخيير، ومن معانيه في حالات خاصة الجمع دون التخيير.

مما يشير إلى أن أمر الله يبلغ ما بلغ الليل والنهار على الأرض، مما يشير إلى أن الآية عامة؛ فهناك من يباغتهم أمر الله ليلًا وهناك من يباغتهم نهارًا، وهذا التوصيف أو القرينة مهمة جدًا، وقد ذكرت مرة أخرى في سياق سورة يونس وكأنها تشير إلى أمر إلهي مطبق يعم الكرة الأرضية.

والنتيجة: "فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس"، وهذا التوصيف هو عين ما نطرحه من تصورات حال اقتراب كوكب أو نزول نيزك على الأرض، وهو تغير حال

الأرض كلها، ودخولها إلى سننية جديدة تخرجها من دائرة التحكم التي كانت في سابق أمرها.

سادسًا: خاتمة المثل المهمة.

يقول الله ﷻ: "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، هنا لا بد من بيان مسألة مهمة في خواتم السور، وهي إذا كانت يسمعون أو يبصرون فمعنى الأمر أن القضية محسوسة مشاهدة، يكفي في إدراكها إعمال البصر والسمع، وإذا كانت الخاتمة يعقلون، فمعناه أن القضية لا تقتصر على الحواس، بل تتعداها للعقول، لكن العقول تدرك المراد بها بأدنى تأمل.

أما يتفكرون؛ فمعناها أن القضية محتاجة إلى تكرار التأمل والتفكر مرة بعد مرة حتى يتم إدراك مدلولها...، هنا المثل بين في خاتمته أنه لقوم يتفكرون، مما يشير إلى أنه يحمل معاني عميقة ومغازي متنوعة، لا يتم إدراكها إلا إذا أمعنا النظر وأطلقنا المجال للتأمل والتفكر مرات عديدة، وهذه الخاتمة قرينة قوية تعزز ما وصلنا إليه من نتائج في فهمنا لهذا المثل العميق في دلالاته.

السنن الإلهية والكونية

الميزان والسنن الإلـهية [١]

يقول الله ﷻ: "وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨" [الرحمن].

هذه الآية العظيمة تبرز أن الكون وما فيه إنما هو موزون بميزان من لدن حكيم خبير، هذا الميزان الذي هو في ظاهره لنا عبارة عن السنن الكونية والسنن الإلهية، وهذه كلها مردها إلى الله ﷻ: "صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ" [الشورى٥٣]، فصيرورة كل أمر في كون الله مرده إلى الله ﷻ، وهذا معنى القيومية، فهي قيومية مطلقة أهم عناصرها القيام على هذا الميزان.

فالله ﷻ لم يخلق الخلق ويتركهم، بل له الخلق وله الميزان والأمر، الذي يحكم حركة الكون والإنسان والحياة. من هذا الوجه طولب الإنسان (الخليفة في

الأرض) أن يحترم الميزان، ولا يدخل عليه بالطغيان؛ وإلا ترتب على ذلك الفساد من جهة والهلاك من جهة أخرى.

وفهمنا لمجموع السنن الكونية والإلهية به يكتمل تصورنا لمعنى الاستخلاف الحقيقي، والسنن الكونية هي التي تحكم حركة الكون، ومجالها الأوسع في الإدراك والفهم هو السمع والبصر والفؤاد، لذا تأتي الآيات الكثيرة التي تستحثنا على التفكر والتأمل، أو بمعنى آخر تحثنا على استثمار هذه الأدوات بأقصى الدرجات، نفهم مما سبق أن السنن الكونية مجالها دائرة الحس.

ولعل أعظم استثمار لهذا الأدوات ضمن دائرة الحس والعقل، وما يترتب عليهما من تجريب كان في عصرنا الحاضر؛ حيث رأينا مدى دقة الميزان، وهذه السنن الكونية المبثوثة في الكون، لدرجة استطعنا التحكم بها والتنبؤ بها بدقة عجيبة كشفت لنا دقة هذا الميزان.

أما السنن الإلهية فهي التي تحكم حركة الإنسان والحياة، وهي تلك السنن التي تبرز كل موازين استخلاف الإنسان في الأرض، وتلك القوانين التي تحكم حياته صعودًا وهبوطًا، وتتجاوز لبيان تعلقه بالسنن الكونية ومدى انفعالها له استجابة أو عنادًا.

وهذه السنن تستمد أصولها من دائرة الوحي، ومجالها أيضًا السمع والبصر والفؤاد الخاص بالروح وليس الجسد، وهذه الحواس المعنوية لا تنفعل إلا بعد الإيمان، فبالإيمان يدب بها الحياة من جديد، وتبدأ حواس البصيرة بمد الروح بمعلومات جديدة غير التي تقرأها الحواس العادية ضمن دائرة الجسد أو الحس.

وهذا المعنى أشارت إليه كثير من الآيات، أقف مع آيتين: "أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" [الأنعام١٢٢].

هنا الحياة المقصود بها هو حياة الإيمان والروح، والتي ترتب عليها انفعال حواس البصيرة مع هذه الحياة الجديدة، فهو ليس ميت جسدًا، بل كان ميتًا بالنسبة لعالم الروح فأحياه الله بالإيمان. والحياة تقتضي أن تنفعل حواس البصر والسمع والفؤاد بطريقة خاصة مع الروح، ترى من خلاله ما لا يدركه البصر العصبي، بل تتجاوزه لرؤية أخرى هي مجال دائرة الوحي والروح.

لكن مع موت الروح الإيمانية في داخل الإنسان، يكون هناك موتًا للحواس المتعلقة بها والمغذية لها، يقول الله ﷻ: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" [الأعراف١٧٩].

هنا الآية أثبتت وجود القلوب لكنهم لا يفقهون بها، وأثبتت الأعين لكن لا يبصرون بها، وأثبتت السمع لكن لا يسمعون، فالمراد بالسمع والبصر والفؤاد هنا ليس مجاله الحسي فهو موجود، بل مجاله المعنوي من خلال دائرة الغيب والبصيرة والإيمان.

وحواس البصيرة تكفلت دائرة الوحي بتغذيتها وتوجيهها نحو الفهم الصحيح، فالحواس العادية فيها القدرة على إدراك السنن الكونية فهو يدخل بمجالها، لكنها تقف عاجزة عن إكمال المسيرة لتخترق دائرة الوحي في الإدراك؛ لأنها هنا بحاجة لتفعيل الحواس المعنوية في الإدراك، وتلك الحواس لا تنفعل إلا بالإيمان.

لكن كل من دائرتي الحس والعقل في مجال السنن الكونية، مؤسسة على أن توصلنا إلى دائرة الوحي دون اختراقها ومعرفة تفاصيلها، فالحس والعقل حال سلامتهما لا محالة سيخرجان بمسلمة حيوية هي: أن القوانين التي تحكم حركة الكون غير قائمة بذاتها بل بغيرها، وأنها لا محالة بدقتها وتوازنها العجيب لا يمكن صدورها بالصدفة وانفعالها عشوائيًا، فلا بد من ميزان حكيم يحكمها.

لكن الحواس العادية إذا حصل موت للقلب المعنوي لا تستطيع إلا الوقوف عند السبب بعيدًا عن إدراك المسبب. هنا تأتي قيمة دائرة الوحي والبصيرة لإكمال المسيرة، فعلى سبيل المثال: مسألة المطر عندما تفسر علميًا، يقف التفسير العلمي في حدود الأسباب المباشرة، المتعلقة بالمنخفضات الجوية والمرتفعات الجوية، المؤسسة لحركة الرياح وتوجهاتها، بما تحمله من أمطار إضافة لقوانين التكاثف...إلخ

هنا تقف مع الأسباب القريبة المشاهدة ضمن دائرة الحس والعقل، لكن القرآن ودائرة الوحي يعبر عنها من خلال القيومية بردها إلى المسبب، يقول الله ﷻ: "اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" [الروم٤٨].

فالآية هنا بدأت بالمسبب وهو الله، ودائرة الحس وقفت عند المنخفض الجوي (السبب)، لكن دائرة الوحي أبرزت هنا أن حركة المطر إنما تسير ضمن قيومية الله لكونه، فهو الذي يرسل الرياح، والرياح تثير سحابًا بأمره، وهو الذي يبسطه في السماء كيف يشاء، وهو الذي يجعله يتكاثف كسفًا، وهو الذي يقدر تصادم وتلاقح السحب بما ينتج عنه الودق والبرق، وهو الذي يقدر مكان نزوله، ومقدار ما ينزل بطريقة موزونة، ويحدد من يستفيد منه بطريقة حكيمة.

فدائرة الوحي ردتنا للمسبب، وجعلت كل خيوط الأسباب مردها إلى قيومية الله وحكمته. والآية السابقة جاءت آية أخرى تكمل مسيرتها بنفس المنهج، يقول الله ﷻ: "وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ" [الحجر٢٢]، هذه الآية ردتنا للمسبب، واستخدمت صيغة الجمع في الدلالة عليه؛ للإشارة إلى أن إرسال الرياح تتضافر فيه صفات كثيرة للمسبب كالحكمة والرحمة والقدرة.

يقول الله ﷻ: "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" [فاطر٩]، هنا بدأت الآية بالمسبب على وجه التفريد (والله الذي يرسل) للإشارة لتفرده بالأمر؛ حيث لا يشاركه به أحد حيث تتجلى صفة القدرة.

ثم بعد ذلك يستخدم صيغة الجمع (فسقناه)؛ للإشارة إلى أن سوق السحاب إلى بلد ميت؛ إنما يكون من خلال صفات متعددة للمسبب تتشارك به؛ حيث تتجلى صفة العليم، وتتجلى صفة الحكيم، وصفة القدرة، وصفة الهداية، وصفة المحيي، وصفة الباعث، وصفة الرحيم، وصفة الرازق. فتكوين السحاب وتحريك الرياح تتجلى بهما صفة القدير، أما سوقه لبلد ميت فتتشارك به صفات كثيرة جدًا لذا كانت صيغة الجمع.

وما زلنا مع ظاهرة المطر ضمن دائرة الوحي، يقول الله ﷻ: "وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ" [الحجر٢٢]، هنا تتوسع الظاهرة، وكلها مردها للمسبب ببيان قوانين عدة مبنية على صفة النعمة الإلهية، وهذا اقتضى صيغة الجمع؛ لأن الرياح هنا ليست لإثارة السحاب فقط، بل هي لواقح، واللواقح تتظافر بها صفات عدة منها: المنعم والحكيم والرزاق وغيرها.

ثم بيان أن حاجة الإنسان للماء إنما هو بقانون إلهي، ثم تقدير استفادة الإنسان من الماء النازل من السماء هو بقوانين إلهية، وإلا فما أنتم له بخازنين، فالذي قدر تخزينه في الأرض بطريقة نافعة للإنسان هو الله.

إذًا هذه ظاهرة المطر تناولناها من خلال دائرة الوحي ليستبين الميزان، وما يقال على ظاهرة المطر يقال على كل الظواهر في الكون، فلا عشوائية، ولا أسباب بدون مسبب، فكل شيء بقدر موزون من لدن حكيم...

ومن هذا الوجه لا يقال لكل الأحداث الطبيعية التي تحصل هنا أو هناك، سواء نزول مطر أو برد، أو أعاصير أو زلازل أو براكين أو جفاف، أو أوبئة أو مجاعات أو هزات أرضية، أو موجات تسونامي أو فيروسات، أو غرق أو نيازك...إلخ

لا يقال لكل هذه الظواهر أنها تنفعل لذاتها، بل كل هذه الظواهر إنما تقع ضمن حكمة الله، وتحت علمه وقدرته، وضمن إطار موزون مرده إلى الميزان الذي قدره الله ﷻ، وكل ضرر يحصل خلال تلك الأحداث الطبيعية؛ إنما هو ضرر مقدر ساقه الله لأهله.

أعلم أن الكلام هنا فيه بعض الصعوبة أو عدم الترتيب؛ لذا أرى أن أخلص لخلاصة مهمة تبرز العناصر التي تدور حولها المقالة.

خلاصة مهمة:

١- الميزان هو تلك السنن الإلهية والكونية التي تحكم حركة الكون والإنسان والحياة، السنن الكونية تحكم حركة الكون من الذرة إلى المجرة وتتعلق بدائرتي الحس والعقل، وهي ثابتة ثباتًا نسبيًا، وبسيطة في فهمها قياسًا للسنن الإلهية؛ لكي يستطيع الإنسان أن يستثمرها ضمن دائرة استعمار الأرض واستخلافه،

أما السنن الإلهية فهي تحكم حركة الإنسان والحياة ضمن الكون ومجالها دائرة الوحي، وهذه السنن أكثر ثباتًا من السنن الكونية، فهي تمثل قوانين صارمة لا تتبدل ولا تتغير على مدار التاريخ الإنساني؛ لذا عقبها يكثر الإشارة إلى عدم تبديلها أو تحويلها: "اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" [فاطر٤٣]، "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" [الأحزاب٦٢].

٢- في الغالب أن السنن الكونية والإلهية بينهما تناسب وعلاقة طردية بحيث إحداهما تؤثر في الأخرى، لكن السنن الإلهية أكثر تأثيرًا في السنن الكونية، بمعنى أن أي تخلف في السنن الإلهية لا محالة يترتب عليه تأثير مباشر على السنن الكونية إيجابًا وسلبًا، ويرشد إلى ذلك قوله ﷻ: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" [الروم٤١]، فالفساد هنا معناه اختلال ميزان السنن الكونية، وسببه في الآية حال الإنسان واضطراب ميزانه المتعلق بالسنن الإلهية، هذا مثل يبرز جانب السلب، أما جانب الإيجاب فيمثله قوله ﷻ: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" [الأعراف٩٦]، هنا بركات السماء المتعلقة بالسنن الكونية تأثرت بالتغيير الإيجابي عند الإنسان (الإيمان والتقوى)، وذلك في جانب السنن الإلهية.

٣- دائرة الحس والعقل تقف بنا في الغالب عند السبب، تأتي دائرة الوحي لإكمال الفهم نحو ربط السبب بالمسبب، فلا عشوائية في السنن الكونية، وكل شيء هو بقدر معلوم موزون: "وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ" [الحجر١٩]، فكل شيء موزون بالميزان وما ينزل

شيء إلا بقدر معلوم: "وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ" [الحجر ٢١]، ولا توجد حركة في الكون إلا أحاط الله بها علمًا وقدرة: "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" [الأنعام٥٩].

فالآية واضحة: لا تسقط ورقة ولا حبة ولا رطب ولا يابس إلا يعلمه الله ويخضع لميزانه، بل ما هو جاءت الآيات لتبرز أن الحبة مهما صغرت هي تحت الميزان والإرادة والقدرة الإلهية، يقول الله ﷻ: "يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" [لقمان١٦]، ووفق ما ذكرت لا توجد عشوائية في كل الأحداث التي تمر بالإنسان، وتسميتها أحداثًا طبيعية لا يعني أنها لا تخضع لميزان دقيق حكيم، سواء الأمطار أو الأعاصير أو الزلازل، أو الأمواج أو موت كائنات البحر، أو القحط أو البراكين، أو حتى الأزمات الاقتصادية أو حالات الاستنزاف والحروب؛ فهي محكومة كلها بالميزان وسننه.

٤- تتميز السنن الإلهية أنها أكثر تعقيدًا من السنن الكونية، فهي منظومة من السنن المتداخلة فيما بينها بشكل عجيب، أمكن إدراك أجزاء منها من أهل العلم، وكلما كان صاحب العلم أوسع فهمًا وأعمق إحاطة؛ كلما أدرك هذه السنن بطريقة يستطيع من خلالها أن يتنبأ بالنتائج، لكن هذا علم عميق عزيز يحتاج إلى دراسة واعية محيطة تستوعب السنن وعلاقتها فيما بينها، ونسبة هذه العلاقة وكشف السنة المرجحة...

وللأسف بالرغم من أهمية هذا العلم وغزارته، وبيان أسسه في كثير من الآيات فهو الميزان، إلا أن علماء الأمة على مدار التاريخ الإسلامي قد أغفلوه

وقزموه، على حساب تضخيم الأحكام العملية والفقهية، فالصلاة لا تحتاج لكل هذه المجلدات والجهود لبيان أحكامها، وبالمقابل السنن التي استوعبت ميزان الله لا نجد جهودًا من علمائنا في طرحها وتجلية أسرارها، ولو كان هذا الأمر؛ لفهمنا ما نحن عليه الآن... وإلى أين تتجه بنا السفينة، ومن هذا الوجه سلسلة الميزان هو محاولة لطرح هذا العلم وبعض إشاراته.

٥- السنن الكونية لها بصر وسمع وفؤاد يخدمها في دائرة الحس، والسنن الإلهية ودارة الوحي لها بصر وسمع وفؤاد بخدمها ضمن دائرة البصيرة، وما يعقلها إلا العالمون.

*****

الميزان والسنن الإلهية [٢]

يقول الله ﷻ: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [الحديد٢٥].

هذه الآية تبرز أنه ما من رسول أُرسل ولا كتاب أنزل إلا لأجل إقامة الميزان والقسط، ونلحظ في الآية أن الذي أُنزل أمران (الكتاب والميزان)، والكتاب معروف والميزان هنا يراد به الأمر الشرعي الذي به يتحقق العدل، بحيث تتساوى كفتا الميزان بين الحق والواجب في سياسة الناس، عمومًا الآية له أوجه عدة ودلالات كثيرة لا

يتسع المقام هنا للإسهاب بها، حتى لا يخرج الحديث عن السياق، وقد أفرد دلالاتها المتعددة في مقالة خاصة.

لكن ما يمكن قوله هنا أن الميزان هنا حمل دلالة مشابهة لدلالة الميزان في سورة الرحمن لكن مع خصوص وعموم، فآية سورة الرحمن تكلمت عن الميزان الذي يحكم السنن الكونية والشرعية والإلهية، هنا الميزان يتحدث عن تنظيم علاقة الإنسان من خلال الأمر الشرعي المفضي لإحقاق الحق وإرساء العدل في الأرض، بما يترتب عليه انسجام الميزان الكوني معه.

أما لماذا ذكر الميزان هنا كشيء مغاير للكتاب!؟ فالمراد به التخصيص والاهتمام، فالكتب السماوية هي التي تبين الميزان الذي يجب أن يستقيم عليه البشر، لكنه هنا أفرد وذكر بخصوصه للاهتمام بأمره لأنه وسيلة انتظام البشر.

إذًا الميزان هنا هو تلك السنن والطرائق الشرعية الذي يجمعها الأمر الشرعي، وهو جزء من السنن الإلهية وأكبر متفاعل، وهذا الأمر الشرعي هو الذي يحقق استقامة أمر الإنسان بما يترتب أثره على استقامة الميزان الأكبر، الذي تخضع له السنن الكونية والإلهية.

نأتي الآن لآية الشهود، وهذه الآية تبرز قيومية الله على الميزان الأعظم بالقسط، وهذه القيومية يكون حظ شهودها لأهل العلم، يقول الله ﷻ: "شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [آل عمران١٨].

هذه الآية تضمنت أعظم مشهود في الكون، لذا أشهد الله عليه عدول الأرض والسماء (الملائكة وأولو العلم)، فهم الأكثر شهودًا للتوحيد، وأولو العلم الأكثر شهودًا لقيومية الله بالقسط؛ فيما يتأملونه من حال الناس وحركة الإنسان والكون والحياة؛

حيث يدّركون موجبات البركة أو العقوبة، وآثارهما فيما حولهما سواء على المستوى الفردي أو الجمعي، والسبب أن أهل العلم هم الأكثر إدراكًا لحركة السنن الإلهية وعلاقتها بالسنن الكونية، فهم يتعاملون مع قوانين صارمة يرونها بصفاء علمهم، وتخفى على الناس إدراك العلاقة بين السبب والنتيجة والمسبب.

فالقسط في الآية السابقة هو الميزان، وهي من كلمة قسطاس التي عربت من الرومية، وتحمل معنى الميزان في اللغة العربية، وقد أرشد الحديث النبوي لهذا المعنى بوضوح عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ –وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ–، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ" ([٧٤]).

فهذا الحديث يشير إلى القيومية التي تضمنها بداية الحديث: "لا ينام ولا ينبغي له أن ينام"، ويشير إلى الميزان من خلال خفض القسط ورفعه، حيث يرفع أقوامًا ويضع آخرين، يرزق أقوامًا ويحجب الرزق عن الآخرين، وقد ارتبط الميزان بحركة الإنسان وأعماله من خلال عمل الليل والنهار، بحيث تكون معاملة الرب للعبد متعلقة ضمن سببية وسننية بعلاقة العبد بالرب، وطبيعة أعماله التي يرفعها للسماء في الليل والنهار.

فالآية والحديث يبرزان بدقة عظمة الميزان وتفاعله المباشر إيجابًا وسلبًا بحركة الإنسان وأعماله، وهذا الميزان أسراره مبثوثة بتلك القوانين والسنن التي تحكم حركة الحياة والكون والإنسان، أو التي اصطلحنا عليها باسم السنن الكونية والإلهية.

---

[٧٤] صحيح مسلم برقم ٢٩٣.

ولكي يستبين الأمر أكثر، أذكر هنا حديثًا واحدًا يبرز هذه القيومية وعلاقة العمل بنتيجته، وذلك من خلال سنن إلهية واضحة ومباشرة في الربط بين السبب والنتيجة، والحديث يتعلق بعلامات الساعة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ" ([٧٥]).

المعلوم أن هناك سننًا وقوانين ربانية تحكم حياة البشر ([*])، كما أن هناك سننا ربانية تحكم المادة، وللأسف استطاع الإنسان أن يكتشف كثيرًا من القوانين التي تحكم المادة، وأن يستفيد منها في تيسير حياته: "إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ" [البقرة:٢٤٣]، إلا أن الإنسان لجهله وطغيانه لم ينتبه لتلك القوانين التي تحكم حياته وعلاقته مع الخالق وعلاقته مع البشر، فوقع في المحظور.

والحديث الذي بين أيدينا ينبهنا إلى بعض السنن والقوانين التي تحدد لوازم العقوبات الربانية وموجباتها؛ بحيث يبين الحديث أن لكل معصية عقوبة مخصصة لها، تتناسب وطبيعة المعصية.

---

[٧٥] أخرجه ابن ماجة برقم ٤٠١٩، وقال محققه: «في الزوائد. هذا حديث صالح للعمل به» [السنن (١٣٣٢/٢)]؛ وللحديث شاهد عند الحاكم في الفتن برقم ٨٥٣٦، إلا أنه ذكر فيه فقط بخس الميزان وكثرة الزنا وانتشار الكذب، وقال حديث صحيح، وأقره الذهبي [المستدرك (٥٤٩/٤)]؛ وحديث ابن ماجة حسنه الألباني [السلسلة الصحيحة (٢١٦/١)].

[*] يقول محمد الغزالي: «كما أنه توجد سنن كونية في إطار المادة تجعل درجة الغليان مثلًا عند المائة، ودرجة التجمد عند الصفر، أو تجعل للغازات ضغوطًا معينة.. كذلك الأمر في الحضارات البشرية وانهيارات الأمم وانتصاراتها: إنها تخضع لقوانين لا يمكن أن تتبدل» [الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن (٥٣)].

الجريمة الأولى: انتشار الزنا.

- نلحظ في الحديث أن أول المعاصي الموجبة للعقوبة هي الفاحشة، ويراد بها هنا الزنا، ويستفاد من قول النبي ﷺ: «لم تظهر في قوم قط» أمران، وهما:

الأول: إن العذاب مرتبط بظهور الزنا في المجتمع؛ أي تفشيه لدرجة يصبح طبيعيًا لا ينكره أحد، أو يوجد منكر إلا أن درجة الإنكار ضعيفة لا تؤثر في انتشاره وتفشيه.

الثاني: إن العقوبة في هذه الحالة تكون عامة تنال من أي قوم يقعون فيها؛ أيًا كان هؤلاء القوم؛ لذا جاءت كلمة «قوم» نكرة للتعميم، وكلمة «قط» للدلالة على قطعية حصول العقوبة.

- الملاحظ أن النبي ﷺ قد بين أن العقوبة المترتبة على انتشار الزنا هو انتشار الأوجاع والطاعون والأمراض الأخرى الجديدة غير المعهودة من قبل، فكما أن الإنسان قد اعتدى بنفسه على روحه الإنسانية بطاعون الروح (الزنا)؛ لذا ناسب المقام أن يبتلى جسده بالطاعون والأوجاع؛ ولئن استطاع البشر أن يجدوا بلسمًا شافيًا للطاعون، واعتلوا سنام الغرور في عصر العلم بأنه لا يعجزهم شيء؛ فليعلم "الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ" [الزمر: من الآية٥١].

وما داموا غير معجزين في الأرض؛ إذا سيبتلون من خالقهم بأمراض لا قبل لهم بها، ولا معرفة لهم بأسرارها تحول أجسادهم إلى جحيم قبل جحيم الآخرة، وأكبر

مثال على ذلك ما عهده القرن الحالي والقرن المنصرم من أمراض جنسية سرية كثيرة، لعل أهمها وأخطرها مرض الإيدز الذي حير العلماء في عصر العلم، والعجيب في هذا المرض أنه يضرب جهاز المناعة لدى الإنسان؛ أي يضرب نعمة من أعظم نعم الله على جسد الإنسان؛ وهذا يتناسب مع جريمة الزنا التي تضرب مناعة المجتمع، وتهتك متانته، وتفسد أواصره، والجزاء من جنس العمل: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ" [فصلت:٤٦].

الجريمة الثانية: التطفيف في الكيل.

وهذه الجريمة من الجرائم العظمى التي وقع فيها قوم شعيب؛ فاستحقوا بسبب كفرهم ووجودها عذاب الله، ولعل خطورة هذه الجريمة تتمثل بأكل مال الغير بالباطل دون شعوره بذلك، وهذا هو عين الظلم والاستغفال، وهدف القائمين بذلك زيادة أموالهم وتنعمهم على حساب الآخرين؛ لذا استحق هؤلاء ثلاثة أشكال من العقوبات تتناسب وطبيعة الجريمة:

العقوبة الأولى: القحط وقلة الأمطار الممحقة للخير على الأرض؛ فلا يجد هؤلاء كفايتهم، بل لا يجدون ما يزنونه لكي يطففوا فيه، فطمعهم بالقليل أذهب عنهم الخير الكثير، يقول الله ﷻ: "ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ" [سبأ:١٧].

العقوبة الثانية: شدة المئونة، وهي هنا عامة تشمل غلاء الأسعار، وكثرة الضرائب التي تأكل الأخضر واليابس، وكثرة تكاليف النقل وتعسيرها على أهلها، وغير ذلك من شدة المئونة التي لا تبقي ولا تذر، حتى يصبح تحصيل الشيء القليل

يتطلب الجهد الجهيد، يقول الله ﷻ: "وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا" [الأعراف: من الآية٥٨].

العقوبة الثالثة: جور السلطان وظلمه للرعية، وأخذ أموالهم أو مصادرتها دون أدنى حق، والتشديد عليهم بالضرائب والجمارك، وهذا يتناسب وطبيعة معصيتهم؛ فلئن وجد المطففون وسائلهم لأكل مال الناس بالباطل والاستكثار منه، فقد وُجِد أيضًا من هو أكثر ظلمًا منهم وأشد نكاية بهم؛ ليأخذ منهم ما جمعوا قسرًا أمام أعينهم «وكيفما تكونوا يولى عليكم».

الجريمة الثالثة: منع الزكاة.

الزكاة حق أوجبه الله ﷻ على الأغنياء حقًا للفقراء، وهي عنوان تزكية وبركة لأصحابها: "وَيُرْبِي الصَّدَقَات" [البقرة: من الآية٢٧٦]، ومنعها نوع من أنواع كفر النعمة، وسبب المنع هو الطمع والتزيد بما لا يملك حقيقة، وإن كان في الظاهر هو المالك له، وما دام الإنسان يمنع الحق عن إخوته طمعًا؛ إذا ليعاقب الإنسان بمنع فضل الله ﷻ عليه.

وكفران النعمة سبب لزوالها؛ فكانت العقوبة بمنع القطر من السماء، ولولا وفور رحمه الله بخلقه ممن يعايش هؤلاء الجاحدين كالبهائم؛ لم يمطروا قطرة واحدة من السماء، فنزول المطر عليهم ليس كرامة لهم بل رحمة ببهائمهم.

الجريمة الرابعة: نقض عهد الله ورسوله.

المعلوم أن هناك مواثيق غليظة بين البشر وبين الله ﷻ من لدن آدم على ألا يشركوا بالله شيئًا، ويسمعوا ويطيعوا، وقد انتقلت هذه المواثيق عبر الرسل إلى أممهم، إلى أن انتهت بالرسول الخاتم محمد ﷺ، والحفاظ على هذه العهود والمواثيق هو الذي يبقي الأمة في دائرة الرسالة والعبودية

فإذا نقضت أمة هذه المواثيق أصابتها اللعنة وقسوة القلب والخسران في الدنيا والآخرة، يقول الله ﷻ: "وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ" [الرعد:٢٥]، "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً" [المائدة:١٣].

وأمة أصابتها اللعنة والقسوة؛ لا تستحق حفظًا أو تكريمًا من الله ﷻ، بل تصبح نهبة للأمم الأخرى وغرضًا لسهامهم وهدفًا لمطامعهم؛ لذا تسلط عليها الأمم لتنال من خيرها وخيراتها.

الجريمة الخامسة: عدم الحكم بما أنزل الله.

وهذه الجريمة تمثل الطامة الكبرى بالنسبة للأمة، وتخرجها من دائرة العبودية لله ﷻ في جميع شئون حياتها، بل تخرج الأمة من دائرة الرسالة بأكملها؛ وأي بقاء لرسالة سماوية ما دامت تعاليمها لا تحترم، ويقدم عليها زبالات الفكر البشري القاصر !؟

لذا وقوع الأمة أو حكامها بهذا الأمر؛ يترتب عليه لا محالة الشرذمة والتشيع والتفرق، المفضي للحقد والكراهية، المؤدية للاقتتال الداخلي. فخروج الأمة من دائرة الحاكمية لله إلى دائرة الحاكمية للأهواء والمصالح، ليس له إلا محصلة واحدة وهي

اشتعال النار الداخلية بين أفراد الأمة من ذوي الأهواء والمشارب المختلفة، وجعل بأسهم بينهم شديد.

الخلاصة:

١- الحديث السابق يبرز لنا طرفًا من السنن الإلهية المباشرة، مبرزًا علاقتها بالسنن الكونية، فمنع المطر من السماء (سنة كونية) متعلق بمنع الزكاة (أمر شرعي متفرع عن السنن الإلهية)، انتشار الفاحشة بأوصاف معينة يترتب عليه أمراض غير معهودة للإنسان، وهذه السنن جاءت على شكل قوانين حتمية مباشرة تربط بين السبب والنتيجة، وأكثر الناس شهودًا لها في أرض الواقع هم أولو العلم؛ لأنهم يدركون هذه السنن ويعلمون نتائجها، ويستطيعون تأمل آثارها في حركة الإنسان والكون والحياة.

٢- كذلك الحديث يبرز جوانب من تفاعل السنن الإلهية بحركة حياة الإنسان، وذلك واضح بين ترك الحكم بما أنزل الله (الأمر الشرعي والميزان) والعقوبة هي الاقتتال الداخلي، والواقع يشهد لذلك بقوة كما نلحظ في كثير من بلاد المسلمين.

٣- المقالة السابقة أبرزت قيومية الله بالميزان والقسط، وشهود أهل العلم ومشاهداتهم لذلك خلال تأملهم للناموس من جهة، وتأملهم لحال الناس معه وأثر ذلك على الميزان الذي يحكم السنن الإلهية والكونية...، لكن اختلال الموازين عبر الإنسان بشكل صارخ لا يترتب عليه آثار جزئية، بل ينسحب الأمر ليؤثر على كل السنن الكونية، ويغير مسارها بشكل محوري جوهري، وهذا ما أرشد له قوله ﷻ: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" [الروم٤١].

فالفساد لا يقتصر على منطقة بعينها، بل يبدأ القانون والميزان العام يغير من مساره نحو الاضمحلال والفساد بعيدًا عن الانتظام، مما ينعكس أثر على كل الموجودات فضلًا عن الإنسان، فالنملة تتأثر بكسب الإنسان، وما هو أقل منها أيضًا يتأثر، بل الجوامد أيضًا تتأثر، وما ينطبق على النملة الكائن الصغير ينطبق على الحوت الكائن الكبير.

فكل الموجودات تتأثر باختلال الميزان بكسب الإنسان وفعله، وهنا تأتي قيمة العلماء الذين يجتهدون لإعادة الميزان إلى وضعه الطبيعي، فهؤلاء إن لم يشكرهم بني جنسهم من البشر ولم يستشعروا فضلهم، فالعجماوات تستشعر الفضيلة وتستوجب الشكر منها لكل من يحاول إعادة الميزان التي بها صلاح حياتها...

هنا يأتي سر قول النبي ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْبَحْرِ» ([٧٦])، وفي رواية: «مُعَلِّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبِحَارِ» ([٧٧])، وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ» ([٧٨]).

فهذه الروايات بمجموعها لا يمكن اكتشاف سرها إلا من خلال فهمنا للميزان والسنن، فمعلم الناس الخير يجتهد ليعيد الميزان إلى وضعه الطبيعي بما يعود بأثره المبارك على كل الموجودات؛ لذا يقابل فعله من خلال العجماوات وغيرها بالشكر من خلال الدعاء والاستغفار لهذا الذي يعيد الميزان، بما تنتفع من أثره النملة على صغرها في البر، والحوت على عظمته في البحر.

---

[٧٦] أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما.
[٧٧] أخرجه الطبراني في الأوسط.
[٧٨] أخرجه الترمذي.

٤- اكتشاف السنن ومعرفة القوانين والموازين؛ يعتبر من أعظم الدارسات الجدية التي تبرز حكمة الله في كونه، ومن خلاله يمكن تفسير كثير من الظواهر المتعلقة بالاستعمار والاستخلاف، وكيفية المحافظة على الناموس الخادم للإنسان، وهذا ما نحاول تجلية بعض أسراره خلال هذه السلسلة.

*****

الميزان والسنن الإلـهية [٣]

السنن الإلهية هي الميزان أو القانون الذي وضعه الله ﷻ في الأرض والسماء بعد الخلق، يقول الله ﷻ: "وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ" [الرحمن٧]، وهذا الميزان أرشد الله إليه العباد من خلال كتبه التي أرسلها عبر رسله، يقول الله ﷻ: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [الحديد٢٥].

في غالب أحوالنا نحن نقرأ الكتاب، ولكننا لا نقرأ الميزان، لذا تأتي أحكامنا في الغالب مضطربة وفهمنا أحيانًا يكون منكوسًا؛ لأنه بدون ميزان.

لكن الراسخون في العلم هم الأقدر على إدراك هذا الميزان والحكم من خلاله، ورؤية عظمة الله في ميزانه وتقديره لكل شيء بقدر محكوم دقيق يزن بأدق الموازين، ولا يغيب عنه مثقال ذرة أو ما هو دونها، يقول الله ﷻ عن الراسخين في العلم:

"شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [آل عمران١٨].

فهذه الآية تتضمن أعظم مشهود في الكون وهو التوحيد، وأعظم أثر دال عليه وهو القيومية بالقسط، والقسط([٧٩]) هنا يراد به الميزان، وأصبح مجازًا يراد به العدل؛ لأن الميزان عنوان إقامة العدل بجعل الفعل مكافئ للنتيجة والأثر. فالميزان عدالته باستواء كفتيه (الفعل والأثر المترتب عليه)، والميزان أو القسط بطبعه يشير على العدالة الكمية الدقيقة.

وأعظم مشهود في الكون أشهد الله عليه عدول السماء والأرض، فأما عدول السماء فهم الملائكة، أما عدول الأرض فهم العلماء (أولو العلم).

أما لماذا اختص الله ﷻ أهل العلم برؤية قيوميته بالقسط!؟ فلأن أولي العلم هم أعرف الناس بميزانه وسننه الإلهية التي بثها بين العباد، فيرون خفض الله لقسطه أو رفعه بأنه غاية في العدل، بينما يغيب ذلك عن فهم الكثيرين من البشر؛ حيث لا يفهمون لماذا أصاب الله هؤلاء بالذل، ولماذا أعز الله قومًا أذلة! لماذا أغنى هؤلاء، ولماذا أفقر أولئك! فعدم إدراك السنن للقصور والرؤية السطحية عند الناس؛ تجعلهم لا يرون القيومية بأجلى صورها.

لكن الراسخون في العلم، أولئك الذي أدركوا سنن الله في عباده، يرون في كل تلك المتناقضات غير المفهومة لدى الناس، أنها تشير إلى مدى عدل الله وقسطه في حركة الحياة والإنسان والكون.

من هذا الوجه يمكن القول أن العلم بالسنن الإلهية والقوانين الربانية التي تحكم حركة الحياة؛ هو بمثابة معرفة الميزان الذي بثه الله بين العباد، ومن خلالها

[٧٩] القسط هو الميزان واحد لغاته القسطاس، وهي نفسها الكلمة اللاتينية التي تشير إلى العدل (justice) جزستس أو قسطس.

يمكن أن يقرأوا القرآن ثم يقرأوا الميزان، فيستبصروا من الماضي حركة الحاضر ويتنبأوا بحركة المستقبل، لأن كل شيء بقدر وبميزان.

*****

سنن الاختيار

ومن هذه السنن الإلهية سنة الاختيار، هذه السنة التي أعيا فهمها العقول القاصرة؛ حيث يزنون الأمور وفق موازين وهمية لا قيمة لها في الميزان الإلهي، ومن هذا الوجه جاء القرآن الكريم والسنة النبوية لكشف قوانين هذه السنة وضوابطها، والتي يمكن إبرازها في العناوين التالية:

١- سنة الاختيار هي لله ﷻ الحكيم الخبير، ولم يترك أمرها لعقول البشر القاصرة ولموازينهم الفاسدة؛ فصاحب الخلق والعالم به هو صاحب الاختيار، يقول الله ﷻ: "وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" [القصص٦٨]، فالله هو الخالق وهو يختار من خلقه ما يشاء، ولا مجال للاختيار لأحد من خلقه، لأن موازين الخلق محكومة بالعقل والحواس القاصرة ويغلب عليها الأوهام والأهواء، ومثل هذه الأحوال لا تصلح محلًا للاختيار.

٢- اختيار البشر دائمًا مبني على موازين وهمية وهذا واضح؛ حيث تنظر للتفاضل بالمظاهر على حساب الجوهر، ومن هذا الوجه محل نظر الله مخالف لمحل نظر البشر، وقد أرشد إلى ذلك قوله عليه السلام: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ

إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» ([80])، وإلا لو ترك الاختيار للبشر لما رحم البشر بغيًا سقت كلبًا، ولا قاتل متمرس في القتل أراد أن يتوب.

حتى المؤمنون أحكامهم واختيارهم يكون وفق الظاهر؛ لذا أراد النبي عليه السلام أن يعلمهم درسًا في سنن الاختيار، فقد مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ. قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» ([81]).

وهذا المعنى من الاختيار أشار له النبي عليه السلام مرة أخرى بقوله: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ»، «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ» ([82])؛ هذه الأحاديث صريحة في أن اختيار الله مغاير تمامًا لاختيار البشر وموازينهم.

٣- اختيار الأنبياء وأتباعهم أيضًا كان مغايرًا لموازين البشر، ففي حق محمد عليه السلام رأى الوليد بن المغيرة لمركزه الاجتماعي أنه أولى من النبي عليه السلام فقال: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" [الزخرف٣١]، وهنا جاء القول بصيغة الجمع؛ للإشارة إلى أن هذا من الموازين التي اعتمدها أهلها، ويقصدون بالرجل العظيم الوليد بن المغيرة. كذلك موسى عليه السلام كان في فصاحته وكلامه مشكلة، في مجتمع يعتمد من الدرجة الأولى على البيان والكلام، لكنه كان محل اختيار الله بل هو الوحيد

[80] أخرجه مسلم.
[81] أخرجه البخاري.
[82] أخرجه مسلم وغيره.

الذي أخذ صفة كليم الله، يقول الله ﷻ: "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" [النساء١٦٤].

حتى اختيار الأتباع يكون بغير معهود البشر وموازينهم؛ لذا كان الضعفاء هم الأولى بالاختيار عند الله، فكان آل ياسر وبلال وخباب وغيرهم هم جذوة الرسالة الأولى، وهذه سنة الله من لدن نوح عليه السلام الذي اعترض كفار زمانه على هذه السنة بقولهم: "فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ" [هود٢٧].

٤- تعتبر قصة طالوت درسًا حيويًا يبرز أن سنن الاختيار لا تخضع لموازين البشر، بل هي من الله ﷻ، فعندما طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يختار لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله، وليخرجوا من حالة الذلة التي هم فيها؛ كان الاختيار بعكس المعهود والموازين المتصورة لكل بني إسرائيل؛ حيث وقع الاختيار على شاب طويل قوي الجسم لكنه من العوام، وليس من سبط الملك ولا سبط النبوة (بنو يهودا وبنوا لاوي) ولا هو من علية القوم ولا من أهل الغنى والترف والمركز، ولا من أهل الكهنوت في زمانهم؛ حيث كان من سبط بنيامين أضعف أسباط بني إسرائيل وأقلها مركزًا اجتماعيًا؛ لذا جاء الإنكار على النبي هذا الاختيار.

يقول الله ﷻ: "وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧ وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٤٨ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ

يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٢٥٠" [البقرة].

هذه الآيات ترشد إلى سنة الاختيار، ثم الاختيار من خلال الجمع العشوائي، الاختيار الأول كان لطالوت بعكس تصورات وموازين من حوله، الاختيار الثاني من خلال الممحصات والابتلاءات التي استخلصت الصفوة من بني إسرائيل ليقودوا معركتهم مع جالوت، والاختيار الثالث هو من خلال فتى في مقتبل عمره أكرمه الله بقتل جالوت، ثم كان الخليفة الأول في الأرض وهو داود عليه السلام، إنها سنن عجيبة وقد تتكرر.

*****

القريب والبعيد

يقول الله سبحانه وتعالى: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [سورة سبأ].

هذه الآيات عندما أقرأها أشعر أنني أمام بحر غير متناهي من الدلالات، أقف أمامها وقلبي تَرِد عليه كثير من الخواطر ذات العلاقة بها، لكنني معقود اللسان محبوس القلم أمام تجلياتها، فالآيات تحكي دلالات غير متناهية عن حركة الغيب

المؤثرة في الواقع من حيث لا نعلم، إنها آيات توجب على أولي الألباب الصمت والتأمل من بعيد، وربطها بخيوط الواقع من قريب.

إنها الآيات التي تحكي تلاحم عالمي الغيب والمشاهدة بوجه يغيب عن إدراكنا وأفهامنا، إنها بحر متلاطم من الحقيقة الممزوجة من المحسوس الذي تنتهي خيوطه عبر عالم الغيب بما لا يستوعبه أحيانًا قصور إدراكنا، وبالرغم من عقلي القاصر وجسدي النحيل، وعدم قدرتي على السباحة في أعماق أعماقها، إلا أنني هنا من خلال جهد المقل أحاول الغوص في بحرها وأنتقي من لآلئها.

"قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ"، إنه العزيز الرحيم الذي لا يترك عباده نهبة للظلم والوهم، فما أن تتعمق المآسي وتشتد الآلام ويغيب عن الإدراك رؤية الناصر، وتذوي النفوس الطيبة وتذوب مع أمواج البلاء، وتغرق في لفائف الظلام بحثًا عن بصيص من النور، أو مخرج من سطوة المرحلة؛ هنا تعالجهم قوة الغيب من حيث لا يعلمون.

"قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"؛ فلكل أجل كتاب ولكل أمة أجل لا يستأخرون عنه ولا يستقدمون، والعليم الخبير يقدر الأمور في وقتها وتوقيتها، فكما عهدتم دقة مواقيته في حركة الشمس والقمر من عالم المشاهدة، كذلك تستبصرون دقة توقيته في حركة الحياة وتعانق الغيب والشهادة من خلالها.

عندما كان يوسف في غيابة السجن لا تنتظر له العيون، ولا تستبصر آلامه القلوب، يعارك الابتلاء بما يوحي أنه لا مخرج له مما هو فيه، وجاء التوقيت المناسب لقذف الغيب، وفي اللحظة الحاسمة: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"، وعندما يقذف بالحق يكون ما يريد؛ هنالك ادكر ساقي الملك وقال: "أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ"، في اللحظة الحاسمة والتوقيت المناسب الذي سيخرج يوسف عليه السلام من سجنه، ليس بريئًا تائها في الأرض بل وزيرًا ممكنًا بإذن علام الغيوب.

يقول الله ﷻ: "فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ" [الأنبياء١٠٩]، ما زلنا مع تجليات قوله ﷻ: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [سورة سبأ].

الحق الذي يقذفه الله على الباطل قد يكون كتابًا، أو رسولًا، أو مجددًا، أو عقابًا؛ عندما يستحكم الباطل ويستفرغ كل نذره، ويُستدرج ليكمل من حيث لا يعلم كل سننه الموبقة، يقول ﷻ: "وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ" [الأعراف١٨٢]، "فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ" [القلم٤٤].

وقد تكون قذيفة الحق من علام الغيوب حجرًا من السماء، يصيب الله به الباطل في مقتل لا يبدئ معه ولا يعيد، أو قد تكون الضربة من قريب لأناس أصبح الحق في ساحتهم يناديهم من بعيد كالخسوف الثلاثة.

ولكي يستبين الأمر أسير مع السياق، وأبدأ بقذيفة الرسول الحق الدامغة للباطل، وأصدق مثال عليها موسى عليه السلام، ففي اللحظة التي كان فيها موسى عليه السلام تائهًا في الأرض، يبحث عن قبس من نور أو من يرشده الطريق (يعيش أزمة خاصة)؛ كان بنو إسرائيل تحت نير العبودية يسامون سوء العذاب، ولا يظهر لهم بصيص أمل.

ولو اجتمعوا على رأي رجل واحد، يتفكرون كيف يمكنهم الخلاص من تلك القوة العتيدة الباغية التي سلطت عليهم؛ لما وجدوا أي مخرج لهم مما هم فيه. فليس أمامهم إلا الألم تحت سطوة الظلم (يعيشون أزمة عامة)، وهم في حالهم لا يعلمون ماذا يعد لهم علام الغيوب أو حركة الغيب!!

إنها نفس اللحظة التي يستدرج بعيدًا عنهم صاحب الرسالة، نحو الوقت المحتوم ليتحول قذيفة للحق الدامغ للباطل، وبدون أي عنصر من عناصر القوة الأرضية لديه، وهذا سر قوله ﷻ: "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى" [طه]، أي اختارك علام الغيوب لتكون عنوان الحق الذي يقذفه الله على الباطل.

هذا الحق المجرد من أي عناصر للقوة؛ فهو ليس لديه إلا عصا يتوكأ عليها، وله فيها مآرب محدودة، وعند علام الغيوب صاحب القدرة والقوة المطلقة تكفي عصا أو بدون عصا لينهي الباطل، لذا كان محور قذف الباطل بالحق هو في تلك العصا التي يحملها هذا التائه في الأرض.

يقول الله ﷻ: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ٢١ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ٢٣ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٢٤" [طه].

إذًا يا موسى يكفي الذي في يمينك وانظر إلى العظمة، وبها اذهب لفرعون إنه طغى، ولتعلم أن علام الغيوب إذا أراد أن يقذف بالحق ضمن توقيته المناسب؛ فلا يعجزه شيء ولا تغالبه قوة لأن القوة لله جميعًا، ومع أول نزال انتصر موسى على فرعون، واستدرج فرعون ليحشد قوته كلها من خلال السحرة، فكانت قذيفة الحق الثانية التي انتهت بتجريد فرعون من سلاحه على أعين الناس وألقي السحرة سجدًا. وأصبحوا مع موسى عليه السلام، قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

والنزال الأخير أنهى فرعون، واستدرجه نحو حتفه بنفس تلك العصا، التي هي من أمر الله ﷻ، وإذا بفرعون يصارع الأمواج مقرًا بصدق قذائف الحق في لحظة لا ينفع معها الندم: "وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [يونس٩٠].

هنا وضح لنا كيف إذا جاء الحق حتى لو كان في ظاهره في أضعف حالاته سببًا لإنهاء الباطل، وشل حركته لدرجة لا يبدئ الباطل ولا يعيد، أي مشلول لا يمتلك أي شكل من أشكال القوة التي بها يستطيع المواجهة.. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

والعجيب أنه في نفس سورة يونس، هناك قذيفة بالحق أخرى بدأت بكلمة قل، وتنذر بأمر عظيم يقول الله ﷻ: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ٥١"، أثم إذا وقع ستقولون نفس مقولة فرعون وآمنتم حيث لا ينفع إيمان.

يقول الله ﷻ: "اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ" [الشورى١٧]، "وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ" [ق٤١]، ما زلنا مع تجليات قوله ﷻ: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [سورة سبأ].

هنا نقف مع قذيفة للحق من نوع آخر تتعلق بلحظة عقاب رباني، إنها القصة الوحيدة التي كان فيها الرسول عليه السلام في أضعف أحواله وكان القوم في أفحش حالهم، إنه لوط عليه السلام الذي كان قدر الله له أن يكون في أرض غربة، ليس له فيها عزوة أو عائلة يأوي إليها، وتسانده على الأقل من خلال انتمائه لها.

فهو في أرض لا يمتلك فيها أي شكل من أشكال المنعة، دعا قومه إلى الله ﷻ، لكنهم لم يستجيبوا له، ولم يؤمن له إلا عائلته الصغيرة، حتى زوجته لم تكن

من أهل الإيمان، وكانت كالجاسوس عليه وعلى أسرته وهذا عمق من مأساته مع قومه.

هذا الوضع المركب المعقد استلزم قذيفة حق مغايرة تمامًا لكل ما طرحه القرآن الكريم، إنها عبارة عن ملائكة أتوا إليه على شكل شباب جميلي الصورة، وهنا الابتلاء، تذكر كتب التفسير أن الأمر الذي كان للملائكة ألا ينزلوا العذاب إلا بعد أن يأخذوا إقرارًا من النبي عليه السلام على أن قومه قوم سوء.

والوضع الطبيعي أن النبي مجبول على الرحمة، خاصة في اللحظات الأخيرة، لكن هنا جاءت قذيفة الحق بشكل مغاير تنتزع الإقرار نزعًا من النبي.

شباب جميلي الصورة يأتون ضيفًا على لوط عليه السلام، وقومه تميزوا بارتكاب فاحشة اللواط، وهو لا يمتلك أي منعة لصدهم إذا اعتدوا على هذا الصيد الثمين، فعندما حلوا عليه ضيفًا خاف عليهم من قومه؛ فبدأ يشرح لهم أن قريته قرية سوء وفاحشة، لعلهم يراجعون أنفسهم ويعدلون عن الاستضافة عنده.

لكنهم لم يعيروا كلامه أي اهتمام بما يوحي على إصرارهم على الضيافة، والنبي يعلم أن هذه الضيافة بالذات ظاهرها سيأتي له بأعظم مصيبة يمكن أن تقع عليه، جاءت الآيات لتعبر عن الحدث بقوله سبحانه وتعالى: "وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ" [هود٧٧].

نعم يوم عصيب، وهو الآن مع مواجهة غير محسوبة النتائج مع قومه نحو ضيفه (البعيد)، لكن لم ينته الموقف إلا بإقرار النبي أن قومه قوم سوء، وبهذا الإقرار وبتلك الشهادة اكتملت عناصر العذاب لهؤلاء القوم والنبي لا يعلم بذلك.

وشاع خبرهم في القرية (غلمان جميلي الصورة في بيت لوط)، وجاءه قومه يهرعون إليه (هنا نبدأ بالبعيد والقريب)، وتعمقت مأساة لوط عليه السلام فهو بين نارين، إما المواجهة التي لا يمتلك عناصرها، وإما يقع في مأساة هتك ضيفه في عقر بيته.

سبحان الله! لحظة العذاب هي نفسها كانت لحظة الفرح الأكبر عند هذه القرية، هجموا على بيته فرحين بهذا الصيد الثمين لفاحشتهم، وأحاطوه من كل مكان في أصعب ظرف مر به نبي، هنا في هذه اللحظات الحساسة جدًا والتي تعكس مدى ضعف النبي في دفعه عن ضيفه، خرجت آخر كلمات من هذا النبي عليه السلام: "قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ" [هود ٨٠].

إنها لحظة الضعف المتوقعة خاصة من أهل الغربة الذين لا يجدون نصيرًا لهم في الشدائد مما حولهم، خرجت هذه الكلمات ولوط عليه السلام في قمة أزمته، ويدفع الباب لعله ينجو بضيفه، لو أن لي بكم قوة حتى أدفع عن ضيفي فلا يكون الخزي حتى في بيتي، لو أن لي ركن شديد في هذا المقام حتى يدفع عنها. ما أصعبها من لحظات، وكأن الدنيا أظلمت على لوط عليه السلام، إنها لحظات البعيد لتبرز له أنه يؤوي إلى الركن الشديد، ومن أعظم من الله (الركن الشديد القريب).

عندما خرجت هذه الكلمات التي تخرج منا يوميًا عندما تزداد سطوة الواقع الأليم علينا، وتغيب عنا ملاحظة قذائف الحق القريبة منا، عندما خرج ما يوحي بالضعف الشديد عندها قُلْ: إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، إنه يقذفه حتى في اللحظات التي لا نتصورها، وبطريقة تكون فوق تخيلاتنا.

هو يدفع الباب لكي يحمي من خلفه، وهو لا يعلم أن من خلفه هم نفسهم قذيفة الحق التي قذفها الله علام الغيوب، عندها جاءه الخطاب في عمق الأزمة من خلفه: "قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ

يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ" [هود ٨١].

يا لوط ما تحمينا، نحن الذين خلفك ملائكة الله العظام الذين جاءوا بقذيفة الحق من علام الغيوب، أما هؤلاء فإن موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب!؟

يقول الله ﷻ: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ" [فصلت٤٤]، "وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ" [الرعد٣١].

ما زلنا مع تجليات قوله ﷻ: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [سورة سبأ].

هنا نقف مع أعظم قذيفة حق جاءتنا من علام الغيوب، إنها القرآن العظيم، هذا الكتاب الذي شهد نزوله كل ملكوت السموات والأرض، فيخرج من دائرة الغيب نحو المشاهدة ليمارس دوره في صراع الحق والباطل، بل اقتضت ليلة نزوله أن تكون ليلة العيد السماوي الأرضي الأعظم إنها الليلة المباركة، بل هي ليلة القدر بكل ما تحمل كلمة القدر من دلالات: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ" [القدر ٤].

أما كيف أن القرآن العظيم هو أعظم قذيفة من قذائف الحق!؟ فلأنه وللمرة الأولى في تاريخ البشرية يكون البيان السماوي بهذا الشكل، بحيث يرسل صفحة مفتوحة لا تخضع للزمان والمكان تكشف ما كان ويكون وما هو كائن؛ فالمستقبل الذي ينتظر الإنسان بكل حذافيره وتفاصيله تم كشفه له كاملًا.

ومن هذا الوجه كان التوسع في بيان كل تفاصيل اليوم الآخر؛ ليحي من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وهذا الأمر لا يستطيع أن يفهمه إلا من كان ضليعًا بالكتب السابقة التي لم يكن فيها هذا التفصيل الدقيق. كذلك القرآن تضمن كل سنن الصراع بين الحق والباطل، وكشف كل أسرارهما بحيث تتنبأ بالمستقبل من خلال قصص الماضي بصورة عجيبة.

إضافة إلى أنه عالج كل القضايا الحيوية المتعلقة بالإنسان والكون والحياة، بحيث لا يخرج عن فلكه شيء ولو كان قليلًا، وهو بهذا الاستيعاب كان تبيانًا لكل شيء.

ولعظمة قذيفة الغيب هذه تغيرت نواميس الكون، وترتب على نزوله إقفال التلصص على الغيب بقذائف حسية: "وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا" [الجن٩]، فهي قذائف حق حسية، أقفلت باب التلصص والمغيبات بعد نزول قذيفة الغيب العظمى.

كذلك من عظمة هذه القذيفة أنها في الصراع تكشف لنا أسرار القذف بالغيب من علام الغيوب، والموضوع لتجليته وتوضيحه يحتاج لمجلد ضخم، لكنني هنا سأسوق مثالًا واحدًا بسننه.

بدأ صراع القرآن والإنسان في مكة وانقسم الناس فريقان، واشتدت سطوة الباطل على أهل الحق، وكانت القذيفة أعظم مما يتخيلون؛ لذا عاش أهل مكة بحالة وصفوها أنها حالة سحر، هنا بدأ القرآن يكشف الأسرار ومصارع الأقوام، بطريقة عجيبة بدأت مع انشقاق القمر كقذيفة حسية مؤذنة باقتراب الساعة من جهة، ومؤذنة بهلاك الأقوام ومن ضمنهم صناديد قريش بقوله ﷻ: "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ"

[القمر ٤٥]، هذه الآية التي لم يفهم تأويلها عمر الفاروق إلا عندما قالها النبي عليه السلام في غزوة بدر.

ثم بعد ذلك جاءت قذيفة أخرى مع الهجرة، مؤذنة بقرب الهلاك لهم من خلال السنة الخاتمة يقول الله سبحانه وتعالى: "وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلًا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" [الإسراء].

استفزاز نبي وإخراجه من قومه دائمًا يترتب عليه الهلاك، وأهل قريش أو صناديدهم استدرجوا للوقوع في السنة الخاتمة، فلم يلبثوا بعد ذلك إلا سنتين فقط (قليلًا)، حيث أعدت مصيدة لكل هؤلاء المستفزين للنبي.

هنا ننتقل للأنفال لكي نفهم قوله سبحانه وتعالى: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"، فكيف كانت قذيفة الحق من خلال القذيفة العظمى!؟ هنا جاءت قذيفة الحق بعكس المتوقع وخارج الإرادة، بل مع الكراهية لها يقول الله سبحانه وتعالى: "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ" [الأنفال].

الآيات جاءت لتبرز لنا كيف يقذف الله بالحق حتى مع كراهية فريق من المؤمنين وعدم استعدادهم، بل مع عدم ودهم للقتال وذات الشوكة، لكن الأمر مرده لعلام الغيوب وتوقيت سنني غاب فوق إدراكنا.

في غزوة بدر كانت قذيفة الحق ضمن توقيت عجيب دقيق، تلاحمت معه الأرض والسماء في المكان والزمان: "إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ

مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢" [الأنفال].

المكان بدر وساحة المعركة وأماكن الفريقين تم تحديدها من الله، بحيث لو ترك الأمر لاختيار الإنسان لما حصل هذا التوافق. والحكمة من ذلك قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ.

لكن السر العجيب في هذه المعركة التي تعتبر الفرقان بين الحق والباطل، هو التدخل الملائكي العظيم من خلف ستار رقيق، وتدخل عوامل أخرى مهمة وحيوية جدًا في حسم المعركة: "إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ١١ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢" [الأنفال].

يكفيني هاتين الآيتين لبيان كيفية تصريف قذائف الحق، أهل الحق الضعفاء يغشيهم النعاس أمنة لهم خاصة أنهم قلة مقابل كثرة، نزل المطر ليقوم بوظائف عجيبة غريبة لا ندركها بأبصارنا، منها الطهارة وإذهاب رجز الشيطان والربط على القلوب، وتثبيت الأقدام في المعركة، أربعة وظائف للماء غير ما نعهده.

ثم تدخل رباني لقلوب الأعداء بإدخال الرعب بها، وتدخل ملائكي بشل حركتهم؛ فضرب الملائكة لم يكن على الرقاب بل فوق الأعناق أي الرأس، أو مراكز التحكم في الجسد، وفي البنان الذي يقبض على أداة الحرب هنا، تم شل مراكز التحكم وأدوات التنفيذ، فالملائكة فقط تشل حركة الباطل ليتمكن صِبْية كمعاذ ومعوذ ابنا عفراء من رأس أبي جهل.

هنا كان معنى الآية واضحًا لنا جليًا: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [سورة سبأ] هنا ربنا قذف بالحق علام الغيوب، وعندما جاء الحق تم شل الباطل تمامًا؛ لذا الباطل لا يبدئ ولا يعيد، لماذا؟ لأن الله يريد أن يحق الحق ولو كره المجرمون.

ماذا نتعلم من هذا المثال: هناك توقيت محكوم وسننية محكومة لها تجلياتها في وقت معلوم، هذا التوقيت لا ينظر إلى قدرة الباطل الوهمية، لكن ينظر إلى تأهيل الحق واستعداده لحمل الأمانة وفق مراد الله؛ فإن حصل استحقاق الحق، عندها اعلم أن الباطل لا يبدئ ولا يعيد.

وفي ثنايا السياق جاءت القذيفة العظمى التي جاء وصفها: "وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا"، لو كان شيئًا به هذه القدرة الإعجازية لكان القرآن الكريم؛ لذا في نفس السياق والآية جاءت قذيفة الحق التي نعايشها يوميًا لكن دون وعي منا: "وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ" [الرعد ٣١].

نعم تابعوا الأحداث جيدًا؛ تروا بأم أعينكم مصداقية هذه القذيفة التي ارتبطت بتسيير الجبال وتقطيع الأرض، فلا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة (سنن الانتقاص المسلمة لسنة الطمس)، أو تحل قريبًا من دارهم، حتى تأتي القذيفة الشاملة المذكورة في سورة الإسراء: "وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا" [الإسراء٥٨]، هذه الآية تتحدث عن وعد الله المنتظر إن الله لا يخلف الميعاد.

لكن بالرغم من وضوح الآيات وجلاء دلالاتها إلا أن الكثيرين يمرون عليها مرور الكرام لا يسمعون، فقد أصبح القريب منهم بعيد: "قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ" [فصلت٤٤].

إنهم ينادون من مكان بعيد، وهذا حال أكثر الناس حاليًا؛ فكل شيء أصبح قريبًا إليهم إلا دلالات القرآن ونذره، وعندما تنادي على إنسان من مكان بعيد؛ فإنه لا يسمع منك إلا همهمة وصوتًا بلا دلالة، لذا الإشارة من المكان البعيد أقوى في الدلالة من الكلام.

وهذا معنى قول النبي ﷺ: "إني أنا النذير العريان"، فهذا مثل لراعي أو لإنسان بعيد عن قومه، ورأى جيشًا يريد أن يصبحهم، فلو نادى عليهم فلن يفهموا عليه؛ لذا ينزع ثوبه ويبدأ بتحريكه لكي يحذرهم، فهذا معنى النذير العريان، فالموضوع قريب جدًا ولكن النداء من مكان بعيد.

ما زلنا مع تجليات قوله ﷻ: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [سورة سبأ]. بعد سوقي لأمثلة متنوعة لقذائف الغيب التي يقذفها الله في ساحة الباطل، وفي عقر داره ليمحقه ويزيله، في هذه المقالة سأعيش مع دلالة الآيتين وصياغتهما لكي نفهم دلالتهما جيدًا.

فالآية جاءت بشكل صاخب بعد هدوء نسبي في سورة سبأ، جاءت بلفظة قل لتوحي لنا بمباشرتها للواقع بقوة، ثم بدأت بالتوكيد بلفظة إن لأن مسألة الغيب في ظل استحكام عالم المشاهدة على الحس دائمًا تغيب عن الذهن وتأتي له من أضيق التخم.

لذا في ظل سطوة عالم المشاهدة تحصل الظنون في التدخل الغيبي ويقع التشكك في رؤية عناصره، وهذا استلزم توكيد المسألة بمؤكدين أحدهما حرف (إن) والثاني هو التقديم والتأخير في الآية.، فالسياق الطبيعي للكلام: إن ربي علام الغيوب يقذف بالغيب. لكن الآية فصلت بين الصفة والموصوف، فالموصوف هو كلمة ربي والصفة علام الغيوب، وأقحمت بينهما جملة يقذف بالحق.

والمعلوم باللغة أن التقديم يراد به الاختصاص، وهنا جاء لمراعاة حال النفوس المتشوقة للحق وباحثة عنه عند احتكام ظلمات الباطل، لذا قدم الله جملة (يقذف بالحق) مراعاة لتلك النفوس التي تنظر لهذه الجزئية باهتمام شغل فكرها، فالكل ينظر لتلك اللحظة التي يرمي فيها الحق بنفسه في ساحة الباطل، لذا جاء هذا التقديم والتأخير للموصوف عنه.

أما لماذا علام الغيوب هنا!؟ فأقول: أكثر الآيات استخدمت صيغة (عالم الغيب) وصفًا للذات العلية، وهذه الصيغة عبارة عن اسم فاعل واسم مفرد معرف، واسم الفاعل يوحي بثبات الصفة لصاحبها، والاسم المفرد يوحي بالعموم، فالله هو عالم الغيب بإطلاقه وعمومه بحيث لا يعزب عن علمه شيء.

لكن هنا في قذائف الحق استخدم الحق صيغة علام الغيوب، وعلام صيغة مبالغة على وزن فعال، والغيوب جمع.. فلماذا هذه الصيغة بالذات هنا، وفي مسألة قذف الحق على الباطل!؟

ببساطة لأن موضوع قذف الحق يحتاج لغيوب كثيرة، تغيب عن ذهن الإنسان القاصر في تحليليه للأحداث الآنية التي يعايشها، وما دامت غيوب متنوعة اقتضى الأمر الإمعان في بيان إدراكها، بجميع بتفاصيلها الدقيقة وهذه يقتضي صيغة المبالغة (علام).

الكلام صعب لكن بيانه من واقعنا من خلال مثال واحد، أطرحه هنا لكي تستكشف أسرار هذه الآية، فواقعنا المعاصر مركب ومعقد جدًا وتميز بكثرة الخيوط والأيدي اللاعبة في عناصره، على سبيل المثال: المرحلة الحالية التي تم افتعال حروب داخلية وتنازعات وشقاق في أكثر الشرق الأوسط (سوريا – العراق – مصر – ليبيا – اليمن – فلسطين – لبنان)، ودخلنا في دوامة استنزاف داخلي عصيب جدًا... حرمنا الرؤية الحقيقية للأحداث والأيدي المحركة لها، والمخرج منها.

وأي محلل هنا يقف مع الأحداث من خلال متوالية من الأسئلة اللامتناهية، هل ما نعيشه وعناصر الصراع هو صراع حق وباطل، أم له دلالات أخرى تغيب عنا!؟ هنا جزء من الحقيقة مغيبة عنا. هل عناصر الصراع أو بعضهم يتحركون بدوافع رسالية أم هي المصالح!؟ أم هو انحراف فكري أوقعنا في سنة ربانية مفادها "فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ"!؟ هنا جزء من الحقيقة مغيبة عنا. هل المشكلة في طريقة تفكير البعض وهي السبب في تعميق الأزمة، أم أن بعض المتنفذين في هذا النزاع تحكمهم أيدي خارجية!؟ هنا جزء من الحقيقة مغيبة عنا.

هل ما نعيشه حاليًا هو إحياء لثارات قديمة بثوب جديد، أم هو محاولة للخروج من معاناة الماضي!؟ هنا جزء من الحقيقة مغيبة عنا. ما حظ الدول الإقليمية في تأجيج الصراع!؟ وما مساحة المصالح في التلفع في ثوب المبادئ في ذلك النزاع!؟ هل ما يقع هو نزاع قبلي لبس ثوب النزاع الرسالي الديني!؟

أم هو دخول في سنة من سنن الله الغرض منها الخروج من أزمة ضياع الوطن والولد بعيدًا عن المعاني الرسالية: "وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا..."، ما هو حظ اليهود في تأجيج الصراع، وكم نسبة تنفذهم في عناصره!؟ أم أن نفسيتنا مهيأة للصراع والتآكل الداخلي لضعف وعينا وفهمنا لأنفسنا وما حولنا!؟ هنا جزء من الحقيقة مغيبة.

ما دور الدول الغربية في الصراع!؟ وهل هو فقط صراع مصالح أم تحكمه معاني أخرى تفرض دائمًا تأجيجه!؟ هنا جزء من الحقيقة مغيبة عنا. هل العناصر المؤججة للصراع هي ما نراه فقط!؟ أم هناك أيدي خفية كثيرة تلعب في الخفاء من خلال المال والإعلام، خاصة أن هناك أربع منظمات سرية عالمية تتحكم في دواليب السياسة العالمية، وتتجه نحو أهداف خاصة تتجاوز كل تفكير الدول المعاصرة، هنا جزء من الحقيقة مغيبة.

وهكذا عندما تحلل الواقع وسطوة الباطل وإمعانه في المرحلة الحالية، وعندما تلاحق دوائر الفكر القريبة والبعيدة؛ تجد نفسك أمام دوائر كثيرة وخيوط متنوعة، وقد تجد طرف الخيط ولكنك لا تصل إلى منتهاه، فالواقع الحالي مركب وخيوط اللعبة فيه أكثر من تصوراتنا وإدراكنا، وفي ظل هذا الوضع المتشابك العناصر والمركب في مدخلاته ومخرجاته، تجد نفسك أمام متوالية لا متناهية من الأسئلة التي لا تجد عليها إجابة شافية.

هنا تقف عاجزًا قاصرًا تائهًا في إدراك الواقع ودرجة تعقيده، ولا تمتلك الإحاطة بكل خيوط اللعبة فيه، عندها وفي قمة عجزك وضعفك وقصورك يأتيك الصوت من بعيد مجلجلًا كالرعد الذي يسبق المطر، يأتيك من يكشف لك كل هذه الغيوب أو من يتعامل مع كل هذه الغيوب، ويعالجها بحكمة ويلاحق عناصرها بقذفه الحق من خلفها.

من هناك يأتيك الصوت من بعيد: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"، وفي اللحظة التي تكثر خيوط الباطل في العبث عندها يرمى الله ﷻ الحق في وسطها ليستدرج الجميع من حيث لا يعلمون:

فهناك من سيفهم جيدًا، وهناك من يتأهل لمرحلة قادمة، وهناك من يتلفع بثوب الرسالة والأيام كشفت حقيقته، وهناك من ذاق مرارة الظلم وبدأ يتشوق للحق، وهناك من يساق من حيث لا يدري، وهناك من تكتمل عناصر سننه الممهدة لنهايته، وفي اللحظة الحاسمة التي يقذف بها الحق عندها تحتاج صوتًا مجلجلًا آخر ينهي الصراع من لدن حكيم خبير: "قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ".

عندها تجد نفسك تقول: متى يا رب؟ الجواب هو عندما تستحق. لكن ما يجب أن تعلمه هو أنك إذا رأيت الباطل يتحرك بسرعة كبيرة لا تستطيع ملاحقة كل خيوطه، عندها اعلم أن الحق لا بد أن يكون خلفه يمهد لأمر ما قد لا تدركه، ويستدرج من حيث لا يعلم أهل الباطل، ويصطنع أهله من خلف الركام. اعلم حينها أن ربي يقذف بالحق علام الغيوب.

ما زلنا مع تجليات قوله ﷻ: "قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [سورة سبأ]. وهذه الآيات هي من سورة سبأ، ولها سابق ولاحق يبرز سياقها بشكل واضح، فالآيات من سورة سبأ، هذه السورة التي تحدثت عن أمرين هامين هما: قصة سبأ وقصة خلافة داود وسليمان عليهما السلام.

وبداية السورة ومنهجيتها من أول آية فيها تحتاج لشرح مطول، لكن مع الآية الثالثة منها جاء ذكر الغيب والساعة، يقول الله ﷻ: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ٣" [سبأ].

ثم في الآية التاسعة قبل الشروع في خلافة داود وسليمان مباشرة، ذكرت الآية عقوبتين مهمتين متروكتين للمشيئة المستقبلية؛ هما الخسف والكسف، يقول الله ﷻ:

"أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ٩" [سبأ].

بعدها دخلت الآيات بهدوء إلى الخلافة التسخيرية الأولى التي كانت من حظ داود وسليمان عليهما السلام، وبعدها وبترتيب عجيب تم طرح قصة سبأ تلك القرية الآمنة التي يأتيها رزقها رغدًا، وتميزت بعمران القرى بينها وبين القرى التي بارك الله بها، ثم كان الكفر، وكان العقاب بتمزيقهم كل ممزق، وبتحويل الأرض من جنات عامرة إلى قحط فيه أثل وخمط وشيء من سدر قليل.

قصة لها دلالاتها أقحمت في السياق بهدوء، ثم بدأ السياق مع النبي محمد عليه السلام وقومه من خلال حوارات متعددة، وكان السياق يرتفع تدريجيًا في طروحاته حتى وصلنا إلى آية قذف الحق، هنا وصل السياق إلى قمته للإشارة لتدبير الأمر من خلال الغيب، بطريقة قد تغيب عن العيون وإن كانت تستشفها البصائر، وكأن الآيات تعد لأمر غيبي قادم لا محالة، ضمن صراع مركب معقد تغيب فيه الرؤية.

ثم بعد آية قذف الحق، جاءت بعض الإشارات التي تذكرنا بأول سياق طرحته السورة قبل الخلافة التسخيرية، وهي مسألة الخسف والكسف المتعلق بالمشيئة.

هنا الآيات لا تحتاج إلى نظر عقلي وبصيرة، بل تحتاج لرؤية بصرية حاصلة، يتعانق فيها عالم الغيب بالمشاهدة لذا بدأت الآيات بالرؤية: "وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ٥١ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ٥٤" [سبأ].

إذًا هذا هو قذف الغيب من علام الغيوب، وما كان في دائرة البصيرة (عالم الغيب) أصبح في دائرة الرؤية والبصر (عالم المشاهدة)، ولو ترى إذ فزعوا.. والفزع هو الخوف المفاجئ، لكنه في لحظة لا تراجع فيها ولا فوت، وهذا الخوف المفاجئ سببه أنهم أخذوا من مكان قريب.

هنا يطرح المفسرون أن المقصود بها خسف البيداء في آخر الزمان، وقد يكون الأمر أوسع من ذلك في إشارته لثلاثة علامات كبرى، وهي خسف المغرب وخسف المشرق وحسف جزيرة العرب، والآيات الأولى التي ربطت بين الخسف والكسف يوحيان بتلازم الأمرين هنا في الأخذ.

لكننا نقتصر على سياق الآية (من مكان قريب)، وهل هناك أقرب من أن يؤخذ الإنسان من تحت أقدامه!؟ إنه الأخذ القريب، أما لماذا الأخذ يكون قريبًا!؟ فلأنهم لغفلتهم كانوا بالنذر كأنهم ينادون من مكان بعيد، إنه المعنى الذي أرشد إليه صدر سورة الأنبياء: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ ١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ" [الأنبياء].

إنه الغفلة واللهو واللعب الذي يجعل القريب بعيدًا، ويجعل النذر أبعد ما تكون عن الإنسان، بالرغم من أنها تكون أقرب ما تكون منه.

هنا أخذوا من مكان قريب: "وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ" [سبأ]، والتناوش يقال للإبل التي تتناوش الماء بسرعة وهو قريب منها، فهم قالوا آمنا لكنها كلمة لا تنفعهم، فهم كمن يطلب الماء ليشربه ويتناوشه وهو بعيد عنه جدًا. فكما أن النذر كانت بالنسبة لهم للعبهم ولهوهم وغفلتهم تأتيهم من بعيد؛ فكذلك ماء النجاة يصبح بعيدًا عنهم جدًا، والإيمان المنجي يكون أبعد ما يكون منهم.

والسبب في ذلك هو أنهم: "وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ٥٣" [سبأ]. فالكفر وطلب الغيب من غير مصادره الأصلية هو الذي أوقعهم فيما هم فيه. والآيات قطعًا تشير إلى نذر مستقبلية، وهذا واضح من آخر آية في السورة "وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ٥٤" [سبأ].

فالسياق كله سياق مستقبلي، وهو في نظر المفسرين يشير إلى الخسف المستقبلي الذي ذكرته السنة، وفي السياق تمازج بين القريب والبعيد، فما كان بعيدًا ترتب عليه الأخذ من قريب، فإذا طلب أهله النجاة كان التناوش من بعيد.

بهذه المقالة أنهي سلسلة القريب والبعيد مع آخر يوم من رمضان، وأسأل الله العفو والعافية والمغفرة لي ولكل المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، وأسأل الله لكل الأرض الهداية قبل أن يكون التناوش من مكان بعيد.

ولا أنسى أن أذكر أن قصة سبأ تشير إلى تبدل الحال، وأن الكسف والخسف كان ذكره مباشرة قبل الخلافة التسخيرية، وكذلك الخسف في آخر الزمان يكون مع بدايات الخلافة الثانية للأمة الإسلامية.

*****

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ.

(التمكين والتوقيت)

المتتبع للسنن يجد أن مسألة التوقيت من أهم المسائل الهامة في مسألة الأمم والتمكين، بعبارة أخرى كما أن لكل كتاب أجل ولكل أمة أجل، كذلك للرزق أجل وللنصر أجل، وتوقيته مرتبط بالحكمة الإلهية، التي تخفى عنا في كثير من الأمور. لكي يتضح الأمر سأذكر جانب من التوقيت كما تبرزه بعض الآيات.

موسى هرب من مصر وتوجه تلقاء مدين، وكان وصوله في التوقيت المناسب ليكمل مسيرته، يقول الله ﷻ: "وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ"، فعندما وصل الماء وجد أمة يسقون ووجد امرأتين تذودان.

هنا التوقيت الرباني لكي يكمل موسى عليه السلام مسيرة التربية من خلال قصته مع المرأتين؛ لتبدأ رحلة الاستئجار عشر سنوات، وهي التوقيت اللازم للتربية لموسى عليه السلام؛ لذا بعد العشر سنوات قال له الله ﷻ: "فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى" [طه٤٠]، إنه تلاحم القدر ضمن توقيت رباني محدد "ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ".

نجد التوقيت مرة أخرى مع موسى عليه السلام، ولكنه لم يدرك سره بالرغم من أنه عايش مثله عند ماء مدين، وذلك في قصته مع الخضر يقول الله: "فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا" [الكهف٧٧]، فهنا التوقيت واضح، فبمجرد وصول الخضر وموسى عليه السلام للجدار كان الجدار في حالة انهيار؛ إنه التوقيت.

وتعجل الثمرة قبل اكتمالها أو تعجل الشيء قبل أوانه، ومعاندة التوقيت دائمًا عاقبته الندم أو الافتتان وهذا ما أصابنا، هناك إشارة في القرآن عن التعجل وأثره وفي قصة موسى عليه السلام؛ حيث ترك أمته وتعجل لقاء الله، فماذا كانت النتيجة!؟

النتيجة يبينها القرآن الكريم يقول الله ﷻ: "وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسى ٨٣ قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى ٨٤ قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ" [طه٨٣-٨٥]، الآيات صريحة؛ تعجل موسى عليه السلام = وقعت أمته فريسة للفتنة وإضلال السامري.

ليتنا نفهم سنة التوقيت ونضعها مواضعها، فالذي أراه في العالم الإسلامي هو عملية تعجل للشيء قبل أوانه، فكانت النتيجة الهرج والفوضى والدماء والفتنة.

*****

ما أعجلك

تعتبر سنة التوقيت من أهم السنن التي تخضع لها الأحداث حولنا، وهي سنة عميقة المأخذ صعبة المنال سهلة الإدراك بعد حدوثها، تغيب مدلولاتها حتى عند أصحاب الأمر، وهي بموازين دقيقة تتكشف لأولي العلم من خلال خفض القسط أو الميزان ورفعه كما في سورة آل عمران.

والموازين القاصرة المحكومة بالتعجل لدينا، لا تتساوق معها سنة التوقيت بأي وجه، فعامل الزمن الذي يحكمنا هو لا شيء أمام مفهوم الزمن، فسبحان من تعرج إليه الملائكة في يوم مقداره خمسين ألف عامًا، فعروج واحد للملائكة يستوعب قرابة العشرة أضعاف من تاريخ البشرية الذي نعرفه؛ لذا ما نراه بعيدًا هو في الميزان وسنة التوقيت قريب جدًا، فآية العروج جاءت لتخبرنا بالأمر: "إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا" [المعارج٦].

المهم أن سنة التوقيت لا تخضع لحساباتنا، وقد تخفى حتى على أصحاب الأمر؛ لذا عندما قدر الله الفرقان بين الحق والباطل في بدر، أخرج الرسول من بيته بالحق، ليجد نفسه ومن معه بالعدوة الدنيا والكفار بالعدوة القصوى، هنا جاءت الآية لتبين أن الأمر والتوقيت لو ترك للبشر وموازينهم، فحتمًا سيكون هناك الاختلاف وعدم حصول الأمر؛ لذا قال الله ﷻ: "لَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ"، فالموضوع يخضع لسنة توقيت محكومة من لدن حكيم خبير بعيدًا عن تقديرات البشر.

وغياب فهمنا لهذه السنة بكل عناصرها هو سبب رئيسي في وقوعنا في شرور كثيرة، بل ولوجنا في الفتن بأعلى درجاتها (الدماء) سببه ضعف الوعي الحقيقي لهذه السنة، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل معاندة هذه السنة تجعل الإنسان أحيانًا لا يكيل بالشر إلا لنفسه من خلال دعائه على نفسه، والسبب التعجل.

فأحيانًا البعض يصاب بالإحباط، مع رتابة الحياة وعدم وجود بارقة أمل حاضرة أمام عينيه... متعجلًا؛ عندها يسلمه الشيطان للدعاء على نفسه خاصة مع تأخر البشارات بحسب فهمه للتوقيت، يقول الله ﷻ: "وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا" [الإسراء١١].

هذه الآية جاءت بعد البشارة بالنصر العظيم، أو وعد الآخرة المتعلق بالأقصى والانتصار على اليهود، لكنها بينت أن الإغراق بالبشارات واستحثاثها قبل موعدها وقبل توقيتها؛ يوقع الإنسان بهذه النتيجة المبنية على الإحباط. الدعاء بالشر لماذا!؟ لأنه عجول يتعجل ويعاند سنة التوقيت خاصة مع عدم الفهم السليم للعناصر المتنوعة حتى للبشارة نفسها.

فالعجلة هي سبب للفتنة، وتعجل الأمر هو سبب للوقوع في كفارة العجل كما وقع بنو إسرائيل، حتى لو كان التعجل من باب رضوان الله؛ فهو في كل الأحوال ليس في محله.

موسى عليه السلام بعد حادثة شق البحر، وقبل أن تجف أقدام بني إسرائيل من آثار تلك المعجزة العظيمة، وجدوا قومًا يعكفون على أصنام فماذا طلبوا!؟ "وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" [الأعراف١٣٨].

إذا هم قوم يجهلون، ما زالوا يحتاجون موسى بين ظهرانيهم بقوة، ولا يمكن أن يكفي مع رعونتهم وجهلهم شخصية حليمة كشخصية هارون عليه السلام، فهم أحوج ما يكونون لسطوة موسى وكاريزمته المؤثرة.

هنا موسى عليه السلام عندما وصل للطور؛ تعجل الأمر وترك بني إسرائيل بين يدي رسولهم هارون ليذهب للقاء ربه، هنا كان المعهود أن الميقات ثلاثون يومًا فهذا ما حدده موسى عليه السلام لقومه، لكن الميقات بتمامه أصبح أربعين يومًا، جاءت الآيات لتحكي الحدث: "وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ" [الأعراف١٤٢].

هذه آية الوعد والتمام، لكن عندما حصل التكليم خاطبه ربه: "وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ٨٣" [طه]، هكذا صيغة تعجب من فعل موسى وتعجله، لكن هذه العجلة كانت أصلًا رعاية لرضوان الله: "قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ٨٤" [طه]، لكن ماذا ترتب على هذه العجلة مع قوم يجهلون!؟ "قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥" [طه].

إنه الوقوع في الفتنة، وهو ذاته السبب (سنة التوقيت) الذي أوقع بني إسرائيل في حبائل السامري، "فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ٨٦" [طه].

كانت الفتنة وكان العجل الذي ترتب عليه كفارة العجل التي بينتها سورة البقرة: "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [البقرة٥٤]، إنها نفسها كفارة العجل التي وقع فيها الكثيرون من الأمة في كل مكان: "اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ".

فالعجلة وعدم إدراك سنة التوقيت بطريقة واعية هو سبب وجيه في وقوع الكثيرين بالفتن والإحباط، وفي حالات معينة كفارة العجل، وقد لاحظت هذا التعجل في كثير من المنتديات وما كانت تسببه من إحباط لدى الكثيرين، وأحيانًا كانت توقع البعض بشكل من أشكال الفتنة بدين الله وتأخر وعوده، كل ذلك بدون وعي والسبب الجهل بسنة التوقيت وعلاقتها بالسنن الأخرى. والمشكلة أننا نجد أن هناك نَفَسَ تعجلٍ في المدونة.

هذه المقالة تتمة لمقالة بعنوان سنة التوقيت موجودة في المدونة.

*****

السنن الإلهية والأسماء الحسنى

هذه مقالات ثلاثة في الفيس بينها تواصل، أردت مشاركتها هنا حفظًا لها من الضياع.

المقالة الأولى: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ".

الخلق معروف، والأمر من خيوطه السنن الإلهية والسنن الكونية، ومعاقدها الذي تنتهي إليها هذه الخيوط هي أسماء الله وصفاته، ومن أدرك سر هذين العلمين دخل في درجات علم الكتاب، والذي عنده علم من الكتاب جلب العرش بطرفة عين من خلال هذا العلم السنني المنتهي عند الأسماء والصفات.

وطرفة العين من الأمر، والأمر بينه الله بقوله: "وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ" [القمر ٥٠]، فأمر الله كطرفة عين أو كلمح بالبصر، كلماتي هذه لمن يعقلها لا توزن باللآلئ والدرر. ورب مبلغ أوعى من سامع.

المقالة الثانية: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" [طه٥٠].

هذه مقالة متممة للمقالة السابقة إمعانًا في الفهم، فالآية السابقة تشير إلى إجابة موسى عليه السلام لفرعون عندما قال: من ربكما يا موسى!؟ فأجاب موسى عليه السلام إجابة جامعة مانعة معرفة بالله، فالله الذي أعطى كل شيء خلقه؛ هنا إشارة إلى صفة الخلق وسننيته، وكل الصفات الخادمه له...

ثم اهتدى هنا إشارة إلى صفة الأمر؛ لأن هداية الكائنات والمخلوقات، من الذرة إلى المجرة وما بينهما وما فوقهما، هو إشارة للنواميس والقوانين والسنن الصارمة التي تكفل هداية كل مخلوق لما خلق لله، بمعنى أن الله خلق الخلق ولم يهملهم، بل بث فيهم من السنن والقوانين التي تيسر كل مخلوق لما خُلق له. معنى إجابة موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ يردنا مباشرة إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ"، والهداية وسننها ومعاقدها من باب الأمر.

المقالة الثالثة:

أعجبتني عبارة كنت قرأتها في احد كتب التفسير أو علوم القرآن لا أذكر الآن أين، مفاد العبارة أن أسرار آيات القرآن في خواتيمها، والخواتيم في الأغلب تنتهي بأسماء حسنى مركبة (أكثر من اسم)، وهذا الكلام صحيح فالأسماء معاقد الآيات ومنتهى الأمر، وهذا سر لا يدركه إلا القليل؛ لذا كل اسم مركب في آخر آية يرشد إلى سر تلك الآية، ويفهمنا جزءًا من أسرار سننية تلك الآية.

حتى لا أطيل هنا، أذكر آية وأبرز سرها السنني، وهي في حق يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: "وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [يوسف٦] هنا الآية تكلمت عن سنة الاجتباء، وانتهت بقول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إن ربك عليم حكيم.

وهذه الصيغة جاءت في سياق الدعاء من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، بمعنى أن ربك عليم يعلمك العلم، حكيم يهبك الحكمة، وهاتان الصفتان هما منتهى سنة الاجتباء ومعقدهما، لكن في الآية قدم العلم على الحكمة جريًا على السنن الإلهية الجارية؛ لأن الحكمة هي اكتمال تجربة مبنية على العلم، والعلم سابق لهذه التجربة، فلا بد من العلم قبل الحكمة، فهذه هي السنن؛ لذا قدمت الآية العلم على الحكمة بحسب السنن هنا.

طبعًا هذه الآية تشير للتأويل اليعقوبي للرؤية، وقد بينت أسرار التأويل اليعقوبي واليوسفي في مقالة سابقة في مدونة الموسوعة فليرجع إليها؛ لكن نلحظ في سياق السورة أن ما حصل مع يوسف لم يكن سنة إلهية جارية، بل سنة إلهية خارقة، يقول الله ﷻ: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" [يوسف٢٢].

فيعقوب عليه السلام قدم العلم على الحكمة بحسب السنن الإلهية الجارية، لكن الآية هنا في حق يوسف عليه السلام قدمت الحكم والحكمة على العلم، من باب الجزاء على إحسان يوسف عليه السلام، وخرقًا للسنن الجارية نحو الخارقة في حق هذا النبي عليه السلام، وهذه الحالة التي تسبق فيها الحكمة العلم هي خاصة بالأنبياء في حالات خاصة مخالفة للسنن الجارية.

أما لماذا كانت هبة الحكمة ليوسف عليه السلام قبل نعمة العلم!؟ لأن حاجة يوسف للحكمة وتقدير المواقف كان أكثر من حاجته للعلم نفسه، فهو يعيش تجربة خاصة في أرض غربة تم بيعه فيها كمملوك لا يملك من أمره شيئًا، وهذه الحالة تفتقر للفرص المؤاتية لحصول العلم وتحصيل أسبابه؛ لذا عاجله الله بالحكمة قبل العلم لكي يكون عنده حسن تقدير للمواقف التي يتعرض إليها، ويتصرف معها بحسب ما يتناسب وهذه الحكمة بعينها.

وهي حاصلة قبل سجنه، أما في السجن فكانت الفرص مؤاتية لتحصيل العلم، فكان العلم بتحصيل أسبابه، هنا السنة الخارقة ليوسف عليه السلام لم تقتصر على صفتي العلم والحكمة كمعقد للسنة ومنتهاها، بل ساندتها صفات لله أخرى قدرت التأخير والتقديم وخرق للسنة الجارية، كصفة الرحمة وصفة الوهاب وغيرهما من الصفات.

فيعقوب ﷺ اختار ترتيبًا يتوافق مع الوضع الطبيعي للسنن، لكن الظرف الخاص ليوسف ﷺ فرض خرقًا لهذا الترتيب، بتساند صفات أخرى غيرت من الترتيب الطبيعي للعلم ودرجاته في حق يوسف ﷺ.

*****

علم السنن والتداخل بينها بحسب الحال

علم السنن الإلهية هو علم عظيم عزيز لم يطرق بمدلولاته بعد، فهذا العلم يمثل سر الله في كونه وميزانه الحكيم الذي يحكم حركة الإنسان والكون والحياة، وهذا الميزان الخفي عن الكثيرين ينصب بشكل حسي يوم القيامة للحساب.

للأسف الكثيرون يحومون حول الحمى، ويقفون عند هذه السنن على شكل قوالب جامدة متكررة بنفس الوصف، دون إدراك جوانب التفاعل والتداخل الحكيم بينها؛ لتتناسب كل سنة مع الحدث وبنفس درجته، من خلال تفاعلها مع السنن الأخرى بحسب الحال...

سأضرب مثالًا يبرز فهمي للسنن بحسب الحال: "وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي".

اصطنع الله موسى ﷺ لاستنقاذ أمة مستضعفة في الأرض، وكان الاصطناع بحسب الوظيفة والمهمة؛ لذا كانت المعية حتى في اللحظات الحساسة مرتكزة على شخصية موسى ﷺ، وهذا واضح عندما وصل البحر ووجد اليأس في

قومه زجرهم بقوله: "كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ"، فهنا جعل المعية قاصرة عليه، فوظيفة موسى (عليه السلام) ومهمته من الدرجة الأولى هو استنقاذ أمة.

وهذا الاصطناع كان أيضًا من حظ سيد المرسلين محمد (عليه السلام) لكن مع اختلاف المهمة والوظيفة، فقد اصطنع الله محمدًا (عليه السلام) ليس ليستنقذ أمة في الأرض، بل اصطنعه ليصطنع أمة بأكملها لتكون خير أمة أخرجت للناس.

فأمة محمد أمة خروج لكل الناس، أما أمة بني إسرائيل فهي أمة دخول: "ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ"، من هذا الوجه لم تقتصر المعية على النبي (عليه السلام)، بل تعدته لمن حوله في اللحظات العصيبة: "لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا"، فالمعية هنا شملت النبي وصديقه في الغار، وكثير من الآيات جاءت لترشد لذات المعية، يقول (سبحانه وتعالى): "فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ" [محمد٣٥]، فهنا المعية شملت الجميع.

إذا اختلاف المهمة ترتب عليه اختلاف الاصطناعين بين الكليم وسيد المرسلين.

لكن في عهد المهدي تتغير المهمة فهي مزيج من التجربتين، فهو يكون عنوانًا لاستنقاذ أمة مستضعفة (تجربة موسى (عليه السلام))، وعنوان لنشر الرسالة والقيم والعدل في الأرض (أخرجت للناس وتجربة محمد (عليه السلام))؛ لذا تتفاعل السنن وطبيعة الاصطناع ليتناسب مع المهمة.

من هذا الوجه أخذ المهدي رمزية حجر الزاوية؛ أي حجر الأساس الذي يربط بين جدارين، فالسنن التي تتساوق معه هي مزيج من التجربتين في تفاعلهما لأداء المهمة بحسب الحال...

وهذا موضوع عميق قد لا يفهمه البعض، يبقى الانتظار لنرى ماذا تحمله الأيام!؟ وما يعقلها إلا العالمون.

*****

سنن اللحظة الأخيرة

(١)

الله هو الحق المطلق صاحب القوة الحقيقية، وهو الحليم الغفور، قدر الابتلاء في الأرض من باب التمحيص والاختبار للإنسان في دار العمل، وحلم الله ﷻ لا يعني إغفاله للبشرية وحاشاه، وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؛ لذا يكون التذكير والإمهال، ثم تكون اللحظة الأخيرة التي تحمل في سننها المعاني الكثيرة.

في هذه المقالة أتناول اللحظات الأخيرة للأمم السابقة كما يصورها القرآن الكريم، ثم أعرج للحظة الأخيرة المتصورة لعصرنا بإذن الله.

وقبل الشروع في الأمر أذكر أننا سنجد أن كل أمة استدرجت في لحظاتها الأخيرة بطريقة قد تكون مغايرة لأختها، وفي كلها تتجلى عظمة الله وحكمته وقدرته، وهذه مقالة مستعجلة لبيان الأمر، وإن كانت تحتاج لتفصيل سنني طويل نلاحق فيه كل الدلالات، لكن المدونة لا تحتمل ملاحقة كل التفاصيل السننية، لذا هي مقالة فقط من باب التذكير.

عندنا في القرآن الكريم ذكر الله مصارع أقوام متعددة، تنوعت فيه اللحظات الأخيرة لكل أمة بما يمكن تفصيله في التالي:

أولًا: قوم نوح عليه السلام والاستهزاء الأخير المشوب بالطمأنينة.

ذكر النبي نوح عليه السلام قومه ٩٥٠ عامًا، وكان بأعلى درجات الحكمة والحرص والعقلانية في تذكيره لهم، لكن طغيان قومه جعلهم ينعتوه بالسحر والجنون والسفاهة، وهم يعلمون في كوامن أنفسهم أنه ليس كذلك؛ لذا جاءت اللحظة الأخيرة لتعمق طغيانهم واستهزائهم بنبيهم لتكتمل عليهم الحجة.

فكان قدر الله لنوح عليه السلام بأن يبني سفينة في الصحراء أو البر بعيدة جدًا عن أي مصدر مائي يمكن أن تجري فيه هذه السفينة...، وهذا أمر عجيب وعند أصحاب النوايا السيئة مدعاة وفرصة قوية للسخرية والاستهزاء، وهذا ما حصل بالفعل.

وكأن هذا الحدث قد أعطى لقوم نوح فرصتهم الذهبية ليؤكدوا على فريتهم بأن نوحًا عليه السلام مجنون، وكأن لسان حالهم يقول: ألم نقل لكم أنه مجنون، انظروا إليه هل هناك جنون أعظم من أن يبني سفينة في البر!! كأنه يريد أن تبحر فيه في السوافي...، لحظة سخرية ولحظة طغيان وطمأنينة، عبر عنها القرآن الكريم بقوله: "وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ" [هود٣٨].

الفعل حقًا لمن أغرق نفسه في عالم المشاهدة ونسي الله هو فعل يدعو للسخرية، لكن عند أهل الله القائمين على أمره الموقنين بوعده هو طوق النجاة

للحظة الأخيرة. هذا درس يبرز لنا أن اللحظة الأخيرة قد يرشد الله لها بعض الناس ليقوموا بأعمال تحصينية لها، وتكون مدعاة استهزاء ممن أغرقوا أنفسهم بالواقع والمشاهدة.

وهذا الحدث كان إمعانًا في استدراج القوم، وبث الطمأنينة والثقة فيما دعواهم الباطلة حتى تم مفاجأتهم بالأمر، لكن هذا الموقف بالذات يشعرنا أن بعض أشكال العقوبة قد تحتاج لإعداد مسبق مكشوف لها للجميع.

لكن الخلاصة: أن اللحظة الأخيرة لقوم نوح كانت لحظة استهزاء المشوب بالثقة والطمأنينة مع التسفيه العميق لأهل الله.

ثانيًا: لحظة فرح واستبشار.

وهذا كان قدر قوم عاد من الدرجة الأولى؛ حيث حرمهم الله المطر مدة من الزمن، ثم جاءتهم غيمة سوداء توحي لهم بأنها مليئة بالخير والمطر، وجعلها الله تستقبل أوديتهم مما جعلهم يخرجون من تحصيناتهم الجبلية، لكي يهيئوا مزارعهم لهذا الخير العظيم...، يقول الله ﷻ: "فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" [لأحقاف٢٤].

اللحظة الأخيرة كانت مصيدة لهم بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وجاءهم ما يوعدون فيما به يستبشرون... ما أعجب أمر الله!

وفي سياق قصة قوم عاد تأتي اللحظة الأخيرة لقوم لوط عليه السلام، فهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، بما يعرف بالشذوذ والمثلية؛ لذا كانت اللحظة الأخيرة لهم عجيبة جدًا، فقد أرسل الله ملائكة على هيئة شباب جميلي الصورة

ضيوفًا على لوط عليه السلام، ومثل هذا الصيد الثمين هو ما ينتظره قوم لوط؛ فهذه فرصتهم وبغيتهم...

لذا جاء توصيف اللحظة الأخيرة في قوله تعالى: "وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ" [هود٧٨]، "وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ ٦٨" [الحجر]، "وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧" [القمر].

هذا توصيف اللحظة الأخيرة: هرع بكل ما تحمل الكلمة من دلالات الفرح واللهفة على هذا الصيد الثمين، استبشار بفرصة ثمينة سنحت لهم من حيث لا يعلمون، مراودة على الفاحشة وانتهاك بيت النبي ومحاولة هتك ضيفه...، اللحظة الأخيرة.. ومعها العذاب الأليم بأشكال متعددة: رجم من السماء، قلب الأرض من تحتهم؛ إنه غضب رباني بحجم جرمهم.

وفي نفس سياق قصتي عاد وقوم لوط هناك سنة ماضية في أمم كثيرة بنفس الدلالة أرشد له قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ٤٤" [سورة الأنعام].

هذه الآيات قاصمة، إنها تحكي قصة لا يخلو منها زمان، رسائل الله للأمم كثيرة، بعضها بشري وبعضها كوني: البأساء والضراء. والأصل من هذه الرسائل أن تدعو الناس للتضرع لله، لكن النتيجة كانت مغايرة، القسوة والسير في طريق الشيطان والإمعان في الباطل...

تذكير بالله ثم تناسي ونسيان كل شيء تم تذكيرهم به؛ عندها تفتح الأبواب، وأبواب كل شيء لتكون اللحظات الأخيرة هي لحظات فرح وطغيان، ونسيان لكل كلمات الحق التي سمعوها، ومع الفرح يأتي العذاب بغتة وبطريقة مفاجئة لم تخطر ببالهم؛ ليخرجوا من دار العمل نحو دار الحساب.

ثالثًا: إدراك العذاب والتوجس منه مع جهالة طبيعته وكنهه.

وهذه حالة خاصة للحظة الأخيرة كانت من نصيب قوم ثمود، فهؤلاء عاينوا آية عظيمة لنبيهم وهي الناقة، ولكنهم عقروها فجاءهم التهديد من نبيهم أن موعدهم ثلاثة أيام ثم العذاب: "فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ" [هود٦٥].

هؤلاء القوم كانوا يتصورون مصداقية كلمات النبي، لكن لم يكن عندهم تصور لكيفية العذاب، ويحتمل أنهم وضعوا لأنفسهم كل الاحتياطات، فجاءت العقوبة بعكس كل احتياطاتهم؛ إنها الصيحة العقوبة التي لا تخطر على بال أحد منهم.

لكن نتعلم من هذه السنة أن هناك حالات يكون فيها بيان لتوقيت اللحظة الأخيرة مع جهل كنهها الحقيقي.

(٢)

موضوع سنن اللحظة الأخيرة يعتبر من المواضيع القرآنية الحيوية، يكفي أن الله العزيز الحكيم قد تناولها في كتابه بإسهاب، لم أقم بإحصاء للآيات المتعلقة بهذه

السنن، لكن في نظري أن الآيات التي تتحدث عن اللحظة الأخيرة قد تجاوزت المائة آية في كتاب الله؛ بما يوحي بعظمة وضرورة استقصاء هذا المعنى الحيوي، الذي أطال القرآن الكريم في بيان كامل تفاصيله وأحواله.

بل هذا التفصيل الواسع لهذا الموضوع يشعرك بأنه يحمل بين طياته أسرارًا كثيرة جدًا الأحرى بالمسلم ألا يغفلها، وإغفاله لها معناه إغفال جزء حيوي من كتاب الله ﷻ، وهذه المقالات المستعجلة إنما تعطي إشارات سريعة لهذا الموضوع الهام، وإلا الموضوع أكبر بكثير من أن تحوي دلالاته صفحات قليلة.

لكن جهد المقل أفضل من لا شيء، ورائحة البر ولا عدمه، في مقالتي السابقة تناولت ثلاثة أشكال من سنن اللحظة الأخيرة، وهنا أكمل هذه الأشكال، وإن كان بعض ما أطرحه تقليديًا؛ فهو مهم جدًا عند حديثي عن سنن اللحظة الأخيرة في عصرنا الحاضر، وهنا أتناول الشكل الرابع لهذه السنن بما يلي:

رابعًا: استدراج واستحقار واستيئاس.

هذه حالة مركبة للحظة الأخيرة، وأرى أن أنسب مدلول لها حالة فرعون في لحظاته الأخيرة، فقد تميزت مرحلة فرعون بأنهم عاينوا الآيات الكثيرة قبل اللحظة الأخيرة، وكانت كل آية أكبر من أختها: (الطوفان – الجراد – الدم – العصا والحية – اليد البيضاء – القمل – الضفادع)، وقد بين القرآن الكريم أنها تسع آيات بينات واضحات.

إذًا فرعون وقومه عاينوا القدرة والعظمة الإلهية في مواقف متعددة، وقد كان هدف الآيات هو التشديد عليه ليرسل بني إسرائيل، وقد صرحوا بذلك يقول الله ﷻ:

"وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ" [الأعراف١٣٤].

وانتهى الأمر بإرساله بني إسرائيل، لكن ماذا حصل؟ كان الموضوع متعلق بعبادة بالنسبة لبني إسرائيل، واتجاه العبادة في ظن فرعون إلى البرية نحو طريق معين، لكن موسى وقومه سلكوا طريقًا آخر.

هنا بدأ الاستدراج لفرعون حتى بالرغم من معاينته لقوة عجيبة جدًا خلف موسى عليه السلام، ومع الاستدراج جاءت الاستهانة والاستحقار؛ فهذه هي اللحظة الأخيرة لفرعون، يقول الله سبحانه وتعالى موصفًا الحدث: "فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ٥٦ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٨" [الشعراء].

هذه الآيات تحكي نفسية اللحظة الأخيرة، وهي تبرز مدى احتقار فرعون لموسى ومن معه حتى أسماهم (شرذمة قليلون)، لكن أيضًا الآيات توحي أنه قال ذلك تصبرًا وتشجيعًا لقومه لمواجهتهم خاصة بعدما عاينوا الآيات؛ لذا طلب من الجميع القدوم للمواجهة معهم وإنا لجميع حاذرون.

لكن اللحظة الأخيرة كانت قمة في العجب والتدبير الإلهي العظيم، فقد سار موسى وبني إسرائيل في مناطق غير معهودة لهم، وفي الليلة الأخيرة جاءه الوحي بالسير ليلًا لأن فرعون يتبعه، يقول الله سبحانه وتعالى: "فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ" [الدخان٢٣].

بدأ السير ليلًا، ومع انبلاج الفجر وشروق الشمس تبين لبني إسرائيل أنهم وقعوا في مصيدة، تبرزها سورة الشعراء بقوله سبحانه وتعالى: "فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ

الْعَظِيمِ ٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٦٦" [الشعراء].

فاللحظة الأخيرة كانت لحظة استيئاس من أهل الله أنفسهم، لكن ما الذي حصل!؟ مع شروق الشمس بدأت تستبين معالم المكان الذي يسير فيه بنو إسرائيل، فوجدوا أن البحر الكبير يحدهم من جهة، ولسان بحر كبير يحدهم من أمامهم، أما الجهة الثالثة فكانت منطقة جبلية وعرة جدًا، أما الجهة الرابعة الوحيدة فعندما نظروا فيها وجدوا فرعون وجنوده يتطاير غبارهم قادمين نحوهم...

هنا عندما انبلج الصباح واستبان مسرح الحدث تبين لبني إسرائيل أنهم وقعوا في مصيدة لا مجال للهروب منها، وهذه حالة استيئاس وضحها قوله ﷻ: "إِنَّا لَمُدْرَكُونَ"، وهم لا يعلمون أن هذا الإلجاء الرباني لهم لهذا المكان الذي حمل في ظاهره معاني اليأس، هو نفسه اللحظة الأخيرة التي تحمل معنى الانتصار العظيم؛ فكانت قصة غرق فرعون.

وأذكر أنه مر علي قصة قد تكون من الإسرائيليات، والله أعلم بصحة مدلولها، وفيها أن فرعون عندما عاين شق البحر وهذه المياه المعلقة في الجو كالجبال على غير المعهود شعر بخوف شديد، لكنه حاول استغلال الحدث لنفسه؛ فقال من باب الدعاية الكاذبة وقلب الحقائق لجنوده: انظروا كيف انفتح البحر لأجلي!؟ ولم يكن عنده استعداد لدخول لجة هذا الماء، خاصة أنه عاين الآيات قبل ذلك، فأرسل الله له جبريل على فرس حائل، فهيجت حصان فرعون فلحقها دون إرادة من فرعون، وتبع الجنود قائدهم فكانت المصيدة.

عمومًا قصة جبريل وفرعون هذه الله أعلم بمصداقيتها، ويكفينا دلالات القرآن، لكنني أتصور حصولها لمعرفتي أن من عاين الآيات لن يغامر بنفسه في اللحظة الأخيرة، لكنه لا يعلم أنه حتى لا يملك نفسه إذا أراد الله بها سوءًا.

إذًا اللحظة الأخيرة من فرعون وقومه تميزت بثلاث معاني حيوية: استدراج إلهي نحو الهدف، الإمعان في استحقار أهل الله بالنظر للموازين الأرضية فقط، استيئاس من أهل الله في اللحظة الأخيرة، والشعور بالإحباط والإحاطة بهم لإنهائهم.

وسنن اللحظة الأخيرة مع فرعون تكررت بنفس التوصيف مع محمد عليه السلام وقريش، لكن مع اختلاف في التفاصيل. فالمعلوم أن قريش ضيقت على النبي عليه السلام وصحابته، وجاءهم عدة إنذارات إلهية منها في سورة القمر: "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ"، لكنه إنذار كان غريبًا وغير مفهوم حتى على بعض الصحابة لأنه مغاير لدلالة الواقع.

لكن جاء الإنذار الأخير المرتبط بقانون سنني، وهو نتائج إخراج نبي من أرضه يقول الله سبحانه وتعالى: "وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلًا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ٧٧" [الإسراء].

القليل هنا كان سنتان تحقق ببدر، والآية تتحدث عن قانون لا يتبدل، وهو أن التآمر على نبي وإخراجه من أرضه يترتب عليه هلاك القائمين بذلك بعد مدة قليلة. وهذا الحدث أيضًا تم فيه استدارج الفئتين من حيث لا يعلمون أو يريدون، يقول الله سبحانه وتعالى: "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ" [الأنفال٥].

وكانت قصة القافلة التي استدرجت الموعودين نحو الهدف، وكانت اللحظة الأخيرة التي تميزت بالاستحقار كما يبرزه قوله ﷻ: "وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ" [الأنفال٤٤] وتقليل المؤمنين في أعين كفار قريش ترتب عليه الإمعان في الاستحقار...

كذلك اللحظة الأخيرة كانت تحمل معنى البطر والرياء، يقول الله ﷻ: "وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ" [الأنفال٤٧]، حيث قالوا لا نرجع حتى نشرب الخمر وننحر الجزور وتضرب علينا القيان ببدر فيتسامع بذلك الناس. فهذه اللحظة الأخيرة التي تحمل معنى الاستحقار والكبر والرياء، وفي طياتها الاستدراج الرباني لصناديد قريش نحو الهدف كما استدرج فرعون من قبل.

وهذا الموقف نفسه سيتكرر مرة أخرى في آخر الزمان مع جيش الخسف، الذي يقصد مكة نحو أولئك القوم الضعفاء الذين لا منعة أو قوة لهم (الشرذمة القليلون)، فيستدرج لهم جيش من الشمال ويؤخذوا من مكان قريب، أي من تحتهم حيث يخسف بأولهم وآخرهم.

هذه ثلاثة مواقف فارقة من اللحظة الأخيرة، الفرقان الأول كان لفرعون وموسى عليه السلام، وهذا اليوم سمي بيوم الفصح؛ بمعنى أنه اليوم الذي فصح وراق لبني إسرائيل حيث رأوا بأعينهم هلاك عدوهم، وهو من فصاحة الشيء ووضوحه. والفرقان الثاني سمي بيوم الفرقان وهو كان ببدر. والفرقان الثالث هو يوم الخسف. وهو فرقان يبرز أن العائذين في حرم الله هم على الحق؛ لذا بعد الخسف تتحرك كل طاقات الأمة من كل الجهات لبيعة العائذ في مكة.

وهذه الفراقين الثلاثة تخضع لذات السنن التي تحكم اللحظة الأخيرة لمصارع هؤلاء.

(٣)

نكمل سلسلة اللحظة الأخيرة، حيث بينت أربعة أشكال، وهنا أذكر الشكل الخامس، وهو يتعلق بعقوبة فردية هي سنة المترفين في الأرض، وذلك على النحو التالي:

خامسًا: التمحور حول المطلق الإنساني والاجتهاد في فتن الناس.

سنن اللحظة الأخيرة هنا سأتناول فيها جانب المترفين، وهي لا تتحدث عن هلاك قوم بل عن هلاك رجل من المترفين، وهو قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم. وقد جاءت الآيات لتبين لنا المواقف الأخيرة لهذا الرجل، والتي تبرز جانبًا من طغيان أهل المال، وبغيهم ثم حرصهم على إفساد قلوب الناس وفتنتهم.

فهذا الرجل تمحور حول ذاته، حيث اعتبر أن هذه الكنوز العظيمة لا علاقة لله بها، بل هي من كسبه واجتهاده وقدراته الخاصة، يقول الله ﷻ: "قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ٧٨" [القصص].

فهذه الآية تبرز أن هذا المترف تمحور حول ذاته، باعتبارها مطلقًا لا يحتاج لعون السماء، وهذا معنى قوله ﷻ: "كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ"، حيث يعظم الإنسان

قدراته ويغتر بتعاطي الأسباب معه؛ فينسى الله ويخرجه من حساباته ولا يرى له أي فضل له عليه...

وهذا الموقف ذاته الذي وقع به الإنسان الغربي المعاصر، عندما أخرج الله من حساباته، واعتبر أن تعاطي الأسباب معه إنما هو من علمه واجتهاده، ولا حاجة له بالله أو عونه في رحلته في الحياة...، وهذه الحالة هي من أعظم السنن الماحقة.

لكن في حق المترفين السنة الموجبة للحظة الأخيرة؛ هي حين يتوجه المترف بما لديه نحو فتن الناس بما آتاه الله من مال، وهذا المعنى عبر عنه الله ﷻ بقوله: "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩" [القصص].

هنا الفتنة حيث أن الخروج بالزينة كان يقصد بها فتن العباد، وتوجيه قلوب الناس نحوه ليسلكوا نهجه أو يتمنوا حاله، أو يربطوا بين طغيانه وبين العطاء العظيم الذي بين يديه.

والخروج بالزينة أصبحت منهجًا وتعتبر في عصرنا الحاضر من أوضح سنن المترفين بقصد فتن العباد، وتعتبر هذه السنة من أعظم الأسباب الموجبة للعقوبة القارونية، ومن هنا لا نستعجب من اتباع أكثر المترفين في عصرنا نهج قارون لأنها السنن...

والخروج بالزينة وكشفها للناس هو سنة يومية، فزوجة فلان المليونير اشترت فستانًا بأكثر من مليون دولار، وفلان أقام حفلة بملايين الدولارات، وهذه اشترت حذاءً بقرابة النصف مليون دولار، وهذا له طائرة مصنوعة من الذهب، وذاك صمم فيلًا بعشرات ملايين الدولارات، وهذا اشترى حصانًا باثني عشر مليون دولار، وهذه اشترت لوحة بمائة وتسعين مليون دولار، وهذا أحيا ليلة بنصف مليون، وهذه لها

سيارة خاصة صنعتها الشركة خصيصًا لها وهي تكلف مئات الألوف، وهذا أهدى لفلانة هدية تعادل عدة ملايين من الدولارات...

بل وأنا أكتب هذه الكلمات قرأت بعض القصص المخزية لبعض المترفين في الصحف الإلكترونية أستحي أن أطرحها هنا، إنها قصص في ظل محيط واسع من الفقراء والمعوزين: "قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" [القصص٧٩]، فأصبح قارون سلفًا لألف قارون في زماننا، يسيرون في خطاه ويتتبعون نهجه.

إنها أخبار نقرأها كل يوم للإشارة إلى حالات من الإنفاق والترف اللامعقول، إنها الخروج على القوم بزينتهم ليفتنوا قلوب العباد، ونجد للفنانين والفنانات النصيب الأكبر من الخروج بالزينة مع المترفين، وأصبحنا الآن لا نقف أمام إنسان غني، بل مترف بدأ يظهر شكلًا من الإغراق في الزينة للفت الأنظار إليه، وما لذلك من أثر وفتنة للقلوب.

ووجود هذه السنة بهذا الشكل منذر بالعذاب كما صرحت سورة الإسراء بقوله ﷻ: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" [الإسراء١٦] فهي من جهة سنة هلاك، ومن جهة أخرى مرشدة إلى سنن اللحظة الأخيرة؛ فعندما ترى المترفين قد سخروا كل ما لديهم من أموال، في قنوات فساد وإفساد، وفسق ومجون ونشر أباطيل، وحرص على سماع أخبار ترفهم...؛ فاعلم أنك تعيش سنن اللحظة الأخيرة للمترفين.

الخلاصة:

قارون رجل مترف حصل على مال كثير، هذا المال جعله يحول نفسه إلى مطلق ذاتي يستغني عن غيره؛ لذا عندما نسب الصالحين نعمة قارون لله مع ضرورة

أداء شكرها، تمحور حول ذاته بنهج استغنائي: "إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي"، وهذا هو قمة العلو في الأرض؛ حيث يتمحور الإنسان حول ذاته ناسيًا الله، وناسبًا كل نعمة لجهده وكسبه بعيدًا عن الله: "كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ"، فهو استغناء عن الله، والتمحور حول الذات الإنسانية كمطلق ذاتي يقابل فكرة الإله، وهذه الجريمة الأولى العظمى التي وقع فيها قارون وهي العلو.

أما الجريمة الثانية المؤذنة بالهلاك؛ فهي الخروج على الناس بزينته بغرض فتنتهم، وصرف قلوبهم نحوه ونحو الدنيا وحطامها، وهذه الجريمة الثانية والتي نعايشها يوميًا عبر وسائل الإعلام، من أخبار المترفين وقصصهم اليومية التي تحكي إسرافًا مفرطًا...، وهذه الجريمة عبر عنها القرآن الكريم بالفساد.

وفي ختام قصة قارون بين الله حقيقة اللحظة الأخيرة بقوله ﷻ: "تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" [القصص٨٣]، وهذا التعالي والاستغناء من قارون ناسب معه الحطم والانحطاط كعقوبة؛ لذا كانت عقوبة الخسف التي تحمل معنى الدنو في طبقات الأرض هي الأنسب لهذا المتعالي: "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ" [القصص٨١].

فهذه سنة المتعالين، وقد تضمنت سورة القصص نوعين من العلو بغير الحق، وهما: علو فرعون وعلو قارون. وهذا العلو ناسب معه ابتلاع البر والبحر لكليهما؛ حيث ابتلع البر قارون وابتلع البحر فرعون.

*****

فيزوف ويولستون (المثلات)

يتحدث الله ﷻ عن الماضي لكي نعتبر، ويحذرنا من المستقبل كي ننزجر، وما بين الاعتبار والانزجار يستقيم حال الإنسان، فهذه حكمة بالغة فما تغني النذر، لكن الإنسان إذا غره دوام الحال واستقرار الأحوال فعندها قد يكون ممن قال عنهم الله: "وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ" [القمر٣].

هذه كلمات كتبتها في صفحتي على الفيس رأيت أن أبدأ بها موضوعي هنا، فمن لم يقرأ الماضي لا يستطيع أن يفهم الحاضر ولا يتنبأ بالمستقبل؛ لذا نجد أن القرآن الكريم أكثره قصص ونماذج قصصية جاءت لنا لكي نعتبر منها ونفهم تلك المعادلات التي تحكم مصير البشرية حولنا، لكن الاعتبار يحتاج استبصار، والاستبصار يستلزم ملاحظة جوانب التوافق والاختلاف بين عواقب الماضي والحاضر لكي ننفذ من خلالها نحو المتوقع القريب.

"فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ" معناها اعبروا من هذه الحادثة من خلال معرفة سننها المؤثرة بها وعواقبها، نحو القصص الشبيهة التي تصادفكم خلال معركة الحياة، وهذا معنى قوله ﷻ: "وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا" بعدما طالبنا بالسير في الأرض.

الاعتبار معناه قياس سنني للمتشابهات، نفهم من خلاله ما أعد الله من مفاجئات، فكما أننا بواقع التجربة نعلم أن الماء يغلي عند درجة ١٠٠ ويتجمد عند درجة صفر؛ فهذه معادلة جارية ثابتة، وكذلك السنن الإلهية التي تحكم الأمم تخضع لذات المعادلات الجارية الثابتة، بل هي أكثر ثباتًا من عالم المادة.

لذا يقول الله ﷻ عن سننه التي تحكم البشرية وعجلة الحياة: "سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" [الإسراء٧٧]، "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" [الأحزاب٦٢] "اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" [فاطر٤٣].

إنها السنن التي لا تخضع للتبديل أو التحويل مما يرشد إلى دقتها وثباتها وديمومتها، فأي أمة تصل في الانحدار درجة معينة تستوجب العقوبة فحتمًا ستكون العقوبة، وأي أمة تأخذ بسنن النصر فحتمًا هذه الأمة ستنتصر. فهي حتمية سننية قدرها الله ﷻ وما يعقلها إلا العالمون.

هذه السنن الثابتة التي تحكم حياة البشرية ونهاياتهم أصبحت كالمثل الجاري المتكرر عبر التاريخ؛ لذا لا عجب بأن يسمي الله ﷻ العقوبات باسم المثلات، يقول الله ﷻ: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ" [الرعد٦].

والمثلات في الآية لها ثلاثة تأويلات يقول الماوردي: "أحدها: الأمثال التي ضربها الله ﷻ لهم، قاله مجاهد. الثاني: أنها العقوبات التي مثل الله ﷻ بها الأمم الماضية، قاله ابن عباس. الثالث: أنها العقوبات المستأصلة التي لا تبقى معها باقية كعقوبات عاد وثمود، حكاه ابن الأنباري. والمثلات: جمع مثُلة" ([٨٣]).

فهي العقوبة السننية الماحقة والمتكررة والتي جعلها الله مثالًا لغيرها من الأمم التي ستقع في ذات السنن وينالها ذات العقوبة، لأجل ذلك أمرنا الله بالقياس

[٨٣] الماوردي: النكت والعيون (٩٥/٣).

والاعتبار في جانب عقوبات الأمم من الدرجة الأولى؛ بحيث نفهم الحاضر من تجارب الماضي وعواقبه.

هذه المقدمة الطويلة إنما سقتها لأخلص لإحدى المثلات من خلال قصة حصلت قبل ٢٠٠٠ عام تقريبًا، واستبانت لنا سننها وطبيعة العقوبة، وقصة مثيلة لها غابرة في التاريخ، وبين قصة مثيلة لها تمامًا نعيشها في عصرنا الحاضر بنفس المواصفات.

المثلة الأولى: قوم لوط.

وهذه القصة التي انتهت برجم من السماء، وزلزلة عظيمة لم تبق بهم ولم تذر...

المثلة الثانية: مدينة بومبي وبركان فيزوف.

وقصة بومبي هنا هي محل الشاهد؛ حيث أن آثارها تحكي قصة كاملة عن طبيعة هذه المدينة وما حصل لها بالضبط.

بومبي مدينة رومانية كان يعيش فيها حوالي عشرون ألف نسمة، واليوم لم يبقى من المدينة إلا آثارها القديمة. تقع المدينة على سفح جبل بركان فيزوف الذي يرتفع ١,٢٠٠ مترًا عن سطح البحر، بالقرب من خليج نابولي في إيطاليا.

ثار البركان ثورانًا هائلًا مدمرًا عام ٧٩م ودمر مدينتي بومبي وهركولانيوم. طمر البركان المدينة بالرماد لمدة ١,٦٠٠ سنة، حتى تم اكتشافها في القرن الثامن عشر.

بدأ البركان بالثوران في ظهيرة ٢٤ أغسطس عام ٧٩، محدثًا سحبًا متصاعدة من الدخان كشجرة الصنوبر غطت الشمس وحولت النهار إلى ظلام دامس. حاول سكان المدينة الفرار بعضهم عن طريق البحر ولجأ بعضهم إلى بيوتهم طلبًا للحماية. ذلك اليوم كان معدًا لعيد إله النار عند الرومان.

فقدت المدينة حتى عام ١٧٣٨م حين اكتشفت هركولانيوم وتلتها مدينة بومبي عام ١٧٤٨م. واكتشف فيها الضحايا موتى في أوضاعهم التي كانوا عليها، واكتشف طابع المدينة الغني والترف، وكان لدي "بومبي" حضارة مزدهرة وقطع نقدية، وكانت تطل على جبل بركاني خامد، وكان معظم السكان من الأثرياء، وظهر ذلك على معالم المدينة، فكانت شوارعها مرصوفة بالحجارة، وبها حمامات عامة وشبكات للمياه تصل إلى البيوت، كما كان بها ميناء بحري متطور وكان بها مسارح وأسواق، وآثارهم أظهرت تطورًا بالفنون من خلال النقوش ورسومات الجدران.

واشتهرت هذه المدينة "بالزنا" وحب أهلها للشهوات، وكانت يوجد بها بيوت للدعارة في كل مكان، وتنتشر غرف صغيرة لممارسة الرذيلة لا يوجد بها سوى فراش. كان أهل قرية "بومبي" يمارسون "الزنا" والشذوذ حتى مع الحيوانات، بعلانية أمام الأطفال وفي كل مكان ويستنكرون من يتستر.

وفجأة انفجر عليهم البركان فأباد القرية بكاملها، ومن الجدير بالذكر أن هذا البركان انفجر مرة أخرى عام ١٩٤٤م، حصد خلاله ١٩ ألف نسمة، ويقول

الباحثون: إن انفجار البركان عام ٧٤م كان أضعاف الانفجار الثاني، واستمر حوالي ١٩ ساعة عندما أهلكت المدينة بكاملها.

أهل "بومبي" كانوا يرسمون الصور الإباحية على جدران منازلهم أمام الأطفال والنساء والكبار، حتى إن الباحثين اليوم يعتبرون أن فن الخلاعة قد بدأ في هذه المدينة، والآن بعد أن أصبحت المدينة مزارًا سياحيًا للسياح، بعض المناطق بها يحظر على الأطفال والأقل من ١٨ عامًا دخولها بسبب الرسومات الإباحية، وخاصة على بعض المباني والحمامات التي كانت تعرض المتعة لزبائنها.

وظلت المدينة مدفونة لمدة ١٧٠٠ عام تحت كمية كبيرة من الرماد، وظلت كذلك قرونًا طويلة، حتى عثر عليها أحد المهندسين خلال عمله في حفر قناة بالمنطقة، واكتشف المدينة بعد أن غطتها البراكين، وكل شيء بقي على حالته خلال تلك المدة بعد أن أصاب المدينة بكاملها العذاب وأهلكت تمامًا.

وأثناء التنقيب تم الكشف عن الجثث على سطح الأرض، وكانت المفاجأة أنهم ظهروا على نفس هيئاتهم وأشكالهم، بعد أن حلّ الغبار البركاني محل الخلايا الحية الرطبة لتظهر على شكل جثث إسمنتية، وأهلكهم الله ﷻ على مثل ما هم عليه.

ويرى أحد خبراء الآثار ويدعى "باولوا بيثرون" وعالم البراكين "جو سيفي" أن أهل القرية أحيطوا بموجة حارة من الرماد الملتهب، تصل درجة حرارتها إلى ٥٠٠ سيليزية، بصورة سريعة جدًا حيث غطت ٧ أميال إلى الشاطئ، وتظهر الجثث على هيئاتها وقد تحجرت الأجساد كما هي، فظهر بعضها نائمًا وآخر جالسًا وآخرون يجلسون على شاطئ البحر، وبكل الأوضاع بشحمهم ولحمهم.

قبل دمار المدينة أهمل السكان العلامات الدالة على قرب الانفجار، فلم يعبأوا بالهزات الخفيفة وكذلك القوية، ولا ببعض السحب البيضاء التي تتكون فوق فوهة البركان. ولم يتعظ السكان من الزلزال الذي خرب مدينتهم قبل ذلك بـ١٧ سنة، ولم يستجيبوا لدعاء الإمبراطور الروماني نيرون لهم بترك المدينة؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنهم رأوا من ذلك البركان خيرًا كثيرًا.

فالتربة الغنية بالمعادن التي جعلت زراعتهم مثمرة مصدرها ذلك البركان، ومياه الأمطار التي كانت ترويهم وتسقى زروعهم كانت بسبب وجود ذلك الجبل البركاني. كانت هناك عدة علامات على ثوران البركان، قبل الانفجار بأيام حدثت عدة هزات أرضية جفت بعدها الآبار وتوقفت العيون المائية، وصارت الكلاب تنبح نباحًا حزينًا فيما صمتت الطيور.

لكن السكان تجاهلوها حتى أتاهم حتفهم ضحى وهم منشغلون بالتجارة واللهو. وعند منتصف النهار من يوم ٢٤ أغسطس ٧٩م سمع السكان تلك الضجة الكبيرة، وانفلقت الصخور واللهب والدخان والرماد والغبار والأتربة في عمود متجهة صوب السماء؛ لتسقط بعدها بنصف ساعة على رؤوس السكان.

تمكن بعض منهم من النجاة هربًا إلى الميناء، واختبأ آخرون في المنازل والمباني، فتحولوا بعدها إلى جثث متحجرة عثر منها على حوالي ٢,٠٠٠ جثة؛ وكثير منهم سحق تحت الصخور المتساقطة التي أسقطت أسقف المباني. وبعدها بساعات وصلت الحمم الملتهبة الزاحفة على الأرض إلى المدينة؛ فأنهت كل أشكال ومظاهر الحياة فيها. ودفنت المدينة تحت ثلاثة أمتار من الحمم والأتربة والغبار.

وبعد عمل العديد من الأبحاث على ٨٠ جثة لأهل القرية؛ وجد العلماء أنه لا توجد جثة واحدة يظهر عليها أي علامة للتأهب لحماية نفسها أو حتى الفرار، ولم

يبد أحدهم أي ردة فعل ولو بسيطة، والأرجح أنهم ماتوا بسرعة شديدة دون أي فرصة للتصرف، وكل هذا حدث في أقل من جزء من الثانية. ([٨٤]).

هذه هي قصة بومبي، والعجيب أن هذه القصة لم تحكيها لنا دفات الكتب المسطورة، بل حكاها لنا الكتاب الكبير المنظور، وهي آثارهم ورسومهم وأحوالهم التي حكت القصة كاملة بكل حذافيرها، فهي كتاب كان مستورًا ثم أضحى مسطورًا، يحكي في جنباته كل دلالات اللحظة الأخيرة لبومبي.

هذه القصة لي عليها بعض الملاحظات المهمة، قبل أن أتحدث عن مثلة الحاضر، وهذه الملاحظات على النحو التالي:

١-بومبي لم تنتبه للإنذارات الكثيرة كالهزات الأرضية التي توحي بقرب انفجار البركان، وكعمود الدخان الأبيض الخارج من البركان، ولا تحذيرات الآخرين لهم بالانتقال من المكان...، إنه قدر الله الغالب.

٢-أهم ما ترشد إليه الرسوم وهندسة البناء وطبيعته أنهم كانوا أهل ترف، وكانت الفاحشة تنغل في وسطهم لدرجة أنها أصبحت تمثل حقيقة الواقع غير المستكره بل المحبوب، والعجيب أن رسوماتهم لم تقتصر على الزنا بل أيضًا الشذوذ حتى مع الحيوانات، بمعنى أنهم وصلوا لأعلى سلم الفاحشة تبعًا لسلفهم قوم لوط. والعجيب أيضًا أن القومين تعرضا لذات العقوبة وهي الحرق بالنار والحجارة الملتهبة، كذلك نلحظ أن الفاحشة بالذات وإظهارها بشكل كبير في المجتمع والوصول للشذوذ الهادم لإنسانية الإنسان كان يتناسب معه الرجم الناري،... إنها المثلات.

[٨٤] https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D9%88%D9%85%D8%A8%D9%8A
http://2012.talabanews.net/node/38276

٣-يلحظ من حال الجثث المتحجرة أنها كانت بهيئة تبرز عظمة المباغتة، بحيث أنها فاجأتهم ولم تعطهم أي فرصة للهروب أو النجاة أو حتى الحركة، ولئن كان توقيت مثيلهم مع طلوع الصبح (قوم لوط)، فهؤلاء باغتهم الله ساعة الضحى في وضح النهار.

المثلة الثالثة: يولستون وأمريكيا.

أنا هنا عندما أتحدث عن أمريكيا، لن أتعامل مع كل السنن الموجبة للعقوبة، بل سأركز هنا على سننية واحدة من باب المثلات، لكن لا يمنع الأمر من التذكير بأن أمريكيا قد تمثلت اللحظة الأخيرة التي تمثلت بها قوم عاد بقوله ﷻ: "فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ" [فصلت١٥]؛ فالاستكبار وادعاء أنهم الأقوى في الأرض تمثلت به هذه الدولة، وهي اللحظة الأخيرة في قوم عاد.

وكذلك تمثلت اللحظة الأخيرة لفرعون عندما جيش كل الأرض لملاحقة المسلمين، وذلك في قوله ﷻ: "فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ٥٦" [الشعراء]، فهذا منطق اللحظة الأخيرة عند فرعون وهو الحاصل في زماننا، والغريب أن الآية هي في سورة الشعراء التي بدأت في الإشارة للحدث الكوني كما فصلت في بعض المقالات.

وهناك سنن كثيرة استوعبتها أمريكيا، لكن سأضرب صفحًا عنها لأركز على ذات الفكرة التي أسوقها هنا من باب المثلات، ومن خلال الملاحظات التي سقتها في حق بومبي.

الملاحظة الأولى:

بومبي أغرقت نفسها في الفساد والشذوذ الجنسي كسلفها قوم لوط، وكانت تشهر الفاحشة وتستلطفها في كل أنحاء البلد وتعلن بها، بل السياق إنكار من أنكرها كما حصل مع قوم لوط، وهذا المعنى الأقوى في تاريخ أمريكيا، فهي حاملة لواء الإباحية ونشرها على مستوى العالم، والموضوع يطول طرحه هنا من خلال ملاحقة الإحصائيات التي فصلت فيها كثيرًا في كتابي ثقافة السلام: الواقع والفكر والمنشود.

لكن للتمثيل أذكر بعض الأمور هنا: (١,٥ تريليون) دولار سوق البغاء في أمريكيا، وثلث المواليد في العالم الغربي يأتون من الزنا، وقرابة مليون فتاة من المراهقات والقاصرات يحملن سفاحًا في أمريكيا، منهن (٣٠٠) ألف دون الخامسة عشرة، وبلغ عدد حالات الإجهاض في أمريكيا في سنة واحدة مليون و٥٢٩ ألف حالة. ([٨٥]).

عدد المثليين والشواذ جنسيًا في أمريكيا يتجاوز ٢٠ مليون نسمة، يكفي القول أنه في عام ١٩٩٣م في عهد كلينتون تظاهر أكثر من مليون شخص للمطالبة بـ(حقوق الشواذ)، وقد صيغت هذه (الحقوق) في ثلاثة مطالب، قدمها ممثلو المتظاهرين إلى المكتب الرئاسي في البيت الأبيض، وتضمنت ما يلي: المطالبة بتعديل القوانين الأمريكية لضمان حقوق الشواذ في المساواة بغيرهم، وإلغاء الإجراءات (العنصرية) التي يمارسها رجال القانون الأمريكي ضدهم، ورفع الحظر المفروض على الشاذين جنسيًا في الالتحاق بالجيش الأمريكي، ومناشدة الرئيس والكونجرس زيادة الميزانية المخصصة لمكافحة مرض الإيدز الذي يفتك بالشواذ! وقد تفاعل الرئيس الأمريكي مع هذه المطالب ووعد بتنفيذها. ([٨٦]).

---

[٨٥] انظر زمزمي: المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن (٦٩).
[٨٦] صحيفة (U.S.A today 27-4-1993).

وبلغة الأرقام والإحصائيات فإن (٥٠%) من الذكور الأمريكيين قد مارسوا الجنس المثلي (اللواط) في حياتهم، كما أن عدد من يمارس السحاق بين النساء الأمريكيات بلغ (١.٥) مليون امرأة وفتاة ([٨٧])، وأن عدد المصابين بالشذوذ الجنسي من بين أفراد القوات المسلحة يتراوح بين مائة ألف ومائتي ألف من الجنسين ([٨٨]).

و(٤٢%) من سكان النمسا لم يمانعوا من إصدار قانون يسمح رسميًا للرجل بالزواج من رجل ([٨٩]). وفي دراسة أن (٤٠%) من الرهبان يمارسون الشذوذ الجنسي، و (٨٠%) منهم زناة ([٩٠])، وقد اعترف الرئيس الأمريكي السابق كارتر بحقوق (٢٠مليون) أمريكي من الجنسين يمارسون الشذوذ الجنسي بكل أنواعه([٩١])، وفي عام ١٩٧٤م وافق البرلمان السويدي على زواج الأشقاء من بعضهم، وباركت الكنيسة هذا العمل([٩٢]).

يقول بات بوكانان أحد مرشحي الرئاسة الأمريكية سنوات ٩٢م-٩٦م في كتابه موت الغرب: «إن انهيار النظام القيمي في الولايات المتحدة جعل الكثير من الانحرافات الخلقية والسلوكية أمرًا مقبولًا بين عموم الناس»، ويشير في كتابه إلى أن المثلية الجنسية والسحاقية بين النساء والزنى، صارت أمورًا مألوفة وعادية وجزءًا من اليوميات الأمريكية.

وصارت لهذه الفئات (المخنثين والنساء السحاقيات) مقرات وجمعيات ونشرات تدعو الجمهور الأمريكي -تحت مظلة حرية الرأي- إلى ممارسة المثلية الجنسية، وصارت هذه الفئات تطبع كتبًا ومجلات وأشرطة وكشاكيل عضوية بالعناوين

---

[٨٧] مجلة المجتمع: العدد ١٤٨٦.
[٨٨] انظر شلبي: الإسلام والغرب (١٣٢).
[٨٩] صحيفة الفرقان: العدد ١٥١.
[٩٠] غزال: أفول شمس الحضارة الغربية (٢٤).
[٩١] مجلة المجتمع: العدد ٥٠٣.
[٩٢] غزال: أفول شمس الحضارة الغربية (٧٧).

والهواتف، بحيث باتت هذه الفئات تعتبر عملها شبيهًا بالعمل الحزبي، إذ لها مرشحوها في الانتخابات المحلية والفدرالية.

ويقول بوكانان: «إن الإباحية المتفشية في المجتمع الأمريكي فجرت المطبوعات الإباحية والأفلام والسينما الإباحية، ومع انتشار صور المرأة المتعرية تآكل الاحترام العام للمرأة، وتآكل احترام المرأة لقيمتها وذاتها، وصار هؤلاء الرجال الذين يكثرون الحديث عن حقوق المرأة الاجتماعية والسياسية، هم أكثر من يعبث بالنساء، وفي النهاية يلقون بهن على قارعة الطريق» ([٩٣]).

والملاحظ بحسب بوكانان في كتابه موت الغرب أن الحركة النسائية الأمريكية هي من أهم العوامل التي تسهم عمليًا في تغيير المفهوم التقليدي للأسرة، وذلك من خلال رسم دور جديد للمرأة خارج البيت والعائلة والزوج والأولاد، وتهميش ذلك الدور للمرأة، وإعطاء أهمية لدورها في المجالات الأخرى مثل الأحزاب والنقابات، بحيث أدى ذلك إلى انهيار الوضع العادي التقليدي للأسرة وضمور العائلة كمؤسسة اجتماعية تتكامل في حضانتها تربية الجيل تربية سوية ناضجة فانتشرت بسبب ذلك الجريمة والانحراف وغير ذلك.

ويستعرض بوكانان الذي كان أحد مرشحي الرئاسة الأمريكية لفترتين في كتابه مكامن التطرف والانحراف في الحركة النسائية بقيادة نانسي ليمان وهيلين سلينجر، وأندريا دوركن وجلوريا شتاينم، وشيلا كرونن وغيرهن، ومما استعرضه من أشكال هذا التطرف والغلو ما كتبته جلوريا شتانيم وهي يهودية من أن فكرة الزواج لا تختلف عن فكرة البغاء، والفرق فقط هو أن المرأة تتحول في حال زواجها من الرجل إلى بغية له طوال فترة الزواج.

---

[٩٣] انظر بوكانان: موت الغرب (٤٣- ٤٥).

ومن ذلك ما كتبته شيلا كرونن من أن حرية المرأة لا يمكن أن تتحقق بشكل كامل وصحيح إلا إذا ألغينا تمامًا فكرة الزواج، ومنحنا المرأة والرجل حق الشيوعية الجنسية. وينقل عن فاليري سولانيس قولها بأن المرأة تستطيع فنيًا أن تستغني عن الرجل في الإشباع الجنسي، وحتى في إنجاب الأطفال بل إنجاب البنات فقط، ولذلك أسست جمعية مشهرة وقانونية أسمتها جمعية الاستغناء عن الرجل، معتبرة أن الرجل خطأ بيولوجي يجب أن تصححه المرأة، ثم يخلص بوكانان في كتابه إلى القول بأن هذه المفاهيم التي نشطت الحركة النسائية الأمريكية في نشرها كانت سببًا رئيسيًا في انهيار النظام في المجتمع الأمريكي. ([٩٤]).

أضيف لذلك أن أمريكيا تسعى من خلال الأمم المتحدة إلى عولمة هذه الثقافة على مستوى العالم، ويُلحظ أن هذه الظاهرة من الاعتراف بزواج المثليين (الشواذ) قد بدأت تأخذ منحًا تشريعيًا عالميًا، بعدما تزعمت موجتها الأمم المتحدة في مؤتمراتها المتعددة منذ مؤتمر القاهرة، الذي كان من أهم بنوده ضرورة تغيير تعريف الأسرة ليشمل الأسر المكونة من زواج المثليين والشواذ. ([٩٥]).

ويلحظ من خلال مؤتمرات الأمم المتحدة المتعلقة بالأسرة أن الغرب وانتكاسته على مستوى الأسرة مما تأباه أرذل البهائم؛ يتجه نحو عولمة هذه الانتكاسة وتصديرها نحو الأمم الأخرى، باعتبار نتائجها ضرورة لحماية الأسرة في المستقبل، يقول المفكر الفرنسي (جارودي) في معرض تعليقه على مقررات مؤتمر القاهرة: «من المدهش أن رئيسة جمعية الأمهات الصغيرات في أمريكيا حذرت المسلمين في مؤتمر القاهرة من خطورة الأمركة، فقالت: لقد دمروا المجتمع الأمريكي، وجاءوا الآن

---

[٩٤] انظر بوكانان: موت الغرب (٣٦- ٤٠).

[٩٥] انظر مجلة الدعوة، عدد ١٤٦١، ١ جمادى الأولى ١٤١٥هـ / ٦ أكتوبر ١٩٩٤م، مقال لعبد الحميد حمودة بعنوان: من نتائج مؤتمر السكان الزواج بين فتاتين؛ مطبقاني: الغرب من الداخل (١٩).

بأفكارهم إلى المجتمعات الإسلامية حتى يدمروها، ويدمروا المرأة المسلمة ودورها فيها» ([٩٦]).

وبالرغم من أنني هنا أعرضت عن كثير من الإحصائيات، إلا أننا الآن أصبحنا لا نحتاج كل هذه الإحصائيات، فمن يفتح التلفاز على الغرب يجد ما هو أعظم من هذه الإحصائيات.

يكفي القول: أن المثلية والشذوذ التي كانت سببًا جوهريًا في دمار قوم لوط كما بينت الآيات، وكانت الشهادة الحيوية الأكبر التي خلفتها آثار مدينة بومبي صاحبة فيزوف.

لكن اللافت للنظر في أمريكيا، أن المثلية وصلت لدرجة التشريع قبل عامين على مستوى البيت الأبيض باعتبارها حقًا إنسانيًا، وانتهى الأمر في هذه الدولة العتيدة في سباق الرئاسة أنها لم تجد في نخبتها إلا مرشحين ملوثين من حيث القضايا والفضائح الجنسية، فقمة الهرم الذي يجب انتخابه ملاحق بالفضائح الجنسية المتنوعة، وهذا أمر توسعت به وسائل الإعلام حتى قبل الانتخابات.

إذًا من حيث المثلات: العقوبة الموجبة في قوم لوط وقوم بومبي هي ذاتها الموجودة بأكمل صورها في أمريكيا، وهنا يصرخ بهم قول الله ﷻ: "أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ" [القمر٤٣].

فهذه الآية جاءت بعد ذكر عقوبات متعددة، أصابت كثير من الأقوام آخرهم قوم لوط، وهي تفيد أن العقوبة تخضع لميزان واحد؛ لذا ليس بأحد أفضل من أحد مع هذا الميزان، إلا إذا كان له براءة في كتاب سماوي، فهل لأمريكيا براءة سماوية تبعدها من الهلاك!؟

[٩٦] انظر صحيفة الشعب الناصرية، العدد الصادر في ١٩٩٤/٩/١٦م.

الملاحظة الثانية: وجود العقوبة الكامنة وتحذيراتها المتصاعدة.

كل شيء بميزان وقدر أحيانًا لا ندرك أسراره، فقدر قوم لوط تلك المنطقة البركانية تحت أقدامهم وكانت تنتظر الأمر الإلهي، وهو ذاته قدر بومبي التي كانت جاثمة بجانب مرجل عظيم ينتظر الأمر، وكان الأمر لفيزوف في توقيته.

أما أمريكيا فقدرها أيضًا أن يكون في عمقها أعظم فوهة بركانية خامدة، إنها يولستون أي الحجارة الصفراء. هذه الفوهة العجيبة جدًا التي يقدر امتدادها حيث الحوض المنصهر تحت منتزه يولستون يقدر طوله بـ٨٨ كيلو متر وعرضه ٢٨ كيلو متر، وأن مثل هذا الانفجار عند حدوثه يمكن أن يقذف بحمم وانبعاثات غازية إلى الغلاف الجوي كافية لتحيط بالكرة الأرضية بالكامل، ويقول جيمي فاريل من جامعة أوتاه عن ذلك: سوف يكون التأثير والدمار على مستوى العالم بأكمله.

الحمم المنصهرة الموجودة تحت المنطقة تضغط على السطح العلوى، مع استمرار ذوبان الصخور في هذه القشرة. وعندما تسقط قطعة كبيرة الحجم لدرجة أن تضعف القشرة العلوية؛ فيحدث الانفجار الكبير، ولن يكون هناك أي تحذير مسبق.

هذا الانفجار سيرسل الحمم لمسافة عدة كيلومترات في الهواء، مع الغازات الكبريتية والحمضية، وفى مساحة قطرها حوالى ١٠٠٠كم (٦٠٠ ميل)، المحيطة بالبركان لن يعيش أحد سوى من رحم ربك.

يقدر حجم الحمم بملايين الأطنان، ما يكفى لتغطية الولايات المتحدة الأمريكية بطبقة سمكها ٥ إنش أي حوالى ١٢سم. في هذه المنطقة التي لن تستطيع حتى الطائرات التحليق فيها، سيغطيها الظلام وتحجب عنها الشمس، وتدخل في شتاء بركاني قد يستمر عدة سنوات.

ولن تنمو الخضروات ولا الفواكه ولا الأشجار في منطقة أوسع من المنطقة السابقة، بل إن الامطار الحمضية قد تصل إلى مناطق أبعد بكثير، مما سيهلك كل ما هو حي ويؤدي إلى تآكل العربات والآليات.

وبالرغم من تطمينات العلماء الدائمة من هذا البركان، إلا أن نذر انفجاره كثيرة وتسجل تصاعدًا ملحوظًا، كزيادة في حركة العيون المائية الحارة المحيطة بالمنطقة، وزيادة مضطردة في الهزات الأرضية والزلازل في المنطقة، وصل عددها إلى حوالى ١٥,٠٠٠ بين عامي ١٩٧٣ و١٩٩٨م، وبعض من هذه الزلازل بلغت شدتها ٦.١ في عام ١٩٧٥، وآخر ٧.٥ في ١٩٥٩، وحدثت زيادة في معدل درجة حرارة الأرض بالمنطقة، كدليل على وجود تسخين سفلي وصلت عند بعض النقاط إلى ٢٠٠ درجة فهرنهايت. مما أدى إلى إغلاق هذه المناطق أمام الجمهور. وهذه المنطقة تسمى Norris Back Basin.

أما لماذا التطمينات بالرغم من تزايد النذر!؟ فلأنه لا مفر منه، أو هو كما عبر البروفسور بل ماك قواير المتخصص بأخطار الجيولوجيا في جامعة لندن: "لا يوجد مكان للاختباء من البركان الضخم، إنه مثل الشتاء النووي ولكن بدون الإشعاع".

إنها نفس التطمينات التي كانت لبومبي حتى اللحظة الأخيرة، أو إنها نفس السنن؛ حيث لم ينتبه قوم بومبي لحركة الدخان الأبيض ولا للهزات الكثيرة التي سبقت الانفجار، ثم كان الانفجار المباغت. وهذا رابط لفيلم يعطي تصورًا لانفجار يولستون، وهو من إنتاج مؤسسة ناسا الأمريكية:

https://www.youtube.com/watch?v=cvwfDpT2Yr4

وأنا أكتب هذه الكلمات لا أتمنى لأمريكيا هذه النهاية المؤلمة، بل أتمنى أن يتعظوا من المثلات، ولو حصل شيء فلا نقول وكلنا حسرة إلا ما يقوله الله ﷻ بعد العقوبة: "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ".

فقصة بومبي تتكرر، طبيعة القوم، عدم الانتباه للنذر المتكررة حتى اللحظة الأخيرة، طبيعة العقوبة المرتبطة بطبيعة الجريمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ونسأل السلامة للبشرية بأكملها.

الخلاصة: كيف نفهم المثلات؟

١-جاءت آيات كثيرة تحكي عن سنن الله ﷻ خاصة سنن العقاب، منها آيات تطالبنا بالسير في الأرض والاعتبار من مصارع الأقوام ثم ختمت بقوله ﷻ: "وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا"، مما يشير إلى تكرار العقوبة لتكرار موجباتها بنفس الأوصاف، ومنها آيات تطالبنا بالاعتبار والاستبصار وذلك بعد مصارع الأقوام، والاعتبار معناه المقايسة ومعرفة المجهول من خلال قياسه على المعلوم، وآيات تحدثت عن مصارع الأقوام ثم بينت أن من يقع في الموجبات سيقع في ذات العقوبات؛ لأنه ليس خيرًا من سلفه ولا براءة له ثابتة في الكتب السماوية حتى يظن أنه بمنجى من عذاب الله. ثم صرحت بعض الآيات بأن العقوبات تحمل اسم المثلات للإشارة أنها مثل جاري متكرر عبر التاريخ.

٢-من خلال تتبعي لقصة قوم لوط وجدت لها مثيلًا بالمواصفات والجرائم وطبيعة العقوبة، قصة لوط أبرزها الكتاب المسطور (القرآن الكريم)، وقصة بومبي وفيزوف أبرها الكتاب المنظور، وكلاهما سردا نفس القصة بكامل تفاصيلها، إذًا عندنا قصة محكية ومثيل لها حكته لنا الآثار بدقة.

٣-بالنظر لحال أمريكيا نجد أنها وفق طبيعة الذنوب، والتي من أوضحها الذنوب المتعلقة بهدم إنسانية الإنسان (الشذوذ)؛ نجد تسير بنفس خطى سلفها الأوروبي (بومبي) والشرقي (قوم لوط)، والعجيب أنها تسير في اتجاه الشذوذ بطريقة سريعة جدًا، وكذلك على مستوى الفاحشة التي أصبحت كأنها قدر تلك الأمة حتى على مستوى نخبة النخبة، وهذا المثيل الأول.

أما المثيل الثاني: فقدر هذه الأمة أن تكون جاثمة على أعظم بركان في الأرض. أما المثيل الثالث: فهو أن النذر التي لم ينتبه لها أهل بومبي حتى اللحظة الأخيرة، هي ذاتها النذر المتصاعدة جدًا عند بركان يولستون، الذي بدأ يسجل أعلى نسبة هزات أرضية، إضافة إلى تصاعد الدخان الأبيض.

وأنا أكتب هذه الصفحات هناك احتمال لبداية تصاعد الدخان الأسود، إذًا أمريكيا الآن تحكي قصة اللحظة الأخيرة لبومبي بكامل تفاصيلها، وهنا تأتي الآية المسطورة في سورة القمر المرتبط بعلامات الساعة: "أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ" [القمر٤٣].

ملاحظة: هذا الموضوع اختصرته كثيرًا بالرغم من طوله، لأنني وجدت نفسي إذا أردت ملاحقته بالقرائن الكثيرة أحتاج لمجلد لملاحقته، لكن أرجو أن تكون المعلومة قد وصلت بهذا المختصر.

*****

موسى عليه السلام وسنة الطمس والمرحلة الحالية

الحقيقة أنني كنت أرغب في الخوض بسلسلة بعنوان القريب والبعيد، لكن أرى أن أبدأ بهذه المقالة والتي ستكون حلقة من حلقات الميزان بعد ترتيب الأوراق، وهي بعنوان سنة الطمس، وهي سنة ربانية أرشدتنا إليها قصة موسى عليه السلام يقول الله سبحانه وتعالى: "وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ" [يونس٨٨].

هذه الآية تحكي مرحلة حساسة مرت بها الدعوة الموسوية، وهي مرحلة انتفاش وزينة وأموال وقوة لفرعون وقومه، وكل هذه الوسائل تستخدم للضلال والإضلال، هنا دعا موسى عليه السلام دعوة عجيبة جدًا، بدأها ببيان حال فرعون والملأ ثم بدأ بطلبه: "رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ".

لن أخوض كثيرًا في الدلالات هنا لكني يكفيني هذه البداية في دعوة موسى عليه السلام، فموسى وقومه الضعفاء يواجهون فرعون وجنوده وقوته العظيمة، فهو يواجه قوة عسكرية، والوضع الطبيعي من موسى عليه السلام أن يدعو دعوة تفضي إلى توهين قوة فرعون وجنوده، لكنه دعا فقط على الجانب الاقتصادي، طالبًا من الله أن يطمس على أموالهم.

الطمس معناه إهلاك الأموال وإذهاب قيمتها، من خلال تدمير موجباتها وأسبابها كالزروع والصناعات غيرها، وقد توسع المفسرون في دلالة الطمس، لكن يكفيني هنا هذا المعنى وهو أن الطمس هو إذهاب للشيء وقيمته مع بقاء صورته، أو إهلاك الشيء وتغييبه بعد أن كان موجودًا فاعلًا في حركة الواقع والحياة.

وهنا أود أن أنبه هنا لقضية مهمة جدًا، وهي أن دعوة موسى عليه السلام لم تكن إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يجوز لنبي أن يدعو على قومه إلا بإذن، لأن دعاءه موجب لحلول الانتقام، وقد يجوز أن يكون فيهم من يتوب.

فللمعنى السابق نخلص أن موسى عليه السلام دعا على فرعون وملأه، وهذا الدعاء كان بإذن لذا كان الدعاء بطبعه غريب جدًا، فبدلًا من الدعاء على فرعون بإهلاكه كان الدعاء بطمس ماله، فلماذا هذا الدعاء وبهذا الشكل!؟

هنا موسى عليه السلام قد أرادها ضربة اقتصادية، أو بعبارة أخرى أرداها ضربة في القواعد؛ لأن الاقتصاد هو القاعدة التي ينبني عليها القدرة العسكرية وهيبة النظام، والضربات العسكرية في غالبها لا تنهي القوة للأمم، لكن الضربات الاقتصادية هي الأكثر تأثيرًا وإنهاءً للأمم، أو لهيبتها بما يترتب عليه فناؤها تدريجيًا.

ونحن نذكر أن الاتحاد السوفيتي كان قوة عسكرية عظيمة مهيبة لا تغالب، كان عملاقًا عسكريًا لكن تقزم اقتصاديًا، لدرجة بدأ معها يتفكك هذا العملاق، وتذهب هيبة عناصره كعلماء وقوة عسكرية، ولولا عوامل أخرى تهيأت لبقايا الاتحاد السوفيتي (روسيا) أهمها الانتعاش الاقتصادي؛ لانتهت هذه الدولة إلى لا رجعة.

فموسى عليه السلام أراد ضربة في القواعد، من خلال التأثير على الشريان المغذي لقوة فرعون، هذه السنة تسمى سنة الطمس، بمعنى تآكل الاقتصاد تدريجيًا بما يؤول في نهايته إلى الدمار أو الاضمحلال. وسنة الطمس هذه تعتبر من أخف العقوبات التي يمكن تصورها.

فهي تشير إلى سنة الانتقاص التي أرشدت إليها آيات أخرى، يقول الله سبحانه وتعالى: "أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ

يَشْعُرُونَ ٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ٤٧" [سورة النحل].

هذه الآيات تتحدث عن أشكال للعقوبة الربانية وسننها في حق الذين يمكرون السيئات، فهي إما الخسف أو العذاب المفاجئ من حيث لا يشعرون، أو أخذهم جميعًا فجأة وهم نيام بشكل من أشكال العقوبات الماحقة وما ذلك على الله بعزيز.

ثم أخف العقوبات أن يأخذهم على تخوف، ومعنى الأخذ على تخوف هو الإنقاص من قدراتهم من خلال ضربات كثيرة منقصة لهم من الناحية المالية، أو من ناحية التنغيص على حياتهم بحيث لا تستقيم، فالتخوف هو أن يعيشوا مخاوف كثيرة من أشياء يتعرضون لها وتنقص مما في أيديهم، هنا مع هذه العقوبة قال الله ﷻ: "فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ" بمعنى أن أخذهم بعقوبات جزئية متفرقة كتحذيرات متكررة لهم، هو من باب الرأفة ممن يملك إنهاءهم بلحظة، وهو من باب الرحمة بهم لعلهم يرجعون.

فسنة الانتقاص أو التخوف هي مقدمات سنة الطمس التي دعا بها موسى عليه السلام، أما لماذا هذه السنة؟ فهذا واضح أنها من باب الرحمة لأن عذاب الله الماحق لا يبقي ولا يذر ويكون مفاجئًا؛ لذا تكون الإنذارات المتكررة قبل العقوبة الماحقة.

كيف كانت سنة الانتقاص في قصة فرعون، والتي كانت استجابة لسنة الطمس التي دعا بها موسى عليه السلام!؟ الآيات توضح لنا الأمر، يقول الله ﷻ: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ" [الأعراف١٣٣].

هذا هو الأخذ على تخوف أو سنة الانتقاص، وبها تتحقق سنة الطمس تدريجيًا، فكل آية مما سبق كانت تنقص من قوة فرعون وقومه تدريجيًا، فالطوفان

كلفهم وكلف مزارعهم اقتصاديًا، والجراد جاء وأنهى على المزارع، ثم القمل جاء ليأكل المخزون إضافة لتنغيص الحياة، والدم والضفادع آيات للتنغيص ومكلفة اقتصاديًا.

فكل آية مما سبق هي مكلفة لأهلها اقتصاديًا، وتساعد في الانهيار التدريجي، فإذا أضفنا لها قوله ﷻ: "وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ" [الأعراف١٣٧]؛ فهذه نهاية سنة الطمس التي بدأت بسنة الانتقاص.

والناظر حاليًا للعالم يجد أنه يعيش مرحلة التخوف أو الانتقاص بشكل عجيب، بحيث كل آفة تصيبهم تنقص من إمكاناتهم تدريجيًا بما ينتهي فجأة بالطمس، الذي ستتجلى آثاره بتضخم كبير جدًا في النقود والسندات، بحيث تبدأ تلك النقود الورقية والسندات تفقد قيمتها الحقيقية، ورقة الألف تصبح قيمتها عشرة.. وهذا هو الطمس بعينه.

وأنا أكتب هذه الكلمات لفت انتباهي إلى كثرة الكوارث البيئية التي تصيب العالم الصناعي على مستوى الثروة السمكية، وعلى مستوى الحرائق الضخمة، أو على مستوى البرد الكبير والفيضانات، أو على مستوى السيول، ومن يتابع الأمر بتأمل وتأنٍ؛ يجد أن سنة التخوف قد بدأت على صعد متنوعة، وكلها مكلفة ومنغصة للحياة، ولا يستهين الإنسان بشيء وإلا فماذا سيفعل القمل بدولة عظيمة كدولة فرعون!؟ لكن القرآن الكريم قد أشار إليها، مما يرشد إلى تأثيرها القوي الذي قد لا ندرك آثاره بشكل مباشر.

ومن هذا الوجه أقول لسنا ببعيدين عن أزمة اقتصادية خانقة جدًا، فهي ستكون قمة هرم سنة الانتقاص المسلمة لسنة الطمس، والدخول في سنة الطمس معناه أننا لسنا ببعيدين عن أمر عظيم؛ إنها السنن والأيام ستتشهد لمصداقية ما أطرح.

الفهرس